الأوضاع الإقتصادية والسياسية والإجتماعية وتداعياتها على العالم

تأليف

عبد الحميد عبد السلام



الأوضاع الإقتصادية والسياسية والإجتماعية

وتداعياتها على العالم

تأليــــــف

المهندس / عبد الحميد عبد السلام أرحيم

مؤسسة حورس الدولية

أرحيم ، عبد الحميد عبد السلام.
الأوضاع الاقتصادية و السياسية و الأجتماعية و تداعياتها على العالم ، تأليف / عبد الحميد عبد السلام أرحيم – الأسكندرية : مؤسسة حورس الدولية ، ٢٠١٣ .
٤٧٩ ص ، ١٧ x ٢٤ سم .
تدمك ٤ - ٤٩١ - ٣٦٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١ – العالم – الأحوال الأقتصادية .
٢ – العالم – الأحوال السياسية .
٣ – العالم – الأحوال الاجتماعية .
أ – العنوان .

٣٣٠،٩٩٠

الإخراج الفنى وفصل الألـوان
وحدة التجهيزات الفنيـة بالمؤسسـة

إشراف عام: إدارة النشر بمؤسسة حورس الدوليـة

مديــر النشـــر مصطفـــى غنيـــم

طبعة	رقم الإيداع بدار الكتب	الترقيم الدولى I.S.B.N
٢٠١٣	١٩٦٦٦	٤ - ٤٩١ - ٣٦٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع
الإسكندرية ١٤٤ شارع طيبة – سبورتنج ت: ٥٩٨ ٣٠ ٥٩ – فاكس: ١٧١ ٢٢ ٥٩
Email: Horus.alex@hotmail.com Mob.: ٠١٢٢٣٢٩٣٦٣٠
Horus.alex٢٠٠٧@yahoo.com


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

ترحماً على روح والدى ووالدتى . . .

إلى جميع أفراد أسرتى الكريمه . . .

إلى كل من كان له فضل فى تعليمى وتزويدى بالمعلومات التى أفادتنى فى حياتى وجعلت منى كاتباً علمياً مازال فى بداية الطريق ومازال فى أمس الحاجه إلى مساعدتهم ومساندتهم لتكملة المشوار العلمى الطويل .

إلى جميع الدارسين والباحثين الذين يتطلعون للوصول لأقصى الغايات العلميه فى وطننا العربى الكبير .

أهدى لهم هذا العمل المتواضع . . .

مهندس / عبد الحميد عبد السلام ارحيم

محلة قباع – غريان – ليبيا

المقدمــــه :

يشهد العالم هذه الأيام تبايناً واضحاً فى الأوضاع الإقتصاديه والإجتماعيه والسياسيه مما جعل الكثير من سكان هذا العالم يشعرون بالحيره والقلق والخوف من المستقبل وكيفية مواجهته وما السبيل إلى الخروج من هذا النفق المظلم الذى دخلت فيه البشريه بسبب الأزمه الإقتصاديه الأخيره التى بدأت مع نهاية سنة ٢٠٠٨ ويتوقع لها أن تستمر حتى ما بعد سنة ٢٠١٤ م الأمر الذى جعل الكثير من البلدان تقوم بوضع إستراتيجيات لمواجهة هذه الأزمه القاتله فبعض الدول وصلت إلى مرحلة التأزم المالى بالنقص الشديد فى الميزان التجارى وشح فى الموارد الماليه أوصلها إلى شبه مرحلة الإفلاس مثل اليونان على سبيل المثال وقد سهدت معظم الدول الناميه تقلبات شديده فى الأوضاع الماليه وشهدت شوارعها العديد من الإحتجاجات الشعبيه وصلت إلى مرحلة التمرد والعصيان المدنى والفوضى العارمه ، وكان خير دليل على ذلك ما حدث أخيراً فى تونس بسبب الأزمه الإقتصاديه الحاده التى أوصلت الشارع التونسى لإعلان العصيان المدنى وإجبار الرئيس التونسى للتخلى عن السلطه ومغادرة البلاد ولقد شهدت العديد من العواصم والمدن تحركات غير مسبوقه في شوارعها وأدت إلى مواجهات عنيفه مع رجال الأمن والمواطنين مما جعل الكثير من الدماء تسيل بسبب هذه الأزمه وقد تسببت هذه الأزمه فى موت الكثير من البشر فى العديد من البلدان فى العالم والعالم العربى على وجه الخصوص مثل " ليبيا وسوريا خاصة " واليمن والبحرين وتونس ومصر بنسبة أقل وكذلك وغيرهم من البلدان الأخرى .. كما أن هناك العديد من البلدان شهد ميزانها التجارى العديد من الهزات العنيفه مما أجبرها إلى التفكير فى كيفية تغطية هذا العجز حتى لا تصل إلى ما وصلت إليه غيرها من البلدان فى فقدان السيطره على شوارعها وفقد

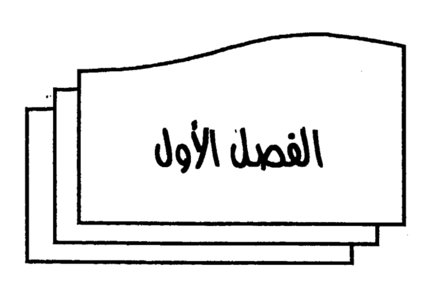
مصداقيتها لدى مواطنيها وحيث أن هذه التداعيات أجبرت البلدان المتقدمه والغنيه بالموارد الماليه لزيادة المزيد من الضخ المالى لبعض مؤسساتها وشركاتها حتى لا تشهر إفلاسها ويتعرض العاملين بها لفقدان وظائفهم وزيادة نسبة البطاله التى قد توصلهم إلى ما وصلت إليه بعض البلدان الناميه من تقلبات فى أوضاعها الماليه والإجتماعيه والوصول إلى مرحلة الفوضى العارمه فى شوارعها وفقدان الأمن والأمان بها ونظراً لتفاقم الأوضاع الماليه والسياسيه والإجتماعيه فى العالم والتى بدأت مع بداية هذا القرن فى إعلان التمرد والعصيان حتى فى الدول المتقدمه مثل أمريكا وبريطانيا والصين وروسيا وغيرها وأن ما حدث فى أحدى عشر سبتمبر ٢٠٠١ خير دليل على بداية العدد التنازلى فى دخول العالم إلى نفق مظلم يصعب الخروج منه بسهوله الأمر الذى فجر معه الكثير من الحروب وأراق معه الكثير من دماء الشعوب فى العديد من البلدان مثل أفغانستان والعراق والصومال والشيشيان وما كان يعرف بيوغزلافيا سابقاً وما شهدته من تطهير عرقى ومشاكل أنهت إلى تفتيتها إلى العديد من الدول وما تشهده السودان حالياً من مشاكل فى إنفصال الجنوب ودار فور وما تشهد بعض البلدان الأفريقيه من قلاقل جراء الإنتخابات الداميه التى تحاول الوصول من خلالها لفرض الديمقراطيه المزيفه التى بسببها يزداد الحال سوءاً وفقراً وجهلاً من أجل فرض أجنده خارجيه تفرضها العديد من البلدان الإستعماريه التى تنادى بهذه الديمقراطيه المزيفه والتى تخدم مصالحها كما أن العديد من البلدان الناميه عانت من ما يسمى بالفصل السابع الذى يفرضه مجلس الأمن على الشعوب الصغيره لزيادة إذلالها وفقرها وإرضاخها إلى مطالب الدول الإستعماريه التى تملك حق النقض المزيف والذى وجد أساساً لقهر الشعوب المغلوبه على أمرها ونظراً لذلك كله تم التفكير فى تجميع وإعداد هذا الكتاب من العديد من المراجع لمحاولة إطلاع القارئ العزيز على أسباب ودوافع هذه

التداعيات ومدى التأثير البالغ الذى تشهده بلدان وشعوب العالم بسببها وهذا الكتاب يحتوى على العديد من الفصول التى توضح وتبين هذه الأسباب والتداعيات ونحاول إظهارها بشئ من التفصيل لتجعل القارئ يكون فكره ولو بسيطه عنها وأخيراً لا يفوتنى إلا أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم التقدير للساده أصحاب مراجع هذا الكتاب على المعلومات القيمه التى أفادتنى فى تجميع وإعداد وإظهار هذا الكتاب إلى حيز الوجود والذى نأمل من الله تعالى أن يجعله مرجعاً جديداً يضاف لمكتباتنا العربيه يستفيد منه الباحثين والدارسين والمهتمين بهذا المجال ، كما لا يفوتنى أن ألتمس العذر من القارئ العزيز عن أية هفوات أو غلطات إملائيه أو مطبعيه داخل صفحات هذا الكتاب لم يتم تداركها ، وأخيراً وفق الله الجميع لما فيه خير البشريه جمعاء والله ولى التوفيق .

المؤلف ،،

مهندس / عبد الحميد عبد السلام ارحيم

محلة قباع – غريان – ليبيا



١- أهمية اللغة العربيّة في الماضي و الحاضر

٢- العلاقات الثقافية بين الهند و العالم العربي

٣- العلاقات الهندية العربية بعد الإسلام

٤- العلاقات الثقافية

٥- العرب هل يتجهون شرقاً

٦- إنتشار الإسلام

٧- تجارب آسيوية رائدة

اهمية اللغه العربيه فى الماضى والحاضر :

دأبت منظّمة الأمم المتّحدة للتّربية والعلوم والثّقافة (اليونسكو) على الاحتفال خلال العشريّة الأخيرة باليوم الدّولي للّغة الأمّ، وفي السّياق نفسه جعلت المنظّمة العربيّة للتّربية والثقافة والعلوم الأوّل من مارس كلّ سنة يوما للاحتفال باللّغة العربيّة .

وفي ذلك بيان لأهمّية الخصوصيّة اللغويّة للأمم وتقدير لقيمة التنوّع اللّغوي في المشهد الثقافي الكوني ، ففي عالم معوْلم دقّت فيه المسافة بين الجماعات البشريّة وتعدّدت فيه وسائل التلاقح الثقافي وأشكاله ، أصبح من المهمّ تفعيل دور اللّغة في أيّ مجتمع لتسهم في التعبير عن مشاغر الناس ، وفي تقديم منتجاتهم وإبداعاتهم للآخر، فاللّغة باعتبارها، نظاما لسانيّا يتكوّن من مجموعة من الوحدات اللغويّة الدّالة التي تؤمّن التواصل بين جمهور المتكلّمين ، هي أداة ضروريّة مهمّة في مجال التنافذ الثقافي ، فاللّغة حمّالة حضارة وعنوان ثقافة ودليل خصوصيّة على كيف ما، فبها تمتاز الأمم وتتبارى في التعبير عن كيانها الثقافي ومنجزها الحضاري .

ويلاحظ الدّارس تزايد الاهتمام باللّغة العربيّة في العشريّة الأخيرة ، فبعد أحداث ١١ سبتمبر الدّامية ، تزايدت الرّغبة في مساءلة العقل العربيّ وفي فهم الخلفيّة الثقافيّة للعرب ، وتعدّدت في هذا الإطار مراكز الدّراسات ومنابر الاستشراق ، وتمّ إبرام عديد الاتفاقات بين العرب والغرب للتّعاون في المجالين اللّغوي والثقافي ، وقد خصّصت الإدارة الأمريكيّة على عهد الرئيس جورج بوش مبلغ ١١٤ مليون دولار لدعم برامج اللّغات المهمّة في أمريكا بما في ذلك اللّغة العربيّة ، وقد تزايد عدد المقبلين على دراسة هذه الأخيرة في جامعة

هارفارد مثلا بنسبة ٩٣ في المائة بين عامي ٢٠٠٢ و ٢٠٠٥ ، كما لا تكاد تخلو جامعة أمريكيّة اليوم من قسم لتعليم اللّغة العربيّة . والأمر مشهود أيضا في عدد من الجامعات الأوربيّة ، وهو ما يخبر بتزايد الاهتمام بلغة الضاد في عصرنا الرّاهن .

والحقيقة أنّ نشوة الاحتفال باللّغة العربيّة يجب ألا تقف عند التعريف بهذه اللّغة وتحفيز النّاشئة على إستعمالها ، والتنبيه إلى طاقتها البيانيّة وقدرتها التعبيريّة الخلاّقة ، بل تتجاوز ذلك إلى النّظر في التحدّيات القادمة التي تواجه إنتشار العربيّة في عالم بدت فيه اللغة الإنجليزيّة اللّغة الغالبة بامتياز .

وعندي أنّ حوسبة اللغة العربيّة تُعدّ المطلب الأبرز والتحدّي الأكبر في مسيرة اللّسان العربيّ اليوم ، وفي عالم تميّز بوفرة المعلومة وسيولتها وسهولة تداولها بالاعتماد على التقنيات الإعلاميّة والتكنولوجيا الرقميّة ، أصبح إجتناء الأفكار، وتتبّع الجهد الابتكاري للإنسان أمرين ضروريين ويعتبران حاجة وجوديّة ملحّة يقتضيها مطلب التحديث وهاجس مواكبة العصر. ويلاحظ الدّارس ، إذ يبحر في مواقع الواب ، ضحالة المادّة المعرفيّة العربيّة المعروضة على الشبكة العنكبوتيّة للاتّصالات ، فحجم المحتوى العربيّ الرقمي على الإنترنت لا يتعدّى في أفضل الإحصائيّات نسبة ٣ في المائة من المحتوى المعرفي العالمي للشّبكة ، وهو ما يحوجُ إلى إعادة ترتيب البيت الإلكتروني العربي وتجديده ليواكب التدفق الهائل للمعلومات من ناحية ، ولينقل إلى المستخدم العربي وإلى كلّ مواطن إلكتروني منتجات العقل البشري المبدع ومنجزات البلدان العربيّة وفضائلها الثقافيّة والحضاريّة قديمًا وحديثًا من ناحية أخرى ، على نحو يسهم في تقديم صورة نيّرة تليق بالعربيّ اليوم، فمن المهمّ بمكان أن نخرج بالعربيّة من صفحات الكتب الصفراء والمجلّدات المذهّبة إلى

صفحات الواب والتواصل التفاعلي الإلكتروني ، فحوسبة اللغة العربيّة مطلب ملحّ يمكن ترسيخه ببعث فرق بحث تتكوّن من أهل إختصاص من لغويّين وإعلاميّين ومترجمين يسهرون على نقل المعارف ، وتوليد المصطلحات الجديدة ، وحوسبة المحتوى المعرفي باللّغة العربية .

ومن المهمّ في السّياق نفسه إصدار وسائط رقميّة متعدّدة لتعلّم اللّغة العربيّة وتعليمها من قبيل صناعة البرمجيّات التفاعليّة ، والمعاجم الإلكترونيّة ، وبنوك المصطلحات ، وبعث المكتبات الرقميّة على نحو يسهم في تيسير بلوغ المستخدم العربيّ خصوصا والمواطن الإلكتروني عموما للمعلومة ويمكّنه من متابعة الزاد اللغوي العربيّ العامّ والمختصّ ، فتتوافر له فرصة فهم العربيّة والإحاطة بمحمولها الثّقافي المتنوّع، فإنشاء قواعد بيانات وفهارس إلكترونيّة وقاعدة معطيات لذخيرة النّصوص العربيّة في المجالات الفكريّة واللّسانيّة والأدبيّة والعلميّة أمر ضروريّ اليوم ومطلب أكيد يضمن تحقيقهُ حياة العربيّة وبقاءها سيّارة في النّاس .

كما أنّ تحفيز الخرّيجين في المؤسّسات الجامعيّة على الاشتغال بالتعلّمية الرقميّة للّغة العربيّة مفيد جدا، إذ يساهم في نشأة جيل من الشباب الأكفّاء القادرين على عصرنة العربيّة، وتطويعها للصّناعة الحاسوبيّة، وقد تلاحظ في عدد من الجامعات التونسيّة اليوم مشاريع بحث ممتازة أنجزها عدد من الطّلبة، وتعلّقت بصياغة برمجيّات إلكترونيّة لتعليم العربيّة للمبتدئين من أطفال وأجانب، وأخرى تمثّلت في إحداث معاجم إلكترونيّة ثنائيّة اللّغة، فضلا عن محاولات لبعث مواقع واب تفاعليّة لتعلّم العربيّة وتعليمها، وهي لعمري جهود محمودة واعدة تستحقّ التقدير وتقتضي مزيد الدّعم والترشيد.

ومعلوم أيضًا أنّ العمل على تعريب أسماء مواقع الواب وإحداث محرّكات بحث عربيّة ومواقع واب للتّرجمة الآليّة من العربيّة وإليها وبعث قنوات تلفزيونيّة ورقميّة ثقافيّة مشاريع مهمّة تنتظر الإجراء والتّعديد والفاعليّة حتّى يُكتب للغة الضّاد أن تحتلّ المكانة التي تليق بها في عصر المعلومات.

والثّابت أنّ هذا التحدّي لا ينهض برفعه الأفراد ولا الحكومات وحدها، بل إن الأمر موكول أيضا إلى مجامع اللغة العربيّة ومجالسها والجمعيّات الثقافيّة وكلّ الغيورين على لغة الضّاد لأنّ حياة اللغة من حياة أهلها والعالم ينتمي إلى أولئك الذين يسمّونه بلغتهم .

العلاقات الثقافية بين الهند والعالم العربي :

تمتع الهند والعالم العربي بعلاقة وثيقة منذ القدم ظهرت عبر التبادل الثقافي بين هاتين الحضارتين القديمتين ، والشواهد التاريخية تثبت هذه العلاقات وكونها غارقة في القدم كما نجد في الأسطورة الدينية أن أول شخص سيدنا آدم عليه السلام هبط في سيلان (سري لنكا) وسافر عن طريق الهند إلى شبه الجزيرة العربية حيث قابل حواء عليها السلام في عرفات بعد ما هبطت في الجدة . والعهود القديمة تحمل الشواهد الكافية لإثبات العلاقات التجارية بين الهند والعالم العربي خلال فترة سليمان عليه السلام .

والهند بصفتها مهداً لكثير من الديانات والثقافات ، كان هناك تبادل مستمر للأفراد والعلماء بينها وبين العالم العربي من الزمن القديم ، وكثير من العلماء يرون أن تاريخ وصول العرب إلى الهند ليس قبل ألف سنة فقط بل يرجع إلى زمن آدم عليه السلام حيث هبط في دجنا (معناها في اللغة الهندية، الجنوب)،

والعالم الكبير الهندي السيد سليمان الندوي نقلاً عن الحديث يقول إن آدم عليه السلام هبط من جنة السماء في سيلان (سري لنكا) التي كانت جزءا من الهند آنذاك، ويضيف قائلا إن كثيرا من الأشياء مثل المسك والتوابل كانت تصدر من جنوب الهند إلى الدول العربية ، وقد أفرد الشيخ غلام علي آزاد البلغرامي (١٧٠٤- ١٧٨٥م) فصلاً خاصاً لهذه الروايات في كتابه « سبحة المرجان في آثار هندوستان .

ومن الزمن القديم ، كانت هاتان الحضارتان في روابط مستمرة مع تبادل الأشياء والأراء والأشخاص والثقافة. ومع مرورالزمن، بلغت العلاقات بين الهند والعالم العربي مسارًا مميزًا مع حركة الناس من الهند إلى العالم العربي وبالعكس في شكل الزيارات وهجرة الأيدي العاملة. وهذه المقالة تسعى لبحث التبادل الثقافي مع الإشارة إلى التبادل الأدبي .

عرف العرب الهند في جاهليتهم قديما بسبب رحلاتهم التجارية ، فقد كانوا يسافرون إلى المناطق الساحلية للهند والسند وعرفوا الأشياء التي تباع في أسواقها والناس الذين سكنوها ، وقد سافر العرب بالطريق البري والبحري ، فقد عرفوا المدن الساحلية الواقعة على الساحل الطويل لبحر العرب ، وكانت رحلات مجموعات العرب التجارية تمتد إلى خليج البنغال وبلاد الملايو وجزر إندونيسيا حتى كونوا لهم المستوطنات على الساحل الجنوبي الغربي . « كان التجار العرب يصدرون خيرات الهند إلى اليمن ، ومنها إلى بلاد الشام وكانت هذه الأموال تباع في أسواق مصر وأوربا " .

ومن ناحية أخرى ، كان الهنود يرحلون إلى العالم العربي ويشاركون حياة العرب اليومية ، فاختلطوا معهم حتى تأثروا بحياتهم وأثروا فيها بجميع نواحيها

الفكرية والاجتماعية واللغوية ، وهذه الزيارات ساهمت في التقارب الديني نظراً للمشتركات بين العقيدة الهندوسية والعقائد الموجودة في غرب آسيا آنذاك .

وحضارة وادي السند كانت إحدى الحضارات المعروفة الأولى في العالم مع درجة عالية من التحضر . وإزدهرت هذه الحضارة في سهول نهر السند والمناطق المجاورة التي هي الآن في باكستان وغرب الهند. وأصبحت المدن الأولى أقرب إلى ثقافة حضرية واسعة النطاق قبل ٤٦٠٠ عام وإستمرت هيمنتها على المنطقة ما لا يقل عن ٧٠٠ سنة من عام ٢٦٠٠ إلى١٩٠٠ ق.م. وفي عام ١٩٢٠ إكتشف علماء الآثار هذه المدن والقرى المدفونة في وادى نهر السند كبقايا حضارة غير مكشوفة ، ويرجع تأريخ المدن الأولى في جنوب آسيا إلى ٢٦٠٠ قبل الميلاد ، وينتمي الناس الذين بنوا وحكموا هذه المدن إلى ثقافة الهاربان أو حضارة وادي السند كما يشير علماء الآثار. وهذه الحضارة تطورت في نفس الوقت تقريباً كما تطورت المدن الأولى لمصر وبلاد ما بين النهرين .

وإنتشرت هذه الحضارة في منطقة واسعة من الجبال المرتفعة من بلوشستان وأفغانستان إلى المناطق الساحلية للمكران والسند وغوجارات ، وهناك أدلة مادية على وجود الاتصال التجاري بين الثقافات المحيطة بها في منطقة الخليج العربي وغرب ووسط آسيا وشبه جزيرة الهند خلال ذروة هذه الحضارة .

أعتقد المؤرخون العرب في الفترات المختلفة أن السند والهند هما بلدان مختلفان، والسند كان محاطا بالحدود من الهند وكرمان وسجستان، أما المناطق الأخرى على الحدود مع الصين فكانت تعتبر الهند . والهند كانت معروفة لدى العرب باسم هندوستان. وتسمى هاتان المنطقتان الآن الهند وباكستان على التوالي. وكانت كل من المكران والسند تعتبران جزءا من الهند من الزمن القديم.

والأدب العربي كثيرا ما يخلط بين السند والهند على الرغم من وجود الهند والسند في مراجع الأدب العربي ككيانين منفصلين جغرافيًا وسياسيًا .

وقد أثرت التفاعلات التجارية المتواصلة بين العرب والهنود خلال هذه الفترة في لغة كل منهما وثقافته. ووصلت بعض السلع الهندية إلى العالم العربي ، وسماها العرب بالهندي والمهند. وكان السيف الهندي مشهورا جدا في العالم العربي وأطلق عليه الهندي والهندواني والمهند. وأكتسبت هذه السيوف سمعة جيدا كونها مرنة جدا وحادة. والشعر العربي الجاهلي يشير إليها وإلى العديد من السلع الأخرى. وكانت تحظى بشعبية كبيرة بين البدو. كما قال الشاعر الكبير طرفة بن العبد (٥٣٨-٥٦٤) في السيف الهندي :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

ويذكر إمرؤ القيس (نحو ٤٩٧-٥٤٥م) المسك والقرنفل في معلقته :

إذا قامتا تضوع المسك منهما   نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وكثير من الكلمات الهندية مثل الصندل والتنبول والقرنفل والنارجيل وغيرها كانت تحظى بشعبية كبيرة وتستخدم على نطاق واسع بين العرب ، على الرغم من أن العلماء يختلفون على الكلمات غير العربية المستخدمة في القرآن الكريم، ولكن العالم الكبير السيد سليمان الندوي يقول: نحن نفتخر أن بعض الكلمات الهندية مثل المسك والكافور وزنجبيل موجودة في القرآن الكريم. وكان العرب يستوردون من الهند كثيرا من المنتجات مثل الأحجار الكريمة والتوابل والأخشاب والألوان والأصباغ والفواكه والحيوانات والطيور. ومن ناحية أخرى، كانت الهند تستورد بعض السلع العربية مثل النخيل والخيول من

البصرة. وكان العرب يصدرون إلى الهند كثيرا من المنتجات المحلية والبضائع المجلوبة من مصر والشام وأفريقيا، ومنها الخيل والعطور والأقمشة والمرجان والفضة والزعفران والتمور وغيرها .

والقاضي أطهر مباركفوري نقلا عن الحديث يقول إن السلع الهندية مثل المسك والكافور والزنجبيل والقرنفل والفلفل والعود والسيوف والملابس كانت تستعمل بين العرب على نطاق واسع، ويمكن لأي شخص أن يجد عديدا من المراجع لشعبية البضائع الهندية في الحديث .

ولم تقتصر الاتصالات الثقافية على التفاعلات اللغوية فحسب بل تعدت إلى مجموعة واسعة من الأنشطة التي تتراوح بين القائمة وتسمية الاشخاص والقبائل، وكثير من الأسر المتميزة في العالم العربي تحمل إسم الهندي. والهند لاتزال تستخدم كاسم شعبي على نطاق واسع من قبل النساء العربيات. وقد ساهم العرب في تسمية هذه المنطقة " هندوستان " .

وعزز إنتشار الإسلام هذا الربط بشكل هائل، وصل الإسلام إلى الهند بشكل رئيسي من التجار العرب الذين كانوا ناشطين في التجارة البحرية في مدن الهند الساحلية في القرنين السابع والثامن قبل الميلاد، ومع ظهور الإسلام والنمو المتزايد في حجم التجارة العربية، ساهم التجار العرب المسلمون حيويا في تجارة الهند الساحلية وبدأوا التحدي لهيمنة التجار الآسيويين الجنوبيين.

أما الهنود الذين زاروا العالم العربي خلال هذه الفترة فكانوا من العلماء والمثقفين والأطباء وتجمعوا في بغداد التي كانت مركزا كبيرا للنشاط الفكري والثقافي آنذاك. والتاريخ الشفوي حول رحلة بيرومل جيرمن Perumal Cheraman الملك الأخير من سلالة Chera إلى مكة المكرمة

للقاء مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يحظى بشعبية كبيرة في جنوب الهند. وتختلف الآراء حول لقائه مع النبي صلى الله عليه وسلم ولكن بيرومل جيرمن توفي في عمان في طريق عودته من مكة المكرمة، ودفن في صلالة.

العلاقات الهندية العربية بعد الإسلام :

يرجع تاريخ وصول المسلمين إلى الهند عموما إلى الفتح العربي للسند ولكن قبل فترة طويلة من ذلك كانت مستوطنات العرب موجودة على الساحل الجنوبي الغربي من الهند، ومع ذلك ، تختلف الآراء حول ظهور الإسلام في الهند، وهناك رأي بارز يقول إنه كان هناك وجود العرب في منطقة السند قبل الغزو العربي لها. وعلى الرغم من أنهم كانوا عددا قليلا لكن وجودهم كان ملحوظاً.

والجيش العربي بقيادة محمد بن القاسم غزا السند في عام ٧١٠م بناء على أمر الحجاج وهزم مكران وقبض على بلوشستان، وأخيرا فتح السند عام ٧١١. وهذا الفتح أدى إلى احتلال دائم للسند والبنجاب الجنوبية، ولكن بقيت المناطق الأخرى من الهند إلى نهاية القرن العاشرعندما بدأ غزو جديد تحت قيادة محمود الغزنوي .

ورحب سكان المدن المحتلة بمحمد بن القاسم بصفته محررا وساعدوه ضد الطغاة . وكانت سياسة الحجاج ومحمد بن القاسم الليبرالية وراء توقعات أهالي السند ، وكان الهندوس يتمتعون بتلك الدرجة من الحرية الدينية التي كان يتمتع بها المسيحيون من الحرية الدينية واليهود في الدولة الإسلامية بدفع الجزية.

وأدى حكم المسلمين في شمال الهند الى آثار بعيدة المدى في مجال الثقافة والتعليم. وقد تم إرسال بعض العلماء المسلمين من السند إلى مكة المكرمة لتعلم الفقه الإسلامي. وفي الجانب الآخر زار علماء العرب الهند لغرض تعلم الرياضيات والعلوم والفلك والفلسفة. وقام العرب بتوفير بعض الابتكارات التكنولوجية وأقاموا بعض المصانع الجديدة في السند. وقد تم تطبيق بعض أساليب جديدة في مجال الزراعة من قبل العرب.

العلاقات الثقافية :

أما العلاقات الثقافية بين العرب وجنوب الهند فيرجع تاريخها إلى قبل دخول الإسلام الهند. وقد ساهمت التجارة ذات المسافات الطويلة في تعزيز العلاقات الثقافية بين الهند والدول العربية. وعلى مدى القرون، كانت الهند ملتقى لعديد من الثقافات .وكانت هناك رحلات كثيرة من الروم والصين والعرب إلى سواحل الهند الجنوبية والغربية بحثا عن التوابل. وأمتصت الهند أفضل هذه التأثيرات وبقيت كمستودع مثالي لجميع الثقافات المختلفة على مدى قرون طويلة.

وتاريخ علاقات الهند مع العالم العربي يعود إلى ٥٠٠٠ سنة. وأثبتت الحفريات الأثرية في جميع أنحاء المنطقة روابط العرب التجارية مع الحضارة الهندية في موهن جودارو وهربا .(Mohenjodaro and Harappa) وهناك أدلة على العلاقة بين حضارة الهاربان ومجتمع دلمون. والتجار العرب قبل الإسلام قاموا بدور الوسطاء في التجارة بين بهاروش (Bharuch) في ولاية غوجارات وبودنتشيري (Puduchery) والبحر الأبيض المتوسط عن طريق الإسكندرية .

وكانت العلاقات بين الهند والعرب في جنوب الهند على مسار مختلف فقد جاء العرب إلى الشمال كفاتحين ومارسوا قوتهم السياسية، أما في الجنوب فلهم تاريخ مختلف لوصولهم، فقد جاءوا كمسافرين وتجار وأحيانا مبشرين. ولم تكن العلاقات تستند إلى الخصومة السياسية بل إلى الصداقة والمحبة. ووفرت هذه العلاقة فرصة ملائمة لانتشار الإسلام والتبادل الثقافي والتواصل الفكري بكل سهولة. كما أدت إلى الزيارات العادية للعلماء وتبادل الثقافات من كل جانب. وبعض العلماء يرجعون الدراسات حول الحديث من قبل الهنود إلى الأيام الأولى من وصول الإسلام إلى الهند، في الجنوب في القرن السابع وفي الشمال في القرن الثامن .

وقد قام العلماء المسلمون من مطلع القرن الثامن الميلادي إلى أبي ريحان محمد بن أحمد البيروني (٩٧٣-١٠٤٨م) في كتاباتهم بتوثيق الروابط الثقافية بين الهند والعرب بما فيها المساهمات الهندية في الفكر والثقافة العربية. ولم تكن الزيارات بين الهند والعالم العربي مخصصة للتبادل العلمي فقط بل للتفاعل الثقافي أيضا على المستوى الشعبي .

أما العلاقات الثقافية المباشرة بين العرب والهنود فيبدأ تاريخها بعد ظهور الإسلام وتحديدا مع تأسيس الخلافة العباسية في منتصف القرن الثامن الميلادي . وكانت هذه الفترة بداية لتاريخ طويل من التواصل الثقافي الذي أستمر عدة قرون. وكانت عملية التبادل الثقافي نشطة، وتم تعميم ونشر أكبر قدر ممكن من المعرفة في مجال العلوم والفنون والدين والفلسفة والقيم الاجتماعية والأفكار والقيم الثقافية. وقد ترجمت الكتب الهندية الى اللغة العربية في مواضيع مختلفة تتراوح بين الطب والرياضيات وعلم الفلك تحت رعاية الخلفاء العباسيين وخاصة تحت رعاية الخليفة هارون الرشيد .

وكانت عملية الترجمة من اللغتين اليونانية والسريانية في مختلف مجالات العلوم إلى اللغة العربية قد بدأت بعد ظهور الإسلام. ولكن الدولة الأموية شددت على العلوم الشرعية وكتب التفسير والحديث والفقه والتاريخ فقط. ولكن خالد بن يزيد بن معاوية توجه إلى الطب والكيمياء خلال هذه الفترة .

ومع تأسيس الخلافة العباسية في بغداد، بدأت اللغتان الهندية والفارسية تحصدان أهمية كبيرة. وكان للخليفة العباسي المنصور (٧٥٤-٧٧٥م) شغف بالعلم. وتلقى وفدا من علماء الرياضيات من السند بقيادة مثقف هندي. ووصل الوفد إلى بغداد مع كتاب سوريا سدهانتا (Surya Siddhanta) في اللغة السنسكريتية، وقد رعى الخليفة نفسه ترجمة هذا الكتاب إلى العربية بمساعدة عالم الرياضيات في المحكمة إبراهيم الفزري .

وأستقبل الخليفة المنصور وفدا من العلماء الهنود من السند مع نظريات مختلفة في الرياضيات وعلم الفلك. وقد ترجمت هذه النظريات إلى اللغة العربية بأمر الخليفة مع تعاون العلماء الهنود. وهكذا بدأ التعاون العلمي بين الهند والعرب حوالى منتصف القرن الثامن .

وقد عرف العرب الأدب الهندي العلمي لأول مرة بعد تقديم الأعمال السنسكريتية في بغداد من قبل هذا الوفد. ويشير إلى ذلك السيد سليمان الندوي نقلا عن الكاتب العربي الشهير الجاحظ أن يحيى بن خالد البرمكي دعا عددا من العلماء والأطباء الممارسين مثل منكا وبلها وبازغر وفبربل وسندباد إلى بغداد .

وأنشأ العباسيون «بيت الحكمة» في بغداد حيث جلس العلماء المسلمون وغير المسلمين معا وقاموا بترجمة الأعمال العلمية من جميع أنحاء العالم إلى

اللغة العربية. وخلال هذه الفترة كان العالم الإسلامي بوتقة للثقافات التي جمعت المعرفة من كل الثقافات المتقدمة. وتنفيذا لسياسته أنشأ الخليفة مأمون هارون الرشيد بيت الحكمة عام ٨٣٠م في بغداد التي كانت مكتبة وأكاديمية ووكالة للترجمة. وقد أصبح بيت الحكمة أهم مؤسسة تعليمية منذ تأسيس متحف الإسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث .

وكانت مكة المكرمة مركزا للتجارة في شبه الجزيرة العربية. وأصبحت زيارتها للحج مناسبة لتبادل الأفكار والسلع. وبدأ العرب السيطرة على التجارة في بحر العرب ووصلوا إلى الشبكات التجارية الساحلية في الجنوب وجنوب شرق آسيا. ونمت الحضارة العربية الإسلامية وتوسع نطاقها لعالم غير معروف بحريا آنذاك.

التبادل العلمي :

وكان علم الفلك أحد العلوم التي عرفها العالم العربي لأول مرة من خلال ترجمة كتاب Surya Sidhhanta السنسكريتي في نهاية القرن الثامن ، وقد ترجم إبراهيم الفزري هذا الكتاب بناء على أمر الخليفة المنصور وأصبح العلماء العرب على إطلاع على التطورات التي حدثت في مجال علم الفلك في الهند. وبعد هذا، درس العرب علم الفلك الهندي بكل الجد والاهتمام. ومن الأعمال الفلكية السنسكريتية التي إطلع عليها العرب في ذلك الوقت : آريه بتيه (Aryabhatiya)لآريه بت (٤٧٦) من كوسوم بوره وخند خدياكا (Khandkhadyaka) لبرهمه غبتا (٥٩٨). والكاتب الشهير أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني أشار إلى بعض المراجع ذات الشهرة الهائلة التي إكتسبها علم الفلك بين الهنود .

وقد حصل علم الفلك على شعبية كبيرة في العالم العربي حينما تولى الخليفة منصور العرش. وكان مولعا بعلم الفلك، وذلك عندما قرر بناء مدينة بغداد، أمر ببنائها وفقا للقواعد الفلكية. وقد شغل عدد من علماء الفلك العرب أنفسهم بدراسة الأعمال الهندية وترجمتها مع أكبر كمية من الارتجال على أساس ملاحظاتهم. وقد كتب إبراهيم الفزري كتاب الزج في الفلك إستناداً إلى كتاب Surya Siddhanta. ومجموعة طويلة من علماء الفلك مثل محمد بن موسى الخوارزمي وحبش بن عبدالله بن المروازي ، إستفادت من أعمال العلماء الهنود. ومساهمة علم الفلك الهندي في نمو وترقية علم الفلك العربي كانت على حد سواء مفهوما ولغة. وقد تم تعريب عدد من المصطلحات الفلكية السنسكريتية من قبل علماء الفلك العرب واستخدموها في معاهداتهم مثل (كردجا Karamajaya السنسكريتية والجب Jiva السنسكريتية) وبعده إستبدلوا بالوتر المستوي .

ومثل علم الفلك الهندي ترجم العرب الرياضيات في أواخر القرن الثامن وقد قام إبراهيم الفزري بترجمة المعاهدات الرياضية من اللغة السنسكريتية إلى اللغة العربية. ومن خلال ترجمة هذه الأعمال أصبح النظام العددي الهند ومفهوم الصفر معروفا لدى العرب. وقد علم العرب الرياضيات من الهنود وسموها الرياضيات الهندية أو الأرقام الهندية. وإستفاد الأوربيون من الابتكارات الرياضية في الهند عن طريق العرب وأطلقوا عليها الأرقام العربية. ومن الصعب التوصل إلى نتيجة متى عرف العرب الرياضيات ولكن يقال إنهم عرفوها بترجمة Surya Siddhanta التي تتضمن الرياضيات والعدد في الفصول من الثالث عشر والرابع والعشرين .

وقد عرف العرب نظام الطب الهندي على الأرجح في وقت مبكر جدا، لأن قبيلة قريش من مكة المكرمة كانت تتاجر بالتوابل، وبالتالي كانت على اتصال دائم مع الهند وبلاد فارس .

وقد وصل علم الطب الهندي (الأيورفيدا) إلى العالم العربي بشكل صحيح بعد ترجمة عديد من الأعمال الهندية الكلاسيكية حول هذا الموضوع إلى اللغة العربية تحت رعاية الخلفاء العباسيين .

وكان إنتشار الطب الهندي في العالم العربي مرتبطا بمرض الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م). وكان الأطباء العرب غير قادرين على علاج الخليفة عندما كان يعاني من مرض خطير. ولذا دعا الخليفة طبيباً هندياً إسمه "منكا " بناءً على إقتراح واحد من رجال الحاشية. وعالج " منكا " الخليفة وشفي الخليفة من مرضه . وقد منحه الخليفة العطايا وبعد ذلك عمل بمستشفى البرامكة. وقد ترجم منكا عددا من الأعمال السنسكريتية إلى اللغة العربية . ومن الأطباء الهنود الذين حصلوا على شهرة واسعة في العالم العربي كان إبن دهن وبلهه وصالح إبن أو سليل . ومن الأعمال الهندية المشهورة التي ترجمت إلى اللغة العربية Charaka Samhita و Susrud و Hridya Astanka و Sindhsan Siddhyoga وNidan وكتاب السم .

وبين الكتب الهندية المترجمة إلى اللغة العربية ، كتاب " Susurd " يطلق عليه العرب سسرو ، وكتاب Chakara Smitha للطبيب الهندي الشهير Chakara. وكتاب Susurd الذي يحتوي على عشرة فصول مع تفاصيل علامات الأمراض وعلاجها.

وترجم كتاب Chakara Smitha لأول مرة إلى اللغة الفارسية ثم إلى العربية من قبل عبدالله بن علي. ومن الكتب الهندية المترجمة إلى اللغة العربية كتاب Nidan الذي يشرح ٤٠٤ من علامات ومظاهر الأمراض فقط وليس العلاج. علاوة على ذلك، تمت ترجمة الأعمال الأخرى حول أنواع مختلفة من الثعابين وسمومها والعلاج للنساء الحوامل، والمسكرات والأمراض والأدوية وآثار الهوس والهستيريا إلى اللغة العربية . ومن المهم أن نظريات طبيبة هندية اسمها روضا قد ترجمت إلى اللغة العربية وكانت تلك النظريات تحتوي على الأمراض النسائية.

التبادل الأدبي :

وقد تمت كثير من التفاعلات في مجال الموسيقى. والكاتب العربي الشهير الجاحظ أشاد بالموسيقى الهندية في كتاباته. ويقال إنه لم يترجم أي كتاب في الموسيقى الهندية في بغداد ولكن المؤرخ الإسباني القاضي سعيد الأندلسي (١٠٧٠م) كتب عن كتاب إسمه «نفر» ومعناها « ثمار الحكمة » في الموسيقى الهندية توصل إليه العرب. ووفقا له فإن هذا الكتاب يحتوي على الألحان والأنغام. ومن الممكن أن يكون الكتاب قد وصل إلى العرب من خلال الترجمة من الفارسية. وكان يحمل عنوان « نوبر» بالفارسية وتعني « الثمر الجديد » .

ونقلاً عن صديقه الهندوسي ، يقول السيد سليمان الندوي إنه يمكن أن يكون الند معناه الصوت في اللغة السنسكريتية . وكان المطربون من السند مشهورين جدا بين العرب، وكان الشعراء والمثقفون العرب يستمتعون بطربهم. وكان هناك مغن شهير من السند لدى ابي جميل، الشاعر الشهير في عهد المهدي (٧٧٥-٧٨٥م) وكان اسمه مطرز سندي مدني .وقد اشترى عبدالله بن

ربيع مغنية هندية مشهورة خمار قندهارية بدرهمين وجلبها إلى الجزيرة العربية .

وبالمقارنة مع الكتابات العلمية الهندية، كانت الأعمال الأدبية باللغة السنسكريتية معروفة أقل لدى العرب، لم يكن هناك أي ترجمة عربية للأعمال الكلاسيكية .وقد ترجم بعض ما هو معروف وأصبح من الأدب الشعبي في العصور الوسطى .

وبقيت الملاحم الهندية الكبيرة والأعمال الفلسفية مثل Upnishads وراماياتا غير المترجمة في العصر العباسي على الأرجح بسبب محتواها الديني. ومن الأعمال الهندية الأدبية التي إكتسبت شهرة واسعة كانت كليلة ودمنة، وهي مجموعة من القصص التي تحتوي على أقوال حكيمة. وقد ألف العالم الهندوسي الكبير " بندت وشنو شرما " هذا الكتاب الشهير. وقد ضاع هذا الكتاب بعد ترجمته إلى اللغة البهلوية في القرن السادس الميلادي . وترجمه عبدالله بن المقفع إلى اللغة العربية باسم كليلة ودمنة في القرن الثامن الميلادي .

وفي العصر العباسي ، أصبحت القصص والحكايات الهندية مشهورة بين العرب بعد ترجمتها. ومن الكتب المشهورة كانت كليلة ودمنة وسندباد كبير وسندباد صغير وكتاب البد وكتاب بوناسيف وبلوهر وكتاب آداب الهند والصين وقصة هبوط آدم وكتاب الطرق وكتاب الدبق الهندي (حول الرجل والمرأة) وكتاب السويرم وكتاب الشنق في التدبير وكتاب بيدبا (حول الحكمة والمعرفة) وكتاب عطر المشروبات.

ومن العلماء والأدباء الهنود الذين خدموا اللغة العربية وحصلوا على شهرة عظيمة في الدول العربية :

١. **أبو العطاء السندي (المتوفى ٧٩٦م)** : كان أحد فحول الشعراء شهد إحتضار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، كان أبو سنديا وقد مدح بني هاشم وحاول التقرب إلى العباسيين فمدح أبا العباس السفاح ولكنه لم ينل ما كان ينتظره من عطاء فهجاه أيضا، ومما يدل على علو كعبه في صناعة الشعر أن أبا تمام ذكر مقاطع له في الحماسة .

٢. **أبو الهندي (المتوفى ٧٩٦م)** : هو غالب - وقيل عبدالمؤمن – بن عبدالقدوس ، قد أدرك الدولتين : الأموية والعباسية، كان جزل الألفاظ وكان طريفا ماجنا ومغرما بالخمر، وقيل إنه أول من وصف الخمر في الإسلام، وقد تأثر أبونواس بشعره تأثرا شديدا .

٣. **أبوالصلع السندي** : كان شاعراً وطنياً ، وهو أول من تغنى بأمجاد الهند في المجتمع العربي. ولم يصل إلينا من شعره إلا القليل ولكنه كان بمقدار لا بأس به .

وكان البيروني ، أول عالم لترجمة الأعمال العربية العلمية إلى اللغة السنسكريتية . ونقلاً عن Sachu ، مقبول أحمد يقول إن عمله كمترجم كان مزدوجا. وكان يترجم من اللغة السنسكريتية إلى اللغة العربية ومن العربية إلى السنسكريتية. إنه كان يريد أن يعطي المسلمين فرصة لدراسة علوم الهند وفي الجانب الآخر كان يسعى لنشر تعليم اللغة العربية بين الهندوس. وقد قام بترجمة Samkhya لكابيلا وكتاب Patanjali ، لبراهماغوبتا و Brihatsamhita

و Laghujatakam لواراها ميهيرا إلى اللغة العربية . وترجم أيضا عناصر إقليدس والمجسطي لبطليموس ونظرياته على بناء الإسطرلاب .

وبإقامة الممالك الإسلامية في شمال الهند وجنوبها وإدخال نظام التعليم العربي والشريعة جاء عدد كبير من علماء الدين ورجال القانون والتعليم إلى الهند خلال القرون الوسطى، كما زار بعض علماء المسلمين الهنود العالم العربي وحصلوا على وظائف مرموقة في مجال تخصصهم. فقد شهد التاريخ تبادل العلماء بين المنطقتين على نطاق واسع. ووفقا لتقاليد السيخ الدينية يقال إن جورو ناناك (١٤٦٩-١٥٣٩م) زار السعودية والعراق والتقى هناك العديد من علماء الدين وألقى المحاضرات في الأماكن العديدة .

وبعض الرحالة العرب ، مثل إبن بطوطة المغربي ، وجدوا أنفسهم في بعض الأحيان يتولون مناصب السلطة من جانب مضيفيهم ، وكان إبن بطوطة قاضي دلهي لفترة ، حتى أنه كان غير مألوف مع مدرسة الفقه الإسلامي المستخدمة في الهند . وقد وثق العلماء الهنود أيضا جمع عدد كبير من الأعمال الهندية في الدراسات القرآنية على مدى الخمسمائة سنة الماضية ، كما في الفقه الإسلامي على مدى فترة أطول .

وبعد العصر العباسي إنخفض التفاعل الأدبي بين الهند والدول العربية . ولكن النهضة الثقافية في مصر في أواخر القرن التاسع عشر قادت إلى تشجيع تجديد الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الهندية وبالعكس. وترجمت أعمال بعض الشخصيات مثل طاغور والعلامة محمد إقبال إلى اللغة العربية من قبل علماء من مصر ودول عربية أخرى .

وترجم وديع الحقي في لبنان كتاب طاغور (Geetanjali) الحائز على جائزة نوبل للآداب . وقد تم ترجمة كتاب السيد سليمان الندوي الشهير حول العلاقات بين الهند والعرب وكتاب العلامة شبلي النعماني « الفاروق » الذي قام بترجمته د. جلال سعيد الحفناوي . كما تم ترجمة Gaodan للكاتب الأردي الشهير بريم جند إلى اللغة العربية . وقد نشرت مكتبة رضا في رامبور حاليا كتابا حول « الهند في الشعر العربي » الذي يقدم صورة الهند كما تتجلى في الشعر العربي. كما أعد المفكر والباحث المصري ثروت عكاشة موسوعة الفنون الهندية باللغة العربية في الآونة الأخيرة .

وهناك قائمة طويلة من العلماء الهنود الذين ساهموا مساهمة كبيرة في الحفاظ على العلوم الإسلامية بما فيها علوم القرآن والحديث والفقه الإسلامي واللغة العربية وآدابها في القرن العشرين . ومن غير الممكن أن نذكر كل الأسماء ولكن الذين قاموا بأعمال جليلة في هذا المجال هم العلامة أشرف علي التهانوي ومحمد أنور شاه الكشميري والشاه ولي الله الدهلوي والعلامة عبدالحي الحسني والقاضي أطهر المباركفوري والسيد سليمان الندوي وغلام علي آزاد البلغرامي والنواب صديق حسن خان والسيد أبوالحسن علي الحسني وآخرون .

وفي الآونة الأخيرة ، يتم عقد اللقاءات الثقافية والأدبية بين الهند والعالم العربي على نطاق واسع ولاسيما بعد إنشاء المركز الثقافي العربي الهندي بالجامعة الملية الإسلامية في نيودلهي . وهذا المركز يبذل كل الجهد لتعزيز العلاقات الثقافية القديمة من خلال إنعقاد البرامج الثقافية العربية في الهند وتطوير الثقافة الهندية في العالم العربي . ويقوم المركز بنشر الدراسات والبحوث بالجوانب الثقافية ويبذل قصارى جهده في تعزيز الدبلوماسية الثقافية. وينظم المركز اللقاءات الأدبية بين الكتاب الهنود والعرب بشكل متواصل.

وخلال العامين الماضيين قام المركز بترجمة أكثر من ٢٠ كتابا للكتاب الهنود مثل السيد اي بي جي عبدالكلام (الرئيس الهندي السابق) والسيد امرتيا سين والسيد اميتاب غوش والبروفيسور مشير الحسن والسيد مبشر جاويد أكبر والسيد بافان ورما والسيد تلميذ أحمد إلى اللغة العربية. كما تمت ترجمة الأعمال الأدبية العربية مثل باص القيامة لروضة البلوشي ووجه أرملة فاتنة لفاطمة المزروعي ومريم والحظ السعيد لمريم السعيدي وغرفة القياس لعائشة الكعبي إلى اللغات الهندية المختلفة .

وحاليا ، يعمل الفنان الهندي الشهير مقبول فدا حسين على مشروعين كبيرين وهما تاريخ الحضارة الهندية وتاريخ الحضارة العربية . وكلف المشروع « تاريخ الحضارة العربية » من قبل الشيخة موزة بنت ناصر المسند زوجة أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني . وسيحفظ المشروع (اللوحة) في متحف مستقل في الدوحة .

العرب .. هل يتجهون شرقًا ؟

من الأمور التي تلفت الإنتباه اليوم ما نشعر به ونلمسه من ظواهر تعكس عدم فهم الغرب بشكل دقيق لواقع حياتنا كعرب وكمسلمين ، عبر شواهد عديدة تناولتها الأدبيات التي أشاعت مصطلحات من قبَل « صراع الحضارات » و«صِدام الحضارات « على مدى عدة عقود ، وهو ما نراه ، جليًا كذلك ، في علاقة الغرب بآسيا ، مجسَّدًا في الوقائع الحربية والصراع الممتد في أفغانستان مثلاً، أو في توتر علاقاتها بباكستان ، أو غيرها من دول آسيا.

- لعب إنتشار الدين الإسلامي في آسيا دورًا كبيرًا في زيادة التأثير المتبادل بين المنطقتين أدى إلى انتشار الثقافة العربية .
- إن التجربة الآسيوية تضم العديد من تجارب التنمية المهمة واللافتة ، أعادوا بها بناء مجتمعاتهم ونظم التعليم الأساسي والجامعي لديهم ، ما يجعل منها تجارب جديرة بالتأمل والبحث .
- إن جانبًا كبيرًا من أهمية دعم العلاقات العربية الآسيوية يقوم على أسس المقارنة والدرس والبحث الموضوعي لتلك التجارب ودراستها بجدية ومحاولة الإستفادة منها في تجارب التنمية المحلية في كل المجتمعات العربية .

واللافت للإنتباه أيضًا أن الغرب كان هو المستعمر لعالمنا العربي لسنوات طويلة ، كما فعل الأمر نفسه في دول آسيا. ومع كل تلك السنوات الطويلة من الإستعمار وما إستتبعه من إستنزاف لثروات الدول المستعمرة ، لم تحدث فيه على ما يبدو ، أي محاولة لفهم علمي لطبيعة الشعوب التي استعمرها وثقافاتها بشكل حقيقي ، لا في منطقتنا العربية ، ولا في منطقة آسيا على إمتداد جغرافيتها.

وقد تسبب هذا الإستعمار ، في الوقت نفسه، في قطيعة بين العالمين العربي والآسيوي ، تبدو للبعض اليوم كأنها فجوة تاريخية، لكن الواقع التاريخي ، وكل متابعيه يعرفون أن أواصر العلاقات العربية - الآسيوية التاريخية قامت على مدى عقود على عوامل عدة ، كوّنت لنشأة الأواصر العريقة بين البلدان العربية في المشرق والمغرب ، وبلدان الشرق الأقصى ، ووسط آسيا ، وإستمرت نتيجة عوامل تاريخية وثقافية وتجارية وحضارية ودينية ، دعمت تلك الأواصر بين أطراف الشرق الأقصى والأوسط والأدنى .

وبسبب الإستعمار الغربي عانى الطرفان طويلاً ، وتأثرت سياسات وإقتصادات ، فتغيرت وتبدلت لغات وأبجديات وتحولت ممالك وسادت حضارات وبادت أخر ، لكن بين كل تلك المتغيرات تجلّت حقيقة أن العلاقات والمصالح بين الشعوب أقوى من أن تنمحي ، وظلت الأواصر بين الدول أمتن من أن تنهار ، ولذلك أُستبدل بطريق الحرير التاريخي طرق أخرى بريّة وبحرية وجوية ، وباتت الرغبة في التواصل مجددًا مشروعًا لا تخمد جذوته بين الجانبين . وهو ما تشهد عليه نشأة العديد من المؤسسات التي تعنى بدراسة الآخر الشرقي والعربي ، وصدور مجلات وكتب ودوريات تتناول الثقافات المشتركة بين الطرفين ، أو تلك التي تقدّم الثقافات الوطنية بلغات الآخر ، إضافة لمؤسسات تعليم اللغات بين الجانبين على تنوعها، أو إقامة مؤسسات تعليم اللغة العربية لدى العديد من عناصر ثقافات آسيا، فضلا عن التواصل الديني بين المجتمعات المسلمة .

إن مظاهر التواصل هذه ليست من فراغ، بل تعبر عن البعد التاريخي لتلك العلاقات التي جسدتها إمبراطوريتان تاريخيتان كبيرتان متزامنتان هما الإمبراطورية الإسلامية في بغداد، وإمبراطورية الصين التي عُرفت باسم (إمبراطورية تانج في آسيا) حكمت أسرة تانج خلال الفترة من ٦١٨ـ ٩٠٧م .

انتشار الإسلام :

كما لعب إنتشار الدين الإسلامي في آسيا في تلك المرحلة التاريخية دورًا كبيرًا في زيادة مساحة التأثير المتبادل بين المنطقتين ، إذ أدى ذلك إلى إنتشار الثقافة العربية ، التي عرفت بنهضتها الفكرية والعلمية آنذاك ، وتحولت شعوب كثيرة إلى تعلم لغة الدين الجديد ، وهو ما أسفر عن ظهور علماء في

التخصصات كافة ، ممن تأثروا بالثقافة العربية ، مثلوا رموز الحضارة الإسلامية.

وتكاملت أواصر العلاقات بين الجانبين عبر الدور الإقتصادي الذي مثلت التجارة بين الجانبين فيه العامل الأكبر ، وما استتبع ذلك من زيادة التأثير بين الثقافتين .. وقد أدت تلك العلاقات وإمتداد سلطات ونفوذ الدولة الإسلامية إلى الكثير من الإنتقالات بين مواطني الثقافتين ، وهجرة بعض منهم إلى الطرف الآخر ، ما أسفر عن الكثير من مظاهر الإختلاط والتجاذب الثقافي . ومن مظاهر الإختلاط تلك إستقرار هجرات واسعة لتجار اليمن الأوائل في القرن التاسع الميلادي في بعض الجزر الآسيوية ، وبينها إندونيسيا ، ما أسفر عن إستقرار للحضارة في تلك البلاد الآسيوية ، الذين لعبوا دورًا كبيرًا في إنتشار الإسلام وفي تجارة تلك البلاد .

ومن مظاهر الإنتقال العربي لآسيا أيضا إنتشار اللغة العربية في آسيا الوسطى ، وهي مجموعة من تنويعات اللغة العربية المحكية في أوزبكستان وطاجيكستان التي تواجه الإنقراض حاليا . فقد كانت هذه اللهجات محكية بين مجتمعات عربية كثيرة من البدو والحضر الذين سكنوا مناطق سمرقند وبخارى وقشقدرية وسرخندرية (في أوزبكستان المعاصرة) وختلون (في طاجيكستان المعاصرة) وكذلك في أفغانستان .

وقد تسبب في تأثير اللغة العربية في المنطقة وصول الموجة الأولى من المهاجرين العرب إلى تلك المناطق في القرن الثامن الميلادي مع الفتوحات الإسلامية ، ولحقت بهم مجموعات من عرب بلخ وأندخوي (في أفغانستان المعاصرة) ، وبسبب تأثير الإسلام أصبحت العربية لغة العلوم والآداب في تلك الحقبة ، وقد عاش معظم عرب آسيا الوسطى في مجتمعات خاصة بهم، ولم

يؤثروا الزيجات المختلطة (لكنها وجدت) مع الجماعات المحلية ، وقد ساعد هذا اللغة على البقاء في مجتمعات متعددة اللغات حتى القرن العشرين .

القطيعة والتبعية للغرب :

لكن مع إضمحلال الدولة الإسلامية ، وضعف إمبراطوريات آسيا الكبرى في الصين والهند ، كان الغرب بالمرصاد ، حيث إنتهز هذا الضعف والتضعضع لمصلحته ، فدخلت جيوشه إلى تلك الدول وسيطر على ثرواتها وحكوماتها ، وبالتدريج ارتبطت المنطقة في آسيا وفي البلاد العربية ، بالمصالح الغربية والأمريكية ، وهو ما أسفر عن تبعية المنطقة العربية للغرب .

واليوم بعد إنحسار السيطرة الغربية ، نشهد نهضة كبيرة في دول المنطقتين ، وبعضها نهضات كبيرة وطموحة كما هو شأن كوريا الجنوبية مثلاً واليابان والصين والهند ، إضافة إلى العديد من دول شرق آسيا ، ويواكب ذلك طموح عربي لنهضة شاملة في العديد من دول المنطقة العربية ، وهو ما يجعل إعادة بناء الجسور بين الثقافتين على درجة كبيرة من الأهمية في المجالات الثقافية والإقتصادية في مرحلة مهمة من مراحل التطور البشري التي تشهد ظاهرتين عالميتين هما: العولمة ، بكل ما تعنيه من مظاهر التأثير المتبادل بين الحضارات المختلفة مرعية بثورة تقنية متسارعة في مجال الاتصال الكوكبي ، وأما الظاهرة الثانية فهي سعي العديد من القوى الإقليمية للتكتلات الإقتصادية والسياسية.

والحقيقة أن التجربة الآسيوية تضم العديد من تجارب التنمية المهمة واللافتة ، أعادوا بها بناء مجتمعاتهم ونظم التعليم الأساسي والجامعي لديهم ، ما

يجعل منها تجارب جديرة بالتأمل والبحث ، ويعلي من قيمة وأهمية التعاون التنموي بين المنطقتين ، الذي سيكون بمنزلة استعادة لعلاقات تاريخية مشتركة ، لكن على أرضية الحداثة التي ظهرت آثارها على مدى العقدين الماضيين بجلاء ، وأرضية المستجدات التقنية والإستثمارية والثقافية لدى كلا الجانبين ، إضافة إلى التاريخ المعاصر من العلاقات التجارية المشتركة بين الطرفين .

منفعة متبادلة :

إن استعادة هذه العلاقات والأواصر المشتركة ذات البعد التاريخي تقتضي وجوب إسراع العرب في إعادة التعرف على آسيا ثقافيًا وعلميًا واجتماعيًا وسياسيًا لدعم هذه العلاقات لأننا ووفقا للعديد من المتغيرات نحتاج إلى دعم هذه العلاقات لارتباط مصالحنا بهذا النمو العلمي والإقتصادي والتجاري، ما يجعل من تبادل المنفعة بيننا أساسًا لهذه العلاقة المشتركة .

فالعديد من دول المنطقة العربية تمتلك من الثروات ما يمكن به أن يمثل إستثمارًا جيدًا في تلك الدول الآسيوية مما سيعد إدخارًا محسوبًا وجيدًا من الجانب العربي ، وسيعود في الوقت نفسه على تلك الدول بالمزايا الإقتصادية ، وفي المقابل بإمكان العرب الحصول على المزيد من المعرفة بالتقنيات العلمية والبحثية، والإستفادة من خبرات تلك الدول في مجالات عدة ، أحرزت فيها تقدمًا لافتًا .

وما يعزز نجاح مثل هذه التجارب المشتركة بين الجانبين خلو العلاقة بينهما من التاريخ الاستعماري ، ومع وجود فترات في تاريخ العلاقات بين

المنطقتين تميزت بالعنف والغزو ، إلا أنها لم تتحول إلى استعمار ونهب للثروات كما عرف من الإستعمار الغربي .

فالإستعمار الغربي تأسس على فكرة نهب المنطقة ، وإفراغها من ثرواتها ، دون أن يقدم لهذه الدول أو الشعوب أي منفعة . فعند رحيله من المنطقة لم يترك سوى التخلف . ولم نجد أثرًا لمناهج تعليم متطورة ، أو معاهد للبحث العلمي ، ولا لخطوط التصنيع الحديث أو شبكة متطورة للطرق ، أو غير ذلك من أسس النهضة الحديثة في أي مجتمع من المجتمعات .

فالعلاقات بيننا وبين آسيا بهذا المعني تعني أنها علاقات تتسم بالسلمية، لا يشوهها التاريخ بأي من مظاهر العداء المتبادل أو الأحقاد أو الرغبات الإنتقامية. وهو ما يعني أن الجسور بيننا وبين آسيا بالفعل ممهدة ، خصوصا أن هناك الكثير من المشتركات التي تجعلهم أقرب إلينا خصوصًا على المستوى الثقافي .

تجارب أسيوية رائدة :

هناك اليوم في آسيا تجارب رائدة ، بلغت من النجاح أنها إستطاعت أن تتجاوز حدود الجغرافيا والإقليم الذي أنتجت فيه إلى آفاق أوسع ووصلت للعالم كله لاحقًا من مثل تجربة مهاتير محمد في ماليزيا التي نجحت في أن تحقق نتائج تنموية مثالية مع الحفاظ على الخصوصية الثقافية للمكان ، وهناك تجربة الإقتصاد الصغير التي حققها البريطاني الهندي المولود في بنجلاديش الحاصل على نوبل في الإقتصاد أمارتيا صن ، أضف إلى ذلك تجربة كوريا في إرساء نظام تعليمي شديد التقدم كان يكلف الحكومة الكورية ٤٠% من ميزانيتها سنويًا على مدى أكثر من ثلاثين عامًا قفز بكوريا من موقع الدول المتأخرة المتخلفة

إلى مواقع سباقة في الإقتصاد العالمي والرفاهية الإجتماعية لسكانها في زمن قياسي لا يتعدى الثلاثين عامًا .

وسنجد أن قضية الإهتمام بالتعليم كان لها دور مركزي كذلك في نهضة اليابان كما يشير الباحث الهندي البريطاني أمارتيا صن قائلاً إنه بين العامين ١٩٠٦ - ١٩١١ كان التعليم يستهلك ما يصل إلى ٤٣% من ميزانية المدن والقرى اليابانية بشكل عام. وبالوصول للعام ١٩٠٦ وجد ضباط التجنيد بالجيش أنه كان من الصعب أن تجد أي مجند جديد جاهلاً بالقراءة والكتابة . وفي عام ١٩١٣ ، على الرغم من أن اليابان كانت إقتصاديًا لا تزال فقيرة جدًا ومتأخرة، فإنها أصبحت واحدة من أكبر منتجي الكتب في العالم ، تنشر كتبًا أكثر مما كانت بريطانيا تنتجه ، وضعف ما تنتجه الولايات المتحدة آنذاك ، وهو ما يوضح كيف بدأت بشائر النهضة اليابانية عبر هذا الإنتاج المعرفي مبكرًا جدًا .

والحق وكما تجمع العديد من الأدبيات التي تتناول تجربة النهضة الآسيوية ، أن تجربة اليابان كلها في التطور الاقتصادي كانت مدفوعة، إلى حد كبير، بتشكيل القدرات البشرية التي تشمل دور التعليم والتدريب، وقد رقي الاثنان عن طريق السياسة العامة ومناخ ثقافي داعم ومؤيد .

كما تشير تلك الأدبيات إلى دور التجربة اليابانية ذاته في إلهام جهود التنمية في بلدان شرق آسيا جميعًا للدرجة التي يمكن معها القول إن ما يسمى معجزة شرق آسيا كان إلى حد ما إنجازًا ألهمته التجربة اليابانية .

ومن بين التجارب التي تستحق التأمل أيضًا تجربة لي كوان يو، رئيس وزراء سنغافورة الأسبق الذي يعد واحدًا من أعظم مهندسي بعث شرق آسيا، والذي قدم تجربة إستثنائية في بناء إقتصاد بلاده من جهة وإستطاع أن يجعل

سنغافورة قادرة على منح الأقليات إحساسًا قويًا بالأمان والإنتماء ، وبالإحساس بوجود هوية قومية مشتركة مع الأغلبية مما عزز من فرص تقدم سنغافورة إقتصاديًا وإجتماعيًا بشكل غير مسبوق ، فقد كان واحدًا من أهم من بعثوا فكرة قيم الشرق الآسيوي ، خاصة في المعرفة والديمقراطية ، وقدم الأدلة على كون هذه القيم قد سبقت في وجودها تاريخ أوربا الحديث ، وتأسست في عمق نهضة فكرية كبيرة سبقت الحضارة الغربية كثيرًا.

وهذا يعني أن جانبًا كبيرًا من أهمية دعم العلاقات العربية الآسيوية يقوم على أسس المقارنة والدرس والبحث الموضوعي لتلك التجارب ودراستها بجدية ومحاولة الاستفادة منها في تجارب التنمية المحلية في كل المجتمعات العربية.

وإلى جانب هذا كله ، فإن جانبًا أساسيًا في التجارب الآسيوية أيضا هو تجاربها الحديثة في الديمقراطية، وسعيها لتحقيق نظم الحكم السياسي بما يتواءم مع فلسفتها الفكرية والدينية القائمة على التعددية، وتعايش الثقافات والأعراق والديانات، جنبا إلى جنب ، سواء في الهند أو اليابان أو كوريا الجنوبية أو الفلبين أو تايلاند أو إندونيسيا أو غيرها ، مما يوضح طبيعة العلاقة بين الديمقراطية والتقدم الإقتصادي والسياسي .

إعلام متبادل :

لهذه الاسباب يصبح بالفعل من الواجب علينا أن نعيد تسليط الضوء على التجربة الآسيوية بكل روافدها ، بثقلها في مجالات تكنولوجيا الإتصال والطاقة النووية في الهند وفي التجربة الديمقراطية الفريدة ، وبحداثة وسائل التصنيع في كوريا التي أصبحت بين أهم دول العالم الصناعي ، وبخصوصية تجربتها

التعليمية والسياسية والإجتماعية والصناعية في اليابان ، وبقدراتها الإقتصادية الهائلة في الصين، وبكل أبعادها الثقافية المميزة ، كثقافات تميل للتعددية واحترام الآخر ، كما هو شأن التجربة في كل من ماليزيا وإندونيسيا ، وبفرادة قدراتها على احتواء الأقليات كما هو شأن سنغافورة ، وغير ذلك من تجارب. إضافة إلى التجارب الأدبية والفنية والفكرية التي تمثلها اليوم أسماء بارزة ، في أرجاء المجتمع الآسيوي بلا إستثناء تتفاعل تجاربهم وأفكارهم مع ألمع الأفكار والتجارب المثيلة في المجتمع العالمي .

وعلينا أن نخصص مساحة أكبر من إعلامنا العربي للتجربة الآسيوية، بحيث نزود المواطن العربي قارئًا ومشاهدًا بأهم ما يحدث في آسيا من تجارب في الفكر والفنون والثقافة والأدب والتقنيات المختلفة .

وقد لعبت مجلة «العربي» دورًا طليعيًا في هذا المجال عبر نشر العديد من الإستطلاعات المصوَّرة التي توجَّهت، على مدى السنوات الأخيرة ، بشكل مكثف إلى آسيا، من دولها الكبيرة إلى أصغر مجتمعاتها، تتأمل واقع أهلها اليومي، وحياتهم الإجتماعية وتقاليدهم وثقافتهم وخصوصيتها ، ونظم التعليم التي يتبعونها، ووسائل الإدارة الحديثة التي ينتهجونها ، وكيفية تقديمهم للتعايش في مجتمعاتهم نموذجًا ، وغير ذلك مما نظن أنه لايزال أمامنا منه المزيد لإلقاء الضوء عليه بالشكل الكافي ، خصوصًا في ضوء مستجدات نهضة آسيا اليوم.

وبالرغم من الجهد الذي تبذله بعض المؤسسات الثقافية العربية في نَقْل الآداب والأفكار التي تنتج في آسيا ، فإن ما أنتج يحتاج إلى المضاعفة ، لكي نطلع على ما ينتج اليوم من أفكار وأعمال أدبية وشعرية للكتّاب والفنّانين المعاصرين في آسيا ، إذ أن أي علاقة طبيعية مما نطالب به مع الشرق الآسيوي لا يمكن أن تتحقق بشكلها المثالي دون فهم حقيقي متبادل ، يتأسس على

المعرفة ، بتنوع الثقافات وخصوبة الأفكار ، وتعدد المواهب التي يمتلكونها ، خصوصًا ما ينتجه الجيل الجديد من المثقفين وأصحاب المواهب لكي تكتمل الصورة في أذهاننا.

كما يجب من جانبنا ، أن نوجّه إلى الجمهور الآسيوي القنوات الفضائية التي تعتني بتقديم ثقافتنا العربية ، تأكيدًا على التاريخ المشترك للعلاقة بين الجانبين وتوفيرًا للخدمة الإعلامية التي تتضمن ما يحدث على الساحة العربية اليوم ، خصوصًا على المستوى الثقافي ، بحيث تعطي للمشاهد الآسيوي فكرة جيدة عن ثقافتنا وحضارتنا. بل أن نقدم لمواطنيهم ممن يقيمون في منطقتنا العربية طبيعة هذه الثقافة العربية وخصوصيتها ومظاهرها ، وأن نوفر لهم وسائل تعلم اللغة العربية لكي يتمكنوا من التجاوب والتفاعل مع الثقافة العربية .

أبعاد إستراتيجية :

إن ما ينبغي الإلتفات إليه في هذا الصدد أن هذه المعرفة الثقافية بالآخر الآسيوي لها أبعاد إستراتيجية عدة ، فحتى الإستثمار لا يمكن أن يتحقق بشكل يحقق المأمول منه دون معرفة أصحاب رأس المال بالعادات والتقاليد التي تحكم هذه الثقافات، ودون دراسة الميول والرغبات ، والقوانين وغير ذلك من عوامل لا تكتمل معرفتها دون السعي الحقيقي للتعرف على هذه المجتمعات ، معرفة حقيقية لا مجرد الإكتفاء بالانطباعات السريعة ، والنظريات المستهلكة المأخوذة عن الغرب الذي يورّد عن الثقافات التابعة له الصورة التي يرغب في أن يصدّرها للعالم بما يحقق له هو مصالحه .

إن النهضة الآسيوية بإمكانها بالفعل أن تكون ملهمة لتجارب التنمية العربية فى بقاع مختلفة ، ويمكن للتقارب العربي الآسيوي أن يصبح أملاً لمستقبل مختلف لكلتا الثقافتين ، وربما في المستقبل القريب جدًا لو صلحت عوامل التقارب والحوار بين المنطقتين ، كما أن المستقبل العربي بما يتضمنه من آمال تحقيق التنمية التي تستحقها الشعوب العربية، سيجد في تجارب آسيا، ما ينعش آماله بأن إخلاص النوايا ، وحسن الإدارة ، والتوقف عن التفكير بمنطق «نظرية المؤامرة»، كفيل بأن يحقق كل ما قد يبدو اليوم صعبًا أو مستحيلاً .

حول التفتت العربي في زمن العولمة :

منذ ما يقارب عقدين من الزمن كان الحديث منصبا بشكل كبير حول تداعيات الغزو الثقافي وما خلفته من آثار سلبية على المجال الثقافي داخل الوطن العربي ، وعلى مدى الأيام الفارطة إستضافت مكتبة الإسكندرية مؤتمر التنوع الثقافي كان الهدف منه ضرورة الحفاظ على خصوصية الثقافة العربية من ظاهرة العولمة وحذر المشاركون في هذه الندوة الفكرية من خطورة الموقف وما ينجر عنها من عواقب تمس الهوية العربية بشكل أو بآخر .

لكن دعونا نسلط الضوء أكثر على هذه الظاهرة العالمية وإن صحت تسميتها بالهيمنة الغربية على ثقافة الغير ، مع إنهيار أحد الأقطاب العالمية وأقصد الإتحاد السوفييتي وبإنتهاء الحرب الباردة تمكنت الرأسمالية بزعامة الولايات المتحدة من أخذ زمام الأمور والسيطرة المطلقة على العالم من جميع الأوجه الاقتصادية والعسكرية إلى أن فرضت مفهومًا جديدًا يتماشى ومخططاتها تحت ستار مصطلح العولمة، ولكي تكون السيطرة شاملة كان

الهدف واضحًا وهو الدخول من باب الثقافة عن طريق وسائل الاتصال الحديثة وبث سموم ثقافة التغريب بين الشباب الذي لا يتورع عن الانصهار بسهولة كبيرة ويندمج مع متطلبات العصر .

مع إختلاف موازين القوى وما شهده العالم من تقدم تكنولوجي في وسائل الاتصال ومن بين هذه التقنيات برزت الشبكة العنكبوتية ما يعرف بالإنترنت التي تحولت من شبكة مصغرة إلى شبكة عالمية يستخدمها العالم بأسره وهنا يبدأ الغزو الثقافي الغربي في الامتداد .

ولمزيد من التوضيح حول هذا الغزو صدر لرجل الأعمال الكبير «بيل غيتس «صاحب أضخم شركة لتوزيع البرمجيات (ميكروسوفت) كتاب يحمل عنوان «الطريق إلى الأمام « حين قال: «ستقضي الإنترنت إلى تغيير جذري في شكل العالم من حيث أوجهه المختلفة» ، من هنا نستلخص أن الولايات المتحدة وظفت شبكة الإنترنت لخدمة شئونها الإستراتيجية والسياسية وبهذا التفوق العلمي ستضمن أمريكا السيطرة على العالم والتحكم فيه.

وفي السياق نفسه وفي كتاب اتجاهات العولمة عرضت الباحثة باسمة صواف عدة تساؤلات عن وضعية الشباب العربي وتداعيات العولمة وكيف يتحصن الوطن العربي من هذا الغزو ؟ ولماذا ينساق أبناؤنا نحو هذه الظاهرة الجديدة ؟ وكيف نحمي هويتنا من هذا التيار الجارف ؟ كل هذه التساؤلات تضعنا أمام واقع خطير يجب التحصن منه ومواجهته بكل الوسائل والإمكانات.

مع تفشي ظاهرة العولمة وما تركته من آثار سلبية على شخصية الشباب العربي بصفة عامة والمسلم بصفة خاصة حيث زجت به في متاهات لا تحمد عقباها فمنهم من إنضم إلى الحركات الدينية المتشددة التي خلقت صنفًا من

الشباب يحمل أفكارًا متطرفة ولا يقبل منطق الحوار متخذًا الجهاد غاية لمحاربة الغزو الثقافي الجديد والصنف الآخر اتخذ الغرب كمنهج حياة وأصبح يقلد الغرب في الملبس والتخاطب ، كل هذه العوامل أدت إلى التمزق الاجتماعي وعقدت الأمور عن ما كانت عليه إلى أن اكتشفنا أننا وقعنا في فخ العولمة وأن حضارتنا سلبت من حيث لا نشعر وثقافتنا ذابت من حيث لا نعلم وهويتنا طمست بالتدريج من حيث لا ندري فما هو الحل لهذه المعضلة التي وقعنا فيها ؟ يقول غاندي : « مستعد أن أفتح نوافذ بيتي على كل الثقافات ولكني أرفض أن أذوب معها» .

بهذه المقولة الشهيرة يمكننا أن ننفتح على ثقافة الغير ونحاول تجديد موروثنا الثقافي لنختار ما هو مناسب ومفيد لنا وبمجابهة الغزو الثقافي الغربي يجب اتباع منهج جديد يتمثّل في :

- تشجيع الإبداع الشبابي وتنمية الموارد البشرية ومواكبة التكنولوجيا الحديثة وتصنيعها .
- فك أسر المرأة وإشراكها في الحياة الاقتصادية وخلق مجتمع متكامل الأطراف .
- عصرنة التعليم وتحفيز المبدعين وغرس الثقة والأمل في نفوس الشباب للنهوض بمستقبل الغد .
- تطوير منظومة وسائل الاتصال وفسح المجال أمام الشباب لتنمية مواهبهم .

كل هذه العوامل تقينا شر التغريب وطمس الهوية وكما يقول الشاعر العربي :

أنبئت والأيام ذات تجارب ... وتبدي لك الأيام ما لست تعلم

- شهدت المنطقة العربية موجة من العنف الداخلي الذي مارسه المتناحرون في ما بينهم، لدرجة أنهم إستمروا فى إنتقال فكرة التفجير الذاتي في عمليات إنتحارية كانت موجهة في البداية إلى الإسرائيليين من قبل بعض الشباب الاستشهاديين الفلسطينيين ، بحيث أصبحت اليوم إحدى وسائل التقاتل حتى بين أبناء البلد الواحد والقبيلة الواحدة والمذهب الواحد .
- إن الدول والمنظمات العربية مدعوة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى مراجعة ودراسة الأسباب التي أدت إلى التقهقر وميل الأفراد إلى التشرذم والتعصب والتمسك المريض بنعرات المذهب والطائفة والقبيلة على حساب منطق الدولة التي تقوم على مبدأ التعايش والتسامح في إطار من الحرية .
- إن التعليم والثقافة العربيين يتحملان مسئولية كبيرة في صياغة مفاهيم جديدة للأفراد للتعايش بغرس محبة الثقافات الأخرى في نفوس الأطفال منذ نعومة أظفارهم والاهتمام بتعليمهم اللغات الأخرى بحيث يتكون لديهم شغف بالمعرفة بثقافة الآخر وتقديره والتعرف عليه وعلى ما ينتجه من آداب ومعارف .

يشهد عالمنا العربي اليوم ظاهرة لافتة للانتباه ، عصية على الفهم ، تتمثل في السعي الحثيث للتقهقر إلى ألوان من التشظي أو التفتت الطائفي والقبلي والعرقي ، في مقابل سعي العالم للتكتل في كيانات كبرى تحاول أن تجد مشتركات لتعايش قوميات وثقافات متباينة ومتعددة ، ولعل أحد أبرز نماذج هذا التوجه الآن هو وصول الدول الأوربية لإنتخاب رئيس للاتحاد الأوربي الذي يجمع بين العديد من القوميات التي تتراوح خلفياتها التاريخية والثقافية، بل وتتباين لغاتها وثقافاتها ، وعقائدها بشكل غير مسبوق .

لقد أثبتت العولمة ، بالرغم من كل الصراعات التي شهدها العالم على مدى العقدين الماضيين ، أن الهويات القومية لن تندثر ، بل بإمكانها أن تتناغم في إطار حياة مشتركة يتعايش فيها العالم بحيث تصبح العولمة دعوة للتعايش ، وليست أداة تنافر وتنابذ واستعداء . أي أن هذه الهويات أو التعدديات الثقافية هي التي تشكل المجتمع العالمي الذي يجب أن يسوده السلام .

لكن المدقق في الواقع العربي المعاصر سيجد أن هذه الرؤية العالمية غائبة عنا نحن العرب بشكل تام ، كأننا لا نعي أي مسار تتخذه حركة التاريخ البشري الآن . وهي حركة تاريخية تسير وتتقدم وتتشكل ، وتتجاوز الصراعات والاختلافات والصدامات في سعي حثيث بإتجاه صورة لعالم واحد تجمعه المصالح البشرية، وأسس التعايش المشترك كاختيار وحيد كما يبدو حتى الآن للحفاظ على حياة واستمرار البشرية .

فاليوم يشهد العالم حركة اتصال متبادل لم يشهدها من قبل ، سواء عبر وسائل التنقل الحديثة براً وجواً وبحراً ، بوسائل تجعل من انتقال البشر بين القارات عملا روتينيا يوميا ، أو عبر وسائل الإتصال الحديثة التي استطاعت بالفعل أن تجعل من الكرة الأرضية كرة صغيرة جدا ، وتحقق نوعا من ضغط الزمان والمكان لم يكن متاحا بمثل هذه الصورة من قبل، بالنسبة لقدرات البشر على التفاعل والتواصل على مدى الساعة كل يوم .

وبينما تتقدم البشرية نحو تشكيل المجتمع العالمي الجديد وفقا لهذه المتغيرات ، فإننا نجد أنفسنا نحن العرب ننكفئ بشكل يدعو إلى الدهشة عن حلم «الدولة الواحدة» الذي تخطى عمر طرحه الآن أكثر من قرن من الزمان، إلى ألوان من التشظي والتفتت ليس على مستوى الدول فقط ، بل على مستوى القبيلة الواحدة التي يتم إختراقها بدعاوى التفتت ، ولا على مستوى الأديان أو

الطوائف، بل على مستوى المذهب الواحد الذي يتفتت أيضا إلى مذاهب جديدة بشكل متسارع وعداء مميت .

ولا ينطبق هذا على العالم العربي فقط، بل ينسحب على المنظومة الإسلامية، والنماذج ساطعة من العراق الذي يشهد فتناً طائفية أشعلته تحت مظلة الديمقراطية المزعومة، وفلسطين المنكوبة التي تتصارع فيها حماس مع منظمة فتح، إلى اليمن الذي أشعل الحوثيون فيه نيران الصراع المذهبي بين ليلة وضحاها، ومن أفغانستان التي تتصارع فيها قوتان رئيسيتان إحداهما مدنية والأخرى دينية متشددة ، إلى باكستان التي تتمزق والصومال التي تتحول من دولة إلى شظايا من العصابات والقراصنة، إضافة الى التوترات الطائفية والمذهبية في العديد من دول العالم العربي في المشرق والمغرب على السواء.

ولست أريد تبرئة أي قوة خارجية قد تكون وراء دعاوى التفريق هذه، دعما أو تسهيلا، لكن حتى لو كانت هناك قوى خارجية لها مصالحها في هذا التشظي والتفتت فلا شك أن إستجابتنا السريعة لمثل تلك الدعاوى دليل على أن هناك في بذرتنا الاجتماعية وعمق مكوننا الفكري ما يفرز الانحياز السهل لكل دعاوى التفريق المبني على العصبيات والتحزبات.

فلا شك أن الإستعمار القديم الذي كان يرسل جيوشه العتيدة للإستيلاء على ثروات ومقدرات المستعمرات لم يعد اليوم في حاجة لكل تلك الجيوش ، إذا كان بإمكانه أن يحصل على النتيجة نفسها عبر شعاره القديم «فرق تسد»، والذي يجد اليوم إستجابة منقطعة النظير في العالم العربي .

استغلال التقنيات الحديثة في التنافر :

وبالإضافة لكل دعاوى التنافر والفرقة القومية والمذهبية الطائفية وغيرها، فقد شهدت المنطقة العربية على مدى العقدين الاخيرين موجة من العنف الداخلي الذي مارسه المتناحرون في ما بينهم ، لدرجة أنهم استمرأوا انتقال فكرة التفجير الذاتي في عمليات إنتحارية كانت موجهة في البداية إلى الإسرائيليين من قبل بعض الشباب الإستشهاديين الفلسطينيين ، بحيث أصبحت اليوم إحدى وسائل التقاتل حتى بين أبناء البلد الواحد والقبيلة الواحدة والمذهب الواحد.

بل إن التفتت القبلي شهد ظاهرة جديدة تماما حيث أدت مباراة في كرة القدم بين مصر والجزائر خلال الفتره الماضيه إلى إشعال شرارة نزاعات قبلية وشوفينية انتقلت من الجمهور لتتحول إلى أزمة سياسية بين البلدين .

واللافت أيضاً أن التقنيات الحديثة التي نشهد بسببها ثورة إتصالات غير عادية والتي يفترض أن تكون منبراً أو وسيلة لتجاوز الإنغلاق الفكري ، والإنفتاح على الثقافات والأفكار المتباينة التي تتيحها هذه الوسائل الجديدة ، مثل الفضائيات والإنترنت ، تستخدم في العالم العربي بمنطق معكوس ، إذ إن العرب غالبا، يختارون ما يتناسب فقط مع أفكارهم سلفا ، ويعتادون المتابعة أو المشاهدة لما يغذي ما يؤمنون به من مذهبية أو إنغلاق أو يتحمسون لما يعتنقونه ويفكرون فيه.

بل إن ثورة الإتصالات هذه بدلا من أن تكون وسيلة لمزيد من التواصل والتفاهم المشترك بين الحضارات ، بل وبين أبناء الحضارة الواحدة ، إذا بها تتحول إلى وسيلة لإثارة الفتن، وقد شهدنا كيف أن خبرا صغيرا يبث في صحيفة

صغيرة قادر على إشعال ثورة في بلد آخر، بل وربما إفتعال مذبحة في بحر عدد محدود من الساعات ، بالإضافة إلى إستخدام وسائل التخاطب والإتصال الإجتماعي مثل «الفيس بوك» لتتحول إلى ساحة افتراضية للعداء والسباب المتبادل واستخدام مختلف ألوان الدعايات العنصرية .

وبالتالي فإن الحاصل هو المزيد من الفتن ومزيد من المعارك الصاخبة بين أبناء الحضارة الواحدة ، والثقافة الواحدة ، والدين الواحد ، بل واللغة الواحدة، إضافة إلى المزيد من العنف وما يسفر عنه من قتل وسفك للدماء على حساب البناء والتنمية والتطور الحضاري .

لكن كيف أصبحت المجتمعات العربية هكذا، قابلة لأن تفتتن، وأن تقتتل، لأوهن الأسباب ؟ ولماذا أصبحت شعارات الوحدة العربية والتضامن العربي، والأمة العربية فكرة تبدو اليوم صعبة المنال أكثر من أي وقت مضى ؟ وما هي الأسباب التي يسهل بسببها تجييش العرب ضد من يختلف معهم مذهبيا أو عشائريا أو طائفيا ، وأن يمارسوا كل هذا العنف بعضهم ضد البعض الآخر ؟

كأن العرب ، بهذه الممارسات يرفضون فكرة التنوع البشري، ويرفضون فكرة المواطن العالمي الذي يعرف عن هويته بقدر ما يعرف القدر الكافي عن هويات الآخرين، بحيث يصبح توقع الاختلاف بديهيا وليس العكس.

الشرعية والياس :

إن فكرة ردود الفعل العربية حول ما يراه الجمهور ماسا بمعتقداته، وكيف أنها تبدو كأنها تعبير عن ثقافة هزيمة أكثر من كونها وسيلة للاعتراض، ولهذا

عادة لا تحقق الهدف منها . وهذا يظل صحيحا حتى على مستوى الخلافات بين العرب بعضهم بعضا، لا على مستوى الخلافات مع الآخر الغربي فقط .

ولبحث الأسباب العميقة للظاهرة أظن أن هناك نقطتين رئيسيتين ينبغي أخذهما في الإعتبار وهما : تجذر مفهوم الهزيمة وتحوله إلى يأس يعبر عنه الأفراد والجماهير بالغضب والعنف الذي نستطيع أن نلمس آثاره في عشرات من الشواهد العربية يوميا . أما النقطة الثانية فتتعلق بمفهوم الشرعية ومدى تحققه للسلطات العربية الحاكمة، ليس من وجهة نظر السلطة إنما في أعماق وأفكار تلك الجماهير على نحو خاص

فيما يتعلق باليأس المتولد عن الإحساس بالهزيمة يبدو أن له جذوراً تاريخية بعيدة لدى أغلب الشعوب العربية، التي انهارت حضارتها لسنوات، قبل أن تبدأ في محاولة استعادة وعيها وقوتها عبر حركات ثورية وتحررية واستقلالية عديدة مع بدايات القرن الماضي، والتفافها لاحقا حول مشروعات عربية قومية قاد عبدالناصر أهم فصائلها ودولها، واستعادت به الجماهير من أرجاء الارض العربية حلمها في استعادة نهضتها، لكنها وقبل أن تقف على أرض الحلم وتحوله إلى واقع إذا بالأرض تنهار من تحت أقدامها، بانهيار الحلم القومي إثر هزيمة ١٩٦٧.

إن اليأس الذي يؤجج المشاعر، بالنسبة للجماهير العادية، أو ذلك الذي يذهب إلى حد تحويل الشخص إلى انتحاري أو « إستشهادي » كما يشير الكاتب أمين معلوف في كتابه الأخير « إختلال العالم »، لم يكن وليد سنة ١٩٦٧، ولا وليد سنة ١٩٤٨، أو نهاية الحرب العالمية الأولى « وإنما هو مآل سيرورة تاريخية لا يمكن أن يختصرها أي حدث أو تأريخ. إنه تاريخ شعب عرف عهدا كبيرا من المجد ، أعقبه سقوط طويل فهو منذ مائتي سنة يتوق إلى النهوض،

لكنه يعود كل مرة إلى السقوط ، وتعاقبت عليه الهزائم، والخذلانات والإهانات ، إلى أن إنبثق جمال عبدالناصر فراح يؤمن بأنه سيتمكن معه من النهوض مجددا ، ومن إستعادة إعتباره لذاته وإعجاب الآخرين . وحين إنهار العرب من جديد وعلى هذا النحو من المشهدية وهذه المذلة الكبيرتين ، إنتابهم ومعهم جموع العالم الإسلامي شعور بأنهم خسروا كل شيء» .

ويرى معلوف أن هزيمة عبد الناصر ثم وفاته أدت إلى ظهور مشاريع سياسية متنوعة راحت تتنافس على إمتلاك إرثه ، لكنه يرى أنها جميعا لم تنجح بسبب غياب مفهوم " الشرعية " في أغلب تلك المشاريع . " تلك الشرعية العفوية، التي تكاد تكون من لحم ودم ، التي تمتع بها عبدالناصر حتى موته ، بالرغم من عيوبه وأخطائه وهزائمه.

إن غياب الشرعية بالنسبة لأي مجتمع بشري كما يقول معلوف هو شكل من أشكال إنعدام الوزن الذي يخلخل كل السلوكيات، فمتى كانت أي سلطة، او مؤسسة ، أو شخصية ، لا تستطيع أن تحوز صدقية معنوية حقيقية، ومتى بلغ المر بالناس إلى حد الإعتقاد بأن العالم غابة يسودها الأقوى وكل الضربات فيها مباحة، لا يعود هناك بد من الانجراف نحو العنف القاتل، والطغيان والفوضى.

العنف نتيجة للتلاشي الهوية :

ولعل الإنجذاب إلى المشروعات السياسية التي حاولت أن ترث المشروع الناصري ، وأقصد بها التيارات الإسلامية ، هي واحدة من مظاهر رد الفعل على فكرة غياب الشرعية ، ومحاولة الإيعاز بأن وصول تلك القوى ذات التوجهات الدينية هي الشرعية البديلة .

ومن البديهي أن الشعوب التي تشعر بأنها قيد التلاشي ، هي وحضارتها أو التي تشعر بالتهميش الثقافي والإذلال السياسي تكون أكثر قابلية لأن تصغي لكل أصحاب دعاوى المقاومة التي تتسم بالعنف والإنفلات العشوائي إلى التدمير والهدم .

يقول معلوف : « إن عالما يتحسن فيه يوميا إحترام التنوع البشري ، حيث يمكن لكل شخص إن يتكلم اللغة التي إختارها ، وأن يمارس معتقداته بسلام، ويؤكد أصوله بهدوء دون أن يتعرض للعداوة ولا للإحتقار من جانب السلطات كما من جانب الناس ، إن عالما كهذا هو عالم يتقدم ويرتفع وبالمقابل ، إذا تغلبت التشنجات المتعلقة بالهوية ، حيث يجد الإنسان صعوبة متزايدة كل يوم في أن يكون هو نفسه بصفاء ، وأن يتكلم لغته بحرية ويمارس إيمانه بحرية ، فكيف لا يمكن أن نتكلم عن تقهقر ؟

ولعل هذا هو بيت القصيد في موضوع الهوية ، وفي موضوع الشرعية أيضا ، لأنه بتوافر مثل هذه الظروف من قبل أي سلطة سيكون لها مشروعيتها التي لا يكفي لتكونها قوتها الإقتصادية والعسكرية فقط ، بل ومراعاتها لجميع الحريات وحقوق الأفراد في التعبير ، وفي ممارسة معتقداتها ، بلا خوف وتقييد النزعات العنصرية عبر ممارسات منصفة .

تجارب الدول ذات الأعراق المختلفة :

إن الدول والمنظمات العربية مدعوة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى مراجعة ودراسة الأسباب التي أدت إلى التقهقر وميل الأفراد إلى التشرذم

والتعصب والتمسك المريض بنعرات المذهب والطائفة والقبيلة على حساب منطق الدولة التي تقوم على مبدأ التعايش والتسامح في إطار من الحرية.

وينبغي الأخذ في الاعتبار في دراسات من هذا النوع النظر إلى تجارب الدول التي تضم أعراقا وثقافات مختلفة مثل الولايات المتحدة الأمريكية مثلا، وكيف تمنح الحريات للأشخاص بحيث تمنح السلطة لنفسها الشرعية من جهة، ولمحاولة ترسيخ ثقافة التنوع لدى مواطني تلك الدولة .

من جهة أخرى فإن المجتمعات العربية قد ثبت لها أن التمسك بالقديم دون وعي بالتطورات والمتغيرات أيضا لم يؤد إلا إلى خلق أجيال لا ترى سوى حقيقة واحدة وطريقة واحدة في التفكير، كان لها أثر بالغ في تدعيم ثقافة العنف ونفي الآخر، والتعصب للأنا بشكل مفرط في الأنانية والبراجماتية .

وتتحمل أجهزة تخطيط التعليم في العالم العربي مسئولية كبيرة في تأخرها في وضع مناهج تعلي من قيمة التنوع والتعدد وإظهار مدى إيجابيات تلاقح الأفكار والتفكير العلمي بديلا للتلقين وللتوجهات المنغلقة على ثقافة واحدة باعتبارها مركز العالم والكون .

إننا مطالبون جميعا باستعادة قدراتنا على التعامل مع بيئتنا ومواردنا ومعارفنا وتنوعنا بشكل أفضل، ووفق منظومة مختلفة للقيم، وليس عن طريق نسف منظومة القيم .

إن الموارد العربية والمالية منها على نحو خاص قد تم تبديد الكثير منها على مظاهر للهو ، وعلى الإنفاق غير المخطط والمدروس، مما أدى إلى إنتشار ظواهر إسراف وتبذير ولامبالاة ، بينما كان الأولى توجيه كل تلك الموارد في

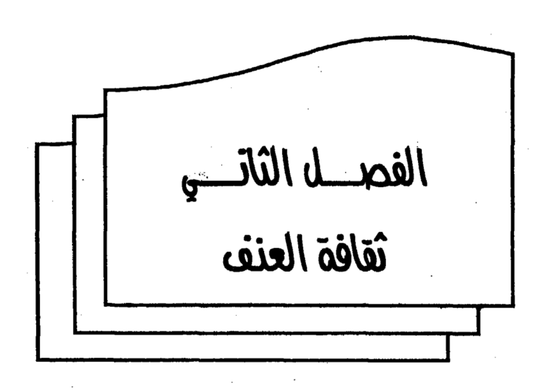
إتجاهات التنمية والتطوير التي نحتاج إليها الآن بشكل بالغ الأهمية، لعلاج المشكلات التنموية والخدمات التي تحتاج إلى الدعم .

وقد أثبتت الاتجاهات الاستهلاكية في العالم العربي أن الموارد في النهاية محدودة ، وأن الاستهلاك وحده لا يصنع الحضارة ، وبالتالي فإن المنتج الثقافي لا بد أن يتخذ أولوية في خطط التنمية العربية ، لأن الثقافة هي التي تشكل الفرد القادر على صناعة التنمية الحقيقية القادرة على الإستمرار والصمود .

كما ينبغي الإنتباه إلى أننا لكي نحقق التعايش المشترك السلمي الذي نسعى إليه بيننا كعرب ، ثم بيننا وبين الثقافات الأخرى فلابد لنا أن نقوم بنوع من التعرف الحقيقي على الآخر ، برغبة في الفهم والمعرفة الجادة التي تسمح بالتلاقح الحضاري والمعرفي .

إن التعليم والثقافة العربيين يتحملان مسئولية كبيرة في صياغة مفاهيم جدية للأفراد للتعايش بغرس أهمية وضرورة الثقافات الأخرى في نفوس الأطفال منذ نعومة أظفارهم والاهتمام بتعليمهم اللغات الأخرى ، بحيث يتكون لديهم شغف بالمعرفة بثقافة أخرى على الأقل ، وتشكيل وعيهم على الانفتاح على الآخر وتقديره والتعرف عليه وعلى ما ينتجه من آداب ومعارف، مع الوعي المستمر بأننا أيضا نمثل «الآخر» لدى الثقافات الأخرى .

وهذه ربما هي حجر الأساس في عملية التغيير المطلوب في بنية الذهنية العربية التي تشهد اليوم حالة من الانغلاق ربما لم تعرفها على مدى عمرها كله، والثقافة والتعليم وحدهما القادران على أن ينقذا العرب من واقع موغل في التخلف والجهل ومستقبل غامض ويضعاه على بر التعايش والنجاة ، وليس لنا من خيار آخر.


الفصـــل الثانـــي
ثقافة العنف

ثقـافــة العنـف :

عام ٢٠٠٨ صدر للكاتب البلجيكي " مارتن فان كريفلد " كتاب مثير، ترجم إلى الإنجليزية بعنوان ثقافة الحرب تساءل فيه عما إذا كانت الحروب وجدت لتستمر وتظل قائمة إلى الأبد ؟ وأجاب عن ذلك التساؤل بالإيجاب مع إختلاف أسباب ودوافع الحروب باختلاف الزمان والمكان، وأن الحروب وكل مظاهر وممارسات العنف التي عرفها التاريخ البشري تنجم عن الطبيعة البشرية ذاتها، ولذا فهي عنصر ثابت ودائم في التاريخ البشري ، وملازم للحضارة الإنسانية خلال كل مراحل تطورها.

فعلى الرغم من كل ماحققته الحضارة من تقدم ورقي، وعلى الرغم أيضا من كل شعارات السلام التي ترفعها المنظمات الدولية ويدعو إليها الكثيرون من مفكري العالم، فإن القرن العشرين يعتبر من أكثر فترات التاريخ عنفا وأكثرها دموية، ويكفي أن يعود المرء بفكره إلى ماحدث من مذابح ومجازر وتدمير وتشتيت للبشر خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية ، فضلاً عن الحروب الإقليمية والمحلية بين مختلف الشعوب ، وبخاصة في العالم الثالث . وقد تولّد عن كل هذه الأحداث والمظاهر شعور بعدم الإرتياح والإنزعاج والإحباط إزاء الواقع الملموس ، من أن الكائن الحيواني العاقل الوحيد في هذا الكون - وهو الإنسان - هو في الوقت ذاته الكائن الحيواني الوحيد الذي لديه الرغبة والاستعداد والقدرة على قتل وإبادة أيّ عدد من أفراد نوعه دون أن يخالجه الألم والندم .

ولقد تعددت أسباب الإلتجاء إلى العنف الذي يصل إلى حد القتل والتدمير وتفاوتت إبتداء من الصراع على القوت والطعام في أشد المجتمعات تأخرا

وبداءة، إلى النزاع على تملك الأرض والموارد الطبيعية إلى الرغبة الجامحة في التسلط وإثبات الذات على حساب وجود الآخرين إلى مناهضة الأفكار والآراء والفلسفات والأيديولوجيات ورؤى الحياة المخالفة .. وهكذا بغير نهاية . فالجنس البشري ، أو بالأحرى الإنسان العاقل هو أكثر الرئيسات عنفا وعداوة وعدوانا وإعتداء بالنسبة لأفراد فصيلته ، وبخاصة من الإناث ، مع أن أقرب الرئيسات الأخرى إليه وهي فصيلة الشمبانزي المعروفة باسم البونوبو Bonobo تتميز بقدر كبير من الرقة واللين والإبتعاد عن العنف والصدام ، سواء في التعامل فيما بينها أو مع الآخرين بحيث إشتهرت بين الأنثروبولوجيين بأنها « من أنصار السلام .

العنـف للترفيـه :

ولقد كانت ممارسات العنف والقسوة وتعذيب الحيوانات في بعض المجتمعات مصدر تسلية وترفيه للجماهير، كما هو الشأن الآن في مصارعة الثيران في أسبانيا، أو صراع الديكة في عدد من المجتمعات الأخرى. وفي القرن السادس عشر كانت بعض مسارح باريس تقدم (عروضا ترفيهية) تقوم على تعذيب القطط . فكانت القطة تربط في سلك مدلّى من سقف المسرح وتوقد تحتها نار بحيث يهبط السلك نحوها شيئا فشيئا ببطء شديد بينما تصرخ القطة وتتلوى وتنتفض بعنف مع تزايد الحرارة إلى أن تتفحم تماما، بينما تضحك الجماهير وتتصايح وتهتف وتصفق في مرح هيستيري شديد وهكذا. فالعنف لايقتصر إذن على سلوك الإنسان إزاء بعضهم بعضا ولكنه يتعدى ذلك إلى أشكال الحياة الأخرى ، بحيث يذهب البعض إلى إعتباره عنصراً أساسياً في التكوين البيولوجي للإنسان ، وهو الأمر الذي رفضه صراحة الإجتماع الدولي للعلماء الذي عقدته اللجنة الوطنية الإسبانية لليونسكو في إشبيلية عام ١٩٨٦، ثم

تبنته المنظمة في الإجتماع الخامس والعشرين لمؤتمرها العام في ١٦ نوفمبر ١٩٨٩.

فلقد أعلن ذلك الإجتماع الدولي للعلماء عن رفضه « فكرة أن العنف الإنساني المنظم هو أمر مقرر بيولوجيا » ، وشفع ذلك الإعلان بعدد من الأحكام المهمة القاطعة ، التي تقرر أن من الخطأ علميا الإعتقاد بأننا ورثنا الميل لشن الحروب من أجدادنا الرئيسات الحيوانية ؛ وأن من الخطأ علميا أن نقول إن الحرب مثلاً أو أي سلوك عنيف آخر - أمر مبرمج جينيا في طبيعتنا البشرية ؛ كذلك من الخطا علميا القول إنه أثناء عملية التطور البشري كان هناك انتخاب طبيعي للسلوك العدواني بدلا من أي نوع آخر من السلوك؛ وأن من الخطأ علميا كذلك أن نقول إن عقول أو أدمغة البشر عقول عنيفة violent brains بطبيعتها؛ وأخيرا فإن من الخطأ علميا أن نقول إن الحرب تنشأ من « الغريزة » أو من أي باعث آخر واحد فقط . وينتهي قرار الإجتماع إلى أنه « إذا كانت الحرب تبدأ في عقول الناس ، فإن السلام يبدأ هو أيضا في عقولنا، وأن الجنس البشري الذي إخترع الحرب قادر على إختراع السلام ، وأن المسئولية ملقاة بالكامل على عاتق كل واحد منّا ». وعلى ما يقول الفيلسوف الإسباني الشهير خوزيه أورتيجا إي جاست: « ليست الحرب غريزة ، ولكنها اختراع " .

مبادىء الغرب المزيفة :

ولكن يبدو أن هناك فارقاً كبيراً بين المبادئ والتوصيات والقرارات والشعارات النظرية المثالية ، وبين الحقيقة الملموسة والممارسات الواقعية في الحياة اليومية ... فعلى الرغم من كل مايقال وما نص عليه إجتماع إشبيليه من أن مقاومة العنف وثقافته هو واجب كل فرد ، وأن هناك إجماعا على ذلك من

الناحية الأخلاقية ، فإن الواقع يناقض ذلك الإجماع على كل المستويات أيضا. وخير دليل على ذلك هو أن الغرب الديمقراطي المناصر لحقوق الإنسان هو الذي يتولى تصنيع وتصدير السلاح وشن الحروب المدمرة وإيقاع الأذى بالمدنيين وممارسة العنف النفسي والاجتماعي - إن لم يكن الفيزيقي - ضد السكان الوافدين والمهاجرين إليه من الدول الأخرى، وهو الذي يحاول تطوير أسلحة الدمار الشامل، بالرغم من أنه يحمل شعار ثقافة السلام ونبذ العنف. ومن الطريف مايلاحظه بعض الكتاب من أن الاقتصاد القائم على صناعة السلاح يحتاج إلى أن يبحث عن أعداء له لاستخدام واستهلاك ذلك السلاح، وعلى ذلك فإن الدول المصدّرة للسلاح هي مصدر العنف والإرهاب والحروب، لدرجة أنه بعد انتهاء الحرب الباردة إخترعت أمريكا عدوا لها اسمه الإرهاب لتنشيط ذلك الإقتصاد .

بل الأكثر من ذلك أنه على الرغم من الشعور العام بأخطار العنف على حياة المجتمع ككل وضرورة التصدي له بمختلف الوسائل، بمافي ذلك الالتجاء للعنف المضاد- رغم مافي ذلك القول من مفارقة - فإن هناك من المفكرين من يرى أن للعنف جانبا إيجابيا لايمكن إغفاله أو التغاضي عنه، وهو دوره في صنع الحضارة الإنسانية التي يهدد العنف أيضا وجودها في الوقت نفسه. فالعنف عامل خلق وتدمير في وقت واحد وقد أدت الحروب والإعتداءات في كثير من الأحيان إلى القضاء على كثير من ألوان التخلف مع إحلال مظاهر ونظم جديدة أكثر تطوراً ورقياً. وإذا كان تاريخ الحضارة الإنسانية مليئا بالعنف والقتل والدم ، وأنه تاريخ دموي إلى حد كبير، فإن ذلك العنف الدموي كان دائما وأبدا أداة ووسيلة، بل وإستراتيجية لنشر الحضارة، ولكن يبدو أن هذا المنطق هو وسيلة لتسويغ وتبرير حركات الإستعمار .

العنف يجتاح العائلة :

فمجال ومظاهر وأفعال العنف تتعدى مجال الحرب والإرهاب وإن كانا يمثلان العنف في أقصى درجاته من القسوة والدمار والخراب وإلحاق الأذى بالآخرين. فالعنف سلوك له تأثيراته السلبية على العلاقات بين البشرحتى في المجالات التي تبدو بمأمن منه ، كما هو الشأن بالنسبة للعلاقات الأسرية المباشرة والحميمة. فالعنف العائلي يزداد إنتشاراً وفظاظة في جميع أنحاء العالم لأسباب مختلفة كثيرا ماتكون تافهة ولا تستدعي العدوان والاعتداء. وبالرغم من أنه يوصف بأنه (عائلي) ، فكثيرا ماتترتب عليه مشكلات تتجاوز نطاق العائلة وتتطلب تدخل هيئات ومنظمات ومؤسسات متخصصة. والأمر نفسه يصدق على العنف الذي يتعرض له الأطفال سواء داخل العائلة أو في المدرسة أو في الشارع، وهذه مشكلة تناولها تقرير هيئة الأمم العالمي عن العنف ضد الأطفال، وكذلك البرنامج العالمي لحقوق الإنسان والعقد العالمي (٢٠٠١ /٢٠١٠) لثقافة السلام وعدم العنف ضد الأطفال في العالم، فضلا عن الندوات والمؤتمرات التي تعقدها اليونسكو مما يشير إلى مدى إنتشار وخطورة ذلك السلوك على مستوى العالم . ولم تقتصر كل هذه المعالجات والندوات على رصد أفعال العنف الفيزيقي أو البدني، بل كانت تتطرق إلى آثاره على الصحة العقلية لضحاياه، وبخاصة الأطفال والنساء، كما تتناول العنف غير المباشر الذي يتخذ شكل التهديد والوعيد وتوجيه الإهانات والشتائم وما إليها ، وكذلك العنف الذي تمارسه علنا بعض الجماعات والعصابات الإجرامية ، والعنف الجنسي وصوره العديدة حتى في إطار العلاقات الزوجية المشروعة . وإنتشار العنف على مستوى العالم يجعل منه نمطا سلوكيا يفرض نفسه بقوة على الحياة اليومية المعتادة ، على الرغم من تعارضه مع النظم المعمول بها، ومع قواعد العرف

وقيم الثقافة العامة السائد والمتوارثة ، بحيث يصبح ثقافة فرعية خاصة تؤمن بممارسة كل ألوان الاعتداء المنهجي المنظم على حقوق الإنسان الأساسية وإيذاء لكيانه فيزيقيا ونفسيا ومعنويا، وتحرمه من حق الشعور بالحياة الآمنة الكريمة القائمة على العدل والمساواة. والأغلب أن هذه الثقافة الفرعية ثقافة العنف تنشأ استجابة للأوضاع المتردية التي يعاني منها بعض فئات المجتمع الذين يشعرون إزاءها بقسوة الحياة وتعرضهم للظلم والتهميش نتيجة الفقر والبطالة والفساد والتفاوت الاجتماعي الصارخ، فهي وليدة الخلل والتفكك الإجتماعي ولكنها تمثل في الوقت ذاته نوعا من التمرد على تلك الأوضاع والتحدي لسلطة المجتمع الذي يتقبل هذه الأوضاع، بل ويستمد في كثير من الأحيان شرعية وجوده منها.

العنف ابن الاعلام :

ويساعد على ترسيخ تلك الثقافة الفرعية وإستمرارها وإنتشارها على نطاق واسع الدور السلبي الذي تقوم به وسائل الإعلام المختلفة بما تنشره من أحداث العنف بصورة تداعب الخيال، وبما تبثه من برامج يغلب عليها طابع العنف والإثارة، مما يشجع الشباب على محاكاتها والاقتداء بها في حياتهم اليومية وفي تعاملهم مع الآخرين ، فالعنف الذي يظهر على شاشة التلفزيون تسهل ترجمته إلى أفعال مماثلة في واقع الحياة ، وتدل بعض الإحصائيات على أن حوالي ٥٠% من جرائم القتل التي تبلغ خمسه وعشرين ألف حالة سنويا في الولايات المتحدة مردّها إلى تأثير التلفزيون ، وعرضه المثير والمشوّق لأشكال الجرائم المختلفة وتنوع أساليبها وإضفاء البطولة على مرتكبيها. وليست المسألة على أية حال مسألة أرقام وأعداد بقدر ماهي مسألة التأثير الذهني للسلوك الإجرامي على الناس وتشجيع الالتجاء إلى العنف والقتل لحل المشكلات أو حتى لمجرد التباهي

وإثبات الذات. فالناس في ثقافة العنف يبدون دائما في عجلة من أمرهم للتهور والاندفاع والصدام، ويعتبرون ذلك حقا لهم لأن العنف يمثل بالنسبة لهم إحدى القيم التي تعلي من شأن صاحبها، وأن التخلي عنها يستوجب اللوم ويجلب العار.

كل هذا يثير التساؤل عما عسى أن يكون عليه الحال في المستقبل، وهل سيظل العالم أسيرا لهذه الأشكال المختلفة من أفعال العنف، التي كثيرا ماتؤدي إلى القتل والتدمير؟

معظم الآراء تكشف عن درجة عالية من التشاؤم وترى أن العنف جاء ليبقى بل وسوف يزداد ضراوة وشيوعا نتيجة للتغيرات السريعة التي يشهدها العالم والتي تساعد على تفكك الروابط الاجتماعية على كل المستويات، فالفيلسوف البريطاني الكبير كارل بوبر على سبيل المثال - يقول إن الكثيرين في كل أنحاء العالم يكرهون العنف ويتمنون لو أمكنهم القضاء عليه تماما بكل أشكاله وصوره، وليس فقط القضاء على الحروب باعتبارها ذروة العنف ضد الإنسانية جمعاء. ويذهب إلى أن هناك آمالا عريضة لتحقيق ذلك عن طريق الجهود الصادقة التي تبذلها المنظمات والهيئات المعنية بمستقبل المجتمع الإنساني القائم على العدل والسلام. ولكنه يعترف في الوقت نفسه بأن هذه الجهود تنتهي دائما بالفشل والتراجع، وأن «عصر العنف» الذي شهد حربين عالميتين، وازدياد العنف الفردي والجماعي على كل المستويات لم ينته بعد، بل ويبدو أنه في تزايد مستمر ويتخذ أشكالا لم تكن معروفة من قبل.

ولكن هناك من يرى أن الوضع ليس على كل هذه الدرجة من السوء، لأن هناك قوى أخرى مناوئة للعنف وقادرة على أن تحد من إستفحاله إذا أحسن توجيهها والإفادة منها.. من هذه القوى الإهتمام الحالي في كل أنحاء العالم بالتعليم المتطور الواعي بمشاكل المجتمع الإنساني وبقيمة الإنسان في ذاته

ولذاته ومعنى الإنسانية والحقوق والواجبات المفروضة على الفرد مع تنمية الشعور بالمواطنة والقضاء على النعرات العرقية والدينية، إلى جانب التنمية والتعريف بمفهوم المجتمع الكوكبي والمواطنة الكوكبية .

اسلافنا اكثر قسوة ؟

بل إن ثمة إتجاها لدى الكثيرين يرى أن التحديث ونظمه الثقافية تؤدي إلى إرتقاء المشاعر الإنسانية. فأسلافنا كانوا على مر العصور أشد قسوة وعدوانية وعنفا من الأجيال الحالية، وأن الوقت الحالي هو أكثر فترات التاريخ البشري أمنا وسلاما بالرغم من كل ما شاهده ويشهده من حروب وإعتداءات وانتهاكات فردية وجماعية ودولية، وخروج على كل القيم والأعراف. وفي دراسة أجراها أستاذ الجريمة مانويل آيزنر Manuel Eisner في عدد كبير جدا من القرى في عدة دول، إكتشف أن معدلات جرائم القتل في أوربا تقلصت من مائة حالة لكل مائة ألف نسمة من السكان في السنة في العصور الوسطي إلى أقل من حالة واحدة لكل مائة ألف نسمة في الوقت الحالي، وأن هناك تراجعا ملحوظا في أعداد القتلي في الحروب العرقية والثورات والانقلابات العسكرية. ولكن هل يستطيع البشر بالرغم من هذه العوامل الإيجابية تغيير سلوكياتهم وأفعالهم وأفكارهم بسهولة ويسر وبالسرعة المطلوبة ؟!

الأمر يحتاج على أية حال إلى بذل كثير من الجهود لتغيير الأوضاع المتردية في معظم دول العالم والتي تدعو إلى اليأس والإحباط، وتدفع إلى التمرد والالتجاء إلى العنف، وهذه في الأغلب أوضاع من صنع المجتمع نفسه كالتفاوت الاجتماعي والاقتصادي وغياب القدوة الرشيدة الرائدة وإساءة إستخدام السلطة والتحكم الشديد في أقدار الآخرين وإهدار آدميتهم وإنتقاص شعورهم

بالكرامة الفردية وغير ذلك من مظاهر الخلل في العلاقات الإنسانية، إنما لابد من بذل جهود أخرى مضاعفة لتغيير أو تعديل وتهذيب ثقافة العنف ولا نقول القضاء عليها، لاستحالة ذلك بحكم طبيعة المجتمع الإنساني والعلاقات بين البشر، فتغيير ثقافة قائمة مهما كانت فرعية ومرفوضة من المجتمع الوطني أو القومي لكي يحل محلها مفاهيم وقيم جديدة، يحتاج إلى عقود طويلة، لأن جانبا كبيرا من أي ثقافة يتعلق بالقيم والمبادئ التي تحكم العلاقات والسلوكيات والتي يؤمن بها المنتمون لتلك الثقافة، وإذا كان هناك من يقول إن الثقافة صناعة بشرية، فهناك على الجانب الآخر من يرى أن الثقافة هي التي تصنع الإنسان وتشكل سلوكياته وعلاقاته ونظرته إلى الذات وإلى العالم. فالعلاقة بين الاثنين علاقة تفاعل وتأثير متبادل وأن قبول الثقافة والخضوع لمبادئها ومعاييرها وقيمها هي عملية تربوية طويلة ومعقدة تبدأ من علاقة الأم بوليدها ثم تتولى أوضاع المجتمع وظروفه وأحداثه وتاريخه بعد ذلك رعايتها وتوطيدها وترسيخها، بحيث تصبح سلوكا مقبولا من أعضاء الجماعة الثقافية .

وقد يمكن اللجوء الى التشريعات وسن القوانين لمكافحة العنف وحصر إنتشاره والتخفيف من آثاره وليس القضاء عليه تماما ولكن الوسيلة الناجحه في محاربة العنف هي نوع التربية والتعليم والتنشئة الاجتماعية التي يخضع لها الفرد طيلة حياته والمؤثرات الثقافية التي يتعرض لها، وبخاصة من وسائل الإعلام. فالإعتماد على القانون والتشريع لن يؤدي إلى إختفاء العنف تماما بل إنه قد يؤدي إلى العكس وذلك رغبة في التحدي، ودليلا على الوجود في الساحة وإثبات الذات، خاصة أن كثيرا من أحداث العنف تأخذ الآن الشكل الجماعي الذي يهدف إلى السيطرة على الشارع في المدن الكبرى. فالقضاء على العنف لن يتحقق إلا إذا تحقق من خلال التوعية الطويلة المستنيرة والهادفة، التي تلجأ إلى الحوار الذي يهدف إلى التوصل إلى نوع من المواءمة والفهم والتقارب

ومراعاة الحقوق والواجبات. ويبدو أن ثمة إدراكا عاما لهذه الحقيقة التي قد تؤدي إلى ظهور مجتمع أكثر أمنا وسلاما بالرغم من شكوك " مارتن فان كريفلد ".


الفصـــل الثالـــــث
العالم العربي بين النهضة و الإنحطاط

قراءات تاريخية فى النهضة والانحطاط فى العالم العربى :

أطلق بعض الدارسين على الفترة العثمانية عصر إنحطاط ، ومد بعضهم عصر الانحطاط ليشمل الفترة المملوكية وجانباً من العصور العباسية المتأخرة ، فما أبرز مظاهر الانحطاط فى رأيهم ؟ إن أبرز مظاهر الانحطاط فى رأيهم : جمود العقول ، وقلة الإبداع العلمي ، والتكرار والاجترار في الإنتاج العلمي ...إلخ ، ومن أبرز الذين شرحوا هذه الحالة ونظروا لها ، اثنان هما : مالك بن نبي ومحمد عابد الجابري ، الأول ، فى كتبه عن مشكلات الحضارة ، والثانى فى كتبه عن العقل العربي .

لقد اعتبر مالك بن نبي أن عوامل التعارض الداخلية فى المجتمع الإسلامي بلغت قمتها فى نهاية دولة الموحدين ، ولم يعد الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة ، بل أوضحت عناصر خامدة ليس بينها صلة مبدعة ، لقد طرح مالك بن نبي آراءه عن مشكلات الحضارة فى الخمسينيات من القرن المنصرم ، ثم جاء محمد عابد الجابر فى الثمانيات ليطرح دراسته عن العقل العربي فى كتابين : الأول عن تكوين العقل العربي ، والثاني عن بنية العقل العربي ، فماذا جاء فيهما مما له علاقة بموضوعنا وهو إنحطاط الأمة وجمودها العقلى والعلمي ؟

لقد أعتبر الجابري أن أهم عامل ساهم فى تكوين العقل العربي هو عصر التدوين ، لأنه الإطار المرجعي الذي يشد إلية جميع فروع الثقافة وينظم مختلف تموجاتها اللاحقة إلى يومنا هذا ، فصورة العصر الجاهلي وصورة صدر الإسلام والقسم الأعظم من العصر الأموي إنما نسجتها خيوط منبثقة من عصر التدوين الذي إبتدأ فى العام ١٤٣ للهجرة ، ثم درس الجابري الأنظمة المعرفية

التى شكلت بنية العقل العربي ،وأشار إلى أزمته التي نتجت عن تصادم وتداخل الأنظمة المعرفية الثلاثة وهي : البيان والعرفان والبرهان ، واعتبر أن شخصية أبى حامد الغزالي تجسد هذا التصادم والتداخل ، وتجلى ذلك فى أزمته الروحية التي أفقدته توازنه مرتين ، والتي تحدث عنها فى كتابه " المنقذ من الضلال " .

ثم أشار الجابري إلى لحظتين متمايزتين فى العقل العربي : الأول ، تمتد من بدايات عصر التدوين إلى لحظة الغزالي وقد كان العقل العربي فيها فاعلاً منتجًا ، والثانية ، ما بعد لحظة الغزالي حيث إبتداء ما أسماه بالتداخل التلفيقي بين النظم المعرفية الثلاثة وأصبح العقل العربي فيها جامدا .

لكن د . جورج صليبا توصل في كتاب جديد تحت عنوان " الفكر العلمي العربي : نشأته وتطوره " إلى نتائج مخالفة لما توصل إليه الكاتبان السابقان ، لأنه إتبع منهجية جديدة فى دراسة العلوم العربية ، وتقوم هذه المنهجية على رصد التطورات العلمية للعلوم العربية وعلى عدم الانطلاق من نظريات مسبقة ، وطبق ذلك على علم الفلك فتوصل إلى أن العصر الذهبي لعلم الفلك هو العصر الذي يطلقون عليه عصر الانحطاط بالنسبة للعلوم العربية بشكل عام ، ويشيرفي هذا الصدد إلى نظريات إبتدعها نصير الدين الطوسي فى كتابه " تحرير المجسطي " الذي ألفه عام ١٢٤٧ م ، "والذكرة في الهيئة " الذي ألفه بعد الكتاب السابق بنحو ثلاث عشرة سنة .

وقد أفرد الطوسي فصلاً كاملاً للرد على علم الفلك اليوناني ، ولإقامة هيئته البديلة ، وفي أثناء هذا العرض يستخدم الطوسي مرة ثانية النظرية الجديدة التي كان قد أقترحها بشكل مبدئي في كتاب "تحرير المجسطي " ، وإذا بهذه النظرية تظهر هي الأخرى بعد نحو ثلاثة قرون في أعمال كوبرنيك بالذات وبالشكل الذي ظهرت فيه في " تذكرة " الطوسي .

ولم يتوقف الأمر عند الطوسي وحده بل شمل الإبداع فى علم الفلك عشرات من الآخرين فى القرون التالية وكان من أبرزهم شمس الدين الخفري الذي كان معاصرا لكوبرنيك والذي كان يتحلى بمقدرة رياضية وبدراية في دور الرياضيات فى صياغة العلوم ، ندر أن يوجد مثلها في أعمال الذين أتوا قبل القرن السابع عشر الذي تم فيه فعلاً تكوين العلم الحديث .

وعند التدقيق نجد أن تقسيم تاريخ حضارتنا إلى فترات : عصر نشأة ، وعصر ترجمة ، وعصر إبداع فكري ، ثم عصر جمود وإنحطاط ، ثم عصر نهضة ، هو تقسيم إستشراقي يستلهم دورة الحضارة الغربية ، وينطلق من تأكيد مركزيتها ، ويعمم حالة العصور الوسطى عندنا التي يجب أن تكون أيضا عصور جمود وإنحطاط حسب زعمهم ، ولكن النظرة الفاحصة المدققة المتبصرة تلغي مثل هذا الحكم وتبين أن علم الفلك _ على الأقل _ لا ينطبق عليه مثل هذا الحكم حسب الدراسة المتبحرة التي قام بها د. صليبا وحسب النتائج الأكيدة التي توصل إليها ودعا فى نهايتها إلى تقصي واقع العلوم العربية الأخرى من أجل الوصول إلى نتائج مشابهة في عدم جمود العقل العربي .

أما فيما يتعلق بعصر النهضة فقد إعتبر بعض الدارسين أن نهضة بدأت في مصر في عهد محمد علي باشا (١٨٠٥ -١٨٤٨) ، ودللوا على تلك النهضة بالتحديثات التي قام بها في المجالات العسكرية والتعليمية والاقتصادية ، ولعب محمد علي باشا دوراً أساسياً بارزاً في المنطقة سواء مع الخلافة العثمانية أم ضدها ، لكن مصر انتهت إلى أن أرتهن إقتصادها للدول الغربية وشركاتها في النصف الثاني للقرن التاسع عشر ، مما ترك المجال لأوسع التدخلات فى الشؤون المصرية ، وأدى ذلك إلى إستعمار مصر في العام ١٨٨٢ م من قبل

الإنجليز إلى حين توقيع إتفاقية الجلاء في العام ١٩٥٤م ، وهي تعاني الآن ضعفاً في الاقتصاد والسياسة والزراعة والصناعة ......إلخ .

وهنا يأتي السؤال : لماذا لم تتحقق النهضة في مصر ؟ لم تتحقق النهضة لأنها تتولد بعمليتين مترافقتين ، هما : تكنولوجيا غريبة ، ورؤية فكرية ، وبمقدار ما تكون الرؤية الفكرية معمقة فى توصيف الحاضر وتشريح الماضي وإستشراف المستقبل بمقدار ما تكون النهضة ناجحة وذات أثر مستمر .

وقد غابت النهضة عن تجربة محمد علي باشا بسبب غياب الرؤية الفكرية عنده ، مع أنه نقل كثيراً من التكنولوجيا الغريبة ، وقام بكثير من الإصلاحات الإدارية والزراعية والصناعية والاقتصادية .... إلخ ، فلم يكن له أي موقف فكري من الواقع ، مع أنه كان مليئا بالإيجبابيات والسلبيات التي تحتاج إلى المعالجة على مستوتيين : الأخذ بالإيجابيات ومعالجة السلبيات ، وقد أدى إنعدام الرؤية الفكرية عنده إلى إنزلاق تجربته إلى التغريب عند حفيده الخديوي إسماعيل الذي أعتبر مصر قطعة من أوروبا ، وأخذ بكل مظاهر التغريب ، وأدى هذا التوجه إلى إضعاف مصر وخسارة الاستقلال السياسي عندما أحتلها الإنجليز عام ١٨٨٢ .

ونحن من أجل توضيح وتأكيد وجهة نظرنا لعملية توليد النهضة يمكن أن نأخذ مثالا على ذلك مما جرى في اليابان ، وهو البلد الذي تطلع إلى النهضة كما تطلعت مصر لها وفي وقت متقارب ، لكن اليابان إستطاعت أن تحقق النهضة في حين أن مصر عجزت عن ذلك ، والسبب في ذلك أن اليابان حققت الشرطين المطلوبين للنهضة في حين أن مصر حققت واحداً منهما ، فلنر كيف سارت الأمور في اليابان .

إنطلقت اليابان في منتصف القرن التاسع عشر وحاولت اللحاق بالغرب ، وقد جاءت هذه الانطلاقة بعد إنذار وجهته القوات الأميركية بقيادة بيري يوم ١٤ يوليو ١٨٥٣ إلى فتح الموانئ اليابانية أمام الملاحة الدولية ، وتم لاحقا توقيع إتفاقيات مذلة ومجحفة بحق اليابانيين أجبرتهم فيها الولايات المتحدة الأميركية يوم ٣١ مارس ١٨٥٤ على فتح موانئهم لأساطيل الدول الغربية ، وجاء رد الفعل الشعبي بإزالة الأسرة الحاكمة آنذاك وهي أسرة توكوغاوا لصالح صعود الحكم الإمبراطوري ، ثم طرح الشعب الياباني شعار " المجد للإمبراطور وليطرد البرابرة " ثم إعتلى الحكم إمبراطور مايجي أي " الإمبراطور المصلح " (١٨٦٨ – ١٩١٢)، وطرحت القيادة اليابانية آنذاك شعارين يعبران عن المرحلة القادمة خير تعبير ، الأول : "جيش قوي ليابان غنية " والثاني : " تقنية غربية وروح يابانية " ، وقد جمع الإمبراطور مايجي في حاشيته نخبة متميزة من كبار قادة الرأى فى اليابان ، بلغت ٤٠٠ شخصية من ذوي الاتجاهات المتنوعة والمبادئ المتنورة ، وقد بدأ حكمه بإعلان مبادئ الإصلاح الخمسة يوم ١٤ مارس ١٨٦٨ ، وتناولت التأكيد على أولوية المصلحة العامة ، وعلى المساواة بين اليابانيين ، وعلى ضرورة توحد السلطتين العسكرية والمدنية ، وعلى البحث لاكتساب الثقافة والتعليم العصريين في أي مكان في العالم وإستخدامهما في بناء ركائز الإمبراطورية اليابانية .

ثم أصبحت اليابان دولة صناعية متقدمة طوال القرن العشرين ، ولعبت دوراً أساسيأفي الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ومع أنها دمرت في الحرب العالمية الثانية بشكل كامل ، فإنها استطاعت في نهاية القرن العشرين أن تصبح من أكثر الدول تقدما في الابتكارات التكنولوجية والأمور العلمية ، وأن تصبح ذات اقتصاد قوي راسخ ، وذات مجتمع حيوي فعال ......إلخ .

رأينا فيما سبق ، أن بعض الدارسين أخطأوا في إطلاق عصر الانحطاط على فترات من تاريخنا ، لأن العقل العربي لم يكن في موات كامل كما تصوروا ولأن دراسة الدكتور صليبا أكدت ذلك وما أحب أن أنبه إليه وأستدركه أننا عندما نقول : إن الباحثين أخطأوا عندما أطلقوا عصر الانحطاط على الفترتين المملوكية والعثمانية لا نقصد أن هاتين الفترتين كانتا خاليتين من الضعف والأمراض والقصور والفجوات والهنات .....إلخ ، بل هناك ضعف وقصور وأمراض ... تحتاج إلى معالجة، وهذا يقتضي منا أن نعالج تلك الأمراض والأخطاء من خلال المنظومة الثقافية للأمة .

وكذلك رأينا فيما سبق ، أن إطلاق اسم "عصر النهضة " على الفترة التي حكم فيها محمد علي باشا وأسرته من بعده مصر في القرن التاسع عشر تسيمة غير صحيحة ، وذلك لأنها لم تمتلك عناصر استحداث النهضة و فاستجلاب التكنولوجيا ، وإقامة المصانع ، وإجراء بعض الإصلاحات في المجالات الزراعية والاقتصادية .... إلخ لا تكفي لإقامة نهضة ، بل لابد من عنصر آخر ، هو عنصر الرؤية الفكرية للواقع .

وهذه الرؤية هي التي تشرح الواقع على ضوء المنظومة الثقافية للأمة ، وتعيد النظر والترتيب والتصنيف والفرز في كل معطيات هذا الواقع من أجل الخلوص إلى إبقاء ما هو نافع وسليم وإبعاد ما هو غير نافع وسليم ، على ضوء معايير مرتبطة بالمنظومة الثقافية للأمة ، وهو ما لم يقم به محمد علي باشا وأسرته على مدى قرن مما أدى إلى انزلاق تجربته في هوة التغريب على يد إسماعيل باشا الذي أعتبر مصر قطعة من أوروبا ، وأدى إلى إرتهان مصر لأوروبا في المرحلة الأولى ، ثم إلى إستعمارها عام ١٨٨٢ في المرحلة الثانية ، في حين أن النهضة نجحت في بلد آخر هو اليابان بسبب أن قيادتها حققت

الشرطين اللذين تحتاجهما النهضة وهما : التكنولوجيا الغربية ، والرؤية الفكرية .

اللغة العربية وأثرها الايجابى فى شعوب العالم :

اللغة العربية منذ أقدم عصورها لغة علم وحضارة حتى في العصر الجاهلي ، لذا نرى بعض المؤرخين المحدثين يقولون إن المجتمع العربي الجاهلي كان مجتمعًا آخذًا ببعض أسباب الخضارة ، ويستدلون على ذلك بكثرة ألفاظ اللغة الدالة على القلم والورق ، اليرع والأنبوبة والقرطاس والطرس والرق والصحيفة ، ومن الألفاظ الدالة على الكتب : الصك - الزبور - الرقيم - السفر - الوصيرة (الصك للسجلات) وهكذا .

كما أن هناك فريقاً من المؤرخين يرون أن الشعر الجاهلي لم يحفظ عن طريق الرواية والسماع فقط وإنما كانت الوسيلة الأولى لحفظه هو القلم والكتابة ، ويستدلون على ذلك بكثرة ورود كلمتي الكتابة والقلم في ألفاظ الشعر الجاهلي أو في بعض تشبيهاته وصوره ، فالمرقش الأكبر مثلا يقول مشبهاً بقايا أطلال منزل الحبيبة ببقايا آثار سطور خطها قلم :

الدار قفر والرسوم كما ... رقش في ظهر الأديم قلم

ويستهل لبيد معلقته بأبيات يصور فيها أيضا بقايا أطلال الحبيبة تصويراً أقرب إلى تصوير المرقش ونجد هذه الصورة لدى شعراء آخرين .

وكان بعض الشعراء الجاهليين يكتبون أشعارهم بل كتب بعضهم – كلقيط بن يعمر الإيادي _ رسائل شعرية مكتوبة إلى قومه ، وكان بعضهم يعرفون لغات أجنبية كعدي بن يزيد الذي كان يعمل في بلاط ملك الحيرة .

وليس أدل على معرفة الجاهليين الكتابة والقراءة من أن معلقاتهم الطوال كانت تذاع وتشتهر بين الناس بسبب تعليقها مكتوبة على جدار الكعبة المشرفة ، وبعد ظهور الإسلام أصبحت اللغة العربية لغة عقيدة قدم أبناؤها للعالم أرقى الحضارات وأسمها ، ويكفي أن نعرف أن هذه اللغة تربط العلم والثقافة بالعقيدة رباطا لا فكاك منه ، فالقرآن الكريم يرفع العلم والعلماء إلى أسمى منزلة ويقسم الله في محكم آياته بالكتاب الكريم (ن والقلم وما يسطرون) (القلم : ١) كما حض القرآن الكريم على القراءة والتعليم في أول سورة نزلت على الرسول الأمين محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام ، ومن هنا فليس بغريب أن توصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة كتب ومكتبات ؛ فلقد أعطى الإسلام دفعة قوية للاتجاه الحضاري في اللغة العربية ، ولذلك رأينا شعوب البلاد المفتوحة تسرع إلى تعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم والحديث النبوي ، ولم يمض نحو قرن من الزمن حتى أخذت العربية تسود في كل أنحاء العالم الإسلامي لا بين المسلمين وحدهم بل بين غيرهم أيضا ممن بقي على دينه القديم ، وقد وصل أثرها إلى البيئات التي كانت نائية أيضا في إيران ومصر وبلاد المغرب وهي بيئات لم يكن لها بالعربية عهد من قبل فإذا هي تتعرب وتتعرب معها الأطراف الغربية للقارة الأوروبية في الأندلس ولا نكاد نتقدم في هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحائها القريبة والبعيدة .

وقادت اللغة العربية العالم حضاريا وأدبيا وعلميا وفلسفيا طوال تسعة قرون منذ القرن الثامن الميلادي حين كان نشر المعارف والعلوم يكاد يقتصر عليها طيلة المرحلة التاريخية التي ساد فيها العرب العالم ، وهي مستعدة بطبيعتها للعموم والشيوع والنهوض بالأمانة الإنسانية ، والتاريخ شاهد صادق على هذا عندما يحدثنا " انه كان التراث العلمي لعلماء العرب والمسلمين باللغة العربية لذا انكب الأوروبيون على تعلم العربية وكان الذي يتقنها يعتبر مثقفا " من ذلك ، ملك صقلية ، وليام الثاني ، الذي كان عالما بالعربية ومتقنا لها وكان فريدريك الثاني متمكنا من اللغة العربية وآدابها ، ووليام الثاني كان لا يتكلم بغير اللغة العربية إلا لضرورة قصوى ، في حين أن فريدريك الثاني ، قرر أن تكون اللغة العربية إجبارية في المدارس الحكومية في طول البلاد وعرضها في عهده ، وقامت الراهبتان الشقيقتان الألمانيتان : هالديغراد ويراس هيتاغراد ، بفتح العديد من المدارس في أنحاء ألمانيا لتعليم اللغة العربية وآدابها واشتهرت من بينها مدرسة " فهماس " ، في بون ومدرسة "ناربون" في برلين ولما دخل وليام إنجلترا فاتحا اصطحب معه العشرات من يهود فرنسا الذين كانوا متمكنين من العربية وقاموا بفتح مدارس لتعليم اللغة العربية في بريطانيا وكان من أشهرها صيتا وسمعة مدرسة "أكسفورد" التي تحولت فيما بعد إلي جامعة متكاملة والتحق بها بعد مائتي سنة المثقف والمفكر الأوروبي الشهير " روجر بيكون" الذي كان يحث طلابه في الجامعة على تعلم اللغة العربية ويعتبرها الطريقة المثلى للثقافة .. على صعيد آخر وصل إبراهيم بن عزرا ، وكان عالما بالتوراة ويهوديا قحا من مسقط رأسه طليطلة ، إلى لندن عام ١١٥٨م ودرس العربية في جامعتها عشرات السنين ، كما تنص كتب التاريخ على أن الفيلسوف الإيطالي الأسقف النصراني الشهير "طاموس إيكوناس" كانا ماهرين في اللغة العربية وألفا عدداً من الكتب الفلسفية باللغة العربية .. وفي القرن الحادي عشر

الميلادي أنشئت في مدينة "سالرنو" في إيطاليا مدرسة طبية كانت تقدم خدماتها التدريسية والتدريبية باللغة العربية .. وعين في عهد ملوك الأرمن الأسقف الأفريقي الأصل " قسطنطين" مديراً لها وهو الذي قام بترجمة ثمانين كتاباً في الطب لابن سينا والرازي وغيرهما إلى اللاتينية وكان يتقن العربية إتقانا تاما ..

وفي عام ١٤٧٣م أصدر ملك فرنسا "لويس الحادي عشر" مرسومه الملكي القاضي باعتماد كتب ابن رشد في الفلسفة وفي اللغة العربية مقررا دراسيا في جامعات فرنسا .. وكانت "بدوا" في إيطاليا حتى القرن الثامن عشر الميلادي .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن ابن ميسرة الصوفي الأندلسي الشهير الذي ألف كتبا عدة في التصوف لخصها بالعربية العالم اليهودي الأندلسي "اوس بروان" في كتاب واحد وترجم هذا الكتاب في القرن الثاني عشر الميلادي بعنوان fonsvitca، ترجمه "اتن ديث".

وفي إسبانيا كان هناك عالمان بارزان أحدهما "رميندلال" الذي فتح مدرسة للعلوم الإسلامية والشرقية وكان يتقن العربية ويتحدث بها بطلاقة لدرجة أن زائره يحسبه عربيا ، وقد صنف في العربية كتابا في الأسماء الإلهية وأسرارها وخواصها .

وثانيهما "رميند مارتين" الذي تخرج من مدرسة طليطلة للعلوم الشرقية وكان متجرا في علوم القرآن والحديث والفقه والفلسفة ، وقد لخص كتاب "تهافت الفلاسفة" للإمام الغزالي بعنوان pugio fidei وكتب كتابا ضخما في الإلهيات يحتوي علي موضوعات : ذات الإله ، والروح نظام الكون والآخرة ،

وهو ما يمثل نسخة طبق الأصل لنظريات الغزالي حول هذه القضايا ... كما قام الأسقف "هيراب" بترجمة التقويم العربي إلى الإسبانية .

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن الملك الإسباني "ألفونسو العاشر" كان عالما بالعربية ومتقنا لآدابها وألف عددا من الكتب بالعربية وسعى إلى ترويج العربية إبان فترة حكمه ، ولعل مما يتعجب له البعض أنه ألف كتابا ضخما في سيرة النبي محمد صلى الله علية وسلم ، اطلع عليه المفكر الألماني "مراد هوفمان" في متحف "لانيدن" للتراث في هولندا ، كما ألف "ألفونسو" كتابا آخر بالعربية في خواص الأحجار الكريمة ويوجد هذا الكتاب في مكتبة "الإسكوريال" وفي عام ١١٣٠م قام الأسقف الإسباني "ريمند" بإنشاء جامعة في طليطلة ، استقطب للتدريس فيها علماء متخصصين في علوم العربية واللاتينية كانوا يقومون جنبا إلى جنب مع التدريس _ وظيفتهم الأساسية_ بمهمة ترجمة التراث العربي إلى اللاتينية والإسبانية ، وظلت هذه الجامعة تقدم خدماتها للمجتمع على مدار ثلاثة قرون وقدرت الكتب التي ترجمت طوال هذه الفترة من العربية إلى اللاتينية بأكثر من ثلاثة آلاف وثلثمائة كتاب .

وفي عام ١٢٢٤م أنشأ "فريدريك الثاني" جامعة ضخمة في "نيبلز" وكان من ضمن المقررات الإجبارية والمتطلبات الجامعية الأساسية كتب ابن رشد في الفلسفة التي كانت تدرس باللغة العربية وكانت مكتبة الجامعة زاخرة بآلاف المجلدات في اللغة العربية .

وأنشأ ملك البرتغال "هنري الرابع" أكاديمية بحرية وظف للتدريس فيها عالمين بالعربية متقنين لفنونها وتخرج عنها الرحالة والمغامر البحري "فاسكو دي غاما" الذي خرج من بلده البرتغال حتى وصل إلى الهند . وهو أول ملاح بحري أوروبي خرج من قارته إلى بلد آخر .

صور من الماضي تثبت عالمية اللغة العربية :

اللغة العربية ليست قاصرة عن مسايرة الحياة وتطوراتها منذ دفع بها الإسلام إلى ارتياد آفاق العلم التجريبي حتى صارت لغة العلم كما هي لغة الدين والأدب ولم يطرأ عليها شيء يخلع عنها هذا الثوب الذي كساها به الإسلام .

إن علماء العرب لم يكتبوا أعمالهم التي نهل منها الغرب وكانت سبب رقيه ونهضته إلا باللغة العربية .. عندها صارت وعاء للعلوم وأصبح لها اليد الطولى والسيطرة على سائر لغات العالم أجمع . وقد رأينا كثيرا من رواد ومشاهير الأدب العالمي هرولوا إلى تعلم اللغة العربية بعدما استهوتهم جماليات الثقافة العربية الإسلامية أمثال بوشكين وتوليستوي وغيرهما ويكفي لإجمال الأثر الذي تركه الأدب الإسلامي باللغة العربية في آداب الأوروبين أننا لانجد أديبا واحدا من نوابغ الأدباء عندهم خلا شعره أو نثره من بطل إسلامي أو نادرة إسلامية ومنهم شكسبير وأديسون وبيرون وسوزي وكولردج وشلي ، ببن أدباء الإنجليز ، ومنهم جوته وهردر ولسنغ وهيني بين أدباء الألمان ، [illegible] ومنتسيكو وهيجو بين أدباء الفرنسيين ، ولافونتين الفرنسي الذي صرح لاقتدائه في الأساطير بكتاب كليلة ودمنة الذي عرفه الأوروبيون عن طريق المسلمين ولغتهم العربية .

الوسائط الحديثه وأثرها فى الثقافه العربيه :

لا شك أن الوسائط الحديثة قد أثرت على الثقافة العربية ، ولاحت مظاهر هذا التغير ، أيا كانت درجتها ، في أشكال من الكتابة الجديدة ، وفي بعض العروض الفنية ، وفي ظهور تخصصات علمية تقنية جديدة تتعلق بهذا المجال ،

إضافة إلى مجال الإعلام بكل ما يتضمنه من ظواهر جديدة ، بل وفي تغيير مفهوم العمل الرقابي .

وفي هذا الإطار نواصل عرض الدراسات التحليلية والنقدية التي ركز بعضها على ثقافة الطفل في ظل إنتشار هذه الوسائط الجديدة ممثلة في الإنترنت وفي قنوات الفضائيات الموجهة للأطفال ، وهو ما نرى أهميته القصوى في ظل التأثير الكبير الذي تلعبه هذه الوسائط في تشكيل الوجدان والعقل للطفل العربي، ولعل الدراسات المهمة التي تضمنتها الدراسه تشير بجلاء إلى العديد من السمات المهمة للإنترنت على سبيل المثال كوسيط يتضمن وسائل الترفيه والتسلية جنبا إلى جنب مع وسائط المعرفة والتعلم، وهو ما يشير إلى المسئولية الكبيرة التي تتحملها الأسر والمؤسسات التربوية في التحفيز على إكتساب الجوانب الإيجابية لتلك الوسائط للتقليل من آثارها السلبية .

ويأتي التلفزيون كوسيط آخر خطير بالنسبة للطفل العربي نظرا لشدة تأثيره وقدرته على إستلاب الطفل لفترات طويلة بما يقدمه، فما الذي تقدمه شاشات الفضائيات العربية للطفل .

إن تأمل الواقع الراهن لهذه البرامج، لما تتيحه شبكة الإنترنت من مواقع تحتوي على كل شيء تقريبا يلقي على مؤسساتنا الحكومية مسئولية كبيرة في ضرورة تبني مشروعات تثقيفية للأطفال العرب توجه إليهم عبر الصورة التلفزيونية وعبر المواقع الإلكترونية، بحيث تدعم الحفاظ على القيم البناءة الإيجابية لمواجهة عشرات الآلاف من المواقع الأخرى التي لا تهتم إلا بالترف الذهني، وشغل وقت الطفل بقيم سلبية ، تصل إلى حد الخطورة في بعض الأحيان .

إن التداخل الكبير للوسائط الحديثة في وسائل تثقيف الشباب والأطفال العرب يحمل إعلامنا العربي ومؤسساتنا الثقافية مسئولية كبيرة في ضرورة إعادة النظر في المحتوى المعرفي والتثقيفي والعلمي الموجه لهذه الفئة المهمة من الأجيال العربية وصياغة مستقبلهم على النحو الذي يمكن به إعداد أجيال عربية أكثر قدرة على التعامل مع لغة العصر الحديث.

كما أن المؤسسات التربوية العربية مطالبة بمراجعة مناهجها ووسائلها التعليمية بحيث تتوافق مع الوسائط الحديثة التي أصبحت اليوم جزءا أساسيا من أسس التعليم الغربي ، وفي العديد من المدارس الأجنبية التي تتسابق في الانتشار في منطقتنا العربية على حساب مدارسنا الوطنية التي تعاني من تردي مستوى التعليم وجودته.

ولعله من اللافت أن تنامي استخدام الوسائط الحديثة في الوطن العربي أحدثت ظاهرة تتمثل في تنامي استخدام اللهجات العامية المحلية بشكل بات يهدد بخطر حقيقي على اللغة الفصحى التي وحدت الهوية العربية لقرون ولا تزال، لكنها اليوم تحتاج إلى وعي جديد يعيد لها مجدها القديم في الثقافة العربية إجمالا.

فالثقافة كما سبق لي أن كررت هي اللغة ، وهي الهوية ، كما أنها التاريخ هي الحياة التي تحتاج لكي تنبض إلى مدد من الأفكار الجديدة التي تربط الماضي بالمستقبل ، ولعل هذا على وجه التحديد أحد أبرز ما أفرزته أبحاث وأوراق هذه هذه الدراسه ، تؤكد على أن ما يقال عن انحياز الثقافة العربية للماضي ، واتهامها بالسلفية، قد يكون صحيحا في بعض مواضع هذه الثقافة وذهنيتها ، لكنه غير ذلك في مواضع أخرى عديدة . ولعل موضوع الدراسه ، يقف ليعترض على هذه المقولة بالذات، اعتبارا هذه الدراسه وآفاقها كلها هي

آفاق تضع أعينها على المستقبل، وتسعى للانفتاح عليه ، فنحن لن نقدر على المستقبل إلا إذا انفتحنا عليه، نستبصر جديده من موقع المشارك الإيجابي والفعال ، لا موقع المتلقي .

تبقى إشارة إلى انتشار مصطلحات جديدة في نسيج الثقافة العربية نشأت بفضل الوسائط الحديثة، وامتزجت مع مكونات النسيج الثقافي وأفرزت ظواهر جديدة هي اليوم تتفاعل في هذه الثقافة، وسوف تفرز آثارها عاجلا أم آجلا. ومن بين هذه المصطلحات على سبيل المثال مصطلح « التفاعلية » ، والذي يشير إلى ظاهرة التعقيبات التي ترتبط بالمدونات والمواقع التفاعلية ، فمثل هذه الظاهرة ترتبط بشكل ما بتأسيس ثقافة حوار، ربما لم تصل للشكل الأمثل للمعنى الحقيقي لفكرة الحوار، لكنها تتضمنها، وربما تدعو لتبني قيم الحوار في الذهنية بعد تراكم الخبرة والزمن، وهو مثال واحد من بين العديد من الظواهر الجديدة التي تقتضي المزيد من الدراسة والتحليل .

أخيرًا أكرر هنا أن نداءنا بحضور الثقافة العربية في فضاء جديد لا يعني التخلي عن قيمنا لمصلحة أدوات هذا المجال وتقنياته ولا يعني تهميش هويتنا العربية وحضارتنا الإسلامية ولا يجيز طمس خصوصيتنا القومية بل نريد لثقافتنا العربية في حضورها المتجدد عبر هذه الوسائط الحديثة أن تكون جسرا لكل هذه الخصوصيات التي لا تنفصل عن وجودنا وحاضرنا ومستقبلنا.

شبابنا العربى وحياته الإفتراضيه :

في الماضي كانت وسائل الترفيه في المجتمعات العربية مرتبطة ومحدودة بالمكان، حيث كانت في أغلبها محلية خالصة يبدعها الشعب بنفسه لتعود إليه

مرة أخرى فهذه أهازيج النساء ينشدنها في الليالي الطويلة في إنتظار عودة الزوج الغائب من أجل لقمة العيش، وهذه أغانٍ لهؤلاء الأبناء الصغار في المهد، وهذه أغنيات الأفراح والأحزان وغيرها.

وكان الرجال ينشدون الأغاني التي تعينهم على العمل ومواجهة صعاب الحياة والطبيعة القاسية وتحدياتها عند الصيد في البر والبحر وعند الحصاد والرعي والبناء الخ .

كما كانت الجدات تحكين حكايات الأجداد وسير العائلات، ويلعب الأطفال ألعابهم البسيطة مع الغناء .

أما رواة السيرة فهم شبة محترفين أو هواة أخذتهم السيرة ليتلو كل منهم ما في جوارحه وما حفظه وتعلمه من الأجداد، وكانت السيرة عنصراً من عناصر التنفيث عن الشعب، فالحكايات المرويّة والسير الشعبية تحمل حكمة السنين وموروثات الشعوب وتاريخها، بل وأصبحت وسيلة من وسائل الشعب للنيل من الحكام الظالمين، فتسخر من الحاكم الظالم، وفي أحيان كثيرة تلغى إنجازاته وحسناته إن وجدت.

وقد بدأت ثورة الاتصالات في أوائل القرن العشرين ، حيث ظهر المذياع ، وتحلقت حوله الأسرة العربية في إنصات وإستمتاع بالغين بكل ما يذيعه والذي كان أغلبه من الثقافة العربية المحلية ، خاصة في بدايات برامجه التي إعتمدت على الموروث الشعبي والتراث العربي والحكايات الدينية والشعبية مثل حكايات ألف ليلة وليلة والسير، وكذلك الأحاديث الثقافية والدينية التي كان يلقيها كبار الأدباء والمثقفين ، هذا بالطبع علاوة على الغناء الذي إنتقل

من الصالات والشوادر ومنازل الأغنياء والموسرين إلى الاستوديوهات الإذاعية ، فتم تهذيبه وتشذيبه ليصبح هامساً ورقيقاً حتى يليق بالوسيلة الجديدة.

وبمرور السنين أصبحت الإذاعة تقدم فناً إذاعياً خالصاً يتناسب مع الوسيلة الجديدة، وعاش المجتمع العربي مع هذا الجهاز الساحر .

ومع ظهور التليفزيون منذ بداية الستينيات من القرن الماضي، وقعت الجماهير العربية أسيرة هذا الجهاز الجديد الأكثر سحراً، حيث إستطاع أن يقدم الصوت والصورة ، وكان لزاماً عليه أن يكون أكثر إنفتاحًا على المجتمعات الأخرى، فلم يعتمد على الثقافة العربية أو المحلية فقط سواء كانت تراثية أو حديثة، بل فتح آفاقاً واسعة للجماهير، وصعد إلى طبقات الجو العليا، والفضاء الخارجي، ونزل إلى أعماق البحار وطبقات الأرض أيضا، وقدم مسلسلات إجتماعية وبوليسية ونفسية محلية وعالمية، كما كان للأطفال نصيب كبير من الفن التلفزيوني العالمي الذي استهدفهم خصيصاً في شكل باهر وممتع .

لقد أصبح هذا الجهاز السحري شريكاً للأسرة والمدرسة في تربية النشء الجديد، حيث شبّت ونمت أجيال جديدة كان يُطلق عليها اسم « أجيال تليفزيونية »، ومع ذلك كانت لا تزال الدولة والأسرة مسيطرتين إلى حد كبير على ما يراه الأطفال والبالغون في المجتمع حيث تستطيع كل منهما الانتقاء والتوجيه بآليات وأشكال مختلفة ومتنوعة.

والخلاصة أنّ الثقافة العربية والمحلية المنتشرة على كل القنوات التليفزيونية، تربط المشاهد سواء كان شابا صغيرا أو يافعا بالواقع الذي يعيش فيه، ولكن مع أواخر القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة وتفجّر ثورة الاتصالات وتطور ألعاب الفيديو وإنتشار شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت)،

بدأت الأجيال الجديدة والتي كانت الأقدر والأسرع في ولوج الفضاء الخارجي، حيث شعرت بذاتها وعبّرت عن رؤيتها وقدرتها وتفاعلها مع التجريب بعيداً عن كل القيود التي تفرضها الأسرة أوالدولة أو المجتمع، ولكن مع الأسف يجب أن نتساءل: كيف تعاملت الأجيال الجديدة مع التكنولوجيا الحديثة ومجتمع المعرفة والمعلومات ؟

بداية الإنطلاق.. ألعاب الفيديو في الغرب :

بالرغم من أن بداية ألعاب الفيديو في الغرب كانت في عام ١٩٧٠ فإن الانتشار الحقيقي كان في عام ١٩٨٠، حيث دخلت أجهزة الكمبيوتر الى المنازل والمدارس وتنوعت الألعاب فأصبحت رياضية أوعنيفة تحتوي على مشاهد القتل والتدمير أو تعليمية وخيالية ... إلخ ، كما تطورت تقنية التحريك والجرافيك وكذلك الأفكار، وهناك دراسات مهمة تتناول أهمية الألعاب وتأثيرها السلبي والايجابي على الأطفال، منها بحث " د. دوجلاس جنتلى في ٢٠٠٤ كما أن هناك أبحاثا عديدة تناولت هذا الموضوع يمكن ان نستخلص منها ما يلي :

الآثار الايجابية :

١. أثبتت هذه الألعاب أنها تعطي للأطفال واليافعين إحساسا بالإنجاز .
٢. تنمّي قدراتهم المعرفية .
٣. تنمي كذلك بعض القدرات الإدراكية .
٤. تنمّي القدرة على التخطيط والتعامل مع المواقف التي قد تكون غير معتادة ومعقدة .

الآثار السلبية :

١. إن قضاء ساعات طويلة أمام هذه الألعاب يؤدى إلى إهمال الدراسة النظامية مما يتسبب في ضعفهم الدراسي بشكل عام .
٢. الأطفال الذين يلعبون ألعاباً عنيفة يظهر لديهم ميل شديد للسلوك العدواني في الحياة الحقيقية .
٣. تسبب مشكلات أسرية، حيث يكون التفاعل بين الطفل وأسرته أقل من الطفل العادي .
٤. التأثير في الذاكرة اللفظية .
٥. في أحيان كثيرة يستغرق الطفل في الألعاب وينفصل عن الواقع المعاش .
٦. زيادة الوزن بما يتتبعها من أمراض .

وقد إستشعر المجتمع الغربي الخطر من ألعاب الكمبيوتر وآثارها السلبية فإجتمعت رابطة شركات البرمجيات الرقمية لوضع تصنيف للألعاب والموضوعات التي تتناولها، يتضمن توصية بالعمر المناسب لكل لعبة مقدمة إلى الطفل وكذلك شرح محتواها .

كما أنشأ جهاز التنظيم الذاتي (أسرب) عام ١٩٩٤ مستويات متدرجة لممارسة هذا الألعاب، ووضع تصنيف عالمي ليكون مرشدا للأهالي عند شرائها وكذلك للمدربين والمعلمين وهو كالتالي :

١- الطفولة المبكرة يرمز لها برمز (Ec) وهى تبدأ من الثالثة ويكون مع الطفل مرافق أكبر سنا وتحتوي هذه الألعاب على مواد بسيطة دون كلمات لتناسب هذه المرحلة .

٢- الالعاب للسن الاكبر من سن ٦ سنوات ويرمز لها بحرف (E) وتحتوى على رسوم متحركة بسيطة، ويستخدم الخيال أو العنف بحرص شديد وبشكل بسيط وتكون الكلمات سهلة وغير موحية أي مباشرة، ويجب أن يصاحب الطفل مرافق في هذه المرحلة السنيّة .

٣- الالعاب للسن من ١٠ سنوات فما فوق، وتحتوى على مزيد من الرسوم المتحركة، مع إستخدام الخيال ولغة مناسبة وعنف بسيط .

٤- ألعاب مرحلة المراهقة المبكرة ويرمز لها بحرف (T) وتبدأ هذه المرحلة من ١٣ سنة لأكثر وتستخدم لغة ناضجة وخشنة، مصحوبة بمواقف العنف البسيطة مع مراعاة الحد الأدنى من مشاهد القتل والدماء وألعاب القمار والميسر .

٥- مرحلة المراهقة الأكبر سنا أي الناضجة ويرمز لها بحرف (M) وتبدأ من ١٧ سنة، وفى هذه السن تحتوي الألعاب على لغة فاضحة وعنف وجنس ودماء .

٦- مرحلة البالغين ويرمز لها برمز (A.o) وهى من ١٨ عاما فأكثر، وتتضمن مشاهد طويلة من الجنس والعنف والمناظر الفاضحة .

وقد قدم العلماء والباحثون النصائح التالية للآباء والأمهات حتى يقللوا من الآثار السلبية لهذه الألعاب :

١- يجب أن يكون الوقت محدداً بزمن لا يتجاوز ساعتين على الأكثر .

٢- يجب التحقق قبل شراء اللعبة من الرموز السابقة قبل شرائها واستخدامها .

٣- يجب أن يكون الطفل قد أنجز واجباته المنزلية قبل اللعب على جهاز الكمبيوتر .

٤- عدم وضع جهاز البلاي ستشن أو الكمبيوتر في حجرة الطفل .

٥- ضرورة تبادل الآراء مع الطفل حول مضمون اللعبة .
٦- رصد الأوقات التي يقضيها الطفل في الاستهلاك الإعلامي، سواء كان مع ألعاب الفيديو أو التليفزيون أو السينما أو الانترنت .
٧- أهمية أن يتبادل الأهل المعلومات حول الألعاب التي يمارسها أطفالهم حتى يساعدوا بعضهم بعضا، وكذلك زيادة المعلومات المتاحة لديهم .

من كل ما سبق يتضح أن الألعاب التكنولوجية وشبكة الإنترنت بما فيها من شبكات إجتماعية تشهد إقبالا كاسحا مثل موقع (الفيس بوك) هي وليدة مجتمع لديه منظومة متكاملة يعيش فيها الطفل الغربي ولا يمارس الألعاب فقط بل كذلك يستمتع بتداول المعلومات في حرية وشفافية. فالمجتمعات الغربية مجتمعات ديمقراطية تتيح لأي فرد بمن فيهم الشباب والأطفال الولوج إلى عالم المعرفة في أنقى صورها دون قيود أو حجب للمعلومات .

والحقيقة أنه فى عالمنا العربي ومنذ نهاية الثمانينيات من القرن الماضي عرف أطفال وشباب العالم العربي بعض الألعاب البدائية الصغيرة على البلاي ستيشن والكمبيوتر ولكن كان ذلك في دوائر صغيرة جداً وعلى إستحياء، حتى حدث الانفجار الكبير وأزدادت أعداد الكمبيوتر في المنازل والمدارس ووصلت إلى النوادي ومراكز الشباب في مصر... ولكن هل زيادة أعداد أجهزة الكمبيوتر والمتعاملين معها تعني أننا دخلنا عصر المعلومات وعالم المعرفة ؟ أم أن شبابنا وأطفالنا يستخدمون هذه الوسائل في التسلية وقتل الوقت وليس أوقات الفراغ ؟

لقد عاش أطفالنا وشبابنا مع ألعاب تعبر عن بيئة غير بيئتهم وعن ظروف غير ظروفهم، وإذا كان المجتمع الذي أفرز هذه الألعاب قد وضع القواعد والمحاذير التي يجب أن تتوافر في التعامل مع هذه الألعاب، خاصة المرحلة العمرية، فإن الحال مختلف تماماً مع العالم العربي،لأنه مع تفشي الأمية بين

الأهل وخاصة الأمهات، يتعامل الطفل دون أدنى وعي أو توجيه مع هذه الألعاب بلا حسابات للوقت ولا معايير سنيّة ولا أي مراقبة من أي نوع، حيث إن الأقلية هي التي تملك أجهزة بلاي ستيشن في منازلها أي يمكن أن يوجد لديها بعض الرقابة أو المشاركة من الأهل، أما الأغلبية فتمارس هذه الألعاب في نوادي فيديو ومقاهي الانترنت دون أي رقابة، خاصة أن أصحاب هذه الأندية والمقاهي ينحصر دورهم عادة في جمع الأموال فقط .

والمؤسف أنه لا توجد حتى الآن أبحاث أو إحصائيات عن عدد الساعات التي يقضيها الشباب العربي أو الأطفال أمام هذه الأجهزة لممارسة الألعاب ولا أهم الألعاب والمواقع الالكترونية التي يفضلونها .

ولكن نتيجة المشاهدة والمتابعة الميدانية في العمل ومراكز الفيديو ومقاهي الإنترنت وكذلك بعض المشاهدات العائلية، توضح أن الجميع يكاد يجزم بأن الطفل والشاب العربي يمارسان هذه الألعاب ساعات تفوق نظيرهما الغربي بكثير، حيث وسائل المتعة محدودة في بعض البلدان ومعدومة في بلدان أخرى، وان وجدت فهي لا تشبع المراهقين والشباب اليافع، لأن الاهتمام يكون في العادة بالمرحلة العمرية الصغيرة .

أهم الألعاب :

أهم الألعاب التي يمارسها الأطفال والشباب العربي، تتضمن ألعاب السيارات والحروب وألعاب الكرة وغيرها .

أولاً : كرة القدم ..

تنفرد لعبة كرة القدم (فيفا) بشعبية جارفة، حيث إن شعبيتها جاءت من شعبية كرة القدم الحقيقية ، علاوة على محاكاتها لكل ألعاب كرة القدم في العالم، حيث تتضمن ما يلي :

١- تشمل هذه اللعبة منتخبات العالم ومن ضمنها بالطبع بعض المنتخبات العربية الحقيقية ، وهى من المرات القليلة التي تصور فيها الألعاب العربي المسلم في صورة حقيقية طبيعية بعيداً عن الصورة النمطية التقليدية التي تصوره بشكل إرهابي أو محارب مهزوم حتى إذا لم يحدث حوار مباشر يعبر عن ذلك، حيث تعوض الحوار بدلالات بصرية عديدة مثل الملابس الفضفاضة، أغطية الرأس، لون البشرة أو البيئة المحيطة .

٢- تشمل كذلك دوري البلاد الكبيرة مثل الدوري الإنجليزي والإيطالي والإسباني وغيرها، إضافة الى دوري الدرجة الأولى والثانية في تلك البلاد .

٣- تحاكي الواقع في الملابس والتصرفات والبيئة،حتى اللاعب الذي يجيد التسديد برأسه في المباراة الحقيقية مثلا نجده يفعل الشيء نفسه في اللعبة، مما يعطى الشاب والطفل المصداقية كاملة .

٤- يستطيع الطفل او الشاب ان يلعب هذه اللعبة بمفرده ، أو مع خصم واحد أو مجموعة .

٥- يستطيع أن يختار لنفسه إما أن يكون لاعبا ضمن الفريق أو أن يكون مدربا يضع الخطط ويقوم بتنفيذها في الملعب .

من هنا يتضح أن هذه اللعبة حياة كاملة قد يعيش فيها اللاعب الشاب أو الطفل فيعوض خيبات أمله في منتخب بلاده، أو تعثّره هو ذاته حينما يلعب

مباراة كرة قدم حقيقية، حيث يصبح اللعب الافتراضي بديلا للعب الحقيقي والحياة الحقيقية .

ثانيا : الفيس بوك ..

بالرغم من عدم وجود معلومات كافية عن واقع العالم العربي السياسي والثقافي والإجتماعي، نتيجة غياب الديمقراطية وعدم الشفافية، كما أسلفت من قبل، فإن الفيس بوك أصبح متنفساً سياسياً شديد الأهمية للشباب، ولقد رأينا في مصر أن بعض الشباب قد دعوا إلى إضرابات واعتصامات احتجاجية وقاموا بتنفيذها على أرض الواقع عن طريق هذا الموقع مما أحرج الحكومة ووضعها في موقف لم تألفه من قبل .

ولكن على موقع الفيس بوك نفسه هناك نموذج للعبة أراها مثالا جيدا للحياة الافتراضية التي يعشها الطفل والشباب العربي وهى اللعبة المعروفة باسم المزرعة

المزرعة :

هذه اللعبة هي الأعلى تقريبا بالنسبة لعدد المشتركين في العالم، حيث يشترك فيها حوالي ٨٠ مليون مشترك، ولم لا وهي تمنح أحلاما كثيرة للشباب خاصة حلم اقتناء الأرض وما عليها. فالمزرعة تحتوى على كل ما في المزارع الحقيقية ولكن بشكل جميل دون بعوض ولا ذباب ولا رائحة بهائم أو متاعب للزرع والحرث والحصاد، انها لعبة تبدو بسيطة ولكن فيها مستويات من اللعب والتفكير وتتلخص خطواتها في الآتي :

١- يأخذ المشترك نقودا وأرضا وبذوراً عبارة عن هدايا مجانية .

٢- يبدأ المشترك في العمل، حيث يزرع ويدرس ويحصد ويحتاج إلى أموال مرة أخرى .

٣- **يستصلح أكبر مساحة ممكنة من الأراضي ويجتهد حتى يصعد إلى المستوى الأعلى، فكلما عمل أكتسب خبرة وكلما أكتسب خبرة حصد، مما يدفعه لأن يأخذ أموالاً مرة أخرى ويصعد مرة أخرى .**

٤- يواجه المشترك مطبات تجعله يخسر نقوداً إفتراضية .

٥- هكذا يظل يشترى ويبيع من النقود الافتراضية إلى أن يصل إلى مرحلة الإدمان، وتكون نقوده الافتراضية قد إنتهت .

٦- حينئذ يبدأ المشترك في الصرف من النقود الحقيقية، وهكذا يعيش الشاب أو الشابة في الوهم والحياة الافتراضية التي لا يستطيع أن يبتعد عنها أبدا، لانه يلتقي فيها بأصدقاء جدد يتعرف عليهم، ويشاركونه حبا لمزرعته ويرسلون له الهدايا التي تكون أحيانا ثمينة جدا مثل قصر أو شجرة نادرة.

وقد أثبتت الأبحاث التي أجريت في الغرب أن هذه اللعبة بالذات تسبب الإدمان الشديد لأعداد كثيرة من الشباب بل من الكبار الناضجين أيضا.

خاتمـــــة :

أكدت الأبحاث مدى خطورة هذه الألعاب على الشباب والأطفال في الغرب وهو منشؤها، فماذا نفعل نحن أمام هجوم هذه الأفكار الغريبة التي لا تنبع من مجتمعاتنا ولا تحمل قيمنا ولا أفكارنا وتستهدف عقول أولادنا وتعطلهم عن التفاعل الحقيقي مع أرض الواقع، نتيجة الغرق في الحياة الوهمية الافتراضية التي يعيشونها بعيدا عن مجتمعاتهم الحقيقية، حيث يصبح الاغتراب ليس مجرد إغتراب في الألعاب فقط بل في المحتوى أيضا .

ألا يستوجب ذلك التهديد الخطير أن يجتمع المفكرون وعلماء الاجتماع والمثقفون والمخرجون بهدف تأسيس أعمال ثقافية وفنية لمواجهة هذا الغزو البعيد عن أي حماية أو رقابة ؟

إن التفكير في تأسيس برامج ومواقع الكترونية والعاب فيديو بديلة وعالية المستوى تنبع من حياتنا وتصب في أهدافنا وتنظر لمستقبلنا ومستقبل أولادنا بأعلى فكر ممكن وتقنية ممكنة، وبعيدة عن التلقين السطحي او الوعظ الفج، هي خطوة أساسية وضرورية لحماية شباب وأطفال أمة تتهددها حمّى التغريب .

الطفل العربى ومدى علاقته بالإنترنت :

يتناول الأستاذ / بلال مصل - هذا الموضوع فى كتاب العربى – العدد ٨٢ أكتوبر ٢٠١٠ بقوله الإنترنت يتطور بسرعة، فهو عالم من المعلومات التي تتجدد يومياً من دون توقف، دخل حياتنا كوسيلة حديثة للتواصل، ما لبثت أن تحولت إلى حاجة ضرورية في حياتنا اليومية... في المنزل والعمل والمدرسة والجامعة أو حتى خلال المواصلات، وعزز وجود الإنترنت واستخدامه كثرة الشركات المزودة لخدماته، بالإضافة للعديد من المنتجات التي تسهل استخدامه والولوج إليه، مثل الكمبيوتر المحمول والجوال، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أصبحنا نرى في المطارات ومحطات القطار، أجهزة تسمح لنا باستخدام الإنترنت مجاناً، وبالتالي أصبح الإنترنت متوافراً لفئات كثيرة من البشر، منها فئة الاطفال وفئة الشباب اليافع، التي تتحدث عنهم هذه الدراسة، وتتطرق إلى إيجابيات وسلبيات استخدامهم لهذه الشبكة العنكبوتية .

تجربة موقع عالم ذكي :

١- الفكرة والنجاح :

في العام ٢٠٠٤ لم يكن الإنترنت على ما هو عليه الآن، كانت خدماته التفاعلية أقل بكثير، خاصة في وطننا العربي، حينها كنت اعمل مع الدار العربية للعلوم في بيروت على مشروع انتاج سلسلة كتب تعليمية للأطفال، تكونت فيما بعد من ٥ كتب وحملت اسم (سلسلة المهارات العلمية: تعلم الكمبيوتر والإنترنت مع المهندس ذكي) التي فازت بجائزة تقديرية من معرض بيروت العربي الدولي للكتاب ٥١. كانت الفكرة العاملة لهذه السلسلة، مبنية على تقديم المادة العلمية بطريقة مبسطة، تعتمد على استخدام الشخصيات الكرتونية لإيصال المعلومة إلى الطفل القارئ. في العام نفسه كنت أعمل على موقع الإنترنت الخاص بهذا المشروع التعليمي، ليكون مكاناً مفيداً للأطفال يقدم لهم الكتب التعليمية والشخصيات الكرتونية، ويكون في الوقت نفسه، فسحة ترفيهية ، مفيدة وآمنة لهم على شبكة الإنترنت، ويستفيدون من مواد الموقع التعليمية والترفيهية، وبالرغم من الإمكانات الفردية المتواضعة حينها، عزمت على أن يخرج الموقع بمستوى جيد، وهذا ما حدث بالفعل، فبدأ الأطفال والشباب الصغار يتوافدون على الموقع شيئاً فشيئاً، وكان لا بد من اطلاق خدمة تفاعلية وقتها، تسمح لرواد الموقع بالرغم من صغر سنهم، بالتعبير عن آرائهم وطرح أفكارهم، فأُطلق منتدى الموقع الذي حقق نجاحاً هائلاً بسرعة، ولكن هذا النجاح لم يكن سهلاً، ففتح باب التعبير على مواقع الإنترنت ليس دائماً فكرة يسهل تنفيذها في وسط وجود الكثير من المفسدين، الذين يحاولون دوماً إيجاد مواقع يطرحون من خلالها فسادهم، عبر نشر مواد غير أخلاقية، وكون موقع عالم ذكي حينها كان موجهاً للصغار، كانت مسألة حمايته حساسة ومهمة جداً، خاصة

بعد أن حدثت حينها مشكلة، أكدت على أهمية تطبيق هذا الأمر، فقد جرت محاولة نشر مادة غير أخلاقية، تم على أثرها شراء برمجة مخصصة لا تسمح لأعضاء الموقع الجدد بنشر مواضيعهم قبل مراقبتها، وهذا ما تطلب حينها المزيد من التواصل والتعاون بين ادارة الموقع التي تكونت من أصدقاء تبرعوا بجزء من وقتهم لدعم اهداف الموقع النبيلة، وبين مجموعة من روّاد الموقع وأعضائه، الذين تم اختيارهم ليشكلوا فريق المشرفين على الموقع، وهذا ما ساهم فيما بعد وبشكل أساسي بجعله أحد أهم المواقع التفاعلية الآمنة الموجهة للصغار وللشباب اليافع، والذي أصبح يضم آلآف الأعضاء والمواضيع، ومئات آلأف المشاركات.

٢ - المشاكل والمعوقات :

طبعاً مثله مثل أي موقع عربي، يواجه موقع عالم ذكي مشاكل ومعوقات تحول بينه وبين تقديم خدمات كثيرة مفيدة لزواره، **ومنها ما يلي:**

أ – التمويل : مواقع الإنترنت الضخمة تحتاج إلى فريق عمل يطورها ويعمل على صيانتها وبرمجة خدماتها بشكلٍ دائم، وهذا يعني تكلفة باهظة، يتم تغطيتها في الغالب من الأرباح التي تنتجها هذه المواقع إن كانت تجارية، أو من التمويل الهادف إن وجد ، وهذا الأخير ليس من السهل الوصول اليه، لأنه وللأسف من الصعب ايجاد جهة رسمية أو مؤسسة ضخمة في وطننا العربي، تقدم الدعم المادي والفني للمواقع التعليمية الموجهة للأطفال والشباب الصغار، والتي تسعى لإثراء المحتوى

العلمي العربي الخاص بهم على شبكة الإنترنت.

ب - الدعم الإعلاني : الإعلان على الإنترنت في منطقة الشرق الأوسط لم يصل بعد لما وصل اليه الإعلان في الغرب، الذي يغطي تكلفة انتاج وصيانة مواقع الإنترنت الضخمة الموجهة لفئات معينة من المستخدمين، بل ويتعدى ذلك إلى انتاج أرباح مهمة ايضاً، وبالرغم من دخول شركات عالمية مثل شبكة جوجل إلى المنطقة العربية لترويج خدماتها الإعلانية، والتي ساهمت بالتأكيد بدعم مادي بسيط لمواقع الإنترنت ، يصعب التكهن بقيمة الدور التي ستلعبه هذه الشركات في دعم الإيراد الإعلاني للمواقع العربية .

ج - الإشتراكات : هناك مواقع كثيرة في الغرب توفر خدماتها التعليمية مقابل مبلغ شهري بسيط، يساهم في دعم بقاء هذه المواقع خاصة إن كان عدد المشتركين فيها كبيراً، وهذا الأمر شبه مستحيل في المنطقة العربية، لأن المحتوى المجاني هو السائد ، ولكن هذا الأمر ليس بالمشكلة الرئيسية، التي تكمن في أن الدفع عبر الانترنت بشكل عام ليس من السهل تحقيقه في منطقتنا العربية ولا يزال يواجه معوقات كثيرة، وبالأخص حينما نتحدث عن دفع مبالغ صغيرة.

٣- المستقبل والخدمات :

بناء على احصائيات موقع عالم ذكي في العام ٢٠٠٩ الذي وصل عدد زواره إلى ٢.٥ مليون زائر، سيوجه الموقع خدماته في الفترة القادمة إلى الأطفال، الفتيان والفتيات الذين تبدأ اعمارهم من ١٠ سنوات وما فوق، على أن يكون للأطفال الصغار (الذين تبدأ أعمارهم من السنتين) ولأسرهم موقع خاص بهم اسمه بوولبول .

أن توفر لموقع عالم ذكي الدعم المادي، فهذا سيسمح له بتقديم الكثير من الخدمات والبرمجيات المفيدة، التي ستساهم وبقوة في اثراء المحتوى العلمي والثقافي للأطفال والشباب العرب على شبكة الإنترنت، خاصة أن ليس لديهم الكثير من المواقع الموجهة لهم، وهنا أدعو جميع المؤسسات الحكومية وغير الحكومية، والشركات التجارية الضخمة، أن يفكروا جيداً في دعم مواقع الإنترنت البناءة، وأتمنى بصدق أن نفكر أكثر بالخطر الذي يواجه ابناءنا من خلال استخدامهم لشبكة الإنترنت العالمية، والتي تضم آلاف المواقع الخطرة، ما لم نوفر لهم البديل، والذي يتثمل بالمواقع التي يهمها أن تحافظ على قيم وأخلاقيات مجتمعنا العربي الأصيل، وعلى توفير وتجديد محتوياتها العلمية، الثقافية، التربوية والترفيهية أيضاً .

الثقافه العربيه مستقبلها فى المرحله القادمه :

تجتاز المجتمعات المعاصرة تحولات عميقة جدا، هي مؤشرات إنتقال فعلي إلى حضارة جديدة ذات أسماء عديدة، لا تمثل اللحظة الحالية سوى مقدمة لها. الكلمات المفاتيح لهذا التحول كثيرة، أبرزها: (العولمة ، الثورة الرقمية ،

عصر النفاذ ، الثورة الصناعية الثالثة ، عصر ما بعد الصناعة ، عصر ما بعد الحداثة ، مجتمع الإعلام ، مجتمع المعرفة.. إلخ) . وحيث كل نهاية تستدعي تسمية، فإن كلمتي (موت و نهاية) تترددان حاليا في أكثر من قطاع : «موت المؤلف»، «موت المثقف»، «نهاية التاريخ»، «نهاية الإيديولوجيا»، «نهاية العمل المأجور»، ««نهاية الدولة»، «نهاية الورَق»، «نهاية اليقين»، إلخ .

وإذا كان ليس بإمكان أي كان أن يتنبأ بالملامح «النهائية» التي سيأخذها هذا التحول، فالواقع الذي يتعذر إنكاره في الوقت الراهن هو السرعة التي يجري بها التحول مما يجعله اليقين الوحيد الذي يمكن الركون إليه لدرجة أن عالما مثل "جويل روزناي " يتحدث عن الدخول الوشيك لحضارتنا إلى إبدال السرعة.

موضوع هذه المساهمة مُساءلة مستقبل الثقافة العربية في ضوء هذه التحولات، لاسيما ما يتعلق فيها بالهوية والثقافة اليوم، جراء الانتقال من الحداثة إلى ما بعدها (من الرأسمالية الصناعية إلى الرأسمالية الثقافية)، من جهة، ومن هيمنة سند الكتاب إلى ظهور وسيط الرقم متمثلا أساسا في الحاسوب وشبكة الإنترنت، من جهة أخرى .

١ - الثقافة والهوية .. إبدالات جديدة :

شكل « الرابط الاجتماعي » ، باعتباره ما يجمع الأفراد ضمن جماعات تتصف كل واحدة منها بالتجانس، بوصفها وحدات مغلقة، لكن أيضا بالتمايز في صلاتها بغيرها من الجماعات، مما يتيح الحديث عن «بيئات ثقافية»، شكّل مبحثا مهما لمعظم الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية للقرن العشرين. وحصيلة تلك البحوث أن الرابط الاجتماعي يتأسس على طقوس العبور

وعلاقات القرابة (قواعد الزواج) والأصل العرقي والجنس والدين والجغرافيا .
في المقابل، تجمع أكثر من دراسة على أن الرابط الاجتماعي يعرف حاليا تحولا أبرزُ سماته أنه صار :

أ) يُنسج بعناصر أخرى تتمثل في وجود إهتمامات مشتركة (مال ، ذوق ، إنشغال معين) .

ب) لحظيا ، حيث توارت التواريخ الفردية الخطية لفائدة الحكايات الإنسانية، داخل علاقات تُقلص الزمان إلى مكان، حيث صار ما يهيمن هو هذا الحاضر الذي أعيشه مع أفراد آخرين في مكان محدد .

ج) متعدداً ، إذ أصبح الفرد قادراً على الانسلاخ من جماعته المحلية ليتجه رأسا إلى الجماعة الكونية ويختار ضمنها مجموعة / مجموعات للإنتماء ، مما أفضى بالبعض إلى الحديث عن « عودة القبلية » أو « القبلية الجديدة » ، وعن «تشذر » للهوية ، وعن تسكع » لها ، بل وحتى عن تعدد للأنا وتشظيها، وهو ما يستدعي من علم كـ« التحليل النفسي » مراجعة تصنيفاته التي تدرج مثل هذه الظواهر ضمن فئة أمراض الذهان (إنفصام الشخصية) .

د) قابلاً للمتاجرة ، إذ « لم يعد منطق النفاذ يخضع بتاتا للمعايير التقليدية، وهي طقوس وعلاقات القرابة والأصل العرقي والدين أو الجنس ، بل « صار» يخضع أساسا لمعيار حقيبة النقود .

هـ) افتراضيا لا ماديا ، وذلك بفعل حركة الفَرْضَنَة الواسعة التي تجتاح مختلف قطاعات الحياة، جرَّاء الثورة الرقمية، متمثلة في النقل الحرفي للعالم

الواقعي وأنشطته إلى العالم الافتراضي (جسم الإنسان، المكتبات، الشغل، الاقتصاد، الخ.). بتعبير آخر: «أنا متصل إذاً أنا موجود. هذه هي العملة الجديدة لنوع جديد من الإنسان لم يعد الأساسي عنده هو الاستقلال الشخصي، بل تعددية من العلاقات التي تقول ما لي وما للآخرين .

في حالتنا نحن العرب ، داخلَ عالم تحطمت فيه حدود الزمان والمكان، وأزيلت فيه حواجز اللغة ، عبر الترجمة الآلية التي تتيح فهم نسبة مهمة من نص لغة يجهلها القارئ، وتيسرت فيه للفرد سبلُ الاتجاه رأسا إلى المجموعة الكونية بدل البقاء ضمن الجماعة الأصل، كيف يمكن الحفاظ على هوية للثقافة العربية ؟ هل يجب اعتبار هذا التحول عنصرا يهدد بالتلاشي، ومن ثمة ضرورة الاحتراز منه ومقاومته ؟ أم يتعين النظر إليه، على العكس، بوصفه عاملا للإثراء وبالتالي ضرورة الابتهاج له والاستفادة منه لتطوير القواسم المشتركة بين المجتمعات العربية ، من جهة ، وبين الثقافة العربية عامة وباقي الثقافات البشرية من جهة ثانية ؟

٢ ـ ثقافة السوق وثقافة المعرفـة :

تعتبر الثورة الرقمية العمود الفقري والمحرك الأساسي للتحولات الجارية أمام أعيننا اليوم . والثقافة هي الحقل الأكثر استهدافا وتجلية لتلك التغييرات لدرجة أن عالما مثل جريمي ريفكن جعل مما يُسميه بـ « الانتقال من الرأسمالية الصناعية إلى الرأسمالية الثقافية » أطروحة مركزية لكتابه « عصر الفرص : الثقافة الجديدة للرأسمالية حيث الحياة تجربة مكلفة » . ومفادها أنه «بتحكم احترافيي قطاع الماركتينغ في تقنيات الإعلام والاتصال آل إليهم لعب الدور الذي كانت تضطلع به في الماضي المؤسسات التعليمية والدينية ومنظمات تبادل

المساعدة والجمعيات المدنية في تفسير وإيصال وصياغة أشكال تعبير ثقافية والحفاظ على الفئات الكبرى لثقافتنا .

كسائر فترات التحولات الكبرى لا يتم التغيير الجاري من دون مقاومة على الصعيد الثقافي « ثمة اليوم صراع كبير بين الثقافة والسوق على مستوى القيم ، ففيما ترى الثقافة وجوب أن تكون هذه القيم جوهرانية ترى السوق ضرورة أن تكون القيم نفسها استعمالية .

بعيدا عن إطلاق أي حكم قيمة حول هذا التحول، ثمة مؤشرات تفيد لبداية انخراط فعلي للعالم العربي في الإبدال الثقافي الجديد ، من أبرزها :

- انتشار ظاهرة الخصخصة (الخوصصة)، وما يترتب عنها من تخل للدولة عن مجموعة من وظائفها الحيوية .
- الالتزام بتطبيق إعلان الألفية للأمم المتحدة الصادر عام ٢٠٠٠، والذي يجعل من أهداف الألفية الحالية للتنمية «وضعُ التكنولوجيات الجديدة ، وتكنولوجيات الإعلام والتواصل بالخصوص، في متناول الجميع .
- تبني التدريس بالمجزوءات وبيداغوجيا الكفايات من عالم المقاولة .
- ظهور فاعلين جدد في قطاع التربية والتعليم، هم عبارة عن شركات صناعية كبرى مثل " أنتل " ، بمبادرتها التعليمية التي توغلت في حوالي ٣٠ دولة ضمنها بلدان المشرق والمغرب العربيين .
- عمل الدول العربية على كهربة مجموع مناطقها الأهلة ووصلها بشبكة الأنترنت في حدود عام ٢٠١٥ .

هذه المعطيات تُظهر أن الثقافة العربية على عتبة إبدال جديد، قوامه الرقم والسوق، يبدو أنه من الإكراه بحيث لم تسلم منه حتى دُوَل ما كان يُعرف

بالمعسكر الشرقي التي تأسست على قيم وتطلعات إنسانية صارت تُدرج اليوم ضمن الطوباويات . أيتعين الانخراط في عملية التغيير الراهنة التي تكتسي طابع الإكراه ، لعوامل سياسية واقتصادية، داخلية وخارجية، مع ما تقضيه من إعادة تحديد لوظائف الثقافة ومهامها وأدوات اشتغالها، وما يطرحه ذلك من خيارات جذرية، أم يجب التمسك بالتصور الحالي للثقافة، التشبث بالوسائط التقليدية، ومن ثمة التصدي للتغييرات الجارية ؟

٣- وراء التحولات الجارية وسيطٌ هو المطبعة وجهازٌ هو الآلة البخارية :

لفهم التحولات الجارية، نقترح الرجوع إلى حدثين مهمين في التاريخ الحديث ، هما اختراع المطبعة وابتكار الآلة البخارية، لأنهما شكلا الجسر الحاسم للانتقال من العصر الوسيط كان لاختراع المطبعة (١٤٦٨م) أثر كبير في أوربا على أصعدة التعليم والتعلم والقراءة والكتابة وإنتاج المعارف وتداولها، حيث أدى انخفاض كلفة تصنيع الكتاب مقارنة بإنتاج المخطوط بتقنيات الوراقة إلى إنتاج أعداد كبيرةٍ من المؤلف الواحد ، وبنسخ متطابقة كليا، كما أفضى الابتكار الجديد إلى ظهور ما يسمى " بالقراءة الموسّعة " التي تنكب على مطالعة عدد كبير من الكتب بفعل وفرتها، مقابلا للقراءة المكثفة التي تقتصر على قراءة عدد محدود جدا من المؤلفات بسبب ندرة الكتاب ، مما أدى إلى انتشار الفكر النقدي الذي سيتبلور في حركة الأنوار خاصة ، فضلاً عن تطور وازدهار أجناس أدبية جديدة وفي مقدمتها الرواية .

بالموازاة مع ذلك ، أدى اختراع الآلة البخارية (١٧٦٩ م) إلى تقليص للإحساس بالزمان والمكان ، عبر القدرة على التنقل في وقت وجيز داخل مساحات شاسعة ، تقليصٌ ستوصله الثورة الرقمية إلى الذروة حيث انعدم في الوقت الراهن الفرق بين المقولتين . كما سيترتب عن الاختراع نفسه ظهور

عملية تواصل واسعة بين الأفراد والمجتمعات شكلت بذورا لما يُسمى اليوم بـ « العولمة » ونقطة انطلاق لما يُسميه البعض الآن بـ « الانفجار التواصلي غير المسبوق .

رغم أن طبعة أول كتاب باللغة العربية تعود إلى نهاية القرن السابع عشر، ورغم المساعي الحثيثة لإدخال الإختراع الجديد إلى العالم العربي عبر أكثر من دولة أوربية وعلى يد الآباء اليسوعيين اللبنانيين بالخصوص، فإن التحاق لغة الضاد الفعلي بفلك جتنبرغ تأخر لأسباب دينية إلى غاية القرن التاسع عشر .

هل يمكن إرجاع أسباب تخلف العالم العربي إلى هذا التأخير؟ للوهلة الأولى، يبدو أن الأمر كذلك، نظرا للتفاوت الهائل بين البلدان العربية ونظيرتها الغربية التي عرفت الوسيط الجديد في وقت مبكر، على أصعدة الكتابة والقراءة وإنتاج المعارف والعلوم والآداب. ولكن اختراع المطبعة في أوروبا جاء في سياق نهضة كانت قد انطلقت منذ القرن الثاني عشر، بمعنى أن الابتكار الجديد جاء ليحل مشكلة تزايد الطلب على نسخ المؤلفات، جاء لتلبية حاجة متزايدة للقراءة كانت موجودة سلفا ولم يكن أصلا في توليد تلك الحاجة وازدياد عدد القراء، هذا من جهة .

من جهة أخرى ، ثمة تقارير تصدر بين الفينة والأخرى تقدم صورة قاتمة عن وضعية القراءة والكتابة في العالم العربي أشهرها التقرير السنوي الصادر عن المنظمة العالمية للملكية الفكرية برسم سنة ٢٠٠٨، وَردَ فيه أن نسبة التأليف في العالم العربي لا تتجاوز ثلاثة كتب لكل مليون عَربّي، وُتداولته مواقع ومنتديات عربية عديدة بشبكة الإنترنت، تحت عنوان : « ثلاثة كتب لكل مليون

عربي. يا لهول الفاجعة » ! **هذا النوع من التقارير يحتاج إلى تنسيب لأسباب أربعة على الأقل :**

الأول : ارتكازه على المطبوعات الورقية في وقت تتيح فيه الشبكة لعدد كبير من الكتاب الذين تقصيهم مصافي النشر التقليدي عدلا أو ظلما أن ينشروا كتاباتهم في مختلف منابر النشر الإلكتروني (مواقع شخصية، مدونات، مجلات وصحف إلكترونية، منتديات) .

الثاني : عدم اعتبار كون الرقمية بصدد إلحاق تغيير جذري بمفهوم الكتاب نفسه، حيث لم يعد ذلك هو ذلك النص الخطي المدون في جسم مادي محصور بين دفتين، ذات سُمك وطول وعرض، قابل للحمل والنقل، وإنما صار شيئا مُجرَّدا مُفككا رحالا بين الجهات الأربع للكوكب. بتعبير آخر، الرقمية بصدد تفكيك الكتاب نفسه.

الثالث : العدد الهائل للمنتديات العربية. فالبحث عن كلمة «منتديات عربية» في محرك جوجل يعطي ٩٠٣٠٠٠٠ نتيجة إذا استثنينا منها المنتديات التقنية كانت الحصيلة بالتأكيد مئات آلاف المنتديات التي تحتضن ساحات للثقافة والفكر والفن والإبداع فيها كم كبير من الكتابات القابلة للصدور في كتب.

الرابع : وجود مئات ، بل ربما آلاف العناوين ، من الكتب العربية التراثية والمعاصرة، على السواء، التي يُرقمنها جيش من المتطوعين العرب المجهولين ويضعها رهن التنزيل والقراءة المجانيين. إذا كانت هذه العملية تقتضي الإدانة، لأنها تتطاول على حقوق المؤلفين والناشرين الورقيين الأصليين لتلك الأعمال، فإنها تعكس في الوقت نفسه رغبة كبيرة لدى القراء العرب في الوصول إلى الكتب، ولكنهم في غياب

الإمكانات المادية لاقتنائها و/أو بسبب العوائق التي تمنع انتشار الكتاب في العالم العربي، يلجأون إلى ذلك. هذا أمر لا تحتسبه التقارير القائمة حول وضعية القراءة في العالم العربي، علما بأن اعتبار أعداد تنزيل هذا النوع من الكتب من شأنه أن يقلب المعطيات في هذا الباب رأسا على عقب .

مهما يكن من أمر ، فواقع القراءة والكتابة في العالم العربي قبل المطبعة ليس هو واقعهما بعدها بالتأكيد، بدليل اتساع قاعدة القراء والكتاب وظهور أجناس خطابية جديدة ، كالمقالة والقصة والرواية، ووسائط جديدة كالصحف والمجلات والدوريات ، فضلا عن إحياء التراث العربي الإسلامي عبر إعادة طبع آلاف المخطوطات في جميع المجالات المعرفية، ما يتيح استنتاج أن تحقيق قاعدة قراء أوسع وعدد كتاب أكبر ومحو نهائي للأمية في هذا السياق يبقى مسألة وقت لا غير .

٤- الرقمية وإنطلاق تحولات جديدة :

ولكن بإنطلاق الثورة الرقمية سنة ١٩٧١، مع إنتشار إستعمال الحواسيب الشخصية وإطلاق شبكة الإنترنت بحوالي عقدين بعد ذلك، تعالت أصوات إجراء مراسيم الوداع الرسمي لزمن جتنبرغ، لتجد ورشة المطبعة في العالم العربي نفسها مرغمة على الدخول في العد العكسي نحو التوقف إذا صدقت أطروحة نهاية الورق في العقد الثاني من القرن الحالي، على غرار الأوراش الأخرى (الحداثة ، الدولة ، العمل المأجور.. إلخ) ، ومن ثمة ضرورة مواجهة السؤال : هل يجب إغلاق ورشة الكتاب الورقي والالتحاق فورا بالرقم في ما يُشبه الطفرة ؟ أم يجب السير بسرعتين والعمل في واجهتين : صعيد الرقم

وقطاع الورق على نحو ما يتم في قطاعات أخرى عبر التشبث بالتقليد والحداثة في أن ؟

باعتبار الرقمية تقنية لتسجيل المعلومات وتخزينها ونشرها عبر نظام التشفير يُحوّلُ سائر الوثائق (خطية، مصورة، صوتية) إلى ملفات مجردة، غير مادية، باللغة الثنائية ، ويقوم بهذا التشفير وسيط الحاسوب الذي يُشكل أداة للقراءة والكتابة، واستقبال سائر أنواع المعلومات (كتابة، صوت، صورة) وبثها، بكلفة منخفضة جدا ، خارج إكراهي الزمان والمكان، وتخزين كميات هائلة من البيانات في مساحة صغيرة... باعتبار الرقمية كذلك، فهي تتيح إنجاز أضعاف ما تقوم به المطبعة بما يجعل المقارنة بين الوسيطين غير مُجدية. وهو ما يسَّر فتح ورشتين ضخمتين في العالم العربي :

أ) رقمنة التراث بمعناه التقليدي ممثلا بآلاف كتب التراث العربي الإسلامي ومخطوطاته من لدن مواقع إسلامية، مثل ملتقى أهل الحديث، وشبكة ، والموسوعة الشاملة التي تتضمن ٦٦٨٨ كتابا ، والجامع الكبير للتراث العربي وغيرها .

ب) رقمنة التراث بمعناه الحديث متجسدا في عدد كبير من المواقع الشخصية والمدونات والمجلات والصحف الإلكترونية والتجمعات الثقافية والفكرية والأدبية والبوابات ومواقع فنية لعرض أشرطة ومحاضرات وملفات فيديو وموسيقى وخزانات رقمية ، فضلا عن المنتديات التي تعد بمئات الآلاف وتتكاثر مثل الفطر.

هذا الوضع صحي بالتأكيد، لأنه يختصر المسافة والمجهود، لكنه إشكاليٌّ في الوقت نفسه لأنه يُدخل الثقافة العربية - على غرار سائر الثقافات بما فيها

التي استفادت خمسة قرون من إنجازات المطبعة - في إبدال جديد أبرز من معالمه :

- تعطيل آليات عمل الثقافة والمثقف، على نحو ما عُهد حتى الآن، داخل المجتمع .
- حدوث شرخ/انشطار في جسد الثقافة حيث بات من الآن فصاعدا بالإمكان التمييز بين ثقافة ومثقفين رقميين وثقافة ومثقفين ورقيين .
- احتمال اختفاء معايير الثقافة المؤسسة على تقاليد الكتاب، ونهاية المثقف الورقي معه ابتداء من العقد الثاني من القرن الحالي .
- غياب ما يسمى بـ «المصفاة» أو «مصداقية المعلومة»، حيث صار بإمكان أي كان أن ينشر، وبمنتهى السهولة، ما شاء مقدما إياه تحت أي من أجناس الخطاب وبالصفة التي يشاء .
- اختفاء المركز، حيث كل موقع في الشبكة هو مركز وهامش في آن واحد .
- مراجعة الوضع الاعتباري للمؤلف وفقدانه سلطته الرمزية، وتلاشي الحدود
- بين الكاتب والقارئ ، حيث صار القارئ مؤلف ما يقرأ ، عبر تعدد الروابط التشعبية وحرية اختيارها، ما لم يشارك المؤلف فعليا هذا النشاط في الكتابات التفاعلية .
- حدوث ما يُسميه البعض بـ «نزيف في الخطاب»، حيث بات ما يُكتب في الشبكة اليوم أكثر مما يُقرأ .
- تعذر جدوى الطرق التقليدية للقراءة أمام الكم الهائل للنصوص والأعمال المتاحة للقراءة في شبكة الإنترنت .
- تشكيل الرقمية لتهديد حقيقي على الأدب جراء تجريدها النص من سنده المادي وقدرة الحاسوب ، عبر البرمجة ، على إنتاج عدد هائل من الأعمال في مختلف الأجناس الأدبية .

٥- الرقمية ومستقبل الثقافة العربية :

مما سبق يُستخلص أن أي محاولة للإحاطة بالثقافة العربية والتحكم في مصيرها ووجهتها، في غمرة التحولات الراهنة، تبقى متعذرة بالنظر لحشود المتدخلين في هذه الثقافة والمعبرين حقا أو زعما - عن لسان حالها، وتشعب أماكن إقامتها بما يتجاوز قدرة العقل البشري على الإلمام به في الوقت الراهن على الأقل . وهي في هذا لا تشكل استثناء ، إذ بانتقال المعرفة من رفوف المكتبات الواقعية إلى العالم الافتراضي والعودة اللولبية للثقافة البشرية إلى المشافهة البدائية أفلتت هذه المعرفة نهائيا من الإحاطة .

هل ينبغي التشاؤم من هذا الوضع ؟ أيجب التشبث بمكونات الثقافة والهوية من منظور الثبات والتمايز ، من المنظور الجوهراني، وما يقتضيه ذلك من مواقف تمضي من الحوار إلى المواجهة[٩]. أم يتعين التمسك بالمكونين نفسيهما من منظور الحيوية والتغيير إعتبارا إلى أن الثقافة كانت أخذا وعطاء وتطورا على الدوام ؟

يرى الفيلسوف بيير ليفي أن العالم الافتراضي إنما هو تجسيد لما يسميه بـ « الذكاء الجمعي » وأن جذور هذا الذكاء تمتد إلى الفلسفة العربية الإسلامية ممثلة في الفارابي وابن سينا وأبو البركات البغدادي. إضافة لابن ميمون، حيث هجرةُ المعرفة إلى الشبكات وتعذر الإحاطة بها إنما هي تجلٍ لما أسماه أولئك الفلاسفة بـ " العقل الفعال " . هذا العقل المنفصل والمستقل بوجوده عن الإنسان تأتي له اليومَ عبر وسيط الحاسوب والشبكات الافتراضية أن يشتغل ليل نهار كما تأتي لأي فرد أن يتصل به من أي نقطة من الكرة الأرضية ليستفيد منه ويساهم فيه، ليأخذ منه ويضيف إليه. ضمن هذه الرؤية، تكون الثقافة العربية جزءا من الثقافة البشرية في مجموعها، أي جزءا من النبوغ الكوني، ويكون

لسلبية عُسر الإحاطة بثقافة لغة الضاد مكافأة قدرةُ أي عربيٍّ على الاتصال بالشبكة ، دون قيود.

ولا حواجز، للاستفادة من الثقافة الكونية وإغنائها في آنها . بهذا المعنى لا يمكن إلا تقدير وتثمين أي اتصال عربي بالشبكة، ويكون وجود الثقافة العربية واستمرارها وإشعاعها رهينا بزيادة هذا الحضور وتكثيفه .

في صلة بالنقطة السابقة، على نحو ما، يمكن لمفهوم العبور الثقافي الذي صادف ترحيبا كبيراً في الأوساط الأنثروبولوجية أن يُساعد كثيرا الثقافة والمثقفين العرب على الانتقال من عيش التعدد الهويي (الذي صار شريانا للحياة المعاصرة) باعتباره « ذنبا » لا إراديا مُرتكبا في حق « ثقافة-أمٍ» أو « هويةٍ خالصة » إلى حياة هذا التعدد نفسه بوصفه أحد مكونات وجود متعدد وعنصر إثراء للثقافة الأصل وثقافات الاحتضان في نفس الوقت . ففي عصر باتت فيه الهوية عملية ذهاب وإياب متواصلين يتعين على الفرد أن يعيش باعتباره هو، لكن أيضا باعتباره آخر، كما يجب اعتبار كل ذهاب نحو « الآخر» فرصة لإثرائه وإغنائه وكل عودة منه رجوعا محملا بما يُغني "الذات " بمكونات ثقافة ذلك الآخر .

من ناحية أخرى ، بعيدا عن سؤال معرفة ما إذا كانت العولمة إيجابية أم سلبية على الثقافة، وأمام واقع ما تفرضه هذه الظاهرة على الثقافة من وجوب المردودية الاقتصادية، يبدو أنه بات لزاماً على الثقافة العربية أن تتجاوز الاقتصار على استهداف المجال العربي إلى الاتجاه نحو مجالات ثقافية أخرى. في هذا الصدد، يتعين استخلاص الكثير من الدروس من السينما الهندية والأمريكية اللاتينية وما يُسمى بأفلام البوليوود فالأولى تحتل المرتبة الثانية عالميا بعد السينما الأمريكية وأشرطتها تنتشر في العالم أجمع، والثانية تنتشر

مسلسلاتها في عشرات الدول بسبب تكيفها مع الأذواق الوطنية لتلك البلدان، والثالثة تصادف نجاحا في البلدان الإسلامية لأنها تحترم المرجعيات الثقافية لهذه البلدان .

على صعيد آخر، بوجود اللغة العربية ضمن اللغات العشر الأكثر انتشارا في العالم . وبكونها أداة مشتركة بين سكان هذا المجال الجغرافي الممتد من المحيط إلى الخليج البالغ عددهم حوالي ٣٥٠ مليون نسمة، فإنها تشكل كنزا ثمينا وضمانة لإشعاع الثقافة العربية في عالم اليوم، ومن ثمة وجوب توحيد الجهود على صعيد وسائط حديثة، كالقنوات التلفزية التي ساهمت في تقليص فوارق الاستعمال اللغوي بين المشرق والمغرب العربيين، كما على صعيد المؤسسات التعليمية والسياسات اللغوية العربية لتجنيب هذا الميراث والمكوّن الهويي خطر الانقسام إلى لهجات على غرار ما حصل للغة اللاتينية في عصر ليس ببعيد عنا .

أخيراً ، أمام الطابع الإكراهي للتحولات الكبرى والسريعة التي يعرفها عالم اليوم ، بات من اللازم على مجموع الدول العربية أن تبذل مجهودات أكبر على صعيد التربية والتعليم في أكثر من واجهة وباستثمار سائر الوسائط الحديثة، بحيث تنكب العملية على إخراج الفئات الواسعة التي ظلت محرومة من القراءة والكتابة حتى اليوم من دائرة الأمية التقليدية، وتربية الناشئة على حسن استغلال تقنيات الإعلام والاتصال، وجعل التربية على المواطنة وحب اللغة والثقافة العربيتين من العناصر الأساسية الحاضرة في التعليم بشتى مستوياته .

العرب والثوره المعاصره :

مضت علينا عقود من الزمن وصف فيها المحللون شباب الأمة العربية بكل ما في قاموس اللامسئولية من مفردات، بل وجعلوه مسئولاً عما في جسد الحاضر من علل، ومتهمًا بما في وجه المستقبل من فشل. ثم جاءت أيام الشباب المصري التي بدأت نهار ٢٥ يناير من هذا العام لتدحض كل ما التصق بالجيل العربي الجديد، فلم تكن تلك الأيام مجرد تغيير للسلطة الحاكمة في مصر، كما لم تعد ثورة لهؤلاء الشباب وحسب، بل أصبحت - في قراءتها الشاملة - ثورة عصر، علينا جميعًا أن نتمعن فيها ونتأمل فلسفتها وأدواتها وتأثيراتها على العالم .

- تحولت أدوات ثورة العصر في يد الشباب إلى سلاح فعال وأصبح هؤلاء المسالمون مذيعين ومراسلين ومصورين
- عرفت السلطات الحاكمة أنها لن تستطيع مجاراة الشباب في ميدانهم الذي خبروه سنين، فقامت بإغلاق الميدان بأكمله !
- ما قام به جيل الشباب، جعل من جدية ما يتم تداوله على صفحات فيس بوك أمرًا بالغ الخطورة والجدة بدأ في الفضاء الافتراضي ثم نزل ليؤثر في الواقع ، ويحرك الأجيال جميعها خلفهم .
- من الممكن أن نؤسس لوجهة نظر جديدة، تسبح في فضاء عصري، تتميز بما دعت إليه ثورة الشباب السلمية، من قيم التغيير .

في فبراير ٢٠٠٤ انطلقت خدمة على الشبكة العنكبوتية عرفت باسم خدمة الشبكة الاجتماعية، أو ما عرف لدى ٦٠٠ مليون مشترك بها حسب إحصاء يناير الماضي بأنها « فيس بوك ». كانت الخدمة مقصورة على طلبة جامعة

هارفارد التي أسسها حفنة منهم ، " هم مارك زوكربرج " ، " وإدواردو سافيرن " ، "وداستن موشكوفيتز " ، " وكريس هيوز " ، من أجل تبادل الأخبار وتكوين المجموعات ذات الاهتمام المشترك، ورغم أن الخدمة لاتزال مجانية، إلا أنها بعد تحولها لشركة عالمية وبفضل القبول المليوني عليها أصبحت تدر أرباحًا خيالية على مؤسسيها، بدأت باثنين وخمسين مليون دولار أمريكي في العام ٢٠٠٦، بينما قدرت في نهاية العام قبل الماضي ٢٠١٠ بأكثر من ملياري دولار أمريكي .

جيل « فيس بوك ». كان إشارة إلى هؤلاء الشباب اللاهين الذين أغرقوا أنفسهم في بحر الإنترنت وبقوا به باحثين عن أصداف لا يجدونها في واقعهم. لكن الثورة الشبابية في مصر، التي قام بها هذا الجيل، جعلت من جدية ما يتم تداوله على صفحات تلك الخدمة أمرا بالغ الخطورة والجدة، وهو أمر بدأ في الفضاء الافتراضي بهؤلاء الشباب، لكنه نزل ليؤثر في الواقع، ويحرك الأجيال جميعها خلفهم ، وهو الأمر نفسه ما حدث مع الثوره الشبابيه فى تونس وكذلك مع الثوره الشبابيه ثورة التكبير فى ليبيا التى أذهلت العالم وأثبت له بأن الشباب الليبيى يمتلك من الشجاعه والأقدام ما لم يكن بتوقعه أحد وأستطاعوا أنها عهد ظلم وإستبداد أستمر لمده أكثر من أربعة عقود وسقط طاغى الطغات وأنتصرت ثورة الشعب الليبيي البطل التى صنعها شبابه المغوار فى السابع عشر من فبراير سنة ٢٠١١ وسيظل التاريخ يذكر هذه الثوره التى قدمت الكثير من الشهداء الذين ضحوا بدمائهم الزكيه من أجل الوطن والثوره التى غيرت التاريخ .

حرب الإنترنت :

في سبيل إستخدام إسلوب الحرب المضادة، لم تنشئ السلطات المصرية صفحات لأفكارها على « فيس بوك »، كان أوان ذلك قد فات، لذلك، وفي محاولة يائسة للسيطرة على الموقف بعد أن انتبهوا لخطورة هذا التواصل الاجتماعي الفوري والجارف، الذي لا تقتله المسافات ولا تهدمه الأزمنة، بادرت تلك السلطات كما حدث لاحقًا في كل من إيران وليبيا بقطع خدمة الإنترنت اعتقادا منها بأنها كسبت الحرب في السماء. ثم قامت بقطع خدمة الهواتف النقالة. كان أسلوب القطع والمنع والحظر هو ما عرفته السلطات طيلة حياتها المهنية، وقد عرفت السلطات الحاكمة أنها لن تستطيع مجاراة الشباب ومنازلتهم في ميدانهم الذي خبروه سنين، فقامت بإغلاق الميدان بأكمله!

الكل بات يعرف الضغوط التي مورست حتى عادت الحياة إلى الهواتف النقالة، ولكن من دون كتابة رسائل نصية، عاشت عليها ثورة العصر. ونجد الرد الفوري والعلمي : ابتكرت شركة جوجل خدمة تسمح بتحويل الرسائل الصوتية عبر الهاتف النقال إلى كتابة نصية، وأن تترجمها، مهما كان مصدرها، لتنشر ضمن خدمة أخرى مماثلة لخدمة « فيس بوك » اسمها تويتر! هذا العصفور الصغير الذي يزقزق بالأخبار المستورة، وكلنا يذكر ما شاع في الصحافة المصرية، نقلا عن القول الشائع بأن « العصفورة » قالت لي، وهو ما يعني كشف الأسرار، وطارت أخبار « تويتر » تنقل ما حدث إلى العالم.

الفكرة التي بدأ بها موقع تويتر منذ أوائل عام ٢٠٠٦ هو الاعتماد على فكرة التدوين المصغر بإرسال رسائل قصيرة لا تزيد على ١٤٠ حرفا تحكي إجابة عن سؤال وحيد : ماذا تفعل الآن ؟

ظهر موقع تويتر أولاً في نطاق ضيق بمدينة سان فرانسيسكو، ثم أصبح متاحًا للجميع في أكتوبر ٢٠٠٦ يقوم تويتر على فكرة المتابعة، وهي أنك تتابع صديقا على تويتر أو تحب شخصًا مشهورًا، فإنك تجد في صفحته إمكانية متابعة جديد أخباره، وكذلك بالنسبة لك فإنك تجد في صفحتك الخاصة من يتابعك ولا يشترط أن تتابعهم، ومن تتابعهم كذلك لا يشترط أن يتابعوك.

برغم أن فكرة الموقع في الأساس كانت لتعبر فيها عما تفعله في الوقت الحالي، إلا أنه تم التوسع فيها أكثر من ذلك، فلكل واحدٍ نظرته الخاصة في الاستفادة من الموقع، فالبعض يكتب خاطرةً مرت به أو مقولةً مأثورةً يحبها ليشارك بها أصدقاءه ومتابعيه على تويتر، والبعض مثلاً يلفت إلى خبر رآه على موقعٍ أو مقالةٍ بالإشارة إليها على تويتر.

وقد يستخدمه النجوم ممن لهم قاعدةٌ عريضةٌ ليتواصلوا مع محبيهم على الموقع ولينشروا أخبارهم بسهولة، وقد كان لثورة شباب مصر في ٢٥ يناير متابعون كثر، حتى أن بعض الصحف البريطانية نقلت عن تويتر تعليقات شباب مصر الحية من ميدان التحرير.

الإعلام الجديد :

ولكي يضغط النظام الذي يحاول الوقوف في ساحة معركة العصر على الشباب وتقنياتهم، حاول أن يكمم أفواه الإعلام التلفزيوني بطريقتين، الأولى منع المراسلين الذي يفدون للميدان من أن يتقدموا بأسلحتهم (وهي آلات التصوير والميكروفونات لا غير) ليعطي لطريقته المثالية في تشكيل الحقائق الوقت والشاشة ليعرض صورًا باتت بائسة لفرط خياليتها وعدم صدقها. بل ومنع بث بعض القنوات التلفزيونية التي تحاول أن تنقل ما يحدث في الميدان .

لكن ما حدث كان وبالاً على فاعليه. مرة أخرى تتحول أدوات ثورة العصر في يد الشباب إلى سلاح فعال. هم لا يملكون المولوتوف ولا يستعملونه، ولا يمسكون بالأسلحة ولا يريدونها إلا تظاهرة سلمية. لكن هؤلاء المسالمين تحولوا إلى مذيعين ومراسلين ومصورين، وامتلأت شاشات الفضائيات بالصور المنقولة عبر الهواتف الذكية في أيدي الثوار الشباب، وبات الميدان وكل الميادين كتيبة متطورة من الإعلاميين تقدم بالصوت والصورة وقائع الأحداث على مدار الساعة.

الطريف أن القنوات التي لم يشملها الحظر، بدأت هي الأخرى بتقديم شاشاتها "مجانا " للقنوات المحظورة. مرة أخرى تعبر التقنية عن سطوتها، وقدرتها على تجاوز الخطوط العقيمة لمن يظنون أنهم يكممون الإعلام أو يسيطرون عليه. خرج تنين الثوار من القمقم، لكنه لا يركب بساط الريح، ولا يحمل مصباح علاء الدين، لأن لديه ما هو أخطر سحرا وأكثر تأثيرا وأسرع إنباء من الكتب!

لم تعد اللغة التي تعلمها منشئو الأحزاب، ومرددو الأمثولات الأيديولوجية، نافعة أو صالحة للاستعمال في هذا العصر، هذا ما تقوله أبجدية الشباب الجديدة وهي تتحدث عن نفسها في خضم ثورة العصر. ومن يحدد ما سمعناه من هؤلاء الشباب الثائرين منذ يومهم الأول يجد أنه يشبه قنبلة نيوترونية. لقد بدأ بجملة واحدة :الشعب يريد إسقاط النظام. لكن الطلبات بدأت تكبر وتتكاثر وهي بهذا التعاظم تحرك وراءها الجموع الثائرة على أوضاعها. الشباب بعنفوانهم وجرأتهم ورؤيتهم غير المكبلة وأكتافهم غير المثقلة بأي إرث إلا إرادة التغيير كسروا أطواقا أحاطت بالحناجر، ونزعوا كمامات غطت

الأفواه وكان مستقبلهم يعني أن الماضي بعقوده البائدة قد انزاح لكي يضع المستقبل أقدامه على بر الحياة الكريمة.

هذا النسق العلمي لتكتيل الجموع يعني أن ملمحًا آخر من ملامح العصر قد أعرب عن نفسه، إسقاط النظام لا يكون إلا بإقامة نظام بديل، وقد بدأ النظام في أداء التظاهر نفسه، الإصرار على أن يكون سلميا، والاعتماد على النفس الطويل والصبر، الذي قيل إنه سلاح السلطة الحاكمة، والعودة إلى الروح الجامعة، حيث التأكيد على وحدة الوطن والمواطنين.

العالم يراقب باندهاش :

العالم وقنواته الإعلامية المرئية والمسموعة والمدونة والإلكترونية أصبح شاهدا على ما يحدث، وهي شهادات متلاحقة على مدار الساعة، لا تعوزك الأخبار وأنت تتابعها بكل اللغات وعلى مختلف الوسائط. العالم يراقب ولا يصمت. إنه يشاهد ثورة عصر جديد للعالم يبشر بها شباب مصر. في اليوم التالي لتحقيق أول مطالب الملايين برحيل رأس السلطة والنظام تمهيدا لتطهير البلاد، تسجل محطة " سي. إن. إن " ما رأته حدثا غير مسبوق: " لأول مرة في التاريخ نرى شعبا يقوم بثورة ثم ينظف الشوارع بعدها .

كأن هذا الشباب يريد أن يقول إنه بدأ يحس بأن هذه بلده، وإن إحساسه الصادق يجعله لا يجد غضاضة في تنظيفها. ليس ملمح « التطهير» المادي وحده ما جلب التعليقات على الثورة، فرئيس وزراء بريطانيا، ديفيد كاميرون، يقترح : يجب أن ندرس الثورة المصرية في المدارس .

وفي الشمال الأوربي رئيس وزراء النرويج، جينز ستولتنبرج، يعلق: «اليوم كلنا مصريون»، رئيس وزراء إيطاليا، سيلفيو بيرلسكوني، يؤكد: «لا جديد في مصر، فقد صنع المصريون التاريخ كالعادة»، رئيس النمسا، هاينز فيشر، يقول: «شعب مصر أعظم شعوب العالم، ويستحق جائزة نوبل للسلام»، رئيس الولايات المتحدة، باراك أوباما، يوصي» :يجب أن نربي أبناءنا ليصبحوا كشباب مصر.. المصريون ألهمونا وعلمونا أن الفكرة القائلة إن العدالة لا تتم إلا بالعنف هي محض كذب، ففي مصر كانت قوة تغيير أخلاقية غير عنيفة، غير إرهابية، تسعى لتغيير مجرى التاريخ بوسائل سلمية » .

من الممكن وفقا لردات الفعل التي تتالت ولاتزال أن تؤسس لوجهة نظر جديدة، تسبح في فضاء عصري، تتميز بما دعت إليه ثورة الشباب السلمية، من قيم التغيير. لقد وقع العالم العربي والأمة الإسلامية أسيرا للإعلام الغربي بعد هجمات 11 سبتمبر، ولكننا الآن أمام ثورة شعب تقف خلفه حضارات عديدة وتراث هائل من الحكمة، تنهض وسط آلات الوحشية المدمرة بأيد عزلاء إلا من أفكار التنوير والحرية والتقدم هذه هي نقطة التحول في النظر إلى العرب الذين دمغتهم الأفكار النمطية بأنهم دعاة تدمير لا تنوير، وأنهم قوم هدم لا بناء.

الذاكرة الإلكترونية :

في الوقت الذي تشكو فيه الذاكرة الإنسانية من أمراضها البشرية، باتت ذاكرة الإنترنت بديلا عصريا واثقا من نفسه وقدراته. في خضم ثورة العصر لشباب مصر بات المخزون على الشبكة العنكبوتية يتحرك بعنفوان شديد. الثورة أخرجت من باطنه حممه اللاهبة. الكل يتناقل الأخبار، والتعليقات. الجميع

يعرف عن الأرصدة والفساد .الملايين يتبادلون النكات والقفشات. الآلاف يرسلون الصور والأفلام.

أصبحت هناك على الإنترنت ثورات عصرية موازية. البعض يستعير من شباب مصر أدوات العصر ولغته. البعض يحاول أن يرسخ تقاليد العصر وحركاته. كل ذلك أصبح محفوظا في ذاكرة إلكترونية غير محدودة، جاهزة لكي تظهر وقت الحاجة. والواقع أن تعبير « العالم أصبح قرية صغيرة » قد أصبح حقيقيا بشكل ملموس منذ دخولنا عصر الوسائط الإلكترونية التي جعلت من الجميع يجلسون على طاولة واحدة. وإذا كنا نتداول المصطلح بشكل مسلم به فقد جعلته ثورة ٢٥ يناير في مصر أمرًا لا جدال فيه، ونموذجا لا تخطئه أقلام المؤرخين والعلماء على حد سواء.

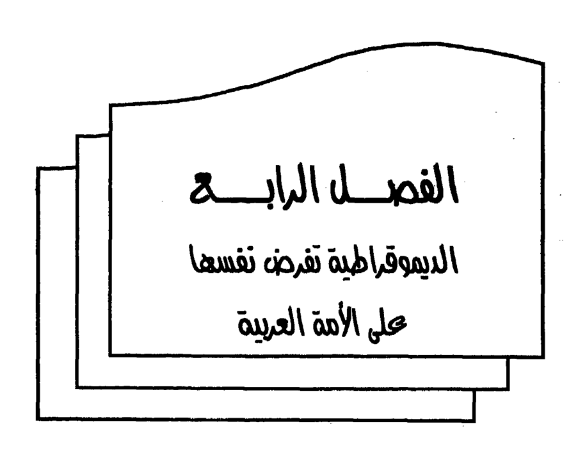
الفرصة الاستثنائية :

في وسط ذلك كله يبدو أن هناك فرصة إستثنائية للدخول في عصر العلم. لم يعد التدرج الذي نادى به كثيرون أمرا متقبلا. إن أسلوب الطفرات العلمية المتحققة قد وجد لنفسه أرضية صلبة ودفع بالبشر لاختصار الزمن وحرق المراحل. لا أجد للخوف من الآلة العلمية مكانا، بعد أن أصبحت ذات مكانة في مجتمع ثورة العصر. علينا أن نعيد تأهيل المجتمع بأسره لكي يجعل من تلك الأدوات سبيلا لتقدمه وليس وسيلة لإلهائه عن مستقبله ومصيره.

الفرصة الاستثنائية تجعلنا نساند العصر، ونستند إليه. التعليم الذي فرغه التربويون المحافظون من محتواه لم يعد جديرا بالبقاء. نريد تعليما له مناهج تحترم عقلية شباب يفكر ويحيا ويثور ويعمل في وقت واحد، وعلينا أن نفسح له طريق الإبداع والقيادة..

- لقد قال العصر كلمته، وستبقى للشباب طاقته، ولكن لن تكون هناك ثورة كل يوم تفيد من هذه الطاقات، لذلك علينا أن نأخذ دفة المبادرة، لنمنح هؤلاء الذين حركهم العصر مستقبلا أفضل.

لم تكن الثورة حركة جياع فقط، أو غضب طوائف، وإنما كانت في الأساس ثورة عصر أراد أن يفرض نفسه، كانت ثورة عصر الرأي، الرأي الذي يمثل الفكر والرؤية الثاقبة، لواقع الحياة، كانت ثورة رأي حفزت الجموع للمطالبة بالمشاركة في رسم إدارة حياتهم ، ورسم طريق مستقبلهم ، وكما البطن تجوع من نقص الغذاء، هو العقل كذلك يجوع من نقص الحرية ، فيعمل على مقاومة الكبت والمنع والمصادرة ، فكان صناعه الشباب الذين ملكوا أدواته ، فتحقق لهم ما أرادوه، ولذلك حين دعوا لوقفة تحية لشهداء ثورتهم والتأكيد على مطالبهم تجمع لهم أكثر من ٣ ملايين في ميدان واحد وملايين أخرى في كل الميادين في مصر وأخواتها. اجتمعوا بسلام، وكذلك انفضوا. وكأن لغة العصر تودع الحرب التي أدمنها دعاة الأنظمة الدائمة الخاملة والغافلة عن قوانين العصر ، هكذا هو الربيع العربى بالوانه المختلفه الذى قادة شباب هذه الأمه جعل معظم الأمم الأخرى تقف مذهوله أمام هذا التحول الخطير فى تقرير المصير رغم تباين أنواع هذا الربيع كل حسب ظروفه وموقعه ومعطاياته بعضها سلمى مثل ما حدث فى مصر وتونس وبعضها دموى أجبر الشباب لمواجهة الطغات إسقاطهم مما كلفت التضحيات مثل ما حصل فى ليبيا وما يحصل الأن فى سوريا وما حصل فى اليمن الذى أجبر رئيسه على التنحى رغم أنفسه وأسقط كبير طغات العرب فى ليبيا الذى جثم على صدرها لمده أكثر من أثنين وأربعين عاماً هكذا هو الربيع العربى الذى أنتجته ثورة المعلومات أو شبكة التواصل الإجتماعى " التوتير ، والفيس بوك " تحيه منا لكل شاب عربى ساهم فى إنتاج هذا الربيع العربى الخلاق .


الفصل الرابع
الديموقراطية تفرض نفسها
على الأمة العربية

الديمقراطيه تفرض نفسها على الأمه العربيه :

شهد العام ١٩٧٥ ولادة مؤسسة ثقافية ملتزمة بقضية الوحدة العربية ومستقبل الأمة العربية، هي مركز دراسات الوحدة العربية الذي أصدر حتى اليوم أكثر من ٨٠٠ كتاب، وتصدر عنه مجلات متخصصة منها مجلة «المستقبل العربي» ذات السمعة العالية في عالم المجلات الثقافية العربية. وعن هذا المركز تفرّعت مؤسسات ومنظمات ثقافية أخرى تدلّ أسماؤها على هويتها ومن أبرزها: المنظمة العربية للترجمة، وقد نقلت إلى «العربية» حتى اليوم أكثر من مائة كتاب، والمنظمة العربية لحقوق الإنسان ومركزها القاهرة، وتصدر سنويًا تقريرًا عن أوضاع حقوق الإنسان في الوطن العربي وتتابع قضاياه، والمنظمة العربية لمكافحة الفساد، ويرأسها رئيس الوزراء اللبناني الأسبق الدكتور سليم الحص. كما ساهم المركز في نشاطات ثقافية وقومية مختلفة مثل المؤتمر القومي الإسلامي الذي يضم نخبة من المثقفين العروبيين والإسلاميين.

أنجز المركز مشاريع مهمة مثل مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي الذي كان حصيلة ورشات وسنوات من الجهد، وقد عمل فيه عشرات الباحثين من أقطار عربية مشرقية ومغربية.

ويصدر المركز سنويًا، بالإضافة إلى مطبوعاته وندواته، تقريرًا عن "حال الأمة " يلخص فيه الأوضاع العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية من جوانبها كافة " .

والواقع أن مركز دراسات الوحدة العربية يجسد أكثر من مؤسسة ثقافية ملتزمة، فهو حركة مؤثرة في الفكر العربي والوجدان القومي، لها طابع تنويري، شبيهة بتلك الحركات الفكرية التي عرفتها أوربا في عصور نهضتها، والتي تسبق عادة هذه النهضات وتمهّد لها. وقد انتقل المركز بقضية الوحدة العربية من عالم الشعارات إلى عالم الأبحاث والدراسات الجادة والرصينة، أي من النظرة الرومانسية إلى النظرة العلمية التي تستند إلى أنظمة معرفية وآليات عمل محددة. وحول هذا المركز تحلّقت نخَب ساهمت في إشعاعه، كان منهم في المغرب المغفور له الدكتور محمد عابد الجابري الذي أصدر المركز القسم الأكبر من أعماله، وكان آخرها تفسير القرآن الكريم.

حول مركز دراسات الوحدة العربية وأهدافه وما أنجز حتى اليوم أجرت "العربي " في بيروت حوارًا مع مديره العام الدكتور خيرالدين حسيب. في هذا الحوار يقول الدكتور حسيب: نحن في المركز مهتمون بالوحدة كهدف، ومهتمون كذلك بمحتواها، فمن الممكن أن تتحقق ومن الممكن ألا تتحقق، وتحققها يتوقف على إرادتنا وقدرتنا على إتمامها.

عمل الدكتور خيرالدين حسيب في السابق أستاذًا في جامعة بغداد، كما عمل حاكمًا للمصرف المركزي العراقي قبل أن ينتقل للعمل في منظمة الإسكوا، إحدى المنظمات التابعة للأمم المتحدة. وهو - بلا شك - وراء نجاحات المركز والإنجازات التي حققها منذ تأسيسه إلى اليوم. ومعه كان هذا الحوار ، الذى أجرته مجلة العربى العدد (٦٢٩ أبريل ٢٠١١) :

ماذا عن المركز وأهدافه وغاياته ؟

كان هناك شعور عام بعد نكسة الجمهورية العربية المتحدة، وعملية التوحيد القومي بشكل عام، بأن العمل السياسي الوحدوي لم يرافقه عمل فكري يسانده ويدعمه، ولذلك نشأت قناعة عند بعض المفكرين العرب الوحدويين بأن هناك حاجة لإنشاء مركز دراسات يهتم بالجانب الفكري والمؤسسي لقضية الوحدة العربية، ويدعم العمل السياسي الوحدوي ، اجتمعنا نحن مجموعة من الأصدقاء في برمانا في صيف ١٩٧٤: الدكتور يوسف الصايغ، الدكتور بشير الداعوق، الدكتور سعدون حمادي، وكنت أنا مع الدكتور وليد الخالدي وبرهان الدجاني، اتفقنا على إنشاء مركز دراسات الوحدة العربية، وأعددنا بيانًا يبين أهداف المركز والغرض من إنشائه، مركز لا علاقة له بأي نظام عربي، ولا هو حزب ولا يسعى لأن يكون حزبًا أو تكتلاً سياسيًا، وهدفه دعم قضية الوحدة العربية وبلورة الوعي حولها من خلال العمل الفكري والثقافي كالكتب والمجلات والندوات والحلقات النقاشية.. إلخ. ولم يكن لدينا يومها أي شيء غير الفكرة، وبعد ذلك قمنا باتصالات مع عدد من الإخوة في أقطار عربية أخرى، في الخليج مع عبدالله الطريقي وجاسم القطامي وعبداللطيف الحمد وعبدالمحسن قطان وأحمد السويدي، ومن المغرب العربي مع الأخضر الإبراهيمي، مصطفى الفيلالي، ومن مصر كان المرحوم أحمد بهاء الدين والدكتور عبدالعزيز الأهواني، ومن سورية عبدالله عبدالدائم وهاني الهندي، ومن العراق أديب الجادر. وكان المجموع حوالي ثلاثين شخصية وحدوية. وقد أصدرنا بيانًا حول إنشاء المركز في مارس ١٩٧٥.

ولادة عسيرة :

كانت الولادة عسيرة، ذكرنا في بيان التأسيس أن المركز سيقبل أي دعم مالي غير مشروط من أي جهة كانت، ولكن لسوء الحظ، وبعد شهر واحد من صدور البيان بدأت الحرب الأهلية في لبنان. قررنا بعد المداولة أن نعقد أول اجتماع للمؤسسين في الكويت في يناير ١٩٧٦، كانت الحرب الأهلية في لبنان تتطور سلبًا. في اجتماع الكويت، أقررنا النظام الأساسي والداخلي للمركز وبسبب صعوبة العمل من بيروت، قررنا أن ننشئ مكتبًا مؤقتًا في الكويت إلى أن تستقر الأوضاع في لبنان. وفعلاً أنشأنا المكتب وعيّنا أحد الإخوان مديرًا له، وكان محمد الخولي، كما رشحنا يومها الدكتور عبدالله عبدالدائم مديرًا عامًا للمركز.

لاحقتنا الصدف السيئة بعد ذلك، ففي عام ١٩٧٦ بعد أن افتتحنا المكتب بأشهر، تم تعطيل الدستور الكويتي، فلم يعد العمل ممكنًا هناك، لا نستطيع أن نفتح حسابًا في مصرف، ولا أن نتخذ لنا صندوق بريد، لذلك قمنا بتصفية المكتب.

خلال هذه الفترة كنت أعمل في الأمم المتحدة وأقوم بأعمال مدير عام المركز بشكل تطوعي بالإضافة إلى عملي في الأمم المتحدة.

في أواخر عام ١٩٧٧ تحسنت الأوضاع في لبنان قليلاً، فقررنا أن نعود إليه وفي ١٩٧٨/١/١ بدأنا بالفعل في بيروت، استأجرنا طابقًا في بناية السادات تاور من شقتين. بدأنا من الصفر، تأثيث وهاتف وتعيين موظف وما إلى ذلك.

واستمر المركز يعمل في لبنان منذ ذلك التاريخ حتى اليوم، من دون انقطاع وحتى خلال الحرب الأهلية، لم يقفل يومًا واحدًا من أول سنة ١٩٧٨ حتى اليوم، بما في ذلك فترة الاحتلال الإسرائيلي، لم يُستهدف لا من قوى داخل لبنان ولا من خارجه فيما عدا تعرض بعض العاملين فيه لنفس ما تعرض له أي مواطن لبناني آخر، موظف أصيب في انفجار في سيارة، وموظف آخر قُتل، تمامًا كما حصل لمواطنين آخرين، لكن المركز لم يكن مستهدفًا، وكان لنا قرار يقضي بعدم التدخل في المسائل السياسية اللبنانية .

والعربية أيضًا ؟

العربية ؟ لا نتدخلُ في المسائل الداخلية التي لها أبعاد قومية، لكن لا نتدخل في المسائل الداخلية البحتة لأي بلد عربي .

بعد خمسة أشهر من بداية العمل في المركز أصدرنا أول عدد من مجلة "المستقبل العربي " في أول شهر مايو ١٩٧٨، وكانت تصدر ابتداءً مرة كل شهرين، وكان أول رئيس تحرير لها هو الدكتور أنيس صايغ. في ١٩٧٩ اخترنا الدكتور لبيب شقير مديرًا عامًا للمركز، شخصية معروفة، عمل وزيرًا للاقتصاد في مصر أيّام عبدالناصر. وقد أقامت اللجنة التنفيذية حفل استقبال في القاهرة لتكريمه. ولكن الدكتور شقير عُرض عليه منصب مهم في صندوق النقد الدولي بعد هذا الاحتفال التكريمي، كما تدهورت الأوضاع الأمنية في لبنان، فاضطر للاعتذار فظللت أعمل مديرًا عامًا للمركز بالوكالة.

في أوائل عام ١٩٨٠ كنت أعمل في لجنة الأمم المتحدة لغربي آسيا (كانت تسمى حينذاكِ الإكوا وتسمى الآن الإسكوا)، وكنت أدير المركز بالوكالة، كما قلت لك، متطوعًا. ثم قررت الإسكوا الانتقال إلى بغداد وكان مجيئي عام ١٩٧٤

بناء على طلب من النظام بمغادرة بغداد، ولذلك لم يكن من الممكن أن أعود مع الإسكوا إلى بغداد. أخذت، في البداية إجازة من دون راتب ثم استقلت بعد ذلك وتفرغت للعمل في المركز منذ ذلك الوقت حتى الآن. ومنذ حوالي أكثر من أربع سنوات، وأنا ألحّ على اللجنة التنفيذية لاختيار مدير عام جديد، وأخيرًا تم ختيار مدير عام جديد للمركز هو الدكتور يوسف الشويري.

مجلتنا مؤشر لحياة الوطن :

وأنا بالإضافة إلى عملي كمدير عام للمركز أشغل في الوقت الحاضر منصب رئيس مجلس أمناء ورئيس اللجنة التنفيذية. هذا فيما يتعلق بمرحلة التأسيس والولادة القيصرية، أما فيما يتعلق بنشاطات المركز ومجلة « المستقبل العربي » ، فالدكتور أنيس صايغ ترك المجلة نهاية عام ١٩٧٩. ومن أول عام ١٩٨٠، أصبحت المجلة شهرية، وقد توليت رئاسة تحريرها، ولاتزال مجلة «المستقبل العربي» تصدر حتى الآن ولم تتوقف يومًا حتى خلال الحرب الأهلية في لبنان. وحتى عندما كان مطار بيروت يُقفل كنا نتولى إرسالها إلى قبرص، أو إلى عمّان، ومن هناك نوزعها. وكانت المجلة أحد المؤشرات للمقيمين خارج لبنان على أن لبنان لايزال على قيد الحياة.

أعطت هذه الفترة للمركز طابعًا نضالياً ، كنا نعمل وأكياس الرمل بارتفاع قامة، ولم تصب المركز أية قذيفة، كان الزجاج يتحطم أحيانًا تحت تأثير الضغط .

وفي أواخر السنة الأولى صدر أول كتاب عن المركز ونشرته «دار الطليعة «وهو: «النفط والوحدة العربية». وقد دخلت تجربة إصدار الكتب إذ لم

تكن لديّ تجربة سابقة في هذا الموضوع. وإلى الآن أصدرنا حوالي ٨٠٠ كتاب في مختلف الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية والقومية.

فيما يتعلق بشخصية المركز وما يؤديه حاليًا من مهام، هل كانت هذه الشخصية واضحة تمامًا في أذهان مؤسسيه عند تأسيسه، أم أن هذه الشخصية اتضحت وتبلورت فيما بعد؟ هناك مَن يظن - حتى الوقت الراهن - أن المركز مجرد دار نشر تنشر الكتب ذات التوجه القومي، وهناك من يرى أن دوره القومي يتجاوز ذلك، فهو ليس مجرد حركة ثقافية وحسب، بل حركة قومية أيضًا، يستفاد من تاريخه ونضاله .

- أهداف المركز كانت واضحة عندنا في البداية، عمل فكري متجه نحو قضية الوحدة، مستقل لا يرتبط بأي نظام، ولا يسعى لأن يكون تكتلاً سياسيًا حزبيًا.

استقلالية المركز :

أما هوية المركز فقط تبلورت للآخرين أثناء العمل. وبعد صدور كتب المركز ومجلته، اتضح الخط الفكري للمركز، كما اتضحت استقلاليته، وأنت تعرف أن معظم ما يصدر في لبنان تندر فيه الاستقلالية. كان قسم من المراقبين يحسبون المركز على هذه الجهة، وقسم آخر يحسبه على جهة أخرى، لكن مع الزمن نشأت قناعة في لبنان وخارجه بأن مركز دراسات الوحدة العربية مركز مستقل وغير محسوب على أي جهة. لم يكن هناك المدير العام للمركز فقط، بل كان هناك مجلس أمناء ولجنة تنفيذية. الأمر الذي لم يكن واضحًا في البداية، وتبلور فيما بعد، هو أننا أردنا أن نجعل من المركز مؤسسة لا ترتبط بأسماء أشخاص. قليلون جدًا يعرفون من هو مدير عام المركز، مَن هم أعضاء مجلس الأمناء واللجنة التنفيذية، كان التركيز على اسم المركز كمؤسسة. في الفترة

الأولى من المجلة، خلال عامي ١٩٧٨ و ١٩٧٩، التي كان يرأس تحريرها الدكتور أنيس صايغ، كان هناك في كل خبر يُنشر إعلاميًا عن عدد جديد من المجلة إشارة لاسم رئيس التحرير. منذ تسلمت رئاسة تحرير المجلة، انتهى توزيع مثل هذه الإشارة إلى شخص رئيس التحرير عند نشر الخبر إعلاميًا، وكذلك عندما تصدر الدراسات يُعلن عنها من دون إشارة إلا إلى اسم المركز، وتدريجيًا تحوّل المركز إلى أقسام لها صلاحيات. قد أغيب شهرًا أو شهرين عن المركز، والمركز يعمل من دون توقف.

أما الكلام عن أن المركز هو دار نشر، فإن قسمًا من المسئولية عن هذا التصوّر يقع على عاتق المفكرين أنفسهم. حرصنا في المركز على الشفافية، ففي أول كل سنة، في فبراير أو مارس، ننشر تقريرًا مفصلاً عن نشاط المركز خلال السنة المنتهية ، ونشاط المركز المتوقع في السنة الجديدة بما في ذلك الوضع المالي، كل قرش من أين جاء، وما الذي أُنفق، ونكاد نكون على حد علمي ربما الوحيدين الذين يقومون بهذا في عالم الأبحاث والدراسات. ومَن يرد أن يعرف ويطّلع سيجد أن الجانب المالي في المركز واضح جدًا، وكذلك نشاط المركز.

نحن نقوم بمشاريع بحثية، لدينا برامج للعمل، كانت كل سنتين فأصبحت كل ثلاث سنوات ثم خمس سنوات. نحدّد ما هي الدراسات التي يتعين علينا أن نقوم بها، ما هي الندوات، ما هي الحلقات النقاشية، ما هي المشاريع التوثيقية.. إلى آخره .

من أهم المشاريع التي قمنا بها مشروع «استشراف مستقبل الوطن العربي حتى عام ٢٠١٥، وقد حصل في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي وأنجزناه في أواخرها، وشارك فيه أكثر من خمسين باحثًا ما بين متفرغ وغير متفرغ، وكان هناك فريق متفرغ عمل على مدى خمس سنوات في القاهرة.

وبسبب الوضع الأمني في لبنان، قمنا بفتح مكتب في القاهرة من أجل هذا المشروع، وقد نتج عنه التقرير النهائي للاستشراف، وكان أول مشروع من نوعه في الوطن العربي. وقد أخذنا الوضع من ١٩٨٥ إلى ٢٠١٥ لاستشراف المستقبل، كما أخذنا مشاهد ثلاثة: إذا استمر الوضع الحالي ماذا سيحدث ؟ وسمّينا هذا المشهد «المشهد الإسرائيلي» لأنه سيؤدي إلى تفتت وتحقيق ما تتمناه إسرائيل. وكل ما حدث ويحدث الآن مذكور في هذا المشهد في الدراسة. وأخذنا مشهدًا آخر هو «التعاون الوظيفي الإقليمي»: تكتلات إقليمية سواء على أساس الجغرافيا أو على أساس وظيفي إقليمي، وفعلاً بعد ذلك قام اتحاد المغرب العربي ومجلس التعاون العربي، وكان قد قام قبل ذلك مجلس التعاون الخليجي. وكان أساسًا هذا المشهد.هو إما أن القائمين على هذه التجمعات الإقليمية يحددون قراراتهم بصورة موضوعية ورشيدة يمكن أن تتطور إلى صيغة أفضل، أو أنهم يمارسون السياسات نفسها التي كانوا قطريًا يمارسونها، فتفشل وتنحلّ هذه التجمعات، وهذا ما حصل في واقع الأمر. ثم أخذنا المشهد الثالث وهو «مشهد الوحدة العربية» واعتمدنا صيغة اتحاد عربي فيدرالي إلى آخره وقارنا بين هذه المشاهد الثلاثة.

التراكم المعرفي :

هذا ليس المشروع الوحيد، بل عملنا في مجال التوثيق حتى يصبح هناك تراكم معرفي، أنجزنا ببليوغرافيا عن الوحدة العربية، وعرّفنا مصطلح الوحدة «إنه كل ما يتعلق بالوحدة العربية ويهمّها»، هي في الواقع ببليوغرافيا عن الوطن العربي أخذنا من ١٩٠٨ إلى ٢٠٠٠، والآن نطوّرها كل سنة. كل ما أنجز من كتب ومقالات وأطروحات بالعربية والإنجليزية والفرنسية هو ستة مجلدات كبيرة مصنّفة حسب المؤلف والموضوع والعنوان وموجودة على موقع

المركز على الشبكة العنكبوتية، وكل شخص يستطيع أن يحصل على ما يريده منه، وهذا لتحقيق التراكم المعرفي، أي من أجل أن يبدأ المرء من حيث انتهى الآخرون، لا من الصفر.

ثمة مشاريع بحثية أخرى يقوم المركز بتنفيذها مثل موقف الدول الكبرى من الوحدة العربية ؟ بريطانيا، أمريكا، فرنسا، ألمانيا، إلى آخره، ومنها: كيف يُصنع القرار في الدول الكبرى بالنسبة للقضايا العربية.

والآن انتهينا من دراسة حول «كيف يصنع القرار في الأنظمة العربية»، وأخذنا ١١ نظامًا عربيًا، كما نقوم بتنفيذ مشروع عن «تاريخ الحركات القومية من نهاية القرن التاسع عشر حتى الوقت الراهن»، ومشروع آخر وهو: «الحركات الإسلامية من نهاية القرن الثامن عشر حتى الوقت الراهن»، وفي كل مشروع من هذه المشاريع هناك فريق يعمل في البحث.

ونحن، بسبب مواردنا المالية المحدودة، اضطررنا للتعايش مع الفقر، نحن لا نلجأ إلى الباحثين المتفرغين في جميع الحالات، لدينا باحثون متفرغون في المركز .في بعض الموضوعات مهما دفعت للشخص لا تستطيع أن تتعاون معه كمتفرغ : أستاذ في جامعة، مثلاً، أو أن كلفته عالية، لذلك نلجأ إلى باحثين غير متفرغين نكلفهم بدراسات يخصصون لها نسبة معينة من وقتهم.

معظم ما نشرناه عبارة عن دراسات نحن أعددناها. وتقدّم أحيانًا للمركز دراسات تقع ضمن اهتمامات المركز نقوم بتقييمها من قبل خبراء، وفي الغالب نطلب تعديلات أو إضافات قبل نشرها.

إن عمل المركز الأساسي هو عمل بحثي، وليس عمل نشر، نحن ننشر دراساتنا فقط. وبالإضافة إلى مجلة «المستقبل العربي»، والكتب، نعقد ندوات كبيرة يحضرها بين ٥٠ و ١٠٠ مدعو حول موضوع معين. وحتى الآن عقدنا أكثر من ٦٠ ندوة كبيرة، وهذه تصدر وقائعها في كتب فيما بعد: الأبحاث والتعقيبات والمناقشات، ونجري أيضًا حلقات نقاشية حول موضوع معين: تقدَم ورقة عمل ويُدعى حوالي ١٥ - ٢٠ مفكرًا لمدة يوم للمناقشات ثم تصدر ورقة العمل وحصيلة المناقشات في المجلة.

إن عملنا هو كما ترى عمل بحثي، لكننا لا نلجأ إلى الكلام الكبير، والدعاية، وما إلى ذلك، أعمالنا تعبّر عن نفسها.

طبعًا أهداف مركز دراسات الوحدة العربية واضحة بما فيه الكفاية: عمل ذو طابع فكري لمصلحة فكرة الوحدة العربية. ولكن ما الذي أضافه المركز على هذا الصعيد ؟ أي فكرة عن الوحدة العربية نشرها أو دعا إليها ؟ وفي أي شيء تختلف هذه الفكرة عنده عمّا كان سائدًا أو متداولاً منتصف القرن الماضي على سبيل المثال ؟

- هذا سؤال يوضح جانبًا من عمل المركز، فنحن مهتمون في المركز بقضيه الوحدة العربية كهدف، ولكن الاهتمام ليس مقصورًا على هذا الهدف، نحن مهتمون بمحتوى الوحدة العربية، المركز على مدى ثلاثين سنة كرّس جهدًا كبيرًا - يلاحظ في ندواته وكتبه - لقضية الديمقراطية، ولأن يكون محتوى الوحدة محتوى ديمقراطيًا من حيث الوصول بطريقة ديمقراطية وليس بالقوة .

وللمركز فضل كبير فيما قام به في هذا المجال، فقد باتت مسألة الديمقراطية مسألة مسلمًا بها عند جميع التيارات القومية. وقد أثّرنا حتى على التيارات الإسلامية لقبول قضية الديمقراطية من خلال المؤتمر القومي - الإسلامي والبرنامج الذي أعلنّاه.

اهتممنا كذلك بموضوع التنمية المستقلة، وأجبنا عن سؤال حول محتوى الوحدة الاقتصادية التنموي.

اهتممنا أيضًا بموضوع العدالة الاجتماعية، سمّيناها «العدالة الاجتماعية» لأن الاشتراكية تلوّثت بممارسات كثيرة أساءت إلى اسمها.

واهتممنا بمسألة التحرر والاستقلال الوطني والقومي، وكذلك بموضوع التجدد الحضاري.

لا لمقايضة أهدافنا :

هذه الأهداف الستة غير قابلة للمقايضة مع بعضها البعض، من أجل أن نحقق التنمية علينا ألا نستغني عن الديمقراطية، وهذه هي الحصيلة التي خرجنا بها في مسألة استشراف المستقبل العربي. وفي ذلك الوقت عملنا لتجسيدها في مشروع نهضوي عربي ففي فبراير ٢٠١٠ أصدرنا «المشروع النهضوي العربي» الذي يضم هذه العناصر الستة وتوضيحًا لها. وقد أقمنا ندوة كبيرة في مدينة فاس بالمغرب حول هذا المشروع، ومما قصد في هذا المشروع أنه لا يمثل فقط التيار القومي، فقد أشركنا فيه التيار الإسلامي الديمقراطي، والتيار اليساري الديمقراطي، والتيار الليبرالي الوطني وبالتالي فهو يمثل حصيلة توجه هذه التيارات الأربعة.

قضية الوحدة بالنسبة للمركز هي أحد الأهداف، لكنه ضمن أهداف ستة أشرت إليها آنفًا: الوحدة الديمقراطية، العدالة الاجتماعية، التنمية المستقلة، الاستقلال الوطني والقومي، والتجدد الحضاري.

مَن يقارن بين ما يدعو إليه المركز، وهو الوحدة العربية، والواقع السائد في أكثر أقطارنا ، وهو واقع استشراء المذهبية والطائفية ، يتراءى له أن المركز يسير عكس السير، فهل تظنون أن هذا الواقع المذهبي والطائفي المتخلف سيتراجع يومًا لمصلحة فكرة الوحدة ؟ وما الذي قدمه المركز على هذا الصعيد لنجدة الفكر القومي ؟

نحن نعاني تأثيرات هجمة إعلامية شرسة معادية للوحدة، معادية للقومية العربية ومعادية للأمة العربية، ولدى هذه الهجمة إمكانات كبيرة.

إن الاتجاه نحو تكتلات كبيرة في العالم هو اتجاه مستقبلي. وتشير الدراسات المستقبلية إلى أن الكتلة التي تقلّ عن ٢٠٠ مليون نسمة لن تستطيع أن تنافس في المستقبل، ولهذا فإن أوربا على اختلاف تاريخها ولغاتها والحروب التي قامت فيما بينها اتجهت أولاً إلى تكتّل اقتصادي (الصلب والفحم) ثم طوّرته إلى اتحاد بين بلدانها هو الاتحاد الأوربي، والولايات المتحدة مع كندا والمكسيك أنشأت منطقة التجارة الحرة (نافتا)، وجنوب شرقي آسيا أنشأ تكتلاً كذلك.

نحن العرب مؤهلون أكثر من كل هذه التكتلات، فبالإضافة لهذه الاعتبارات، لدينا لغة مشتركة، تاريخ مشترك، ومصلحة مشتركة.

أحد أسباب عدم حصول الوحدة حتى الآن يتمثل في غياب الديمقراطية، فعندما تغيب الديمقراطية لا يستطيع المواطنون أن يعبّروا عن حقيقة مشاعرهم في اتخاذ القرارات الرئيسية.

كيف يمكن تفسير إغلاق الحدود بين بلدين عربيين متجاورين ومنع المواطنين من السفر؟ كيف يمكن تفسير وقف تدفق النفط من قبل بلد عربي، من خلال أنابيب النفط التي تمر في بلد عربي؟

إن غياب الديمقراطية عندنا يشكّل السبب الأساسي لعدم تحقيق خطوات وحدوية حقيقية.

نحن وأوربا بدأنا منتصف القرن الماضي في اتفاقية التجارة الحرة، هم وصلوا إلى الاتحاد الأوربي، ونحن لانزال نراوح في النقطة نفسها التي بدأنا منها.

إن الاتجاه نحو التوحد هو اتجاه عالمي، الوحدة ستكون مرتبطة إلى حد كبير بتطور الديمقراطية في البلاد العربية وإلى أي حد سيكون للمواطن العربي رأي في مستقبله.

في العام ١٩٧٩ أجرينا في المركز دراسة عن اتجاهات الراي العام العربي حول مسألة الوحدة. وقد قمنا بها في عشرة أقطار عربية. الآن على وشك أن ننتهي من دراسة ميدانية في عشرة أقطار عربية تمثل حوالي ٧٠ في المائة من الأمة العربية حول الموضوع نفسه وحول الموقف من الديمقراطية والقيم والاتجاهات الديمقراطية.

النتائج الأولية فيما يتعلق بموضوع الوحدة تشير إلى نتائج مذهلة تختلف عن كل الانطباعات السائدة، وسننشر هذه الدراسة قريبًا.

نحن لدينا مجلة «المستقبل العربي» مستمرة في الصدور منذ ٣٢ سنة، وما يرد للنشر في المجلة - ونحن لا ندفع مكافآت - أضعاف ما نستطيع نشره. وبسبب كثرة المادة التي تردنا، تبنّى المركز إصدار ثلاث مجلات أخرى بالتعاون مع ثلاث جمعيات مهنية هي الجمعية العربية للعلوم السياسية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، والجمعية العربية للبحوث الاقتصادية، وقسم من هذه المادة أصبح يُنشر في مجلات هذه الجمعيات. والمركز يتولى الآن إصدار هذه المجلات الفصلية «المجلة العربية للعلوم السياسية» و«مجلة بحوث اقتصادية عربية» و«إضافات» تحريرًا وتوزيعًا. وهكذا ترى أن المركز يصدر الآن أربع مجلات في وقت واحد، ثلاث منها بالتعاون مع الجهات الأخرى.

كيف نفسّر الإقبال على مجلات المركز هذه ؟

إذا جئنا إلى الكتب، نجد أن المركز أصدر حتى الآن حوالي ٨٠٠ كتاب.. ثمة كلام كثير حول صعوبة التوزيع والإقبال على اقتناء الكتب بصورة عامة. كيف نفسّر زيادة مبيعاتنا السنوية في الشهور العشرة الأولى من عام ٢٠١٠، في عدد النسخ المبيعة، وفي القيمة، ٢٦ في المائة بالمقارنة بالسنة الماضية. فكيف نفسّر هذا؟

إنه اهتمام الناس والمثقفين بصورة خاصة :

إن كتبنا ومجلاتنا موجودة في جميع الجامعات الرئيسية في الوطن العربي، كما في المكتبات العامة بالمدن الرئيسية.

نحن لا نستطيع كمركز مقاومة كل الهجمات التي تتعرض لها الأمة العربية والقضية العربية لأن لديها إمكانات هائلة. أنا أقرأ أحيانًا في صحفنا ومجلاتنا من يردد من دون تدقيق، وحتى بافتراض حسن نية، ما يقوله أعداء العرب. إنني لست متشائمًا من قضية الوحدة العربية، بل على العكس من ذلك. لقد زرعنا كثيرًا، وما زرعناه ينمو .ولابد لهذا الوضع العربي غير الديمقراطي والمتشرذم أن ينتهي في يوم من الأيام .

وهل تعتقد أن الوحدة العربية حتمية ؟

رئيس وزراء المغرب الأسبق عبدالله إبراهيم قال لي مرة إنكم عرب المشرق رومانسيون في مسألة الوحدة. الوحدة تتطلب جهودًا وشروطا لكي تتحقق في حين إنكم تتعاملون معها تعاملاً عاطفيًا بحتًا.

أنا من الجيل الذي نشأ على الإيمان بأن الوحدة العربية حتمية، وأنه مع مرور الزمن لابد من أن تقوم الوحدة. نحن في المركز بدأنا نبيّن أن الوحدة غير حتمية. الوحدة يمكن أن تتم ويمكن ألا تتم. الدراسات المستقبلية تدور حول أن هناك خيارات مختلفة للمستقبل، فهو ليس قدرًا. وبعض الخيارات أفضل من خيارات أخرى، فانتقاء أي خيار يعتمد على مدى القدرة والرغبة في دفع الثمن المطلوب لهذا الخيار .ونحن يمكن أن نحقق الوحدة ولكن للوحدة شروطًا ومتطلبات، علينا إذًا أن نكون راغبين وقادرين على إتمامها.

كان الفكر القومي في السابق غير مهتم بقضية الديمقراطية، لهذا الأمر ظروفه التاريخية. بعد الحرب العالمية الأولى وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت المرحلة مرحلة تحرر من الاستعمار، وكان التركيز بالتالي على التحرر من الاستعمار، لم تكن القضية الاجتماعية تشغل البال يومها. بعد الحرب

العالمية الثانية وحتى السبعينيات من القرن الماضي، كان التركيز على التغيير الاجتماعي: مصر الناصرية بشكل خاص، إلى آخره، وقضايا الإصلاح الزراعي والتصنيع والتنمية، وكان هناك انطباع بأن التجربة الديمقراطية التي عشناها حتى منتصف القرن الماضي لم تكن ناجحة إذ لم تحقق معدلات تنمية عالية وتغييرًا اجتماعيًا. لذلك قيل لنؤجل موضوع الديمقراطية ونركز على موضوع التنمية، وبعدها نعود إلى موضوع الديمقراطية.

مع الأسف الشديد ثبت عدم صحة هذا التوجه. الجمهورية العربية المتحدة في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي حققت معدلات نمو وتصنيع أكثر مما كان قبلها أو بعدها. ولكن لعدم وجود الديمقراطية وعدم وجود مؤسسات، لم يتم الحفاظ على هذه المكتسبات، ثم حدث تراجع فيما بعد، ولذلك بعد هذه الفترة، بدأ الاهتمام بموضوع الديمقراطية.

نحن، وعلى مدى أكثر من ثلاثين سنة، نستطيع أن نقول بكل فخر واعتزاز، إننا قمنا بشق الطريق نحو قضية الديمقراطية منذ ١٩٧٩ حتى الوقت الراهن. في عام ١٩٨٣ أقمنا ندوة في قبرص حول «أزمة الديمقراطية في الوطن العربي»، لم نستطع أن نعقدها في أي بلد عربي، عقدناها في ليماسول بقبرص. وعلى هامشها أنشأنا المنظمة العربية لحقوق الإنسان، وهي منظمة مستقلة مقرها القاهرة الآن، وتصدر سنويًا تقريرًا عن حقوق الإنسان في الوطن العربي. ونحن ننشر هذا التقرير ونوزعه للسنة الثانية، وأعتقد أنه التقرير الأكثر صراحة ووضوحًا الذي يصدر في الوطن العربي عن انتهاكات حقوق الإنسان، بالإضافة إلى ندوة شهرية.

الترجمة أساس الحضارة :

اهتممنا بموضوع الترجمة. جانب الترجمة في الحضارة العربية الإسلامية كان جانبًا أساسيًا، بدأ العرب يومها بالترجمة واستيعاب المعارف والعلوم الأجنبية، تلا ذلك مرحلة الإبداع المعروفة.

أنشأنا «المنظمة العربية للترجمة»، ووفرنا لها الإمكانات وهي الآن مستقلة، وحتى الآن جرت ترجمة أكثر من مائة كتاب من أمهات الكتب في أصول المعرفة بالحقول المختلفة. وهي مستمرة في عملها وهناك الآن مشروع لترجمة كتب ذات طابع علمي بحت لتدريس العلوم البحتة في الجامعات العربية باللغة العربية.

وأنشأنا كذلك، على إثر ندوة أقمناها حول موضوع الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية، «المنظمة العربية لمكافحة الفساد»، وقد أصبحت الآن منظمة مستقلة ورئيس مجلس أمنائها هو الرئيس سليم الحص. لقد حاولنا أن ننشئ منظمات وحدوية تساهم في أهداف المركز، إضافة إلى الجمعيات المهنية التي تحدثنا عنها.

كان هناك موقف سلبي من الدولة القطرية، هذا الموقف بدأ عندما كانت هناك دول عربية قليلة مستقلة، لكنه استمر مع الفكر القومي، ولكن الدولة القطرية، بغض النظر عن عدم نجاحها في تحقيق تنمية حقيقية وتحقيق أهداف أخرى كالتصنيع والأمن القومي، أصبحت حقيقة موجودة أنت لا تستطيع إلغاءها وحتى تنتقل إلى الوحدة، لابد أن تنطلق منها. نحن في مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي، انتهينا إلى أهمية المصالحة مع الدولة القطرية،

والانتقال من الدولة القطرية إلى المشاريع الوحدوية. وقد درسنا التجارب اوحدوية في العالم بما فيها تجربة الاتحاد الأوربي وانتهينا إلى ما انتهينا إليه.

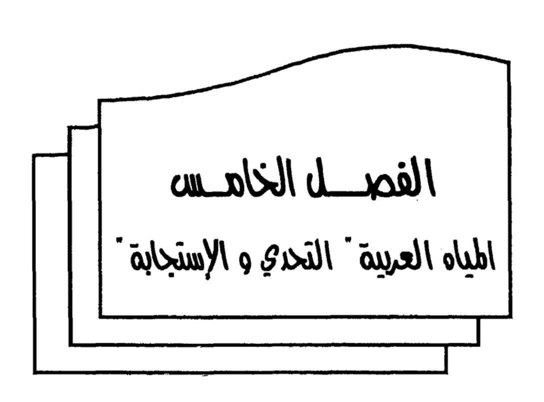
وقد ساهم المركز في إزالة الخلاف السياسي والتشنج بين التيارين القومي والإسلامي، وذلك اعتبارًا من أول قيامه، حيث كانت أول ندوة نظمها المركز أواخر عام ٧٩ عن « القومية العربية والإسلام» وشارك فيها عدد كبير من الباحثين والمفكرين من الاتجاهات المختلفة القومية والإسلامية وتم توضيح هذه العلاقة، وتابع المركز ذلك بندوة عن «الحوار القومي - الديني» التي عقدت في القاهرة عام ٨٩ وشاركت فيها المدارس الفكرية المختلفة من الاتجاهين، وتلت ذلك ندوة عن «الحوار القومي - الإسلامي» التي عقدت في الإسكندرية عام ٢٠٠٧ كما ساهم المركز من خلال المؤتمر القومي العربي (الذي ساهم في إنشائه) في إقامة المؤتمر القومي - الإسلامي منذ عام ٩٤، ومن خلال ذلك كله استطاع المركز إنهاء، أو على الأقل تجميد، الخلافات السياسية التي كانت دائرة بين التيارين وأصبحت هناك لقاءات فكرية وسياسية منتظمة بين التيارين، كما اتفق التياران على برنامج عمل مشترك، فكري وسياسي، من خلال المؤتمر القومي - الإسلامي عام ٩٤ والذي تم فيه ضمن أشياء أخرى، التزام التيارين بقضية الوحدة العربية، والموقف من القضية الفلسطينية، والموقف من الولايات المتحدة والاستعمار عمومًا، وخاصة الإقرار بالديمقراطية والتعددية السياسية، وأمور أخرى مهمة غيرها.

أي أثر تلمسونه لإصدارات مركز دراسات الوحدة العربية ؟

المسح الميداني هو الطريقة الموضوعية لهذا القياس. في عام ١٩٧٩ أجرينا مسحًا حول مواقف الرأي العام من قضية الوحدة. الآن نتائج المسح

الميداني الذي أجريناه عام ٢٠١٠ ستعطينا إجابة موضوعية علمية حول مدى تأثيرنا على الرأي العام العربي خلال هذه الفترة . وقلت لك إن لدينا نتائج أولية إيجابية.

في الغرب لديهم طريقة لتقدير قيمة المقال أو الكتاب وذلك بدراسة وإحصاء عدد المرات التي أشير إلى هذا المقال أو الكتاب في أبحاث أخرى. مع الأسف عربيًا لم نطوّر هذه الطريقة، لكنني أستطيع أن أقول بثقة وموضوعية إن كل ما يُكتب في الوطن العربي بمختلف جوانبه، أو على الأقل هناك ٥٠ في المائة من المصادر التي يعاد إليها، يأتي من مصادر مركز دراسات الوحدة العربية من كتبه ومجلته وندوات وحلقات نقاشية عقدها، وأنا أعتقد أن هذا يمثل تأثيرًا كبيرًا جدًا .



الفصل الخامس

المياه العربية "التحدي و الإستجابة"

المياه العربية " التحدي والإستجابة " :

لكتب كالأشخاص منهم من تلتقي به عرضا ولا تتذكر ملامحه ومنهم من تتعرف عليه ولا تهتم به، ومنهم من يفرض حضوره عليك ويجعلك تحاول التعرف على مميزات شخصيته وتحديد دوافع سلوكه؛ ومن هذا الصنف الأخير كتاب الأستاذ " د.عبدالمالك التميمي " حول المياه العربية .

يتناول الكتاب مسألة في غاية الأهمية لإرتباط الحياة بعنصر الماء ولكون مستقبل العرب مرهوناً بمدى إستجابتهم للتحدي الذي تشكله القضايا المتعلقة بمصادر المياه، فضلا عن أن موضوعا بهذه الأهمية ظل بعيدا عن التناول العلمي والمعالجة الموضوعية في أغلب الدوائر العلمية العربية، إن لم يكن غائبا أو مغيّبا عن اهتمامات الرأي العام العربي لإعتبارات شتى ولظروف خاصة، وهذا ما يجعل كتاب " المياه العربية " إسهاما يعرف القارئ العربي بواقع وإنعكاسات مسألة المياه وما تفرضه من تحديات وما تطرحه من إشكاليات، ولعل هذا ما شجعنا على عرض مضمونه ومناقشة المسائل التي يعرضها والتعليق على الإستنتاجات التي انتهى إليها .

فمن حيث الموضوع عالج كتاب المياه العربية : التحدي والإستجابة مسألة الثروة المائية العربية بإعتبارها واقعا فرض نفسه وقضية سوف يكون لها تأثير حاسم على مستقبل الشعوب العربية، وهذا ما تناوله المؤلف في نقاط رئيسية وأفكار محددة توزعت حسب مواضيعها على ثمانية فصول متسلسلة منطقيا ومتكاملة معرفيا ومتدرجة منهجيا؛ فعرف في الفصل الأول بإشكالية المياه في الشرق الأوسط؛ ثم عالج قضية المياه العربية وما ارتبط بها من مشاريع غربية وسياسة مائية إسرائيلية في الفصل الثاني؛ ليخلص في الفصل

الثالث إلى معالجة مسألة المياه العربية من حيث ارتباطها بالسياسة التركية الخاصة بالتحكم في منابع المياه العربية الشمالية. ثم عالج المؤلف في الفصل الرابع قضية المياه المشتركة بين العراق وإيران وما ترتب عليها من معاهدات واتفاقات؛ ثم إنتقل في الفصل الخامس إلى عرض مصادر مياه نهر النيل المشتركة إنطلاقا من واقعها الجغرافي وبعدها السياسي وإنعكاساتها الإقتصادية؛ بعدها خصّ المؤلف الجزيرة العربية بالفصل السادس فعرف بمصادر مياهها وانعكاس قدراتها المائية على المشاريع التنموية لدول الخليج واليمن؛ بينما حظي المغرب العربي بالفصل السابع الذي إستعرض فيه المؤلف المصادر المائية لبلاد المغرب مبرزا مدى إستجابتها لحاجات السكان وخدمتها لمشاريع التنمية المحلية؛ أما الفصل الثامن والأخير فقد عالج فيه مستقبل المياه العربية مستعرضا النتائج التي إنتهى إليها في الفصول السابقة ومحاولا الإجابة فيه عن الإشكاليات التي أثارها والإستنتاجات التي انتهى إليها .

دراسة متكاملة :

يتضح من توزيع مادة الكتاب وطبيعة المعلومات التي يعرضها والإشكاليات التي يعالجها أنه يقدم للقارئ دراسة متكاملة لمسألة المياه العربية من حيث شروط البيئة، والإمكانيات الإقتصادية، والواقع الدولي، والبعد الإستراتيجي، فجمع بذلك بين المعالجة التاريخية والوصف الجغرافي والتحليل السياسي والرؤية المستقبلية وأمكن له أن يحدد الرؤى المستقبلية لمسألة المياه العربية ويرسم المنطلقات الواقعية لمسائل التنمية والتسويات السياسية .

- تستند المادة التاريخية لكتاب المياه العربية : التحدي والإستجابة إلى معلومات موثقة ودقيقة ومستقاة من مصادر أساسية، تعرف القارئ بالشروط

الطبيعية والظروف التاريخية التي حددت وضعية المياه في الوطن العربي، وتضعها في إطارها القانوني انطلاقا من البنود المحددة لإستخدام المياه في الأحواض الجوفية والأنهار الدولية.

وقد أولى المؤلف أهمية خاصة للأسس التي يعتمد عليها القانون الدولي لتحديد السيادة على مصادر المياه والتي أعطت للطرف المسيطر على تلك المصادر بحكم الحدود السياسية حقوقا قانونية مكتسبة، مما أفقد العرب أمنهم المائي لكونهم الطرف الذي لا يسيطر في أغلب الحالات على مصادر المياه ولحاجتهم الملحة إلى إستغلال تلك المياه مما فرض عليهم مجاراة الوضع الدولي وجعلهم يرتبطون بعلاقات غير متكافئة مع الطرف الآخر المسيطر على مصادر مياههم.

وحتى تكتمل معالجة المسألة المائية حرص المؤلف على تحديد المعطيات الجغرافية والشروط البشرية وربطها بالواقع الإقتصادي ومشاريع التنمية في مختلف الأقطار العربية، بحيث يقدم للقارئ صورة متكاملة وعرضا شاملا لإشكالية المياه في البلاد العربية تنطلق من دراسة معمقة لمختلف جوانب الإشكالية، وهذا ما أكسبها نفسا علميا وطابعا معرفيا وتوجها منهجيا وجعلها تعبر بصدق عن رؤية المؤلف وتعكس منهجه وأسلوبه في معالجته للموضوع، وهذا ما نحاول عرضه في النقاط التالية :

١- عالج المؤلف مسألة المياه من مختلف جوانبها وأبعادها وانعكاساتها بنظرة الباحث المدقق والدارس المتفحص، فلم يجار التوجه العام السائد في الكتابات العربية التي تركز على الدراسة القطرية، وغالبا ما تكتفي بالتعاليق السطحية والأحكام المتسرعة، وهذا ما تحاشاه المؤلف بإعتماده المصادر الأساسية ورجوعه إلى المعلومات الدقيقة فرجع إلى الوثائق

البريطانية والأمريكية خاصة، وإستفاد من الأبحاث الحديثة في الغرب دون أن يهمل إستخدام ما توافر من دراسات في العالم العربي، وهذا ما يجعل الكتاب ثمرة عمل طويل وإهتمام متواصل بالموضوع، وهذا ما يؤكده لنا مدى الجهد العلمي الذي بذل فيه والوقت الذي تطلبه، فهو أكثر من تأليف عادي بل حصيلة تجربة مؤلفه ومعايشته للواقع العربي .

٢- تجاوز المؤلف المنحى التخصصي الضيق لمسألة محددة، إلى المعالجة المتكاملة للموضوع بنظرة أوسع بحيث جمع بين العرض التاريخي والوصف الجغرافي والرؤية السياسية دون أن يهمل البعد الإستراتيجي من حيث طرح القضايا وتحليل المسائل ومناقشة المعلومات، وهذا ما مكنه من الإلمام بالمسألة المائية في الوطن العربي وسمح له بتوضيح أبعاد المشاريع التركية والخطط الإسرائيلية خاصة وإنعكاسها على معادلة المياه في الشرق العربي، فأظهر مدى إهتمام الباحثين الغربيين والدارسين المختصين في تركيا ودولة الاحتلال الإسرائيلي بالمسألة المائية لأهميتها وخطورتها، في الوقت الذي ظل فيه الجانب العربي غائبا في هذه المعادلة سواء من حيث الدراسات الأكاديمية أو المشاريع الاقتصادية أو الخطط السياسية المتكاملة .

٣- التزم المؤلف برؤية شاملة لإشكالية المياه في الوطن العربي، فتجاوز بذلك النماذج المتعارف عليها في دراسة قضايا إشكاليات العالم العربي التي غالبا ما تقع في فخ النزعة القطرية والرؤية الجزئية بحجة التخصص والتعمق فتفقد توازنها وتكاملها؛ فاستطاع المؤلف أن يواجه تحديا علميا فرضته التجزئة السياسية والإتساع الجغرافي وإختلاف الأوضاع بين الأقاليم العربية، فنجح في معالجة موضوعه كوحدة جغرافية متكاملة ومجال إقتصادي مترابط ووضع سياسي متميز، ولعل هذا ما جعله يرفض

التقسيمات والمصطلحات التي تعبر عن المصالح الغربية والتي تعتمد تعابير تعكس رؤيتها من قبيل الشرق الأوسط والسوق الشرق أوسطية وشمال إفريقيا المتوسطية .

٤- حرص المؤلف على معالجة مسألة المياه بنظرة واقعية تتعرف على الواقع المأساوي ولا تتستر على الإنعكاسات السلبية لإشكالية المياه سواء من حيث ندرة المياه وشح مصادرها ووجود منابع الأنهار خارج الحدود السياسية للبلاد العربية، أو من حيث طبيعة المناخ ونوعية الشبكة الهيدرولية، لأن تجاوز هذه الشروط الطبيعية أو إغفال تلك الأوضاع السياسية يحول دون التعرف على التحديات التي تفرضها ولا يمكن الدارس من اقتراح حلول مناسبة لها، ولعل هذا ما أكسب الكتاب تكاملا في رؤيته وموضوعية في طرحه واستنتاجاته .

٥- عرض المؤلف مسألة المياه العربية بنظرة علمية وعالجها بأسلوب موضوعي سواء في عرضه للأحداث أو تحليله للمعطيات أو تعليقه على الوقائع أو إستنتاجه للنتائج أو إحالته لمصادر معلوماته، وهذا ما أضفى على عمله الطابع الأكاديمي والروح العلمية التي تبرز خاصة في تعليقاته وإستنتاجاته العديدة وفي العديد من الرسوم البيانية والجداول الإحصائية كتلك التي تحدد كميات المياه بالأمتار المكعبة (ص ٤١)، أو التي تظهر كيفية إستخدام مصادر المياه في السنوات الثلاثين الماضية (ص ٣٦)، أو ترصد اتجاهات الري في دولة الإحتلال الإسرائيلي (ص ٨١)، أو توضح توزيع مياه نهر الأردن (١٩٥٣- ١٩٥٤) (ص ٦٥) .

لقد عبر الأستاذ د.عبدالمالك التميمي من خلال هذه التوجهات في دراسته لمسألة المياه العربية عن منهجه العلمي وقناعاته الأكاديمية خاصة فيما يتعلق بربط مسائل التاريخ العربي المعاصر المحورية برؤى مستقبلية نابعة من

المصلحة العربية، ولعل هذا ما يجعل القارئ يتفاعل معه ويتساءل عن متطلبات الأمن المائي العربي المتعلقة بالثروة المائية ومصادرها وكيفية معالجتها وإيجاد حلول لها ضمن مصلحة البيت العربي المشترك وعبر مشاريع تنموية محلية متكاملة، ولعل ما يشد القارئ إلى الكتاب هو كونه ينطلق من رؤية عربية شاملة تتجاوز التصور القديم لقضايا المياه ولا تقنع بالمعالجة التقليدية التي ظلت قاصرة عن ربط الماضي بالحاضر ووضعه في إطاره السياسي وبعده الإستراتيجي، وإنما يتجاوز ذلك بطرح أسئلة محرجة عن قضايا المياه في الوطن العربي إنطلاقا من معطيات واقعية ومعلومات دقيقة ظلت لفترة طويلة بعيدة عن أيدي جمهور المهتمين بالمياه العربية وغير متاحة لجيل الشباب من الباحثين في القضايا العربية .

إن كتاب المياه العربية : التحدي والاستجابة بإعتباره دراسة مركزة تنطلق من خلفية تاريخية لتنتهي إلى تطور إستراتيجي ودعوة ملحة لمراجعة الماضي وتحليل الحاضر وفتح أعين القارئ العربي على الواقع العربي، أثار من خلال إشكالية التحدي والإستجابة الموضوع المتجدد للمسألة الشرقية والصورة الحديثة للرجل المريض الذي كانت تجسده الدولة العثمانية وأصبحت تمثله الدول العربية بعد أن أساء العرب لأنفسهم وأداروا ظهورهم لمستقبلهم بقبولهم الفعلي ورفضهم اللفظي للنتائج المترتبة عن معاهدة سايكس - بيكو (١٩١٦) وتنكرهم لمتطلبات تكوين الدولة الحديثة فرسمت الحدود في غير صالح العرب، وتحولت مصادر المياه لغيرهم، في حين رفضت تركيا الكمالية مستوجبات نفس المعاهدة عندما مزقت معاهدة سيفر (١٩٢٠) وفرضت مصالحها كامة واحدة في معاهدة لوزان (١٩٢٣)، ولم يتقبل حكام إيران تقسيم بلادهم إلى منطقتي نفوذ روسية في الشمال وإنجليزية في الجنوب في إطار الوفاق الودي الإنجليزي الروسي الفرنسي (١٩٠٧)، في الوقت الذي نجح فيه

زعماء الحركة الصهيونية في رسم حدود فلسطين بمقتضى إتفاقية الإنتداب الفرنسية الإنجليزية (ديسمبر ١٩٢٠) وفي التخطيط لمشاريع مائية على حساب العرب بدءا بخطة روتنبرغ (١٩٢٠) وانتهاء بمشروع جونسون (١٩٥٣) .

ومما يسجل لكتاب المياه العربية : التحدي والإستجابة أنه عرض على الرأي العام العربي بنظرة موضوعية مسألة مصيرية في واقعها وإنعكاساتها، فالماء عصب الحياة يتحكم في مستقبل العرب ويؤثر على وجودهم؛ وقد أوضح المؤلف جوانب الضعف والتبعية في ذلك من خلال قلة الموارد المائية العربية وتحكم الآخرين في مصادرها الرئيسية، وعجز العرب عن مسايرة التطور العلمي والتعامل مع الواقع ببرامج وخطط هادفة وبنظرة متكاملة وبموقف موحد، بل إكتفوا في الغالب بشعارات وتصريحات وتصورات نظرية .

إن النيات الحسنة لا تصنع سياسة ولا تغير الواقع في مثل هذه المواضيع وتلك الأوضاع، فهي لا تحد من خطورة الوضع العربي الذي ليس أدل على هشاشته أن ليس للعرب سوى ١% من المياه العذبة في حين يشكلون ٥% من سكان العالم ويتزايدون بوتيرة سريعة بحيث تضاعف عددهم في ظرف ثلاثين سنة ليصبح عددهم حوالي ٢٨٠ مليون نسمة (انظر ص ٣٥). وهذا ما يتطلب دراسة مقارنة بين الأقطار العربية وخاصة توجهات السياسة المائية في مصر والعراق وبلاد الشام والمرتبطة بمصالح الدولة القطرية، على أن ذلك بحكم الواقع العربي شيء غير متيسر إن لم يكن مستحيلا، ولهذا ركز المؤلف على النقاط الأساسية والمسائل الجوهرية للمسألة المائية لكونها تشكل تحديات عويصة وقاسية، وتتطلب استجابات سريعة وموفقة .

على أن ما يلاحظ على كتاب " المياه العربية : التحدي والإستجابة " هو سعة موضوعه من حيث الرقعة الجغرافية والخلفية التاريخية والتطورات

السياسية والتصورات الإستراتيجية، ولعل هذا ما لاحظه المؤلف ونبه إليه لصعوبة الجمع في آن واحد بين التعمق العلمي وسعة الموضوع، وإرضاء القارئ العادي وتلبية حاجة الباحث المتخصص، وهذا ما يجعل كتاب " المياه العربية " عملا تأسيسيا لمشروع ضخم يندرج ضمن خطة هادفة ومنظور إستراتيجي تتطلب معالجة جوانبه المختلفة مخابر دراسة مختصة .

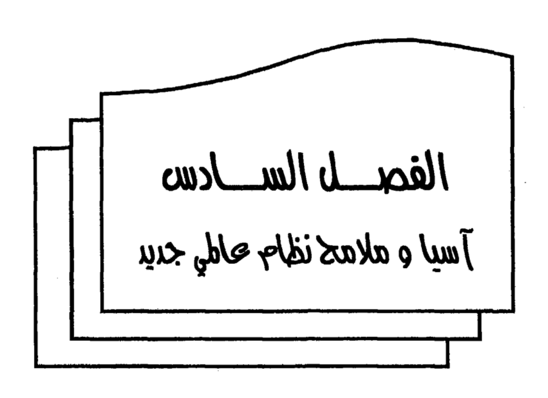
الحضور المغاربي :

يلاحظ على الكتاب أيضا تركيزه على المشرق العربي، إذ لم يتجاوز نصيب المغرب العربي فصلا واحدا حاول من خلاله المؤلف تقديم معلومات ومناقشة مسائل في غاية الأهمية، ولعل هذا راجع إلى محدودية الوثائق والمصادر التي تعالج مسألة المياه في أقطار المغرب العربي، فجلها باللغة الفرنسية وأغلبها في غير متناول الباحثين العرب في المشرق، ولعل النسخة الإنجليزية التي سوف تصدر للكتاب قريبا وكذلك الطبعات المرتقبة للنسخة العربية أن تأخذ ذلك بعين الإعتبار، على أن ما يميز الكتاب ويؤكد تكامل مادته العلمية ونظرته العربية، هو حضور الأطراف العربية البعيدة عن المركز ومنها بلاد المغرب العربي، مما أضفى على الكتاب تكاملا في الرؤية وتوازنا في المعالجة بات أغلب المؤلفات العربية تفتقدها لاهتمامها الأساسي بالحيز المركزي للوطن العربي المتمثل في مصر والهلال الخصيب ولتركيزها المفرط على المعضلة الفلسطينية وتداعياتها على الأمن المائي العربي .. وإنطلاقا من الطرح الصريح والمباشر لإشكالية المياه العربية من حيث التحديات المرتبطة بها والأجوبة التي تتطلبها فقد خلص المؤلف إلى تحديد مكمن أزمة المياه في الوطن العربي وما تتطلبه من حلول بديلة ومشاريع تعاون، وهنا نسجل موضوعية المؤلف في عرض الأحداث التي عالجها وتحديد الإستنتاجات التي

انتهى إليها، فلم يلحظ عليه تصور مثالي عاطفي أو نزعة قومية تنكر الواقع القطري حتى في عرضه لفشل مشروع حوض الحماد بين سورية والعراق والأردن والسعودية (١٩٧٩)، أو مناقشته لمسائل إستنزاف المياه الجوفية والتعاون في مجال المياه والوقوف في وجه المشاريع التركية والإسرائيلية.

إن كتاب " المياه العربية : التحدي والإستجابة " للأستاذ د.عبدالمالك التميمي كان بحق استجابة موفقة لحاجة المكتبة العربية ولتطلعات القارئ العربي ولتساؤلات المثقف العربي، فقد وضع إشكالية المياه موضع بحث واستنتاج وحوار ومراجعة، وأسس برؤيته العلمية لمشروع تنموي فيما يتعلق بمسألة المياه يقوم على تجاوز حالة الإحباط والضعف التي يعانيها العرب فيما يتصل بأسباب حياتهم وشروط بقائهم خاصة ما يتصل بالمياه في حد ذاتها أو يتعلق بالجفاف والقحط والتصحر والتعرية وإستنزاف الجيوب المائية وتلوث المصادر المائية.

فضلاً عن أن الكتاب في حد ذاته يعتبر إسهاما معرفيا يندرج ضمن الجهد العالمي الذي يرى في عنصر الماء هدفا إستراتيجيا متحكما في المستقبل، ويتجاوب مع جهود المنظمات العالمية التي أفردت يوما عالميا للمياه (٢٠ مارس ١٩٩٢)، ويتماشى مع توجهات الرأي العام العالمي الذي إعتبر عنصر الماء موردا مشتركا للإنسانية وليس مجرد سلعة تحقق الربح، مما يتوجب معه إعادة النظر في نمط حياتنا الإستهلاكية وإضفاء طابع الشفافية والديمقراطية في تسيير شئون المياه وإستغلالها والمحافظة عليها لضمان توازن بيئي في الطبيعة وتوفير حياة آمنة للإنسان عبر عنها بصدق المثل البربري القائل: أيها الإنسان أشرب الماء لتصبح جميلاً وأنظر إلى السماء لتصبح كبيرا.


الفصل السادس
آسيا و ملامح نظام عالمي جديد

آسيا وملامح نظام عالمي جديد :

ليست الأزمة الأخيرة بين كوريا الشمالية والجنوبية هي الوحيدة المرشحة للإنفجار في إقليم شرق آسيا في السنوات القليلة القادمة فهذه المنطقة بل وآسيا عموماً أصبحت مسرحاً رئيسياً لتفاعلات القوة في القرن الحادي والعشرين يقع ذلك في إطار إنتقال حقيقي وملموس لمقادير القوة الإقتصادية من الدول الصناعية الغنية في الغرب إلي الإقتصادات الصاعدة في آسيا بما لذلك من تداعيات استراتيجية وسياسية علي منطقة تعاني أصلا خلافات ومنافسات وصراعات تاريخية ، خلفت جروحا عميقة علي شعوب العديد من دول المنطقة .

الصعود الآسيوي :

بينما نقف علي أعتاب العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، نجد أنفسنا في إحدي اللحظات التاريخية النادرة التي تتبدي فيها التحولات الكبري للقوة بشكل واضح للعيان .. بما يضمن أن العالم، بنهاية العقد القادم، سوف يكون مختلفا بصورة جذرية عما كان عليه في القرن الماضي .

وقد أفاض المحللون ، خاصة الاقتصاديين منهم، في وصف معالم إنتقال القوة الاقتصادية إلي آسيا ، من رصد آلاف الآسيويين الذين استطاعوا تخطي خط الفقر ، إلي حجم الإنفاق الضخم علي مشروعات البنية التحتية (الأكبر في العالم)، إلي معدلات النمو العالية التي لم تتأثر بالأزمة العالمية .

وليس هذا التحول الكبير وليد اللحظة بالطبع فقد رصده مبكراً المؤرخ بول كينيدي، الذي تنبأ بتحول القوة الإقتصادية إلي منطقة الباسيفيكي، وأشار في

كتابه " صعود وهبوط القوي العظمي " إلي أن مجمل الناتج القومي للدول الآسيوية الباسيفيكية ، والذي كان في ١٩٦٠ يمثل ٧.٨ % من مجمل الإنتاج العالمي، قد إرتفع إلي ١٦.٤% من هذا الإنتاج بحلول عام ١٩٨٢ .

كما التفت المحلل الإقتصادي ورئيس التحرير السابق لمجلة الإيكونوميست البريطانية، بيل إيموت، إلي محورية الصعود الاقتصادي الآسيوي في كتابه " المتنافسون " مشيرا إلي أن آسيا قد أصبحت بكل المقاييس أكثر غني وقوة وأهمية ، حيث يعيش في هذه القارة أكثر من نصف سكان العالم وبها سته من أكبر عشرة دول فيه ، وقد تضاعف دخل الفرد في آسيا ككل سبع مرات، بحسب إيموت ، ما بين أعوام ١٩٥٠ و٢٠٠٥ ويعد هذا إنجازاً حقيقياً ، إذا ما أخذنا في الإعتبار أن بريطانيا العظمي لم تنجح في مجرد مضاعفة دخل الفرد فيها بعد مرور ستين عاما علي إندلاع ثورتها الصناعية عام ١٧٨٠ أما الولايات المتحدة ، فلم تنجح في مضاعفة دخل الفرد فيها إلا بعد خمسين عاماً من إنطلاقتها الإقتصادية عام ١٨٤٠ وبالمقارنة ، فقد نجحت كل من كوريا الجنوبية وتايوان والصين في مضاعفة دخل الفرد في العقد التالي مباشرة لانطلاقها الاقتصادي، ثم ضاعفته مرة أخري، وبسرعة أكبر، في العقد الذي تلاه .

كان الصعود الصيني في قلب هذه الانطلاقة الاقتصادية لآسيا. لقد كان نصيب الصين وحدها من إجمالي الناتج العالمي في عام ١٩٨٠ يقدر بنحو ٢% ، ثم صعد إلي ٧.٦ % في عام ٢٠٠١، ومن المتوقع أن يشكل ١٦.٩% من إجمالي الناتج العالمي بحلول عام ٢٠١٥ .

بلغت صادرات الصين عام ٢٠٠٠ نحو ٢٤٩ مليار دولار، ارتفعت إلي ٥٨٥ مليار دولار في عام ٢٠٠٤ ، وقدرت قيمتها لعام ٢٠١٠ بنحو ١.٢٧٤ مليار دولار .

وقد جاءت الأزمة المالية العالمية في ٢٠٠٨ لتكرس هذا التحول في القوة الاقتصادية إلي آسيا. فرغم أن الاقتصادات الصناعية المتقدمة ككل عانت الانكماش وانخفاض إجمالي الناتج القومي بنحو ٣.٥% نتيجة للأزمة ، فقد واصلت الاقتصادات الآسيوية، خاصة الصين والهند، نموها. تجاوزت نسبة النمو الاقتصادي للصين ٨ % في عام ٢٠٠٩، بينما كان معدل نمو الاقتصاد في الهند نحو ٦%. وتشير الدلائل إلي تواصل نمو هذه الاقتصادات، وإلي أن نسبة نمو الاقتصاد الصيني بلغ ، خلال عام ٢٠١٠ ، ٩ % علي الأقل .

وبينما لا تشغل الصين سوي المرتبة الثانية ، كأكبر اقتصاد في العالم ، فهي تعد لاعباً رئيسياً في العديد من النواحي . فلديها أكبر احتياطي نقدي في العالم ، وهي أكبر مصدر في العالم، وأكبر منتج للصلب ، والغازات الدفيئة أيضا، بالإضافة إلي كونها أكبر سوق للسيارات في العالم ، وأكبر شريك تجاري حاليا للاقتصادات الصاعدة الأخري، مثل الهند والبرازيل .

عالم جديد من المنافسة :

خلقت هذه التحولات الاقتصادية ، بالإضافة إلي تداعيات الأزمة المالية العالمية، بيئة جديدة تتسم بالتنافس الشديد علي المستوي العالمي بين الدول الصناعية المتقدمة والقوي الآسيوية الصاعدة، وعلي المستوي الإقليمي الآسيوي أيضا .

وقد قدم المحلل الاقتصادي الشهير " جيديون رخمان " في كتابه الصادر حديثا " عالم المعادلة الصفرية " رؤية مفادها أن النظام العالمي قد دخل بعد الأزمة المالية مرحلة تتسم بالتغير الجوهري وعدم الاستقرار الخطير. فبعد أن اعتمدت الدول الكبري لمدة ثلاثين عاما " العولمة " ، بوصفها نظاماً إقتصادياً

نجح في رفع مستويات المعيشة لأعداد كبيرة من البشر في مختلف أنحاء العالم، وخلق مناخاً من التعاون والمصالح المشتركة بينها، مما دعم استقرار النظام العالمي، جاءت الأزمة العالمية لتضع حدا لكل ذلك. فلم يعد من المسلم به أن عملية العولمة تصب في مصالح القوي الكبري، ولم تعد الولايات المتحدة تقود النظام العالمي بلا منافس لقد حل التنافس والنزاع محل التعاون، وأصبح منطق " المعادلات الصفرية " هو الذي يسود العلاقات الدولية. لقد أصبح الصعود الآسيوي مرتبطا بفقدان أعداد كبيرة من الأمريكيين العاديين لوظائفهم، كما أصبحت المشاكل الاقتصادية التي تواجه دولا أوروبية عديدة تهدد الوحدة الأوروبية والعملة الأوروبية. وبذلك، فإن التقدم الذي أحرزته آسيا كان علي حساب الولايات المتحدة وأوروبا، وأصبح صعود الصين الاقتصادي يضغط بشكل واضح علي علاقاتها إقليميا ودوليا- مع الولايات المتحدة .

وعلي المستوي الآسيوي الإقليمي، لم يتحقق النمو الاقتصادي بشكل سلس ومتساوى لجميع الأطراف. فقد أزاح الصعود الصيني اليابان إلي مرتبة الاقتصاد الثالث في العالم، كما أن الهند، التي تري نفسها ندا للصين، لم تحقق القدر نفسه من النمو. وبسبب حجم الصين الضخم، والاختلاف الكبير في القوة والتقدم بينها وبين جيرانها، يثير النمو الصيني لدي الدول الآسيوية الأصغر حجما، بشكل خاص، قدرا من التوجس .

من ناحية أخري فليس للدول الآسيوية تجربة تاريخية في احتواء تنافس ثلاث قوي صاعدة في وقت واحد (الصين واليابان والهند) ، كما كان للدول الأوروبية في القرن التاسع عشر. ويزيد نشاط روسيا والولايات المتحدة كلاعبين أساسيين في المنطقة من حدة هذا التنافس أيضا وحسبما وصف زبيجنيو بريجنسكي التفاعلات الآسيوية في كتابه " الاختيار " ، فإن إقليم شرق

آسيا قد يبدو مستقراً علي السطح ، ولكنه قد يتداعي إلي سلسلة متصاعدة من الصراعات المدمرة، إذا تعرض لصدمة حادة ومفاجئة. فليس هناك نظام للأمن الإقليمي يقوم علي الاتفاق المشترك بين الأطراف الإقليمية، خاصة في إطار العداء التاريخي بين اليابان والصين. كما أن الصراعات التاريخية خلفت آثارا شديدة العمق والمرارة، لا تزال حية ومحسوسة بين شعوب المنطقة. يضاف إلي ذلك تعدد بؤر الصراع وعدم الاستقرار في شرق آسيا، حيث يستمر انقسام شبه القارة الكورية، والتنازع علي القيادة الإقليمية بين اليابان، المدعومة من الولايات المتحدة والصين، والخلاف حول مستقبل تايوان، والمشاكل الداخلية في إندونيسيا. وهناك بوادر منافسة حقيقية بين الهند والصين، لخصها أحد المسئولين الهنود بقوله :!إن كلا من الصين والهند تري أن المستقبل في آسيا لها، ولا يمكن أن تكون الاثنتان علي حق وينعكس التنافس والتوتر في المنطقة علي ارتفاع معدلات التسلح فيها بشكل واضح، وامتداد التنافس بين اليابان والصين والهند بشكل خاص من مجال السيطرة علي البحار، إلي السيطرة علي الفضاء الخارجي .

الضغوط الدولية علي العلاقات الإقليمية :

بحسب منطق نظرية تحول القوة فإن القوي الإقليمية الصاعدة، والقوي العالمية التي في طريقها للانحسار، قد تندلع بينهما مواجهات في المناطق الجغرافية الاستراتيجية التي تتقابل وتتقاطع فيها مصالحها ولذلك، فإن آسيا، خاصة منطقة شرق آسيا، مرشحة بقوة لتكون مسرحا لمواجهة محتملة بين الولايات المتحدة والصين وهي مواجهة ليست في مصلحة أي من الطرفين، ولا ترغب فيها أو تسعي إليها الصين. ولأن عبء التعامل مع مراحل التحول التاريخي يقع بشكل أكبر علي القوة المهيمنة، وهي في هذه الحالة الولايات

المتحدة، فإن حدوث مثل هذه المواجهة يشكل هاجسا بالنسبة للعديد من خبراء السياسة الخارجية الأمريكية، الذين لا يرون أن الصراع بين الولايات المتحدة والصين يصب في مصلحة الأولي. وقد أشارت سوزان شيرك في كتابها 'الصين قوة عالمية هشة إلي هذه القضية وكيفية تفادي الولايات المتحدة لمثل هذا الصدام. حذرت شيرك من أن هناك وجهين للسياسة الخارجية الصينية الوجه المتعقل المسئول الذي يسعي لتفادي الصدام، ووجه آخر أكثر انفلاتا وعصبية، و عاطفية يظهر عندما تندلع أزمة تتعلق بقضايا حساسة مثل اليابان أو تايوان. حيث يشعر القادة الصينيون بأن عليهم إظهار قوتهم والدفاع عن كرامتهم الوطنية وكرامة شعوبهم. في مثل هذه الحالات، قد يتخلي القادة الصينيون عن حذرهم، ويتصرفون بطريقة غير محسوبة تزيد الأزمات اشتعالاً. ولذلك يجب علي المسئولين الأمريكيين تفادي إثارة مثل هذه المشاعر .

وفي إطار الأزمة الكورية الأخيرة، أدلي زبيجنيو بريجنسكي بدلوه أيضا موجها النصائح لإدارة أوباما في كيفية التعاطي مع الصين لتفادي تصعيد الأزمة أشار بريجنسكي إلي أن هناك اختلافا في المنظور التاريخي لكل من الصين والولايات المتحدة يؤثر في رؤيتهما للأزمة. فالصين، التي تري أن التطور التاريخي يصب في مصلحتها، يتزايد عندها الإحساس بالثقة والقوة، كما تقل رغبتها في اتخاذ أي خطوات قد تؤدي إلي هز القارب ، أي تهديد الأوضاع التي تراها مواتية لها. أما الولايات المتحدة، فتجد نفسها في موقع مختلف تماما، حيث يسود النقاش حول تراجع قوتها، كما تعاني أعباءها الخارجية المتعددة، ولذلك فهي مهتمة بحشد الجهود لاتخاذ عمل جماعي للتعامل مع الأزمة، وتشعر بالإحباط حين يرفض الآخرون مشاطرتها أعباءها الجسيمة في مثل هذه الظروف، يمكن أن يفضل الصينيون عدم اتخاذ أي إجراءات حاسمة تجاه كوريا الشمالية، مما لن يؤدي إلا إلي المزيد من الأعمال الاستفزازية من جانبها،

وبالتالي فيمكن أن يدفع ذلك الولايات المتحدة لاتخاذ إجراءات تراها الصين خطيرة ومبالغا فيها .

ينصح الدبلوماسي الأمريكي المخضرم الرئيس الأمريكي أوباما بأخذ زمام المبادرة، والاتصال بزعماء الصين واليابان وروسيا، مع تفادي اتخاذ لهجة عدائية أو إملائية، خاصة مع الصين. فإثارة المشاعر العدائية علي المستوي الجماهيري ستزيد من تعقيد الأزمة، وقد تدفعها إلي تصعيد خارج السيطرة .

ويجب عدم إغفال الضغوط المتزايدة التي تضعها تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية علي العلاقات الأمريكية الصينية. فيشير أستاذ العلاقات الدولية آرون فريدبرج إلي أن هذه الأزمة وضعت نهاية للفترة التي كانت فيها العلاقات التجارية بين البلدين تمثل عامل إستقرار، ودشنت بداية فترة جديدة، تصبح فيها مصدرا لتوتر ونزاع متصاعد .

لقد أصبحت معدلات البطالة العالية تضع ضغوطاً داخلية كبيرة علي الرئيس أوباما ليفعل شيئا بخصوص الصين ، كما أصبح العديد من السياسيين الأمريكيين يستخدمها كما ظهر في الحملة الانتخابية الأخيرة يستخدم الصين " كبش فداء " لتبرير مشاكل الاقتصاد الأمريكي ويقوي رفض الصين المستمر تحرير سعر صرف عملتها من الاتجاه الأمريكي لاتخاذ إجراءات حمائية ضدها، وفرض تعريفات جمركية علي واردات الولايات المتحدة من الصين. كل ذلك قد يدفع إلي إندلاع ما يسمي " حربا تجارية " بين الطرفين ، والتي يراها البعض 'أكبر خطر يهدد الاستقرار العالمي في السنوات القليلة القادمة .

المسرح في شرق آسيا يبدو معدا في ظل هذه الظروف لمواجهة مباشرة أو غير مباشرة بين الولايات المتحدة أو أحد حلفائها الإقليميين وبين الصين ،

الصين من جانبها تعمل جاهدة علي إحتواء خلافاتها الإقليمية، وتدعيم علاقاتها الاقتصادية مع جيرانها، تحقيقا لسياسة " الصعود السلمي " ، ولكن مسار الأمور لا تحكمه السياسات الصينية وحدها، بل أيضا تصرفات منافسيها من الدول الأسيوية، والمحاولات الأمريكية لحشد الدعم الإقليمي ضد الصين والضغط عليها لتحقيق أهداف أمريكية إقتصادية وإستراتيجية ، ويبقي في النهاية الإشارة إلي مقال حديث كتبه المؤرخ المشهور " بول كيندي " ، يشير فيه إلي ضرورة إعادة النظر في المعاني السلبية التي تستدعيها سياسة " الاسترضاء " ، (Appeasement)، والتي اكتسبت شهرتها من ملابسات محاولة القوي الأوروبية تفادي الدخول في حرب مع ألمانيا بقيادة هتلر في القرن الماضي، عن طريق تقديم تنازلات أو إرضاءات له. يذكر كيندي أن هذه الفكرة لم تكن دائما تحمل دلالات سلبية، فقد قدمت الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر 'استرضاءات' أو تنازلات للولايات المتحدة نفسها، مثل تنازلها عن حقوقها في ملكية ٥٠% من قناة بنما، وتنازلات بشأن ترسيم الحدود بين ألاسكا وكندا، وذلك رغم أنها كانت لا تزال القوة البحرية الأولي عالميا. ومهدت هذه التنازلات فيما بعد لتحول سلمي للقوة من بريطانيا إلي الولايات المتحدة، كما وضع أساس علاقة قوية سمحت للولايات المتحدة بمناصرة بريطانيا في حربين عالميتين في القرن العشرين .

لذلك ، قد يكون من المناسب للولايات المتحدة، من وجهة نظر كينيدي التفكير في تقديم تنازلات، تحت شعار التعاون والمشاركة في المسئولية، في علاقاتها مع الصين. فلن يقلل ذلك، في نظره، من مكانة الولايات المتحدة، بل سيساعدها علي تخفيف حدة التراجع في قوتها، أو إنحدارها، والذى يري كيندي أنه لا يزال بعيدا.

واقع ومستقبل التحالفات في أسيا :

منذ أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ بدأت تتكون في أوراسيا عدة محاور إستراتيجية جديدة ستكون هي محور الصراع العالمي القادم وقبل أن نرصد هذه المحاور يحسن أن نشير إلي الجدل الدائر في الفكر الاستراتيجي حول مفهوم المحاور والتحالفات في حقبة ما بعد الحرب الباردة ذلك أن هناك إتجاها معينا في هذا الفكر يؤكد أنه في عصر ما بعد الحرب الباردة فان العالم قد تغير جذريا في إتجاه العولمة وهي تعني تنميط التفاعلات داخل وبين الدول وخلق هويات عولمة جديدة للبشر طبقا لهذه الرؤية فان الحديث عن محاور في عالم القرن الحادي والعشرين هو حديث يستند إلي أدبيات بل والي عقلية الحرب الباردة وهي مرحلة تجاوزها العالم ودخل في منعطف جدي لا مجال فيه إلا للاقتصاد العالمي والأمن التعاوني والحق أن تلك الرؤية لا تعكس قراءة فاحصة سواء لتطور مفهوم التحالفات والمحاور عبر تطور السياسة الدولية أو لتطور عالم ما بعد الحرب الباردة بل يمكن القول أن تلك الرؤية هي بالأساس رؤية أيديولوجية أكثر منها رؤية واقعية لعالم اليوم فلا علاقة بين مفهوم المحاور والحرب الباردة فالمحاور والأحلاف الدولية وجدت تاريخيا قبل الحرب الباردة بقرون طويلة وأستمرت خلال تلك الحرب وبعدها وعلى من يقول أن الحديث عن محاور وأحلاف ما بعد الحرب الباردة هو حديث لا يتسق مع عالم العولمة أن يفسر سبب إستمرار حلف الأطلنطي في حقبة ما بعد الحرب الباردة بل وتوسعه ليشمل دولا جديدة وإصرار الدول الأعضاء أن يضطلع الحلف بوظائف خارج نطاق إختصاصه الإقليمي بل وإعلان الحلف تمسكه بامتلاك الأسلحة النووية يري أنصار الرؤية العولمية للتحالفات الدولية أن وجود حلف الأطلنطي هو أحد الظواهر الطبيعية بينما الحديث عن وجود أحلاف أو محاور أخرى هو أحد

تجليات عدم فهم عالم ما بعد الحرب الباردة والحق أن عدم وضوح معني المفاهيم لدي أنصار تلك الحرية يمتد حتى إلي الخلط ما بين الحرب الباردة والقطبية التعددية حتى إنهم يعتبرون أن الحديث عن التحول العالمي نحو القطبية التعددية إنما يعني حديثا عن عودة الحرب الباردة دون أن ينتبهوا إلي اللاقطبية التعددية وجدت قبل الحرب الباردة ويمكن أن توجد بعدها فلا علاقة حتمية بين النظام العالمي وعمليات سوءا كان الحرب الباردة أو غيرها .

كانت المحالفات الدولية التقليدية منذ صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨م تتمركز في أوروبا واستمرت علي هذا النحو حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حيث إتسمت التحالفات بالطابع العالمي بعد أن أمتدت إلي الكتلتين الشرقية والغربية لتشمل العالم بأسره كذلك فقد تراجع دور الأحلاف الدولية منذ السبعينات من القرن العشرين بإلغاء حلف جنوب شرقي آسيا سنة ١٩٧٧م ثم الحلف المركزي سنة ؟ ثم حلف وارسو سنة ١٩٩١ م ولكن إعتبار من العقد الأول للقرن الحادي والعشرين بدا بنمط جديد من المحالفات الدولية في الظهور يتسم هذا النمط بخاصيتين هما أنه لا يماثل النمط التقليدي للأحلاف العسكرية في القرن التاسع عشر ولكنه يتخذ شكل مشاركات إستراتيجية ذات أبعاد متعددة يعد العبد العسكري واحدا منها وقد لا يكون هو البعد الأهم فهي تدور حول التزامات عسكريه وسياسية وإقتصادية ترقي إلي نمط الأحلاف المعروف باسم حلف الوفاق أما الخاصية الثانية فهي تمركزه في اوراسيا خاصة في القسم الأسيوي منها ولكنه يدور حول الصين بالأساس ليس بمعني أن الصين هي التي تكون تلك التحالفات ولكن بمعني أنها تعدو حول قضية الدور الصيني الجديد في السياسة الدولية فمع الصعود التدريجي للصين ووصول المحافظين الجدد إلي الحكم في الولايات المتحدة إتجهت الأخيرة إلي إحتواء الصعود الصيني من خلال نمط من التحالفات الأسيوية يبين علي ما هو قائم ويوسع فقد جاء إنتخاب

جورج بوش رئيسا للولايات المتحدة ٢٠٠١ ليدشن مرحلة من التغير في السياسة الأمريكية نحو الاصطدام الحذر بالصين وكانت واقعة الصدام بين ظاهرة التجسس الأمريكية والطائرات الحربية الصينية فوق المنطقة الاقتصادية الخالصة للصين في المحيط الهادي في أبريل ٢٠٠١م مؤشرا علي ذلك وأكد بوش ذاته ذلك حينما علن أن الصين منافس إستراتيجي بعد أن كان الرئبس السابق كلينتون يقول أن الصين شريك إستراتيجي وزاد من ذلك كله التحو. في الإستراتيجية الأمريكية نحو إلغاء الاتفاق الإطار الموقع سنة ١٩٩٤ م مع كوريا الشمالية بصد برنامجها النووي ثم الضغط علي اليابان لكي تعيد تسليحها الذي كانت قد نبذته سنة ١٩٤٥م ثم إشارات راسمفيلد وزير الدفاع الأمريكي إلي القلق الأمريكي من تنامي القوة العسكرية الصينية وهو الأمر الذي سرعان ما شاركت اليابان في التعبير عنه في شهر ديسمبر ٢٠٠٥م كذلك دار هذا النمط حول روسيا فقد سعت الولايات المتحدة ودول حلف الأطلنطي إلي التأكد من عدم عودة روسيا إلي الصعود الاستراتيجي العالمي ومن ثم عملت علي التوسع في عمق المصالح الجغرافية الروسية تضم دول حلف وارسوا ودول البلطيق إلي حلف الأطلنطي بل وسعت إلي ضم أوكرانيا وجورجيا وأخيرا فان هذه التحالفات لم تتبلور بشكل قاطع خاصة في الجانبين الروسي والصيني فالصين لم تدخل تماما تحالفا مع روسيا وتفضل أن تترك البدائل مفتوحة وتركز علي عدد من الدول الصغيرة في المحيط الهندي فمنظمة شنغهاي للتعاون ليست حلف الأطلنطي الشرقي كما أن روسيا تفتح البدائل مع الهند والصين في أن واحد .

فكذا نشأ محوران أساسيان في اوراسيا ، الأول : محور أمريكي – ياباني - هندي والثاني : محور روسي مع عدد من دول الاتحاد السوفيتي السابق أما الصين فقد إرتبطت بالمحور الثاني من خلال منظمة شنغهاي للتعاون ولكنها حافظت علي بدائلها مفتوحة ومستقلة في الوقت ذاته .

أولا : المحور الأمريكي – الياباني – الهندي ..

مع إنتصار الشيوعيين في الصين وإعلان جمهورية الصين الشعبية سنة ١٩٤٩م ثم الحرب الكورية سنة ١٩٥٠ إتجهت الولايات المتحدة إلي الاعتماد علي اليابان كشريك إستراتيجي مما دعاها إلي تغير شكل علاقة الاحتلال إلي علاقة تحالف ولهذا وجهت الولايات المتحدة في ٢٠ يونيو سنة ١٩٥١ الدعوة إلي ٥٢ دولة لعقد مؤتمر في سان فرانسيكسو تم إفتتاحه في ٤ سبتمبر سنة ١٩٥١م بحضور الدول الغربية وإمتناع الاتحاد السوفيتي عن الحضور (مع عدم دعوة جمهورية الصين أو جمهورية الصين الشعبية) وتم توقيع معاهدة سنان فرانسيسكو في ٧ سبتمبر سنة ١٩٥١م بموجب المعاهدة تخلت اليابان عن أي مطالب في كوريا وفورموزا وجزر البسكادور وجزر كوريبل وسخالين وكافة جزر المحيط الهادي التي كانت تحت وصايتها لتتولي الوصاية عليها الولايات المتحدة وتخلت اليابان عن حقوقها في الصين وأقتصرت سيادتها بذلك علي الجزر الأربع والارخبيلات المجاورة كذلك تعهدت الدول الحليفة بسحب قوات الاحتلال من اليابان خلال تسعين يوماً مع جواز عقد إتفاقات ثنائية لإبقائها في اليابان وأكدت المعاهدة مبدأ التعويضات عن الخسائر التي تسببت فيها اليابان كذلك نصت المعاهدة علي أن اليابان لا تخضع لأي معاملة تميزه في التجارة الدولية وفي ٨ سبتمبر وقعت الولايات المتحدة مع اليابان معاهدة أمنية تضمنت تعهد اليابان بالمساح للقوات الأمريكية بالبقاء علي أراضيها وفي ١٩ يناير سنة ١٩٦٠ وقعت معاهدة الأمن المتبادل التي تضمنت احتفاظ الولايات المتحدة بقواعد عسكريه في اليابان لمدة عشر سنوات وإحتفاظ اليابان بقوة عسكرية دفاعية في أراضيها لا يحق لها ارسالها إلى الخارج وان يكون لليابان حق تقرير مسالة تزويد القواعد الامركية بالاسلحة النووية وقد أكد رئيس الوزراء الياباني السابق هاتوياما في ١٩ يناير سنة ٢٠١٠م أن تحالف

بلاده مع الولايات المتحدة هو تحالف لا يمكن الاستغناء عنه لمنطقة آسيا – المحيط الهادي رغم أنه كان قد انتخب سنة ٢٠٠٩م علي أساس برنامج يقضي بإنهاء وجود القواعد العسكرية الأمريكية في اليابان.

بالنسبة للهند فقد تقاربت مصالحها مع الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب الباردة بعد أن كانت المصالح الهندية – الأمريكية متباعدة خلال تلك الحرب بعد أن أثار الرئيس كلينتون قضية كشمير في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٩٣م غيرت الولايات المتحدة موقفها من الهند وبدأت تري فيها حليفا يعتمد عليه لمواجهة القوة الصينية المتعاظمة من ناحية والأخطار الجديدة في وسط وجنوبي آسيا مثل تصاعد الحركات السياسية الإسلامية المعادية للولايات المتحدة من ناحية أخرى وقد توافق ذلك مع تحول الهند بعد التفجيرات النووية سنة ١٩٩٨م لتأكيد مركزها السياسي العالمي والدخول في تفاهم إستراتجي مع القوة العظمي الوحيدة وذلك لعزل باكستان دوليا والحصول علي المكاسب الاقتصادية المتوافرة في السوق الأمريكية وهكذا شهد عام ٢٠٠٠ زيارة الرئيس كلينتون للهند وزيارة رئيس الوزراء فاجباي للولايات المتحدة ففي مارس سنة ٢٠٠٠ زار كلينتون الهند وبنجلاديش وباكستان إلا أنه جعل من الهند محطته الرئيسية سواء من حيث طول فترة الزيارة أو من خلال إهتمامه بإيضاح مدي إهتمامه النسبي بالدول التي زارها وفي خطابه أمام المجلس المشترك للبرلمان الهندي أكد كلينتون أن الهند والولايات المتحدة حليفان طبيعيان وركز كلينتون علي أنه يشارك الهند قلقلها بشان التطورات في باكستان وأن مبادراتها السابقة تجاه باكستان لم تكلل بالنجاح وعلى أنه لم يحضر إلي جنوبي آسيا للوساطة بين الهند وباكستان فالدولتان وحدهما تستطيعان حل المشكلات القائمة بينهما كما ركز علي أهمية إحترام خط السيطرة بين الدولتين والحوار بينهما كذلك أكد فاجباي الرؤي المشتركة بين الدولتين وأهمية التركيز

علي مواجهة الأخطار الجديدة كالإرهاب وتجارة المخدرات وفي شهر سبتمبر سنة ٢٠٠٠م زار رئيس الوزراء الهندي فاجباي الولايات المتحد ة وفي خطابه أمام الكونجرس في ١٤ سبتمبر ٢٠٠٠م ركز علي التشابه بين الهند والولايات المتحدة في مجال الديمقراطية علي التعاون الأمريكي الهندي في مجال مكافحة الإرهاب وفي مجال تكنولوجيا المعلومات والبيئة وحفظ السلام العالمي وطالب الولايات المتحدة بتفهم إحتياجات الهند النوويه وأشار إلي أنه خلال الأعوام العشرين الأخيرة سقط واحد وعشرين ألف قتيل في النزاع حول كشمير منهم ١٦ ألف في جامو كشمير وحدها وقد بدا خلال تلك الزيارة أن هناك خلافا بين الهند والولايات المتحدة حول قضية كشمير فقد أكد كلينتون إهتمامه بأستئناف الحوار بين الهند وباكستان وهو ما رفضه فاجباي مشيرا إلي أن أحدا لا يستطيع إجبار الهند علي الحوار مع باكستان ولكن الأمر تغير تماما بعد وصول المحافظين الجدد إلي الحكم في الولايات المتحدة سنة ٢٠٠١م وما أعقبه ما أحداث ١١ سبتمبر حيث تحولت الولايات المتحدة إلي التفاهم الاستراتيجي الكامل مع الهند لتصفية القضية الكشميرية بل وتصفية المقاومة الكشميرية وفي شهر مارس سنة ٢٠٠٦م زار الرئيس الأمريكي بوش الهند ووقع مع حكومتها إتفاقا يقضي بمد الهند بالتكنولوجيا النووية السلمية مقابل فتح الهند بعض منشاتها النووية للتفتيش وقد أمدت الولايات المتحدة الهند بتلك المواد بالفعل مما دعا الصين إلي مشاركة مماثلة مع باكستان كذلك زار الرئيس الأمريكي باكستان ولكمنه رفض التهديد بتعاون مماثل وإستمرار لهذا التوجه فقد صرح الرئيس الأمريكي اوباما بأن الهند شريك إستراتيجي طبيعي للولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين وان علي الولايات المتحدة أن تعمل مع الهند في عدة قضايا مهمة تتراوح بين منع الإرهاب إلي دعم السلام والاستقرار في آسيا وفي شهر نوفمبر سنة ٢٠١٠ م زار الرئيس الأمريكي اوباما الهند ولكنه لم يزر

باكستان وقد شهدت تلك الزيارة توثيقا للتحالف الهندي الأمريكي تمثل في دعم اوباما لعضوية الهند في مجلس الأمن كعضو دائم العضوية كما إمتنع عن الاضطلاع بأي دور في حل الصراع الكشميري المتفاقم .

من ناحيتها فقد انفتحت الهند علي اليابان ففي أغسطس سنة ٢٠٠٠ زار موري رئيس وزراء اليابان الهند وأتفقا علي بناء مشاركه عالية متعددة الجوانب في شكل حوار بين المؤسسات الأمنية ومؤسسات السياسة الخارجية في الدولتين والتعاون الامني لتامين المرور البحري في مضايق ملقا حيث ازدادت القرصنة البحرية في هذه المضايق مما أدي إلي خسارة كبيرة للسفن اليابانية وكانت الهند قد أعادت لليابان في نوفمبر سنة ١٩٩٩م سفينة شحن يابانية مختطفة في المضايق وكانت اليابان قد حاولت قبل ذلك أن تتوسط بين الهند وباكستان في قضية كشمير بإستضافة مؤتمر حول هذه القضية ولكنها تخلت عن هذه الوساطة بعد اعتراض الهند وتعد اليابان أكبر مانح للمساعدة الإنمائية للهند منذ سنة ١٩٨٦م وثاني أكبر مستورد للصادرات الهندية جاء التطور الأكبر في ٢٢ أكتوبر سنة ٢٠٠٨م حين وقع رئيس الوزراء الهندي سيمج مع رئيس الوزراء الياباني تارو اسو الاعلان اليابانى الهندي حول التعاون الامني وهو ثاني إتفاق أمني توقعه اليابان منذ المعاهدة الأمنية الأمريكية اليابانية سنة ١٩٥١م وقد أثني الاعلان علي الادراك المتماثل بين الدولتين للبيئة الاقليمية الأمنية الناشئة ولما كانت اليابان قد وقعت إعلانا مماثلا مع استراليا في سنة ٢٠٠٧ فقد عد ذلك كله بمثابة تكوين كتلة استراتيجية بين اليابان والهند برعاية أمريكيه في مواجهة الصين .

والحق أن المضمون الرئيسي للسياستين الهندية واليابانية موجه بالاساس إلي الصين فقد بدأت معضلة الصين مع الهند سنة ١٩٦٢ مع الحرب الهندية –

الصينية التي أسفرت عن إحتلال الصين لاراض هندية ثم دخول الصين في السياسة الإقليمية لجنوبي آسيا من خلال دعمها العسكري لباكستان بيد أنه منذ منتصف التسعينات بدأت الصين والهند رحلة تقارب تتخطي المستوي العادي للعلاقات بين الدولتين منذ سنة ١٩٦٢ وهو تقارب تهدف الهند منه إلي عزل باكستان عن حليفتها الصين وتهدف الصين منه إلي التأثير في التقارب الهندي – الأمريكي وتحرص الهند علي وضع سقف لهذا التقارب حيث أن هدفها الاستراتيجي هو التفاهم مع الولايات المتحدة كما أنه منذ أن طورت الهند القنبلة النووية سنة ١٩٩٨ وأعلنت أن الصين هي المستهدفة وضعت الصين نصب عينيها الطموحات العسكرية الهندية وفي الوقت الراهن يوجد تنافس بحري صامت بين الهند والصين في المحيط الهندي وبحر أندمان .

من ناحيتها فان اليابان تواجه معضلة مع الصين تنبع من العداء الصيني التاريخي لليابان نتيجة ممارستها الاستعمارية في الصين واصرار كويزومي رئيس وزراء اليابان السابق علي زيارة مزار يازوكوني الذي يخلد ذكري الذين ضحوا من اجل اليابان منذ سنة ١٨٥٣م بمن فيهم الجنرال توجو ورفاقه الذين قادوا الإحتلال الياباني للصين ضف إلي ذلك التحالف الياباني الأمريكي والضغوط التي تمارسها الولايات المتحدة علي اليابان من أجل إعادة التسلح وذلك لتمويل اليابان إلي بريطانيا الشرق أي أن تكون الحليف الأساسي للولايات المتحدة في آسيا علي غرار وضع بريطانيا في أوروبا الهدف المعلن من تسلح اليابان هو مواجهة التهديد الكوري الشمالي ولكن المستهدف أساسا هو الصين وقد تمثل ذلك في إعلان اليابان في ديسمبر ٢٠٠٥م عن أن الصين تشكل تهديدا لأمن اليابان نتيجة تزايد إنفاقها العسكري ثم إعلانها عن إنشاء حائط للصواريخ بالتعاون مع الولايات المتحدة موجه ضد كوريا الشمالية لكنه قد يكون موجها بالأساس ضد الصين .

وفى هذا الإطار تسعي الولايات المتحدة إلى حث اليابان علي إعادة التسلح لتوظيفها ضد الصين في شرقي آسيا ففي خطابه في طوكيو في ١٣ أغسطس سنة ٢٠٠٤م حث كولن باول وزير الخارجية الأمريكي آنذاك اليابان علي التخلي عن دستورها السلمي إذا أرادت أن تنضم إلي العضوية الدائم لمجلس الأمن كذلك تدعم الولايات المتحدة إلهند لتوظيفها ضد الصين في جنوبي آسيا وفي هذا الإطار نفهم إتفاق التعاون النووي الأمريكي الهندى الذي وقعه بوش وسينج في مارس سنة ٢٠٠٦م كما تضغط الولايات المتحدة لتحجيم القوه العسكرية الصينية حيث ضغطت علي الإتحاد الاوروبي لمنع رفع الحظر علي صادرات السلاح إلي الصين الذي كان قد فرض سنة ١٩٩٨ وعلى اسرائيل لمنع بيع طائرات الانذار المبكر من طراز فالكون للصين وهو ما أطلق عليه بعض الباحثين مصطلح المنافسة بدون مواجهة .

ثانياً : التحالفات الروسية في اوراسيا ..

الركن الثالث للتحالفات الجديدة هو ذلك الذي أنشاته روسيا باسم " منظمة معاهدة الأمن الجماعي ومننظمة شنغهاي للتعاون بالنسبة للمنظمة الأولي فهي تضم سبع دول هي روسيا ، وبيلاروسيا وارمينيا وكازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان واوزبكستان وهي كلها من دول الاتحاد السوفيتي الذي الغي سنة ١٩٩١م وكانت تلك الدول عدا بيلاروسيا قد قعت معاهدة الأمن الجماعي في ١٥ مايو سنة ١٩٩٢ مع ست من دول الكونولث في مدينة طشقند وإنضمت إليها أذربيجان في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٩٣م وجورجيا في ٩ ديسمبر سنة ١٩٩٣م وبيلاروسيا في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٩٣م ودخلت المعاهدة حيز التنفيذ في٢٠ أبريل سنة ١٩٩٤م نصت المعاهدة علي التزام الدول الأعضاء بالامتناع عن إستخدام القوة أو لتهديد بإستخدامها في علاقاتها المتبادلة مع التزامها بالدفاع

المشترك أي أنها بمثابة معاهدة للأمن الجماعي وحددت المعاهدة سريانها بخمس سنوات ما لم يتم تجديدها وفي ٢ ابريل سنة ١٩٩٩م جددت الدول الأعضاء المعاهدة ما عدا أوزبكستان وأذربيجان وجورجيا فقد رفضت الاستمرار في المعاهدة وإنضمت أوزبكستان إلي منظمة جوام التي شملت معها اذ ربيجان وجورجيا هي منظمة تضمن دول الاتحاد السوفيتي الموالية للسياسة الأمريكية وفي ٧ أكتوبر سنة ٢٠٠٢ وقعت الدول الست في المعاهدة ميثاقا في كيشناو بتوسيع نطاق المعاهدة ليشمل مولدوفيا مع إعادة تسيمتيها باسم منظمة معاهدة الأمن الجماعي وإقامة أمانة عامة مقرها موسكو وفي ٢٣ يونيو سنة ٢٠٠٦م عادت أوزبكستان للانضمام إلي المنظمة بعد إنسحابها من جوام ولكن مولدوفيا انسحبت منها بعد ذلك وللمنظمة ميثاق مكتوب وامانة عامة وهيئات تنظيمية اهمها مؤتمر القمة كما أن لها قوات مسلة مشتركة تشرف عليها روسيا وتقوم روسيا بتسليح دول المنظمة .

وفي أكتوبر عام ٢٠٠٧م وقع رؤساء الدول الأعضاء في منظمة الأمن الجماعي أثناء قمتهم في العاصمة الطاجيكية دوشنية – بروتوكلا يتضمن إليه تقديم المسعاعدات العسكرية التقنية للدول الأعضاء في المنظمة في حال ظهور تهديد بالعدوان أو العدوان الفعلي عليها أما المسائل العلمية لتقديم مثل هذه المساعدات أثناء وقوع العدوان فتجري تجربتها من خلال المناورات العسكرية المشتركة التي تنظمها قيادات الأركان علي ثلاثة مستويات إستراتيجي وميداني وتكتيكي وقد جرت المرحلة الأولي للمناورات في أرمينيا في شهر يوليو عام ٢٠٠٨م ثم جرت المرحلة الثانية في موسكو فيما أشترك في المرحلتين الثالثة والرابعة القوات المرابطة في القاعدة العسكرية الروسية الموجودة في الأراضي الأرمينية وكذلك قوات إرمنيه قوات عائدة للدول الأعضاء الأخرى ويساند هذه المنظمة تكتل إقتصادي باسم الجماعة الاقتصادية الاوراسية تألفت

في ١٠ أكتوبر سنة ٢٠٠٠ من روسيا وبيلاروسيا وكازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان ثم إنضمت إليها أوزبكستان سنة ٢٠٠٦م وتهدف الجماعة إلي إنشاء سوق مشتركة بين الدول الأعضاء وللجماعة مجلس حكومي يعقد بشكل سنوي علي مستوي القمة وأمانة عامة مقرها موسكو .

أما منظمة شنغهاي للتعاون فقد أنشئت كختام لسلسة من المجهودات التي بذلتها روسيا والصين للتعامل مع ما سمي القضايا الأمنية الجديدة وسعيهما إلي بناء نظام عالمي متعدد القطبية وبناء علي مبادرة صينية إجتمع قادة الصين وروسيا وكازاخستان وطاجيكستان وقيرغيزستان شنغهاي ف في أبريل سنة ١٩٩٦م وحيث تم توقيع إتفاقية إنشاء مجموعة شنغهاي للدول الخمس وقد حددت الاتفاقية أن الدول الأعضاء تتبعه بإقامة منطقة منزوعة السلاح علي طول الحدود وبين الصين وباقي الدول الأعضاء وعدم مهاجمة بعضها بعضا أو إجراء مناورات عسكرية تستهدف الدول الأخرى مع إبلاغها بتلك المناورات مسبقا كذلك إتفق علي عقد إجتماع دوري بين الدول الأعضاء و القمة الرابعة التي عقدت في بتشكيك عاصمة قيرغيزستان (تم توسيع نطاق الاهتمامات لتشمل قضايا مكافحة الإرهاب والجريمة المنظمة والحركات الانفصالية والهجرة غير الشرعية وتجارة المخدرات والسلاح وغيرها كما تم الاتفاق علي إبعاد القوات المسلحة للدول علي مسافة ٣٠٠كم من حدودها مع الدول الأخرى وفي القمة المنعقدة في شنغهاي في يونيو سنة ٢٠٠١م تم توقيع إعلان إنشاء منظمة شنغهاي للتعاون بدلا من المسمي السابق وأنضمت أوزبكستان إلي المنظمة في هذا الاجتماع ووضح من سير المناقشات إتجاه المنظمة إلي التعامل مع القضايا الأمنية الجديدة مثل الإرهاب والتطرف والحركات الانفصالية والاتفاق علي مفهوم جديد هو أن أمن آسيا الوسطي يشكل جوهر أمن اوراسيا كلها وفي القمة المنعقدة في سان بطرسبرج في روسيا في يونيو سنة ٢٠٠٢ تم

توقيع ميثاق المنظمة وإنشاء مركز إقليمي لمحكافحة الارهاب وتم إنشاء أمانة عامة للمنظمة بكين وتعقد المنظمة مؤتمر قمة سنويا بالتناوب بين الدول الأعضاء ومؤتمر وزراء خارجية يسبق القمة بالإضافة إلي مجلس للتنسيق القومي بين أنشطة الوزارات المخلتفة في الدول الاعضاي والمركز الاقليمي لمحافحة الارهاب ومقره في بشكيك .

وفي أكتوبر سنة ٢٠٠٧م وقعت منظمة شنغهاي للتعاون إتفاقاً مع منظمة معاهدة الأمن الجماعي في مدينة دوشانبيه يقضي بتوسع نطاق التعاون بينهما في مجال قضايا الأمن والجريمة المنظمة وتهريب المخدرات مما يشير إلي أن المنظمتين هما جزء من المنظومة التي تقيمها روسيا في اوراسيا .

ثالثاً : الصين تحتفظ بكل البدائل ..

من ناحيتها فقد إحتفظت الصين ببدائلها مفتوحة فرغم إرتباطها بمنظمة شنغهاي للتعاون فأنها حرصت علي الاحتفاظ بمسافه معينة مع روسيا هذه المسافة لا تسمح بوصف العلاقة الروسية الصينية بأنها علاقة تحالف إستراتيجي بدليل رفض الصين دعم روسيا في الحرب الروسية الجورجية.

تتبع الصين إستراتيجية حذره سماها بعض الدارسين إستراتيجية محسوبة أي أنها إستراتيجية تهدف إلي حماية الصين من التهديدات الخارجية في الوقت الذي تواصل فيه صعودها الاقتصادي والحصول علي عناصر القوة وفي هذا الإطار سعت الصين إلي تجنب الاصطدام المباشر بالقوي الإقليمية أو علي الأقل وضع سقف لهذا الاصطدام بما في ذلك أي صدام محتمل مع تايوان وفي الوقت ذاته سعت إلي بناء علاقات إستراتيجية مع دول جنوب شرقي آسيا من خلال دخول التجمع الاقتصادي لشرقي آسيا الذي يضم دول الآسيان بالإضافة

إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية كذلك سعت إلي حل المشكلات الإقليمية مع الهند دون التنازل عن الأراضي الهندية تحت سيطرتها وتمثل ذلك في عقد صفقة إقليمية مع الهند تعترف بها الصين بضم الهند لإقليم سيكيم مقابل إعتراف الهند بأن التبت جزء من الصين كذلك سعت الصين إلي بناء ترتيبات إقليمية آسيوية لمقاومة الحركات الإسلامية والتي تسمي حركات الإرهاب الإسلامي في الأدبيات الصينية ومن ذلك مشاركتها الفعالة في إنشاء مؤتمر إجراءات التفاعل وبناء الثقة في آسيا سنة ٢٠٠٢م مع ١٨ دولة آسيوية أخرى ومنظمة شنغهاي للتعاون بالتعاون مع روسيا ودول آسيا الوسطي الخمس (عدا تركمنستان) كنظمة مضادة للإرهاب .

من ناحيتها أتبعت روسيا سياسة مماثلة خاصة فيما يتعلق بعلاقاتها مع الهند فروسيا تراهن إستراتيجيا علي الهند في مواجهة باكستان التي تعتبرها مصدرا للتهديد الامني وفي هذا الاطار زار رئيس روسيا " فلاديمير بوتين " الهند في أكتوبر عام ٢٠٠٠ ووقع خلال الزيارة بيان المشاركة الاستراتيجية بين روسيا والهند وتم التركيز خلال الزيارة علي التعاون في مجال الطاقة وتطوير علاقات العمل الوثيقة لاسيما في مجال التقينات المعلوماتية وقد قام اتال بيهاري فجباري رئيس وزرا الهند السابق ــ في الفترة ما بين ١١-١٣ نوفمبر عام ٢٠٠٣م ــ بزيارة روسيا ووقعت أثناء الزيارة عشره وثائق تشمل التحديات الشاملة وتهديد الأمن والاستقرار العالمي وقد زار روسيا في ديسمبر عام ٢٠٠٥م ونوفمبر عام ٢٠٠٧م رئيس الوزراء الهندي مانموهان سينج في زيارتين رسميتين وقع خلالهما عددا من الاتفاقيات في مجال الفضاء .. ومن ثم فان الصين وروسيا تحرصان علي الاحتفاظ بكل البدائل مفتوحة مما يؤدي بنا إلي القول أن تحالفات ما بعد الحرب الباردة في اوراسيا هي تحالفات في طور التكوين .

وقد تجسدت الظواهر التي أشرنا إليها سنة ٢٠١٠م في التحرك الغربي في اليمن بدعوي أن الحركات المسماة بالارهابية تتخذ من هذه الدول ملاذا وهو التحرك الذي وصفه سفير الهند السابق بادراكومار بأنه يستهدف الصين وليس تنظيم القاعدة وقد تمثل هذا التحرك في عقد مؤتمر دولي حول اليمن في بريطانيا ويمكن القول أن التحرك الغربي تجاه اليمن هو جزء من الصراع العالمي بين التحالفات التي اشرنا إليها والتحديد في مجال التنافس العالمي للسيطرة علي المحيط الهندي وإتجاه القوي الاسيوية الناشئة إلي التحول نحو إمتلاك القوة البحرية التي تمكنها من تحقيق تلك السيطرة ويدور التنافس الصامت بين الولايات المتحدة مدعومة من الهند واليابان من ناحية وبين الصين مدعومة من باكستان وميانمار من ناحية أخرى وفي هذا السياق نفهم إهتمام الهند والصين وباكستان بتطوير قواتها البحرية حيث أتسع نطاق عمل الاسطولين الهندي والصيني ليشمل المحيط الهندي باكمله ويشبه هذا التنافس المباراة الكبرى بين روسيا وبريطانيا للسيطرة علي آسيا الوسطي وافغانسان في القرن التاسع عشر والمباراة الكبرى الجديدة في العقد الاخير من القرن العشرين بين ايران وتركيا للسيطرة علي المنطقة ذاتها الجديد في الصراع الراهن هو أنه صراع بحري أكثر منه صراعا بريا كما أن الولايات المتحدة والصين هما أهم أعمدة هذا الصراع .

فقد جاء إعلان الصين في ديسمبر سنة ٢٠٠٩م وعزمها إقامة قاعدة بحرية في خليج عدن لحماية سفنها من القرصنة الصومالية ليشكل جرس إنذار للقوي الغربية وكانت الصين قد أرسلت عدة مدمرات حربية إلي الخليج في أكبر وجود بحري صيني في المنطقة وقد أتي الإعلان في سياق جهد صيني لتطوير القوة البحرية الصينية بما يمكنها لأول مرة في تاريخها من نشر أسطولها في المحيطات البعيدة بشكل يمكن معه حماية خطوط نقل النفط

المستورد من أفريقيا ومنطقة الخليج العربي ولعل أهم تلك المحيطات التي يعبرها النفط الذي تستورده الصين هو المحيط الهندي حيث يتم نقل النفط من منقطة الخليج العربي وأفريقيا إلي الصين وهو النفط الذي يعد عماد الصعود الصيني بعد أن تحولت الصين سنة ١٩٩٣م لأول مرة إلي دولة مستوردة للنفط.

كان إعلان الصين عزمها إقامة قاعدة عسكرية في خليج عدن علي الأرجح في ميناء عدن بمثابة إنذار مبكر بأن الصين تسعي إلي إكمال سلسلة نقاط الارتكاز البحرية لها في المحيط الهندي إمتدادا من سواحل ميانمار إلي خليج عدن علي طول سواحل المحيط الهندي فقد أقامت الصين نقاط إرتكاز لاسطولها في المحيط الهندي في ميانمار وسريلانكا وباكستان هذه النقاط ليست قواعد عسكريه دائمة ولكنها توفر للاسطول الصيني تسهيلات بحرية من خلال المنشات البحرية التي أنشاتها الصين في تلك البلاد ولهذا جاء الاعلان الانجلو – أمريكي تجاه اليمن لقطع الطريق أمام التحرك الصيني وإحكام السيطرة الغربية علي الممرات البحرية لنقل النفط بحيث يسهل قطعها في حالة حدوث تصادم بين القوي الغربية والصين واستكمالا لهذا المخطط قامت الهند بمد نطاق عمل إسطولها إلي مضيق ملقا حيث يقوم الإسطول الهندى بحماية السفن اليابانية العابرة للمضيق من القرصنة كما أنها مدت نطاق عمل إسطولها إلي الخليج العربي كما تقوم الولايات المتحدة بالسعي لحرمان الصين من نقاط إرتكازها في المحيط الهندي عن طريق فتح باب الحوار مع المجموعة العسكرية الحاكمة فى ميانمار وتخيير باكستان بين الصين أو الولايات المتحدة ومساعدة حكومة سريلانكا علي تصفية حركة التمرد التاميلية وفي هذا السياق نفهم التعاون النووي الهندي – الأمريكي لجعل الهند قوة نووية أمام القوة الصينية ونفهم التعاون الهندي – الأمريكي لهزيمة حركة طالبان في أفغانستان ونفهم زيارة

مانموهان سينج ، رئيس الوزراء الهندي للولايات المتحدة في نوفمبر سنة ٢٠٠٩م وزيارة روبرت جيتس وزير الدفاع الأمريكي للهند في يناير سنة ٢٠١٠م وقد بدا أن جيتس يتحدث باسم الهند في تهديد باكستان بأن الهند قد لا تطيق صبرا علي هجوم إرهابي جديد عليها من باكستان بقوله لا يمكن ضمان رد فعل محسوب من قبل الهند إذا ما تعرضت لهجوم جديد كما نفهم الإعلان الأمريكي بتزويد تايوان بصفقة أسلحة حجمها ستة مليارات دولار وهي صفقة متفق عليها منذ فترة لكن الإعلان عنها مرة أخرى في سياق المباراة الكبرى الجديدة هو بمثابة رسالة للصين فهمت دلالتها واخيرا نفهم في هذا السياق التحول الدرامي في سياسة حكومة هاتوياما اليابانية السابقة نحو التراجع عن تعهداتها السابقة بابتاع سياسة مستقلة عن الولايات المتحدة ففي ١٩ يناير ٢٠١٠م عاد هاتوياما ليؤكد التحالف الأمريكي الياباني كطريق للرد علي تحديات القرن الحادي والعشرين وأضاف السفير الهندي السابق كومار أن اسرائيل ليست بعيدة عن هذه التحلافات مشيرا إلي تفاهم أمريكي - هندي - إسرائيلي في المحيط الهندي كما اضاف أن إسرائيل تعمل الآن في اليمن بالفعل في إطار هذا التنافس ونضيف إلي ذلك الوجود الاسرائيلي في مناطق أعالي النيل الذي يهدد شريان الحياة المائي الرئيسي المصري ويدعم عملية إنفصال جنوب السودان وهي كلها حلقات متكاملة يقوم كل طرف فيها بدوره الذي يكمل دور الآخر بيد أن إسرائيل حريصة علي عدم الإفصاح عن دورها في المباراة الكبرى الجديدة حتى لا تغضب الصين بعد أن نجحت في تحقيق إختراقات مهمة في تلك الدولة .

رابعاً : المشهد الأكثر إحتمالاً في اوراسيا ..

ولعل أحد المشاهد المطروحة لمتسقبل المحالفات الاوراسية هو مشهد نشوء كتلة اوراسية تضمن الصين والهند وروسيا وهو المشروع الذي سبق أن أشار إليه بريماكوف رئيس وزراء روسيا الاسبق ولكننا لا نتوقع تبلور هذا المشهد لان المشروع الهندي الاكبر هو مع الولايات المتحدة .

المشهد الأكثر احتمالا هو مشهد التصادم التدريجي بين المحور الأمريكي – الياباني – الهندي من ناحية والصين من ناحية أخرى وهو مشهد يتسم بالارجحية لعدة إعتبارات أهمها أن الولايات المتحدة ترغب في عدم اعطاء الصين الفسحة الزمنية التي تحتاج إليها لالتقاط الإنفاس وتحقيق رحلة الصعود وهي تقوم تدريجيا ببناء حلقة من مناطق المتركز حول الصين تتمثل في وجودها العسكري في آسيا الوسطي علي مقربة من حدود الصين الغربية وهي موجودة بالفعل في اليابان والمحيط الهندى علي حدود الصين الشرقية وعلى حدودها الغربية في فنيرغيزستان وهناك من المؤشرات من تصريحات القادة الامريكيين ما يدل علي أن وتيرة هذا الصدام في تصاعد مستمر وتستخدم الولايات المتحدة أوراقًا متعددة في هذه العملية كورقة حقوق الإنسان في الصين وورقة كوريا الشمالية وقد بدأت في إستخدام الورقة النفطية بالضغط علي المصالح النفطية الصينية في الخارج.ومن ثم فان الصراع العالمي القادم سيكون الأرجح صراعا أمريكا – يابانيا – هنديا في مواجهة الصين وسيكون هذا الصراع مفروضا علي الصين وربما تنجح الصين في دفع هذا المحور إلي تأجيل هذا الصراع لأطول فترة زمنية ممكنة ولكن ربما لا تنجح في ذلك إذا ضغطت الدولتان علي الصين في ملف كوريا الشمالية بمحاولة إستهدافها عسكريا ذلك أن من يسيطر علي كوريا الشمالية يهدد أمن الصين مباشرة ولذلك

ربما كانت كوريا الشمالية شرارة الصراع القادم وليست تايوان كذلك يحتمل تبلور هذا الصراع في شكل الضغط القوي علي المصالح النفطية الصينية في أفريقيا ومنطقة الخليج العربي أو يكون تهديدا مباشرا لطرق نقل هذا النفط عبر البحار الدولية .

الصين ومأزق " مجموعة العشرين " :

علي الرغم من الإعتقاد السائد بأن صحوة مجموعة العشرين التي شهدتها العاصمة الأمريكية واشنطن في نوفمبر ٢٠٠٨م كانت بمثابة تدشين لنظام إقتصادي عالمي جديد يتجاوز مركزية قرارات مجموعة الثماني الكبار ليشمل دولا صاعدة وأخري نامية جنبا إلي جنب مع الدول الصناعية المتقدمة تشارك في دراسة القضايا وصياغة المقترحات في مواجهة تحديات الاقتصاد العالمي فان إستقراء الأحداث يشير إلي أن التطورات لم تمض علي هذا المنوال .

القول بذلك لم يأت من فراغ وإنما نتيجة لرصد وتحليل البيانات الصادرة عن الاستعدادات المتتالية لهذه القمة في تورنتو ولندن وبتنسبرج ثم الأخيرة في سول في نوفمبر ٢٠١٠ وصف رئيس صندوق النقد الدولي دومنيك شتراوس كاهان أداء مجموعة العشرين في هذه القمة الأخيرة بأنه كان أقرب إلي مناظرات مجموعة العشرين أكثر منه نتائج مجموعة العشرين كما يعتمد علي متابعة الأزمات المتوالية علي صعدي النظام المالي العالمي والعلاقات التجارية الدولية بما فيها أزمات دول منطقة اليورو والانتقادات المتبادلة حول السياسات النقدية والمالية عبر الهادي .

سول قمة القرارات المؤجلة :

توضح قراءة البيانات الصادرة عن قمم "مجموعة العشرين" المتتالية من قمة واشنطن إلي قمة سول أن الصياغات المحددة التى شهدها البيان الأول وحدد لها المتابعة بانعقاد القمة التالية وصدور البيان الثاني قد أخذت في الإتساع والتمدد وأصبحت فضفاضة بشكل واضح في البيانات الثالثة والرابعة وأخيراً الخامسة .

ويعزي السبب في ذلك إلي أن القمة الأولي في واشنطن ركزت علي قضايا محددة واضحة المعالم تتعلق بقطاعات معينة علي صعيد الاقتصاد والأداء المالي أو مؤسسات التمويل الدولية فكانت الإشارة إلى عدم الشفافية والرقابة المحاسبية في القطاعات المالية مع التركيز علي التكامل في أسواق المال والتعاون الدولي في مجال الرقابة والتنظيم وأخيرا إصلاح صندوق النقدي الدولي والبنك الدوني ومؤسسات التمويل الدولية .

وجاءت قمة لندن لتكون بمثابة كشف حساب عن الأداء الذي تحقق منذ صدور بيان واشنطن في نوفمبر ٢٠٠٨م وقد أعتبرت قمة لندن في أبريل ٢٠٠٩م بمثابة قوة دافعة في مجال تفعيل القرارات الخاصة بالقطاعات المالية ووكالات التقييم والتصنيف الائتماني كما كان هدفها إعطاء دفعة للمقترحات البريطانية التي طرحها جوردون براون رئيس الوزراء حينذاك والتي إندرجت تحت مسمي " بريتون وويدز ٢ " بحيث يكون التمثيل في صندوق النقد الدولي أكثر إتساقا مع واقع المتغيرات الدولية وظهور قوي إقتصادية صناعية ومتصارعة النمو وشهدت هذه القمة الموافقة علي تخصيص ٨٥٠ مليار دولار للدول النامية والأسواق الصاعدة مع إيجاد نافذة أو آلية جديدة

للإقراض من جانب الصندوق تندرج تحت مسمي " خط الائتمان المرن " كما أعطت دفعة أخرى لمجموعة العشرين تتمثل في توسيع نطاق منتدي الاستقرار الاقتصادي ليشمل كل الدول الأعضاء في المجموعة وليس الدول المتقدمة فقط بحيث يصبح منة مشارك مع صندوق النقد الدولي في وضع آليات للإنذار المبكر بالأزمات المالية وتطوير أساليب المراجعات والإشراف المالي والتنسيق بينها علي الصعيد الدولي .

وبالنسبة لقمة بتبرج التي عقدت في سبتمبر ٢٠٠٩م فقد كانت القمة الأولي لمجموعة العشرين بعد تولي باراك اوباما منصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية غلب علي هذه القمة مناقشة التفاصيل في كيفية ضبط أداء القطاع المصرفي والمالي بصفة عامة من خلال تحديد المزايا والامتيازات المالية التي تتمتع بها القيادات المصرية وتوزيعها علي عدة سنوات وقد حال حرص الدول المتقدمة ذات المراكز المالية العالمية علي عدم فقدان ميزتها التنافسية دون التوصل إلي مؤشر عام ونمطى للدخول التي تحصل عليها طبقة المديرين المصرفيين كما شهدت هذه القمة التركيز علي أهمية الملاءة المالية للبنوك والمؤسسات المصرفية للحيلولة دون وقوع أزمات مستقبلية وفيما بين بتسبرج وتورنتو التي شهدت إنعقاد القمة الرابعة لمجموعة العشرين في يونيو ٢٠١٠م ثم سول التي إستضافت القمة الخامسة تجمعت نذر جديدة في سماء الاقتصاد الدولي وفرضت نفسها علي أجندة المحادثات في كوريا الجنوبية وإن لم يكن لها نصيب وافر من النجاح في الحصول علي قرارات ملزمة .

فقد إشتعلت حرب العملات والمنافسة علي الأسواق العالمية مما عمق من الاختلال في الموازين التجارية وتلك الخاصة بالمدفوعات وتراكم الديون السيادية للدول وذلك جنبا إلي جنب مع الملفات الأساسية الخاصة بالإصلاح

المالي ومؤسسات التمويل الدولية إبتداء من صندوق النقد والبنك الدوليين إلي المؤسسة الدولية للتمويل وبنوك التنمية متعددة الأطراف وشهدت قمة سول إقرار الموافقة علي زيادة نصيب الدول النامية والصاعدة في مجلس صندوق النقد (٢٤عضوا) بتنازل أوروبا عن مقعدين لصالح الدول النامية بما يعاد نسبة ٦% من التصويت وبذلك تقدمت الصين إلي المرتبة الثالثة بعد الولايات المتحدة واليابان علي صعيد الدول الأعضاء في الصندوق مع زيادة رسالة إلي ٧٣٣.٩ مليار دولار كما تمت مناقشة الصياغات التقليدية الخاصة بالالتزام بالإصلاح المالي والنمو المستدام المتوازن وأهمية خلق فرص عمل والحماية الاجتماعية إضافة إلي الفساد وتغييرات المناخ لكمن قضية الحماية التجارية والمنافسة من خلال أسعار صرف العملات الدولية كانت هي المحور الذي إستفاضت فيه قمة سول من حيث التناول والمناشدة ولقد أفرد لهذه القضية البند التاسع من البيان النهائي تحت مسمي منفصل هو خطة عمل سول لمواجهة الاختلال في التوازن المالي العالمي ولكن ذلك لم يتضمن إعلان خطوات محددة أو مقترحات ملزمة لمواجهة هذه القضية وهنا كان مأزق قمة سول حيث أن الموضوعات الأولي بالرعاية تم تأجيل إتخاذ قرارات بشأنها ومنها الصين ونزاعاتها حول سعر صرف في مواجهة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والاتهامات الموجهة للولايات المتحدة بالتلاعب بأسعار الصرف من خلال أسعار الفائدة لإهدار إحتياطي الدول والاقتصاديات الصاعدة من العملة وسندات الخزانة الأمريكية وكذلك سياسة واشنطون في دفع المزيد من الدولارات لإنعاش السوق والطلب المحلي من خلال شراء السندات (٦٠٠ مليار دولار) وأخيرا ولبس آخرا الأزمة المالية لمنطقة اليورو .

الصين وتحديات النجاح :

كما كان الصعود الصيني من أبرز الأسباب التي عجت من صحوة مجموعة العشرين بعد فترة سبات دامت ما يقرب من تسعة أعوام كان النجاح الصيني علي صعيدي التجارة الدولية والاحتياطات المالية من خلال الإبقاء علي سعر صرف عملتها الوطنية اليوان – من أبرز الاسباب التي أدت إلي زيادة الحساسيات السياسية والاقتصادية مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي ومن ثم تحولت الصين من حليف إقتصادي يعتمد عليه في إنعاش الطلب العالمي خلال الأزمة المالية الأخيرة إلي مشاكس عنيد يصر علي دعم عملته وصادراته الخارجية ومن هنا كان تواضع النتائج التي أسفرت عنها قمة سول بالنسبة لحروب العملات وموقع لصين منها فكانت الأخيرة بمثابة المأزق ولاشك في أن الأرقام الحديثة الخاصة بالأداء التجاري والخدمي الصيني قد زادت من حساسيات ما بعد قمة العشرين وفرضت المزيد من التحديات علي بكين فقد أوضحت الإحصاءات زيادة الصادرات الصينية خلال شهر نوفمبر ٢٠١٠م بنسبة ٣٥% عن نوفمبر ٢٠٠٩ كما زادت وارداتها بنسبة ٣٨% ولكن الفائض التجاري ارتفع إلي ٢٢.٩% مليار دولار مسجلا ثالث أعلي معدل خلال عام ٢٠١٠ وكان نصيب الولايات المتحدة ١٦.٧ مليار دولار في صورة عجز في ميزانها التجاري خلال نوفمبر ٢٠١٠ وإذا قارنا إجمالي الفائض التجاري السنوي للصين بالعجز الأمريكي لبدت الصورة أكثر قتامه حيث عانت واشنطن عجزا يقدر بأكثر من ٦٣٢ مليار دولار مقابل فائض يتجاوز ١٨٦ مليار دولار لبكين .

وتواجه الصين تحديا يتمثل في أن وتيرة النمو المتسارع خلقت ضغوطا تضخمية أدت بدورها إلي إنتهاج البنك المركزى الصيني سياسة إئتمانية متشددة

ورفع الاحتياطي النقدي للبنوك لسادس مرة خلال عام ٢٠١٠م مع رفع أسعار الفائدة للودائع والإقراض وقد يكون لتخفيف هذا النمو الذي بلغ ٩.٦% لإجمالي الناتج المحلي وأكثر من ١٣% للإنتاج الصناعى في الشهور العشرة الأولي من العام ذاته مقترنا بتقييد الائتمان ردود أفعال سلبية فهذه السياسة سوف تسبب إنخفاض الصادرات وإرتفاع البطالة وإنكماش القوة الشرائية المحلية ويعد ذلك بمثابة ناقوس خطر للاقتصاد العالمي الذي يزدهر بتزايد الطلب الصيني علي المواد الأولية والاستثمارات الصينية في الخارج سواء علي صعيد العالم الثالث أو في الدول المتقدمة وعلى رأسها سندات الخزانة الأمريكية كما أن تحدي تعديل سعر صرف " اليوان " يعني رفع أعباء تكلفة المعيشة ونسبة البطالة وقد يترجم في قلاقل عمالية وإجتماعية ذات إنعكاسات سياسية وهذا هو سبب مقاومة بكين لمطالب الآخرين وتركيزها علي أهمية التدرج في التنفيذ .

إختلال النظام المالي العالمي :

كانت تلك القضية من أبرز الملفات التي فرضت نفسها علي قمة سول لمجموعة العشرين وكانت بوادرها الأولي قد تجمعت في قمة تورنتو بكندا في منتصف عام ٢٠١٠ م والقضية ببساطة تتمثل في فجوة الادخار والاستهلاك فيما بين الدول المتقدمة والدول النامية وبين الولايات المتحدة والصين بشكل خاص والتي تنعكس علي الموازين التجارية والمعاملات الجارية .

وبينما تري واشنطن والي حد ما بروكسل أن سعر الصرف غير الحقيقي بين العملة الصينية ونظيرتها الأمريكية والعملة الأوربية الموحدة (اليورو) سبب في اختلال الموازين لصالح الصين تجاريا تري بكين أن السياسات المتبعة علي الصعيد الأمريكي تتحمل المسئولية بصفة أساسية كما أن إرتفاع قيمة

اليورو لم يمنع ألمانيا من التمتع بفائض ضخم في الميزان التجاري يتجاوز الذي حققته الصين وقد تلاقي هذا التفسير مع موقف المستشارة الألمانية انجيلا ميركل التي أشارت في قمة سول إلي أن التحدي يقع علي عاتق الدول ذات العجز في موازين المعاملات الجارية حيث يتعين زيادة مقدرتها التنافسية .

وترتيباً علي ما سبق فقد تم إسقاط الاقتراح الأمريكي الخاص بتحديد نسبة ٤% صعودا وإنخفاضا في موازين المعاملات الجارية منسوبة إلي إجمالي الناتج المحلي باعتباره هدفا غير واقعي ولكن إتفق الجميع بصورة بروتوكولية علي ضرورة تجنب الحماية التجارية بكافة أنواعها وبذلك ظلت الحلقة المفرغة الخاصة بأسعار صرف العملات وتنافسية الصادرات وإختلال النظام المالي العالمي دائرة.

الولايات المتحدة في دائرة الاتهامات :

واجهت الولايات المتحده إتهامات من قبل الصين والدول الأوروبية بل ومن جانب الدول النامية أيضا وزاد من حساسية واشنطن فشل الرئيس باراك أوباما في التوصل إلي اتفاق تجاري مع كوريا الجنوبية خلال جولته الآسيوية التي سبقت القمة مما ينعكس سلبا علي إمكانية زيادة الصادرات وخلق المزيد من فرص التوظف لإنعاش الاقتصاد .

لقد كانت واشنطن حاملة راية برامج الإنعاش المالي لإنقاذ القطاع المصرفي والعقاري ومن ثم الاقتصادي من خلال السياسات المالية والنقدية بتخفيض أسعار الفائدة وضخ مليارات الدولارات وقد حثت حليفاتها في مجموعة الثماني وكذلك الاقتصاديات الصاعدة في مجموعة العشرين علي

إنتهاج ذات السياسة لمواجهة الأزمة العالمية التي إنطلقت شرارتها من الولايات المتحدة ومن هنا تراكم العجز في الميزانيات العامة وزادت مديونية الحكومات كما تدهورت قيمة الدولار في أسواق العملات وبعد أن طالبت الولايات المتحدة بضرورة الانسحاب من برامج الدعم والإنقاذ تدريجيا لإعطاء الفرصة لقوي السوق لتصحيح الأوضاع عادت لتعلن مرة أخرى عن برنامج دعم جديد يتضمن ضخ ٦٠٠ مليار دولار لشراء سندات .

كان لهذا التغيير في السياسات تداعيات سلبية علي السوق العالمية للعملات وتدفقات رؤوس الأموال إلي الاقتصاديات الصاعدة والنامية وإذكاء نار التضخم وتصاعد المضاربات وحيث أن تجربة الدول النامية والصاعدة مع الأزمات المالية والمديونية في الثمانيات والتسعينات دفعت بها إلي إنتهاج سياسة تراكم الاحتياطي من العملات الأمريكية فقد أدي ذلك إلي إرتفاعها من ١.٣ تريليون دولار إلي ٨.٤ تريليون في غضون خمسة أعوام (٢٠٠٥-٢٠١٠) مع احتلال الصين ثم باقي الاقتصاديات الصاعدة والنامية مركز الصدارة في هذا التراكم المالي ونظراً لتعدد وتنوع مجالات إستخدام الدولار الأمريكي علي صعيد العالم إبتداء من الاحتياطات الرسمية والتعاملات الدولية في سوق العملات إلي ودائع البنوك وقروضها ومبيعات سندات الخزانة الأمريكية وغيرها من سندات المديونيات الحكومية فان إنتهاج واشنطن سياسات نقدية تؤدي إلي تقلب وإنخفاض سعر الدولار يلحق خسائر مالية ضخمة بالدول ذات الحيازات الكبيرة من العمله الأمريكية .

كما أن سياسة تخفيض سعر الفائدة علي الدولار وضخ المليارات منه دفعت بالأموال الساخنة إلي الاقتصاديات الصاعدة والنامية بحثا عن مكاسب إستثمارية عاجلة في حين أن هذه الاقتصاديات لجأت إلي شراء المزيد من

سندات الخزانة الأمريكية وغيرها من سندات المديونيات الحكومية فتحملت مأزق التضخم في الداخل وإنكماش قيم إستثماراتها في الخارج .

وقد قوبل الإعلان الأمريكي عن دفع مئات المليارات من الدولارات لإنعاش الاقتصاد بموجة من الانتقادات السياسية والاقتصادية من جانب الحلف الأوربيين وغيرهم حيث يعني تدفق المزيد من العملة الأمريكية عبر الاقتصاد العالمي أي مزيد من إختلال في عجز الميزانية الأمريكية التي تحملت قبل ذلك ١.٧٥ ألف مليار دولار في صورة مدفوعات لشراء سندات خلال ٢٠٠٩-٢٠١٠ وسوف يترتب علي ذلك مزيد من ضعف الدولار في مواجهة العملات الأخرى أي تعميق دوامة صراع العملات وحمي التنافس التجاري الدولي وتصاعد قضايا البطالة وإنكماش فرص العمل .

الاتحاد الأوروبي ومعركة اليورو :

فإذا كان اليورو إحدي العملات التي فجرت الاختلال في النظام المالي العالمي فلان قضيته تتسم بطابع مختلف يخرج عن نطاق مجموعة العشرين ولقاءات القمة وكذلك عن النموذج الأمريكي في معاجلة الأوضاع علي الصعيد القومي .

يمثل اليورو " الرمز السياسي والاقتصادي لأوروبا الموحدة كما أن نشأته تعود إلي العديد من الاتفاقيات والمعاهدات الأوروبية إبتداء من ماستريخت إلي لشبونة التي تعتبر بمثابة الدستور الأوروبي .

وقد تفجرت أزمة دول منطقة اليورو الست عشرة مع تداعي الأحداث في اليونان ثم ايرلندا نتيجة تراكم الديون السيادية والعجز المالي سواء نتيجة

التلاعب بالأرقام لأهداف سياسية (اليونان) أو نتيجة تدخل الدولة لحماية جهازها المصرفي (ايرلندا) .

وحيث أن اليورو عملة عدة أعضاء يحكم إعادة تقييمه قرارات من جانب كافة الدول المشاركة والبنك المركزي الأوروبي الموحد فان كيفية مواجهة أزمات الديون السيادية لهذه الدول المتعثرة والاخري في طابور التعثر(البرتغال واسبانيا) يخرج عن نطاق قمة سول ومن ثم كان إكتفاؤها بالمطالبة بتصحيح الاختلال المالي العالمي .

وقدم صندوق النقد الدولي بالتعاون مع الاتحاد الأوروبي مساعدات مالية لليونان بلغت ١١٠ مليارات في صورة قروض ثم ٨٥ مليار يورو لايرلندا في نوفمبر ٢٠١٠ ولكن المساعدات الأوروبية كانت لها طبيعة إستثنائية أو ما يطلق عليه إنقاذ اللحظة الأخيرة وذلك لطبيعة الصياغات القانونية بالنسبة للوحدة النقدية وعملة اليورو وعدم وجود صياغة محددة لكيفية التحرك وقت الأزمات وتقديم الدعم للدول المتعثرة أو حتى التوجه لمؤسسات التمويل الدولية يضاف إلي ما سبق أن هذه التعثرات تلحق الضرر بقيمة اليورو في السوق العالمية للعملات وان تقديم مزيد من المساعدات يفجر أزمات سياسية قومية أمام الحكومات مثل ألمانيا التي يعارض فيها الرأي العام تقديم آية مساعدات للدول المتعثرة وإذا أخذ في الاعتبار شبح الإفلاس الذي يهدد اسبانيا فسوف نجد أن معكرة الاتحاد الأوروبي حول اليورو تتزايد حدة بالنظر إلي أن الاقتصاد الاسباني يسهم بنسبة ١١.٨% من إجمالي إقتصاديات منطقة اليورو بينما لا تتجاوز نسبة اليونان ٢.٦% وايرلندا ١.٨% .

كما أن إتخاذ آية إجراءات خاصة بتعديلات في اتفاقية ما ستريخت أو معاهدة لشبونة لابد أن يتم بموافقة الدول الـ ٢٧ الأعضاء في الاتحاد وليس فقط الـ ١٦ عضوا في منطقة اليورو مما يفتح باب الإختلاف والإجتهاد في آن واحد.

أنها حلقة مفرغة ولكن هناك دائما نقطة ضعف يمكن النفاذ منها وهذا ما فعلته القمة الأوروبية الأخيرة التي عقدت في منتصف شهر ديسمبر ٢٠١٠ والتي إتفقت علي إنشاء آلية دائمة لمعاجلة هذه الأزمات المالية وذلك إبتداء من عام ٢٠١٣ م .

وحتى ذلك الحين ستظل قضية إختلال النظام المالي العالمى والتباين في أداء الاقتصاد وموازين التجارة والمدفوعات ملفا مفتوحا سيطرح علي قمة مجموعة العشرين القادمة التي تستضيفها فرنسا وهو ملف يحظي باهتمام الرينس الفرنسي نيكولاي ساركوزي ولكن هل سيحدث جديد في موقف الصين والولايات المتحدة هذا هو التساؤل الجدير بالمتابعة والبحث والتحليل .

كيفية إستمرار الصين فى الصعود سلمياً :

في الشهور الأخيرة من عام ٢٠١٠م احتلت كل من الصين واليابان موقعا في صدر نشرات الأخبار بعد أن قام بعض البحارة الصينيين بالدخول بقوارب صيدهم إلي منطقة متنازع عليها بين الصين واليابان وأحتجزت السلطات اليابانية تلك القوارب وكذا العاملين عليها بدت العلاقات بين البلدين في ذلك الوقت متوترة ومضطربة .

وعلي الرغم من بلوغ المشكلة نهايتها بإطلاق سراح البحارة الصينيين فان الحادث قد دفع إلي السطح من جديد بتلك التحليلات التي لا تزال تري في

الصين تهديدا لمحيطها الإقليمي ووفقا لهؤلاء المحللين فانه لن يمر وقت طويل قبل أن يحول المارد الصيني إمكاناته وقدراته المتعاظمة إلي سلوك إقليمي ثم دولي يتسم بالعدوانية والرغبة في ممارسة الهيمنة.

ويذهب هذا المقال إلي أن الصين وعلى خلاف ما يراه الدارسون الذين يؤيدون الفكرة السابقة ستمضي في طريقها إلي تطوير علاقات هادئة ومستقرة بجيرانها الإقليميين وهو الطابع الذي ميز تلك العلاقات علي إمتداد عدد ليس بقليل من السنوات وتبدو الدبلوماسية الصينية التي يطبقها ساسة البلاد إزاء جيرانهم حجر الأساس لهذا التوجه الذي أفلح في إظهار فعالية وكفاءة واضحين في السنوات الماضية وقد نهضت تلك الدبلوماسية منذ نهاية الثمانينات علي إعادة تقويم المواقف وتشكيل المصالح الصينية وفقا للظروف المتغيرة في العلاقات منع الجيران الإقليميين وليس علي أساس أفكار جامدة ومسبقة لدي القيادة الصينية عن هؤلاء الجيران وإذا كان ثمة إتجاه قوي للتفكير في الصين علي أنها الدولة العملاقة التي يتخلف من حولها عنها في مقومات كثيرة فان هذا الوضع وعلى الرغم مما قد يغري به من سلوكيات الهجوم والعدوان لم يدفع بالصين فعليا إلي السير علي ذلك الدرب بل الثابت أنه حثها علي محاولة إحتواء مخاوف دول إقليمها والظهور منها بمظهر الجار الكبير المسئول الذي يحظي بثقة جيرانه وطمأنينتهم وسيعني هذا المقال بشرح الأفكار السابقة من خلال الاهتمام بثلاث نقاط رئيسية أما النقطة الأولي فيتم فيها تفنيد مقولات النظرية الواقعية تلك المقولات التي ترجح إتخاذ الصين منحي عدوانيا في المستقبل تجاه جيرانها الإقليميين كما تفترض قيام هؤلاء الجيران بخطوات مقابلة للدفاع عن أنفسهم إزاء هذا المنحني وأما النقطة الثانية فستعرض لأهم مراحل تطور الدبلوماسية الصينية إزاء الإقليم الآسيوي كما تظهر أبرز ملامح تلك الدبلوماسية وأخيرا يتناول المقال في جزئه الثالث التحديات التي يمكن أن

تطرح نفسها فيما يتصل بعلاقات الصين بجيرانها الإقليميين ومدي قدرة القيادة الصينية علي التعامل مع تلك التحديات .

النظرية الواقعية وعلاقات الصين بجيرانها الإقليميين :

تعد النظرية الواقعية في صورتيها الكلاسيكية والجديدة أهم النظريات التي أكدت حتمية أن تتبع الصين سلوكا عدوانيا سواء تجاه إقليمها أو إزاء العالم إعتمادا علي ما يتكون لديها من مقومات القوة المادية فتعاظم هذه المقومات وتراكمها لابد أن يفضيا إلي إنتشاء الدولة الصينية بقوتها ونزوعها الحتمي إلي إختبار تلك القوة بما يؤدي إلي عدم الاستقرار الإقليمي أو الدولي وقد ذهبت النظرية أيضا إلي أن ثمة سلوكا لابد أن تتبعه تلك الدول المحيطة بالصين للدفاع عن نفسها ألا وهو الدخول في تحالفات مع الدول المجاورة أو مع الدول المهيمنة في النظام الدولي حتى تكون تلك التحالفات سدا مانعا أمام الطموحات الجامحة للدولة الكبيرة القوية وبصفة عامة يمكن القول أن هاتين المقولتين للنظره الواقعية لم يقدر لهما حتي اليوم أن تثبتا صحتهما بالنسبة لعلاقة الصين مع محيطها الاقليمي خاصة مع الدول التي تقف إلي الوراء منها من حيث القدرات الاقتصادية والعسكريه أن الملاحظ مثلا أن معدلات النمو في الاقتصاد الصيني قد شهدت قفزات غير مسبوقة في التاريخ مع بقاء هذه المعدلات عند مستوي هو الاعلي عالميا وليس اقليميا فحسب وقد امكن للاقصتاد الصيني في عام ١٩٩٤م أن يرتفع بالقدرة الشرائية المحلية إلي ما يوازي ضعف هذه القدرة في دول جنوب شرق آسيا مجتمعة أما فيما يتصل بالإنفاق العسكري فقد أخذ في الازدياد منذ عام ١٩٨٩م وليتفوق في مستوياته علي ما أنفقته كل هذه الدول أيضا حتى أنه لم يتراجع كثيرا في معدلاته بفعل الأزمة المالية التي إجتاحت آسيا في عام ١٩٩٧م .

غير أنه بدلا من أن تتحقق نبوءات النظرية الواقعية سارت الأمور علي عكس ما ذهب إليه أنصارها والمدافعون عن تحيللاتها فمن ناحية تطورت علاقات الصيني الايجابية بمحيطها الاقليمي جنبا إلي جنب مع صعودها الاقتصادي والعسكري ومع أوائل التسعينات قامت الصين بتطبيع علاقاتها مع كل من أندونسيسا وسنغافورة وفيتنام وكمبوديا كما حسنت روابطها الاقتصادية وعدلت من سياستها العسكرية التي إتسمت قبل ذلك الوقت بقدره كبيرة من الاندفاع العدواني تجاه تلك الدول وقد رحبت الصين كذلك بالإنضمام إلي منظمة آسيان والتي كانت قد أنشئت في الستينات لاحتواء خطر الصين الثورية عندما طفقت تصدر الثورة والسلاح إلي دول اقليمها علي إمتداد ثلاثة عقود وكان إنضمام الصين إلي هذه المنظمة في أواخر التسعينات إيذانا ببدء مرحلة من العمل المؤسسي الهادف إلي إقامة تعاون رسمي بين المنظمة والدول الجديدة التي إنضمت إليها (الصين واليابان وكوريا الجنوبية) وقد أفلح هذا التعاون حتى اليوم في إنعاش العلاقات الاقتصادية بصورة كبيرة وكذلك في تهدئة حدة المشكلات الأمنية والعسكريه التي ثارت من قبل في الإقليم لاسيما حين وقعت الصين مع آسيان إتفاقية الحل السلمي للصراعات في حين وقعن في بحر الصين الجنوبي في نوفمبر عام ٢٠٠٢م وحين إنضمت لاتفاقية الصداقة والتعاون مع المنظمة في عام ٢٠٠٣م .

ومن ناحية أخرى فان صعود الصين إقتصاديا وعسكريا لم يثر حفيظة جيرانها ولم يدفعهم إلي الدخول في تحالفات وتوازنات مضادة للدولة الصاعدة بل أن الأمثلة السابقة توضح أن مسعى الصين لتهدئة الأمور مع محيطها الإقليمي كان يلقي ترحيبا واستجابة من الأطراف الإقليميين لدعم هذا الوضع وتطويره .

الدبلوماسية الصينية والتعاون الصيني الأسيوي :

كانت نقطة التحول الأولي في علاقات الصين بإقليمها الآسيوي هي إحداث ميدان السلام السماوي التي وقعت في الصين في يونيو عام ١٩٨٩م ففي هذا الشهر ملأت المظاهرات الطلابية أكبر ميادين الصين مطالبة بالديمقراطية وبمزيد من الاحترام للحقوق السياسية وقد حظيت هذه المظاهرات بتأييد ومساندة كبيرين ليس فقط في الولايات المتحده والغرب بل وكذلك من الاتحاد السوفيتي المتاخم للصين والذي كانت قيادته الجديدة ممثلة في ميخائيل جورباتشوف قد رفعت شعار الانفتاح السياسي في ثمانينات القرن الماضي وقد قيل أن جورباتشونف قد زار الصين وقت إندلاع المظاهرات ليكون سندا معنويا مباشرا للمتظاهرين .

غير أن القيادة الصينية سارعت بإتخاذ قرار المواجهة العنيفة مع المتمردين إلي أن تم سحق الحركة وإعدام عدد من قياداتها والزج بالباقين في السجون وقد كانت الأحداث مناسبة تماما لمن أرادوا الترويج وقتها لمقولة الخطر الصيني وكان من المنتظر أن يبدأ الجيران الإقليميون بالتوجس من القوة الجديدة التي أظهرت أقصي درجات لعنف داخل حدودها غير عابئة بالانتقادات الدولية ولكن ما حدث بالفعل لم يلبث أن خالف كل التوقعات فبدلا من أن يستدعي الجيران وجودا أمريكيا أكبر في المنطقة وبدلا من مناقشة مستقبل التحالفات الإقليمية في ظل نمو الخطر الجديد أعلن معظم دول الإقليم قرارها باعتبار إحداث ميدان السلام السماوي شانا صينيا محضا لا يجوز التدخل في جرياته والتي يجب أن تخضع للتقدير الصيني الخالص .

وحتى اليابان التي إنتقدت مع بداية لإحداث عنف الصين في التعامل مع مواطنيها ما لبثت أن أعلنت في قمة السبع الكبار والتي عقدت في هيوستن بالولايات المتحدة عام ١٩٩٠م أنها لن تشارك في عمليات المقاطعة التي كان الغرب قد بدأها ضد الصين .

والحق أن هذا السلوك قد أدهش القيادة الصينية ذاتها والتي توقعت أن تنضم الدول الآسيوية إلي الحملة العالمية للهجوم عليها بغرض إحتواء قوتها ونفوذها وكانت احدي العلامات التي عززت هذا الاعتقاد لدي الصين هي حوفت حماس الرئيس الاندونيسي " سوهارتو " لتطبيع العلاقات مع الصين بعد أن كان قد أعلن نواياه للقيام بهذه الخطوة في شهر فبراير من العام ذاته .

وفي إستجابة منها لموقف جيرانها عدلت القيادة الصينية سياستها في إتجاه مزيد من الانفتاح علي محيطها الآسيوي بعد أن التقطت الخيط من جيرانها وعزمت علي تعميق علاقاتها بهم وهكذا جري تطبيع العلاقات مع أندونيسيا وسنغافورة في شهري سبتمبر وأكتوبر علي التوالي في عام ١٩٩٠ ثم مع برناوي في سبتمبر من عام ١٩٩١ ومن بعدها فيتنام في نوفمبر من العام ذاته ومع كوريا الجنوبية في عام ١٩٩١ وقد أعادات الصين النظر في سياستها الهنديه ـ الصينية خلال عامي ١٩٩٠ ، ١٩٩١ عندما قررت التراجع عن تأييدها للخمير الحمر في كمبوديا والمشاركة في جهود الأمم المتحدة لحل النزاع هناك بالطرق السلمية كما كان حلول وزير الخارجية الصيني وقتها كيان كيشين ضيفا علي إجتماع وزراء خارجية آسيان في القمة الرابعة والعشرين للمنظمة في يوليو ١٩٩١م وحضوره الاجتماع الأول للمنتدي الإقليمي الآسيوي في يوليو ١٩٩٤م دليلا آخر علي إتجاه جديد تنوي القيادة الصينية المضي فيه والمداومة عليه وكان ترحيب الجيران بالخطوات الصينية في كل مناسبة برهانا علي نجاح

التوجه الجديد ودافعا للقيادة الصينية نحو إتخاذ مزيد من الخطوات علي هذا الطريق .

وسرعان ما فاجات الصين جيرانها الاقليميين بل والعالم أيضا بسلوك غير منتظر في أثناء الازمة المالية التي إجتاحت دول آسيا في عام ١٩٩٧ وكانما أرادت الصين بهذا السلوك رد الجميل لجيرانها وحثهم علي إيلائها مزيدا من الثقة بها وبنواياها إزاءهم وهكذا وبدلا من أن تدفع الصين في أثناء هذه الازمة إلي تخفيض قيمة عملتها وهو ما سيشجع حركة الاستيراد منها علي حساب الدول المجاورة أبقت علي هذه القيمة كما هي لمساعدة الجيران علي تجاوز أزمتهم وإنعاش عملية تصدير منتجاتهم وفضلا عن ذلك قدمنت الدول الصينية لجيرانها حزمة من المساعدات والقروض ذات الفوائد المنخفضة في خطوة جاءت علي النقيض تماما من الموقف المتعنت الذي إتخذته المؤسسات المالية العالمية والمقروضون الدوليون تجاه الاقتصادات الاسيوية المتضررة وقد سارعت دول منظمة الاسيان وتقديرا منها لسلوك الصيني المسئول في أثناء الازمة إلي ضم الصين إلي المنظمة في العام نفسه في إطار ما عرف منذ ذلك الوقت بأسيان + ثلاثه : الصين واليابان وكوريا الجنوبية ولم يمض وقت طويل حتى توجت علاقات الصين بالمنظمة بتوقيع إتفاق الصين – أسيان الخاص بإنشاء منطقة التجارة الحرة بين دول المنظمة وذلك في عام ٢٠٠٢ والواقع أن هذه الخطوة الاخيره بالتحديد قد إستلفتت إنتباه المحللين الذين عدوها نموذجا لنجاح الصين في إقناع جيرانها بأنها تمثل فرصة لهم وليست خطرا يهددهم فالصين وجيرانها إعتادا التنافس علي الاسواق الكبيره الثرية : كالولايات المتحدة وأوروبا واليابان وكان من المنتظر أن يفضي هذا التنافس إلي سلوك صراعي بين الطرفين غير أن هذا لم يحدث في واقع الأمر وإتفقت الصين

وآسيان علي أن وجود المنطقة الحرة بينهما سيعين علي حل الخلافات حال ظهورها وبشكل يضع في إعتباره مصالح كل الاطراف .

غير أنه مما يجدر ذكره هنا أن عددا آخر من المحللين لم يقتنع بأن تكون الإجراءات السابقة إنعكاسا لنوايا أصيلية لدي الصين تجاه جيرانها فذهبوا إلي أنها كانت مجرد محاولات للخروج من مآزق أخرى أحاطت بالدولة الصينية في أثناء مرحلة الازمة المالية وعلى سبيل المثال فانه قبل شهور من وقوع تلك الازمة تحركت بعض قطع البحرية الصينية لتصل إلي القرب من سواحل تايون والتي كانت تشهد في ذلك الوقت إنتخابات ساخنة بين أنصار الاستقلال عن الصين ومؤيدي الانضمام إليها وعندما فاز الفريق الأول بزعامة عدو الصين اللدود لي تنج هوي وأرسلت الولايات المتحدة حاملتي طائرات لمساندة تايون كان أن تراجعت الصين محالة رد الاعتبار لمكانتها من خلال ما أتخذته من سياسات تجاه جيرانها الاقليميين لإمتصاص مخاوفهمن ثم أن هؤلاء الجيران أنفسهم وقد تحفظوا وقبيل وقوع هذه الازمة علي موقف الصين الرافض لاستمرار سياسة التحالفات الدولية والتي إعتبرتها القيادة الصينية ميراثا بغيضا تخلف عن الحرب الباردة ولما لم تجد الصين أذانا صاغية وإستجابة من جيرانها الذين تمسكوا بعلاقاتهم مع الولايات المتحدة لم تجد سبيل لفك الحصار المحتمل ضدها إلا بالتقرب من دول إقليمها بعبارة أخرى رأي هؤلاء المحللون في تفاهم الصين مع جيرانها تحركا مؤقتا لن يلبث أن يفسح الطريق لسلوك أكثر جراءة وعدوانية عندما يتسني لها أن تحقق القدرات الداخلية والتوازنات الاقليمية والدولية التي تساعدها علي تجقيق أهدافها .

وعلى الرغم مما تبدو عليه الحجج السابقة من وجاهة ومنطق فأنها لا تزال غير قادرة علي تفسير إستمرار المنحي السلمي في علاقات الصين الاقليمية

بصور تجاوزت توقيع الاتفاقيات ، وتطبيع العلاقات السياسية إلي تعميق الروابط في أكثر من اتجاه كما أن التبريرات السابقة لا تستطيع أن توضح لماذا أختارت الصين طريقا سلميا غير عدواني في التعامل مع القضايا الاقلمية ذات الاولوية لها وعلى راسها مسالة تايوان؟ هنا يبرز عنصر القيادة السيايسة وقدرتها علي التعديل من سياساتها ومواقفها بما يتلاءم والمعطيات المتجددة والواقع أن هذه القيادة والمستويات المعاونة لها قد إنخرطت في أواخر التسعينيات في حوار وطني امتد لعدة أشهر في عام ١٩٩٩م وتم الاستقرار في نهايته علي ضرورة للقيام بمبدأ دنج شياوبنج الخاص بالتنمية والسلام كقاعدة للتعامل علي المستويين الاقليمي والدولى وإنطلاقا من هذا المبدأ إنهمكت الصين في مشروعها لدعم علاقاتها الاقليمية والتي إتخذت صورا كثيرة ما كانت لتوجد لمجرد ظهور مازق أو أزمات عارضة .

مظاهر التعاون الصيني الاقليمى :

وقد شهد العقدان الاخيران نشأة عدة منظمات تعكس تعاون الصين مع دول إقليمها وكان من أهم هذه المنظمات آسيان + ١ (آسيان والصين) ، آسيان + ثلاثه (الصين واليابان وكوريا الجنوبية) من منظمة شنغهاي للتعاون الاقتصادي لدول حوض المحيط الهادي .

وقد كان إنخراط الصين في علاقاتها مع منظمة اسيان هو الأكثر أثارة للإنتباه بالنسبة لدارس الصلات الصينية بدول إقليمها لقد عقدت بروتوكولات عدة بين كلا الطرفين منذ الثمانينات في مجالات مختلفة كتنمية الموارد البشرية والصحة العامة وتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات وشئون البيئة والمبادرات الثقافية والاكاديمية والتنمية المشتركة لحوض نهر ميكونج وفي إجتماع القمة

الذي عقده الطرفان في عام ٢٠٠٢م قامت الصين والدول الأعضاء في المنظمة بتوقيع أربع إتفاقيات كان أهمها الاتفاق الطاري للتعاون الاقتصادي الشامل والذي عني بتهدئة مخاوف دول جنوب شرق آسيا إزاء تراجع صادراتها في مواجهة المنافسة الصينية وكان رئيس الوزراء الصيني قد أعلن بهذه المناسبة أن التجارة المتبادلة بين الصين وآسيان قد نمت بمعدل سريع وأن الصين ستعمل علي زيادة قيمتها من ٤٥ مليار دولار في عام ٢٠٠٢ إلي ٧٨ مليار دولار في عام ٢٠٠٣ بل وتتوقع أن ترتفع هذه القيمة إلي ١٠٠ مليار دولار في عام ٢٠٠٥م .

القمة التي عقدت في عام ٢٠٠٣م فشهدت إنضمان الصين إلي آسيان عضوا إضافيا الأمر الذي جعلها ترتبط فعليا بالنظام الأساسي لميثاق المنظمة الذي جري توقيعه في عام ١٩٦٧م وبمتقضي هذا النظام التزمت الصين رسمياً باعمال مبادئ عدم الاعتداء وعدم التدخل إضافة إلي تفعيل وسائل مختلفة لحل عدد من الصراعات الاقليمية بالطرق السلمية وفي هذا الاجتماع نفسه وقعت الصين وآسيان الإعلان المتبادل للشراكة الاستراتيجية حول السلام والرفاهية والذي عالج عدد كبيرا من القضايا المشتركة بين الطرفين في مجالات السياسة والاقتصاد والامن .

وعلى صعيد آخر نشطت الصين نشاطا كبيرا في إطار منظمة شنغهاي للتعاون والتي كانت القيادة الصينيه من وراء تاسيسها في عام ٢٠٠١م مع كل من روسيا وجمهوريات آسيا الوسطي وعلى الرغم من أن الغرض الرئيسي لانشاء تلك المنظمة كان مواجهة الاخطار الأمنية غير التقليدية كالارهاب فان مجال نشاطها ما لبث أن إمتد ليشمل أبعادا إقتصادية مهمة ففي عام ٢٠٠٣ مثلا وفي أثناء المؤتمر السنوي للمنظمة أعلن رئيس الوزراء الصيني عن تخفيض

التعريفة الجمركية علي عدد كبير من السلع المتبادلة بين دول المنظمة وبحيث يمهد ذلك لانشاء منطقة تجارة حرة بينها والواقع أنه بالإضافة إلي المؤتمرات السنوية والزيارات الثنائية المتبادلة بين رؤساء دول المنظمة توجد اليوم إجتماعات منتظمة ومتعددة علي مستوي الوزراء في مختلف المجالات كما تعقد مجموعات عمل علي نحو مستمر لتنفيذ ما يتخذ قرار بشانه وقد قامت الصين وروسيا وحدهما بعقد مجموعات عمل ثنائية زاد عددها علي الاربعين .

وقد إستخدمت الصين أدوات قوتها الداعمة لدعم وتوثيق علاقاتها مع لادول الأعضاء في التنظيمات الاقليمية التي أنضمت إليها واليوم تنتشر في آسيا وكما لم يحدث من قبل الموسيقي ووسائل الإعلام الصينية وكذلك الطعام والثقافة الشعبيان وتبذل الصين جهودا كبيرة في دعم المبادلات الطلابية علي المستوي الجامعي بينها وبين دول الإقليم وقد شهدت السنوات الأخيرة إقبالا متزايدا من طلاب الدول الأسيوية المجاورة للصين للدراسة في جامعاتها وإذا كان من الصعب التنبؤ الدقيق بمواقف هذه الأجيال من الصين في المستقبل فانه مما لا شك فيه أنها ستكون أجيالا أكثر تفهما لوجهات النظر الصينية ومصالحها خاصة عندما يكون هؤلاء الدارسون قد تعلموا اللغة الصينية وعرفوا الكثير عن تاريخها وثقافتها ومجتمعها وصارت لهم علاقات مستمرة بزملاء الدراسة الصينيين والمتصور أن يلعب النشاط السياحي المتعاظم بين الصين وجيرانها الاقليميين الدور ذاته في دعم صور إيجابية تحرص القيادة الصينية علي وجودها لدي الشعوب الاسيوية وليس عند قيادتها فحسب .

والواقع أن علاقات الصين بجيرانها لم تقف عند حد التعاون في إطار المنظمات الاقليمية بل لقد طورت القيادة الصينية علاقاتها الثنائية مع دول إقليمها الاسيوي وبما يزيد من إقتناع هذه الدول بنواياها السلمية والتعاونية وقد

اولت الصين عناية خاصة بالدول التي دخلت معها في الماضي في علاقات متوترة وعدائية وعلى رأس تلك الدول كوريا الجنوبيه والهند وفيتنام وروسيا بل واليابان أيضا .

فيما يتصل بكوريا الجنوبية التي وقعت في نطاق ونفوذ اليابانيين أولا ثم الأمريكيين من بعدهم حرصت الصين علي زادة وتيرة الزيارات الرسمية بين البلدين لمناقشة عديد من القضايا بينهما ومنذ عودة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في عام ١٩٩٢ أصبح رؤساء الدولتين ورؤساء الوزراء والوزراء في كل البلدين يقومون بمقابلات منتظمة ويلتقون في إجتماعات قمة سنوية بل وشهرية أيضا كما صارت هناك لقاءات ومتعددة بين وزراء دفاع البلدين من أجل المناقشة المستمرة لقضايا الأمن الإقليمي التي تهم البلدين وفضلا عن هذا وذاك أصبحت الصين الشريك التجاري الأول لكوريا الجنوبية وأقترب حجم التبادل التجاري بين الدولتين في عام ٢٠٠٦ من مائة مليار دولار كما أصبحت كوريا الجنوبية من الدول الأكثر إستثمارا في الصين وكذلك من أهم الدول المستقبلة للاستثمارات الصينية ولا شك في أن الصين قد سعت لتوطيد علاقاتها بكوريا الجنوبية تحقيقا لعدة أهداف منها أن يكون لها دور عند مناقشة قضية الوحدة بين الكوريتين وأن تتجنب المخاطر التي قد تنجم عن وجود علاقة التحالف بين الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية وكذلك الحيلولة دون إستئثار اليابان بالنفوذ الاقوي هناك غير أن هذه الأهداف كلها لم تدفع بالصين إلي إشاعة التوتر في علاقاتها مع الجارة الكورية بل إعتمدت أسلوب التهدئة وتعميق العلاقات طريقا لطمأنة الدولة المجاورة وإقناعها بالفائدة المتبادلة التي ستعود علي كلتيهما وتتطلع كوريا الجنوبية اليوم في أواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين إلي جارتها الصينية من أجل التوصل لحل في الصدام الأخير

مع كوريا الشمالية وبعد أن أصبح الدور الصيني بالغ الأهمية بفضل العلاقات القومية التي تربط بين الصين من ناحية والكوريتين من ناحية أخرى .

وعلى صعيد آخر كانت الزيارة التي قام بها رئيس الوزراء الهندي أتال فاجبابي إلي الصين في عام ٢٠٠٣ تتويجا لمبادرات قامت بها الصين وإستجابت لها الهند علي مدي عقد من الزمن وفي هذه الزيارة وقع رئيس الوزراء الهندي ونظيره الصيني إعلان التعاون بين البلدين وكذلك تسعة بروتوكولات لتعميق العلاقات الثنائية في عدد من المجالات وقد تعهد المسئولان الكبيران في هذا الاجتماع التاريخي بأن يعمل بلداهما في توفير السلم والاستقرار الإقليميين وأن يبذلا كل جهد ممكن لحل المشكلات الحدودية التي إستمرت بينهما لفترة طويلة وفضلا عن هذا أكد رئيس الوزراء الهندي يومها أن بلاده تعترف بالتبت جزءا لا يتجزأ من الصين وأنه لن يكمن هناك تأييد للانفصاليين من التبت والذين يقطنون في الهند وقد شهد التبادل التجاري بين البلدين قفزات كبيرة أيدها التكامل بين البلدين في عدد من المجالات وعلى رأسها تكنولوجيا الاتصالات .

وفيما يتعلق بفيتنام فانه منذ إعادة العلاقات الدبلوماسية في عام ١٩٩١ أصبحت الاجتماعات بين رؤساء الدولتين وبين سكرتيري الحزب الشيوعي فيهما تتم سنويا بالإضافة إلي العشرات من زيارات العمل التي قام بها وزراء الدولتين ونوابهم وقد وقعت الحكومتان في عام ١٩٩٩م إتفاق الصداقة وحسن الجوار والاستقرار طويل الأجل الذي تم تطويره في عام ٢٠٠٢م ليشمل العمل علي تحقيق أربعة أهداف هي تشجيع المزيد من الزيارات الرسمية بين الجانبين وعلى مختلف المستويات تبادل التجارب الخاصة بالتنمية الاقتصادية تشجيع حركات التبادل الطلابي والشبابي بين الدولتين وأخيرا تقوية التعاون في

مجالات العمل الإقليمي والدولي والواقع أن هذه الأهداف قد وجدت طريقها إلي التنفيذ بشكل عزز من ثقة البلدين في قدرتهما علي التعاون والتفاهم وفضلا عن تعدد وإنتظام الزيارات الرسمية علي المستويين السياسي والعسكري شهدت العلاقات الاقتصادية تطورا واضحا بين الدولتين حتى أنه في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٩٦ و ٢٠٠٥ إرتفع حجم التجارة بين البلدين إلي خمسة أضعاف وقد قدمت الصين قروضا منخفضة الفائدة لتحديث المصانع الصينية في فيتنام (خاصة مصانع الحديد والصلب) كما أستثمرت الصين في نحو ٣٢٠ مشروعا مشتركا .

وإذا كانت العلاقات الصينية – الروسية قد ظلت متوترة لفترة طويلة فلأن الزيارات الرسمية المتبادلة لم تلبث أن نشطت في عقد التسعينات إلي أن تهيأت الأوضاع لعقد إتفاقين مهمين مع روسيا في عام ٢٠٠١ أما أولهما فكان معاهدة صداقة عُدت أساسا لحلف إستراتيجي بين البلدين وأما ثانيهما فهو ما تجسد في منظمة شنغهاي للتعاون التي وقعتها كل من الصين وروسيا مع جمهوريات آسيا الوسطي وقد نظر المحللون إلي الاتفاق الأخير علي أنه محاولة من جانب الصين وروسيا لبسط النفوذ في هذه المنطقة بما يجعل الولايات المتحدة بعيدة عنها وأيا كانت التفسيرات المقدمة فان منظمة شنغهاي كانت خطوة لم يسبق للصين أن اتخذتها فهي لم تكن قد إنضممت من قبل ذلك إلي إتفاقية أمن جماعي تتيح لها المشاركه بقوات عسكرية في وسط آسيا لمحاربة الإرهاب وغيره من الأخطار التي قد تهدد إستقرار الوضع القائم وقد أصبحت هذه المنظمة وكما سبق أن ذكرنا في إطار للتعاون في مجالات أخرى غير أمنية وعلى راسها العلاقات الاقتصادية.

وفيما يتصل بالعلاقات الصينية اليابانية فلعلها في نظر كثير من المحليين المشكلة الكبرى عند الحديث عن صلات إقليمية هادئة بين الصين ومحيطها الإقليمي وقد ذهب هؤلاء الدارسون إلي إعتبار علاقات الصين التقليدية بمثابة قنبلة تحتمل الانفجار وساقوا لذلك السباق عدة فهناك مثلا إدعاءاتهم بخصوص الأراضي التي تحوي إحتياطيات بترولية مهمة لكيلهما ومنذ عام ٢٠٠٥ تكرر تحليق طائرات المراقبة الصينية في مناطق جوية متنازع عليها بين البلدين وهناك المواجهات التي وقعت بين الدولتين مرة بسبب وقوف الصين عام ٢٠٠٥م ضد الرغبة اليابانية في الحصول علي مقعد دائم بمجلس الأمن ومرة أخرى بسبب إصرار كبار المسئولين اليابانيين علي زيارة النصب التذكاري لمجرمي الحرب اليابانيين في طوكيو في تحد واضح للمشاعر الصينية ومرة ثالثة بسبب مواقف اليابان من قضية إنضمام تايوان إلي الصين والتي فضلت فيها اليابان الإبقاء علي الوضع القائم بدلا من تشجيع الوحدة مع الدولة الأم .

غير أنه علي الرغم من المشكلات التي ثارت بين البلدين فان أغلب المسئولين الصينيين اليوم ليسوا ممن يتبعون النظرة الواقعية المتشددة التي تري في المنافسة العسكرية القوة الدافعة لسياسة الدول الخارجية وهم يعتقدون أن المفهوم الياباني عن الأمن يشتمل علي أبعاد أخرى بخلاف البعد العسكري والمقصود هنا الاعتبارات الاقتصادية فعلي سبيل المثال أشار عدد من المحللين الصينيين إلي أن أهم الأسباب التي توقف وراء إهتمام اليابان بالخلافات الإقليمية في بحر الصين الجنوبي وخليج تايون هو رغبتها في ألا تؤدي هذه الخلافات إلي مصادر الطاقة والنشاط التجاري في تلك المناطق ثم أن اليابان مدفوعة بالرغبة ذاتها تعمل جاهدة لتهدئة الأوضاع في الإقليم الآسيوي من خلال تعاونها الوثيق مع منظمة آسيان وتقديم المساعدات لبؤر التوتر المحتملة كما في روسيا وكوريا الشمالية وكل ذلك يصب في الاتجاه نفسه الذي يسير فيه الصينيون

وفضلا عن هذا وذاك فان الصينيين يرون أن صعود الأحزاب المحافظة في اليابان لا يعني بالضرورة أن يؤثر هؤلاء في إنتهاج البلاد سياسة عدائية وعدوانية تجاه الدول الإقليمية المحيطة فهناك من الجماعات الداخلية وبخاصة مجتمع رجال الأعمال وحركات السلام من يستطيع الضغط علي القيادة السياسية اليابانية في اتجاه التهدئة والحل السلمي للمشكلات .

وبصفة عامة ليس هناك من الشواهد ما يدل علي أن الصين تمثل إلي تصعيد المواجهات مع اليابان بل أن الساسة الصينين يأملون في أن تصبح عضوية اليابانتيين في منظمة آسيان مثلا فرصة سانحة للنقاش حول القضايا الساخنة والوصول إلي تسويات بشأنها ومن ناحية أخرى تبذل الصين جهدا ملحوظا في الاوانة الأخيرة في أن يكون ممثلوها لدي الدولة اليابانية أشخاصا ذوي صلة وثيقة بالمجتمع والثقاة اليابانيين حتى يكونوا أدوات فاعلة في إنجاز مهمة التفاهم التمتبادل بين الدولتين .

وإذا كانت الصين قد أولت الجوانب الاقتصادية أهمية كبيرة في علاقاتها مع دول إقليمها بحيث قفزت أرقام التبادل التجاري والاستثمار بينها وبين تلك الدول قفزات كبيرة في فترات قصيرة فان القيادة الصينية قد خطت أيضا خطوات مهمة عن طريق طمأنة جيرانها إزاء نواياها العسكرية .

فمن ناحية إنخرطت الصين في حوارات أمنية ثنائية مع دول إقليمها رسيما الهند واليابان وباكستان وروسيا وتايلاند وجمهوريات آسيا الوسطي وتعقدهذه الحوارات سنويا باشتراك مسئولين مدنيين من وزارت الخارجية إلي جانب المسئولين العسكريين ومن ناحية أخرى هناك تنسيق مستمر بين الصين وهذه الدول لتبادل الوفود العسكريةالتي تضم في العادة كبار القيادات وطلاب الاكاديميات والمسئولين عن تطوير الخدمات العسكرية ليس هذا فحسب بل أن

القياده الصينية قد بدأت أيضا مناورات عسكرية مشتركة مع جيرانها الاقليميين محطمة بذلك قيودا ثقيلة من الشك وعدم الثقة دامت لعدة عقود وأستهلت الصين هذه المناوارات في عام ٢٠٠٣م مع كل من الهند وكازاخستان وباكستان وعلى صعيد ثالث أعتبرت القيادة الصينية أن مشاركتها المتعاظمة في المتندي الإقليمي الآسيوي CARF برهان بالغ الأهمية علي نواياها السلمية ازاء جيرانها وسبيل إلي دعم الصلات الأمنية علي مستوي الاقليم بأكمله وقد تقدمت الصين في عام ٢٠٠٣ بمقترح تفصيلي في إطار هذا المنتدي لرفع مستوي التبادل العسكري بين دولة وكذلك لعقد إجتماعات سنوية بينها تناقش السياسات العسكرية والأمنية المتبعة فيها وقد وافقت الصين علي طرح عدد من القضايا في تلك الاجتماعات لم تكن لتطرحها قبل هذا ومن قبيل ذلك مثلا الاستراتيجيات العسكرية لدول المنتدي والتهديدات المستقبلية للأمن الإقليمي وعلميات التحديث العسكري في دول المنطقة والعلاقات المدنية العسكرية فيها .

وفضلاً عن هذا وذاك رفعت الصين من مستوي شفافيتها العسكرية عندما بدأت في تداول إصدارات عن سياساتها الأمنية مع دول الآسيان في إستجابة لمطالبها منها وعلى الرغم من أن هذه الإصدارات لا تزال غير مكتملة وفقا للمعايير الدولية فان مضمونها يتطور بإستمرار وهو ما يؤكد في نظر عدد من المحللين – جدية الصين في التعامل مع هذا الأمر.

وأخيراً.. هل من تحديات مستقبلية تعترض علاقات الصين بجيرانها الإقليميين؟

لعل السطور السابقة قد عاونت علي توضيح أبعاد الفكرة التي يتعاطف معها الكاتب ألا وهي أن القيادة الصينية إتخذت قرارها منذ عدة سنوات بأهمية

أعمال المبادئ الخمسة لسياستها الخارجية وعلى رأسها المساعدة في إقرار السلم والأمن العالميين وبضرورة أن يتم ذلك بوجه خاص في علاقاتها مع دول إقليمها الآسيوي وقد بدأت سياسة التهدئة والتقارب تأخذ مكانها إلي التنفيذ منذ أواخر السبعينات عندما تحسست الصين طريقها إلي منظمة آسيان لتتفقا معاً ضد التدخل الفيتنامي في كمبوديا ومع ذلك وكما سبق أن ذكرنا فان التحول الكيفي في علاقات الصين بإقليمها لم يبدأ إلا في أواخر الثمانينات وفي كل الأحوال فان التساؤلات تثار عادة حول ما يكن أن يكون عليه مستقبل هذه العلاقات ؟

وإذا جاز الحديث عن تطور تلك العلاقات علي المدي المنظور فلأنه يمكن القول أن الظروف الدولية والإقليمية تبدو مواتية لإستمرار الوضع القائم وتطوره في الاتجاه ذاته أن الولايات المتحدة موجودة بالفعل في آسيا وتتمتع بعلاقات وثيقة مع معظم دولها ولا يظهر أن الصين باتت تعترض علي هذا الوجود الذي تري فيه حماية لها إزاء بعض الأطراف كاليابان علي سبيل المثال كما لا يبدو أيضا أن جيران الصين يجدون تعارضا بين تحالفاتهم مع الولايات المتحدة وروابطهم مع الصين ومن ناحيتهم فان الأمريكيين قد يجدون في صين قوية ما يعاونهم علي التعامل مع المشكلات التي قد تنفجر في القارة الأسيوية وليست الأزمة الكورية الأخيرة والتي أظهرت الولايات المتحدة رغبتها في أن تقوم الصين بدور رئيسي في حلها إلا نموذجا علي هذا القول من ناحية أخرى فان الشكوك التي قد تقوم بين الصين وبعض دول إقليمه أصبح يقابلها علي الجانب الآخر مصالح متبادلة ومتواكبة أمست بدورها دافعا يزداد قوة علي مر الوقت لدعم ما نشأ وتطور من علاقات ومع ذلك فان التهديد المحتمل قد ينبع من عدم المساواة الذي يتسم العلاقة بين الصين وجيرانها الإقليميين علي وجه العموم إن هذه العلاقة ستظل ولفترة قد تطول علاقة غير متوازنة تكون فيها

الصين الطرف الاقوي مقارنة بدول إقليمها وهذا يشكل تحديا مستمرا لكلا الجانبين ففي مثل هذه العلاقات غير المتساوية تتوقع الدولة الاقوي أن تعترف الدول الأضعف مبدئيا بتفوقها الواقع عليها فإذا لم يحدث هذا الاعتراف وطالب الطرق الأضعف بمساواة وهمية غير حقيقية مع الدولة الاقوي فان هذا لا بد أن يقود إلي شقاق بينهما وعلى صعيد آخر فان الدول الأضعف تتوقع أن تؤخذ مسالة " إستقلالها " في عين الاعتبار من جانب الدولة الاقوي فإذا لم يحد هذا وأظهرت الدولة الاقوي تجاهلا لذلك الأمر وإصرارا منها علي تنفيذ سياستها بصرف النظر عن رغبات الدول الاضعف فان هذه الأخيرة لابد أن تشعر بالغبن وهو ما قد يدفعها دفعا نحو انتهاج سلوك عدائي يمكن أن يتخذ صورة التحالف مع بعضها للوقوف في وجه الدولة الاقوي وفي هذه الحالة إيضاً يكون الاستقرار مهددا بفعل سوء الادراك من جانب الدولة القويه لمطالب وتوقعات جيرانها الأضعف .

يمكن القول أنه حتى اليوم نجحت الصين وجيرانها في اختيار الادراك المتبادل لتبعات القوة غير المتسماوية فجيران الصين ادركوا تماماً قوة الجارة العملاقة وأعترفوا بهذه القوة ولكن الدولة القوية أفلحت كذلك في إقناع هؤلاء الجيران بأن قوتها لن تأتي علي حساب التعامل معهم باعتبارهم " شركاء " لا تابعين وان هذه القوة ستكون لهم بمثابة الفرصة لا التهديد .

والواقع أن دور الصين في ضمان إستمرار العلاقة علي هذا النحو دور بالغ الأهمية وهو يفوق في أهميته دور الجيران في المحافظة علي هذا الوضع .

ففي علاقة تتسم بعدم التساوي يتحمل الطرف الأقوى علي الدوام مسئولية أكبر في إقناع الأطراف الأضعف بنواياه الايجابية إزاءهم لذا فالأمر يحمل

تحديا حقيقيا ومستمرا للقيادة الصينية في إيجاد تفاهم متبادل بين الجميع وبحيث ينتج هذا التفاهم الاستقرار والتهدئة المرجوين .

القدرات العسكرية الصينية والتوازن الإقليمي :

عندما يتعلق الأمر بالصين لا توجد حقائق بسيطة" ووفاق لسوزان الشيرك" مؤلفة كتاب الصين القوة العظمي الهشة الذي صدر عام ٢٠٠٧م فأنها كلما ذكرت عنوان كتابها في الولايات المتحدة يقال لها : هشة أن الصين لا تبدو هشة لكن عندما تذكر العنوان نفسه في الصين يكون الرد قوة عظمي ؟ الصين ليست قوة عظمي وتتكرر مثل تلك الروايات مرارا لتقود إلي النتيجة نفسها فهناك رواية أخرى شائعة تقرر أنه إذا قيل لقيادات صينية أنكم دولة متقدمة غنية فان الرد يكون هو أنظر إلي المناطق الغربية أما إذا قيل أن الصين دولة نامية فانه يتم لفت النظر بهدوء إلي مناطق الشرق الساحلية المتقدمة الغنية وعلى الرغم من أن كل ذلك يتعلق في الأساس بالوضع الاقتصادي فإن المنطق نفسه ينطبق مع بعض التعديلات علي الوضع العسكري .

وبداية فأن الحديث الذي ساد لفترة طويلة عن الصعود الصيني في إطار نظرية " القرن الاسيوي " لم يكن يرتبط بقدرات أو سياسات الصين العسكرية وإنما قدرات وسياسات الصين الاقتصادية فمعدلات النمو السريعة للاقتصاد الصني أدت إلي توقعات بأن تتفوق في وقت ما علي الولايات المتحدة إقتصاديا وبالتالي يتجه نحو إحتلال مكانة القوة الأولي في العالم وقد إتجه هذا التحليل إلي مداه عبر نظرية أخرى تقرر أن هذا المسار سيضع الصين علي خط الصدام مع الدول المتقدمة الأخرى فمثل هذا التجاوز الكبير للمواقع الدولية لا يتم دون احتكاكات بفعل ما يتوازي معه في العاده من صراعت علي الموارد أو تنافس علي مناطق النفوذ أو محاولة لحسم النزاعات الخارجية ومن هنا جاء القلق

الأمريكي تحديدا تجاهٍ نمو القوة العسكرية الصينية إذ أنها في حالة بدء علمية تحول المواقع الدولية قد تستخدم فعليا لكن القيادات الصينية لا تقر مثل تلك التحليلات وإن لم ينه ذلك حالة القلق إزاء العسكرية الصينية .

والواقع أن الوضع العسكري الصيني يبدو محيرا إلي حد كبير فعلاً بالرغم من أن عمليات تطوير القوه العسكرية الصينية تثير نوعا من القلق لدي الدول المحيطة بها في أقاليم جنوب آسيا وشرق آسيا إضافة إلي الدول ذات المصالح والاساطيل والقواعد في تلك المنطقة وعلى الرغم من أن التصريحات الرسمية الصينية تبدو تهديدية بصورة ما خاصة بالنسبة لليابان وتايوان والهند فان التحركات العسكرية الفعلية لها تبدو محسوبة بدقة علي نحو لا تظهر فيه الصين وكانها راغبة في إستخدام قوتها المسلحة فعليا ضد الأطراف الأخرى المناوئة لها كما لا يبدو في اطارها أن التصريحات الرسمية تعبر عن إستراتيجية هجومية أو نوايا حادة بدرجة يمكن إعتبار الصين معها من جانب أطراف الإقليم خطرا مباشرا أو عاجلاً باستثناء تايون .

في هذا الإطار وبعيدا عن النظريات الخاصه بالصعود الصيني يصعب تصور أن السلوكيات التسلحية والتصريحات التهديدية من جانب الصين يمكن أن تقود إلي وقوع حرب وإنما يمكن أن تتسبب في حالة من حالات عدم الاستقرار الإقليمي في المناطق المحيطة بالصين مع تدعيم التوازنات الحالية فيها والتي تقوم علي شبكة من التحالفات الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وكل من الهند واليابان وكوريا الجنوبة وتايوان علي نحو يؤدي إلي حالة من الحرب الباردة التي لا تصل إلي الصدام المباشر لإعتبارات مختلفة يمكن توضيحها بالتركيز علي الصين كفاعل في النقطيتن التاليتين .

أولاً : القوة العسكرية الصينية ..

إن الصين تمثل هدفا عسكريا شديد الصعوبه فهي تتمتع بحماية دفاعية طبعية إذ أن مساحتها تصل إلي ٩.٦ مليون كيلو متر مربع كما أن عدد سكانها يصل إلي ١.٣ مليار نسمة ومع مثل تلك المؤشرات يصعب أن يتم بناء إستراتيجية مضادة تقوم علي الهجوم علي تلك الدولة أو التأثير في كتلتها الحيوية فعلي الرغم من أنه تم التمكن تاريخيا من المساس الحاد بأرض وشعب الصين علي غرار ما تشير إلي فترة حرب الافيون أو الاحتلال اللياباني خلال الحرب العالمية الثانية فان تطور القوة العسكريه وظهور الاسلحة النووية وتماسك الدولة الصينيه كل ذلك يغير مثل تلك المعادلات التاريخية تماما بل أن تعبيرات ذات دلالات إستراتيجية مثل التنين النائم تشير إلي أن الفكرة المسيطرة علي الاستراتيجيات المضادة لها حاليا هي عدم إستفزازها بكشل زائد.

وعلى العكس من ذلك تماما فان ما يثار في السنوات الأخيرة يتعلق بإحتمالات أن تقوم الصين ذاتها بعمليات عسكرية إستفزازية ضد أطراف أخرى في المنطقة مثل تايوان ومن هنا يأتي القلق الذي تبديه التقديرات الرسمية الأمريكية إزاء تصاعد عمليات التطوير العسكري في الصين من زاوية ما إذا كان ذلك يمكن أن يمكنها من التفكير في سيناريوهات سيئة لا تفكر فيها حاليا تجاه المشكلات السياسية أو الأمنية المعلقة أو أن يمكنها ذلك من توسيع نطاق نفوذها العسكري وقدرتها علي التأثير في تطورات أقاليم الجوار البعيد مثل جنوب الهادي أو وسط آسيا أو شمال شرق آسيا أو جنوب آسيا أو ربما تمكنها من إمتلاك قوة قادرة علي تحييد الوسائل العسكرية الهجومية التي تعتقد الدول

المهتمة بالصين أنها المسئولة عن الحفاظ علي الحكمة الصينية كالصواريخ طويلة المدي أو الغواصات النووية أو أسلحة الفضاء .

إن القوة العسكرية الصينية تبدو مخيفة بصفة عامة ويعود ذلك إلي عوامل مختلفه أهمها بالطبع القوة البشرية فعدد أفراد القوات المسلحة الصينية يصل إلي ٢.٥ مليون جندي وهو ما يشكل الجيش الاكبر عالميا من حيث القوة العددية ولا تاتي أهمية القوة العددية من حجم القوات النظامية فقط فالقوة البشرية المؤهلة للخدمة العسكرية في الصين من الرجال فقط تتجاوز ٣٠٠ مليون نسمة يصل منهم نحون ٩ ملايين سنويا إلي سن التجنيد الاجباري وعلى الرغم من أن مسالة الاعداد قد فقدت الكثير من تاثيراتها في ظل تطور نظم التسليح الحديثة وإعتماد الجيوش علي القوات الجوية وفي ظل وجود الاسلحة النووية فان النوة العددية للجيش الصيني لا تزال موضع إهتمام .

لكن التقديرات الأمريكية الأخيرة للقوة الصينية تمس القطاعات الأكثر تقدما فيها مباشرة بإعتبارها مصدر الاهتمام إزاء العسكريه الصينية فقد حدد التقرير السنوي لوزارة الدفاع الامركية عن القوة العسكرية للصين الصادر في أغسطس ٢٠١٠م أربعة مجالات للتطور العسكري المقلق وهي الصواريخ الباكستيه متوسطة المدي القادرة علي إصابة أهداف برية وبحرية والغواصات القتالية الحديده وامتلاك نظم تسليح وتكنولوجيات متقدمة في مجال الدفاع الجوي اضافة لأي حيازة طائرات مقاتلة حديثة مثل سوخري ٢٩ لكن ما ركزت عليه معظم تحليلات الدفاع المتقدمة **ومن أهم تلك التطورات ما يلي** :

١- القيام ببناء حاملات طائرات متطورة بقدرات ذاتية وبميزانيات عسكرية تصل إلي ٢٠ مليار دولار ومع إمتلاكها قوات مشاة بحرية وتطويرها صواريخ كروز وحيازتها لطائرات خفيفة يسود إتجاه بأن الصين تقوم

ببناء قوة بحرية قادرة علي العمل عبر الحبار علي مسافات أبعد مما كان متصورا تقليديا بالنسبة لها .

٢- القيام بتطوير أنظمة صاروخية متقدمة لإستهداف الاقمار الصناعية العسكرية وأنظمة صاروخية مضادة للصواريخ العابرة للقارات وهو مجال عمل يجعل الصين أكثر تقدما من الناحية العسكرية من دول مثل فرنسا وبريطانيا والمانيا واليابان علي نحو طرح مسالة تجاوزها لنطاق فكرة القوة الاقليمية العظمي .

٣- قيامها بتوسيع نطاق تحالفاتها العسكرية الخارجية في منطقة جنوب وجنوب شرق آسيا المحيطة بالهند والقريبة من تايوان وقد تمت الإشارة في بعض المصادر إلي إحتمالات قيامها بالحصول علي تسهيلات عسكرية خارج المنطقة الاسيوية من الأساس في أفريقيا تحديدا .

وقد أدي ذلك إلي ارتفاع التقديرات الخاصة بنفقات الدفاع الصينية فبينما تعلن الحكومة الصينية أن ميزانياتها العسكرية لا تتجاوز ٧٠ مليار دولار تقرر واشنطن أن نفقات الدفاع الصينية قد وصلت إلي ١٥٠ مليار دولار وهو ما تنفيه الصين بشدة فكل الأطراف تدرك أن نفقات الدفاع هي المؤشر الرئيسي لاتجاهات بناء وتطوير القوة المسلحة وبينما يعتقد بعض المحللين أن الصين تقوم في المجال العسكري بما قامت به في المجال الاقتصادي وهو التحديث الصامت والنمو التدريجي تقرر الصين أنها تحافظ علي الحد الكافي للدفاع وفي كل الاحوال لا تقرن عمليات تطويرها العسكرية بما تقوم به دول مثل إيران علي سبيل الميثال وهو الاستعراض المستمر لقدارتها حتى لو كانت تجريبية لكنها في كل الاحوال لا يمكنها أن تنفي أنها تقوم بعملية بناء عسكري متقدمة وسريعة بدأت تؤثر بشدة في التوازنات القائمة في الاقاليم الفرعية الميحطة بها

ثانيا : تأثيرات السياسة العسكرية الصينية ..

قواتها المسلحة ؟ فالطبيعي في العالم أن تكون لدي الدول جيوش لكن مثل تلك الاسئلة تطرح عادة في مناطق الصراعات أو التوترات خاصة فميا يتعلق بعلميات تطوير القوات في إتجاهات معينة يمكن أن تشعر الأطراف الأخرى معها بالقلق من إحتمالات تغير التوازنات العسكرية القائمة بدرجة تؤدي إلي تبين خيارات لم تكن قائمة أو ممكنة أو تدفع الدول المجاورة إلي قيامها بتطوير تسليحها في الاتجاهات نفسها علي نحو يؤدي إلي ظهور سباق تسلح إقليمي أو عمليات إعادة إنتشار دولية وهو يثير بدوره إحتمالات تتعلق بإمكانية إستخدام القوة المسلحة ذاتها فعليا وهي كلها إشكاليات تطرح في المنطقة المحيطة بالصين .

لقد كان ثمة سؤال دائم حول دوافع الصين وراء تطوير قواتها المسلحة في المرحلة الحالية وتبعا لكثير من التحليلات فان تلك الدوفاع غير واضحة أو يصعب الجزم بشأنها ولا تخرج التصريحات الصينية ذات الطابع العام عن أن عسية بناء قواتها المسلحة تتم في حدود تتعلق بالدفاع أو الردع وأنها تتسم الشفافية متهمة التقارير الامركية بعدم المهنية وباستثنياء التوجهات الصنيية المعلنة بشان استعادة تايوان لا يبدو أن هناك أهداف هجومية محددة للسياسة العسكرية الصينية حتى بالنسبة للحالات التي توجد بشأنها نزاعات حدودية برية أو بحرية مع الصين لكن الدول عموما لا تتعامل مع التصرحات الرسمية وإنما مع الحقائق الصلبة المتعلقة بأنظمة الستليح وبالطبع مع آية بوادر لترحيك فعلي لمناطق تمركز نظم التسليح أو الفرق العسكرية علي الأرض كما تفعل الصين بالقرب من الهند وتايوان .

أن التصورات السائدة بشان التوجهات العسكرية الصينية علي ساحة الاقليم المحيط بها **تركز عادة علي مجموعة من الأهداف التي تتعلق بما يلي :**

١- إستعادة جزيرة تايوان وهو الهدف الأول الذي لم تتخل عنه العسكرية الصينية عبر أكثر من نصف قرن وهو الاتجاه الاستراتيجي الذي جرت بشانه عمليات تهديد صريحة وحشد عسكري فعلي وأزمات دولية عدة مرات وقد تم نشر صواريخ قصيرة المدي في نهاية ٢٠١٠م في مضيق فورموزا بل أن هذه الحالة تحديدا (تايوان) قد أدت إلي صدور تصريحات صينية غير رسمية تشير إلي إمكاينة إستخدام أسلحة النووية في إطار تفاعلات تتعلق بها قبل أن يتم التراجع عنها .

٢- موازنة الوجود الأمريكي فهناك حالة توجس وشك معلنة علي المستوي العسكري بين الصين والولايات المتحدة التي تحتفظ بقواعد عسكري لها في اليابان وكوريا الجنوبية (والفلبين قبل الانسحاب منها) إضافة إلي الوجود العسكري البحري لها في منطقة الهادي لإعتبارات تتعلق بضبط التوازنات في تلك المنقطة تجاه الصين تحديدا ولحماية تايوان وردع كوريا الشمالية حاليا وقد صدرت تقديرات أمريكية تقرر أن اهداف التسلح الصيني الحالي أصبحت تتخطي تايوان إلي جزيرة جوام الامريكية في المحيط الهادي لكن ثمة شكا في ذلك .

٣- الضغط علي الهند فهناك حالة تواتر تاريخية بين الصين والهند يتم من خلالها تفسير العوامل الرئيسية التي أدت إلي قيام الهند بإمتلاك أسلحة ننوية كما أدت إلي تدعيم التحالف شبه الاستراتيجي بين الصين وباكستان وأدت إلي تعميق غير مسبوق للعلاقات الهندية الأمريكية التي بدأت تتضمن بعدا نوويا وتفسر العلميات الصينية لتولي مشروعات إقامة موانئ

في الدل القريبة كسريلانكا وميانمار وباكستان ليس فقط برغبة بكين في تامين طرق تجارتها المتنامية عبر البحار وإنما أيضا بحصار الهند .

٤- مواجهة النزعات اليابانية فالصين لديها توجس تاريخي ازاء ما تعتقد أنه إمكانية لعودة النزعة العسكرية اليابانية مرة أخرى إلي منطقة آسيا الهادي وهي تعلن طوال الوقت إحتجاجات حادة إزاء أي سلوك العسكرية ياباني حتى لو كان مجرد مناورات عسكرية روتينية أو إرسال قوة غير قتاليةإلي الخارج كما حدث في حالة العراق علي الرغم من أن اليابان تتعرض حاليا لتهديدات حقيقية من جانب كوريا الشمالية، وهي مشكلة قد تتفاقم مع الوقت لتطرح إحتمالات معقدة .

إن أحد ملامح التفاعلات الاستراتيجية في منطقة شرق آسيا هو أن الدول تعبر بشكل صريح عن توجهاتها إزاء مايجرى في الجوار خاصة ما يتعلق بتاثيرات العسكرية الصينية بخلاف منطقة كالشرق الاوسط التي يبدو من تسريبات ويكلييكس أن حجم المخاوف أو التوجسات الأمنية بين الدول أكبر بكثير مما يعلن عنه لكن المثير في منطقة آسيا - الهادي وهو وجه شبه مع إقليم الشرق الاوسط هو أن التهديدات أو المخاوف العسكرية لا تمنع إنسياب بل وتعمق العلاقات الاقتصادية بين دول تلك المنطقة بما في ذلك علاقات الصين مع تايوان التي كثيرا ما كانت تشهد تصاعد التهديدات العسكرية والتفاهمات الاقتصادية في الوقت نفسه كما أنها لا تمنع أيضا التعاون السياسي للتعامل مع مشكلات تعتقد أطراف الاقليم أنها تهدد إستقراره كما يجري بشان مشكلة كوريا المشالية النووية.

في هذا الاطار فان تاثيرات صعود العسكرية الصينية في السنوات الأخيرة في الاوضاع الاستراتيجية القائمة في المنطقة المحيطة بالصين تتسم بالوضوح

أو يمكن توقعها وأولها إحتمالات تصاعد سباق التسلح النوعي في الاقليم بأسرع ما كان عليه في أية مرحلة سابقة فهناك صفقات سلاح أمريكية تايوانية تتسم بالتضاخمية والتطور خاصة في مجالات المقاتلات المتقدمة علي غرار ما يجري مع الامارات العربية المتحدة في الخليج ويمتد سباق التسلح إلي الدول الاسيوية الصغيرة أيضا حيث تشير إحصاءات إلي أن واردات ماليزيا من الاسلحة خلال الفترة ما بين عامي ٢٠٠٥ و ٢٠٠٩ قد ارتفعت بنسبة ٧٢% عن الاعوام الخمسة التي سبقت هذه الفترة أما سنغافورة فقد ارتفعت قيمة وارداتها من الاسلحة بنسبة ١٤٦% في الفترة نفسها حيث أصبحت رابع أكبر مستورد للسلاح في آسيا بعد الصين والهند وكوريا الجنوبية كما تقرر وزارة الدفاع اليابانية أنها تراقب تطور التسلحى الصيني باتنباه ويمكن ملاحظة أن السلوك التسلحي الهندي يسير في نفس اتجاه تسلح الصين تقريبا مما يؤيد كما كان الأمر دائما إلي دخول باكستان علي خط سباق التسلح فالعلاقات العابرة للاقاليم تعمل بصورة نموذجية تكاد تكون مدرسية في مناطق آسيا .

إن واحدة من النتائج الرئيسية للتطورات التسليحية والتوجهات العسكرية الصينية أيضا تتمثل في بقاء القوات الامريكية في تلك المنطقة عموما فقد سادت في بعض الفترات ميول إنسحابية أمريكية من بعض أقاليم آسيا لكن هذه التوجهات قد تجمدت بفعل مخاوف دول تلك المنطقة العسكرية الصينية ولمنع محاولة بعضها من التفكير في إنتاج أسلحة نووية لكن التوجهات الصينية لم تكن العامل الوحيد المؤثر في قرارات واشنطن بهذا الشأن فقد أدي تصاعد التوتر المحيط بكوريا الشمالية إلي تدعيم القوات الأمريكية في الهادي واجراء مناورات مشتركة في اليابان كما أدت تعقديات الموقف في إفغانسان إلي رفض واشنطن طلب منظمة شنغهاي إغلاق قواعدها العسكرية في آسيا الوسطي ويعتقد كثير من المحليين الأمريكيين أن الصين من الحكمة بحيث لن تقدم علي

خوض سباق تسلح أو الإقدام علي خطوات عسكرية موجهة إلي الولايات المتحدة مباشرة .

في النهاية فان منطقة آسيا – الهادي كانت من أكثر مناطق العالم التي شهدت أعنف الصراعات وأكثرها دموية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية لدرجة تمت تسميتها معها حلقة النار بعد أن كانت قد شهدت أيضاً أكثر السلوكيات العسكرية سواء خلال الحرب ذاتها بما في ذلك استخدام الاسلحة النووية ويوجد اعتقاد بأن قيادات دول المنطقة ليست علي الاستعداد للسماح للتاريخ بأن يكرر نفسة خاصة أنها تشهد مستويات من النمو الاقتصادي أدت في وقت ما إلي ظهور نظرية القرن الاسيوي إستنادا علي أداء الصين واليابان وتايوان وكوريا الجنوبية وبقية دول النمور الآسيوية وهو ما يبدو واضحا في عدم السماح للمشكلات المتفاقمة في الإقليم بالخروج عن نطاق السيطرة عبر تعاون الدول نفسها التي تثير سلوكياتها التسليحية والعسكرية شكوكا لدي الدول الأخرى إلا أن القضية حاليا هي أن حجم المشكلات العسكرية يتزايد بدرجة تضع تلك الحكمة موضع إختبار حقيقي لا يمكن توقع نتائجه ببساطه فهناك شئ يتيغر في الإقليم .

التنافس الإقليمي من منظور الصين :

تقع القارة الاسيوية في قلب الجدل الدائر حول مستقبل النظام الدولي ومنطقة توزيع القوي بداخله وقد ذهبت العديد من الآراء إلي أن القرن الحادي والعشرين سيكون قرنا آسيويا بامتياز في ظل صعود قوي آسيوية كبري مثل الصين والهند واليابان تقع الصين في قلب هذا الاهتمام العالمي حيث تشير العديد من الدراسات في علم العلاقات الدولية إلي أنها في سبيلها لان تكون

اللاعب الدولي الأول فقد تبوأت الصدارة الاقتصادية كأكبرمركز صناعي في العالم وثاني أكبر اقتصاد عالمي من حيث الإنتاج إلا أن هناك رايا يؤكد أن الصين غير مؤهلة للعب مثل هذا الدور ليس فقط لما يواجهه من مشاكل داخلية مثل الفساد والبطالة والتفاوت الاقتصادي بين المناطق الداخلية والمناطق الساحلية والنزاعات الانفصالية في بعض المناطق .

ولكن أيضا لأنها تواجه تحديدات إقليمية ودولية مثل التوتر الذي يشوب علاقاتها مع الولايات المتحدة ومشكلة تايوان والمنافسة اليابانية للمكانة الصينية والقلق من العلاقة المتنامية بين الولايات المتحدة والهند .

لذلك فإن الاختلاف وتضارب المصالح بين هذه القوي الاسيوية الصاعدة قد يلقي بظلال من الشك علي فرضية الصعود الاسيوي .

العلاقات الصينية – الهندية :

تعتبر الهند الصين جاراً إقليمياً وربما صديقاً تعقد معه علاقات إقتصادية مثمرة جدا لكنها في الوقت ذاته تمثل لها التحدي الاستراتيجي الاكبر أما الصين فتري أنه حتى الآن لم تتمكن الهند من منافستها إستراتيجيا لكن في حال تباطؤ نمو الاقتصاد الصنيني واستمرار التصاعد الهندي اقتصاديا فإن النظرة الاستراتيجية للصين تجاه الهند قد تتغير .

وبينما تثق الصين في قدرتها علي البقاء في وضع إستراتيجي افضل من الهند فأنها في الوقت نفسه قلقة من العلاقة المتنامية بين الهند والولايات المتحدة خاصة أن الهند تبقي شريكا استراتيجيا متواضعا تجاريا مع الصين .

العلاقات الهندية – الصينية :

لعل أهم ما يميز العلاقات الهندة الصينية المعاصرة هو تارجحها إذ شهدت تغيرا في التفاؤل المفرط إلي الشك وعدم الثقة ثم إلي الوفاق لتتراجع عنه أخيرا بعض الشئ الأمر الذي يمكن معه التمييز بين محطات أربعة رئيسية .

يمثل الاعتراف الهنيد بالصين المحطة الرئيسية الأولي في العلاقات بين البلدين فعندما برزت جمهورية الصين الشعبية إلي الوجود أواخر عام ١٩٤٩م كانت الهند أول دولة تسارع إلي الاعتراف بها وتقيم معها علاقات علي مختلف الاصعدة وكان رئيس الوزراء الهندي أنذاك جواهر لال نهرو يامل في أن البلدان سوف يقفان معا لإعطاء القارة الاسيوية مكانها اللائق علي الساحة العالمية ولذلك مارست الهند ضغوطا لكي تحصل جمهورية الصين الشعبية علي مقعد دائم في مجلس الأمن بدلا من الصين الوطنية (فرموزا) كما لم تساند الهند الموقف الأمريكي في مواجهة الصين بصدد الحرب الكورية .

وتتمثل المحطة الثانية في التدهور الكبير الذي شهدت العلاقات بين البلدين بدءا من عام ١٩٥٩م بسبب المشاكل الحدودية وقضية التبت التي تعد من أخطر المشاكل التي عكرت – ولا تزال – صفو العلاقات بين الهند والصين وتسببت في إندلاع الحرب بينهما عام ١٩٦٢م ورغم أن هذه الحرب كانت حربا خاطفة ومحدودة من الناحية العسكرية فأنها تركت بصمات عميقة الأثر علي العلاقات بين البلدين فقد مثلت صفعة قوية لهيبة الهند ومست في الصميم كرامتها وكبرياءها ، ومكانتها الدولية والاقليمية فضلا عن ذلك فقد ولدت سباقا للتسلح وحربا باردة بين البلدين الجارين إذ لجات خلالها الصين ليس فقط إلي تطوير

علاقاتها مع باكستان بل وإمدادها بالصواريخ وتكنولوجيا الاسلحة النووية ولجات الهند إلي تطوير علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي السابق .

أما المحطة الثالثة في العلاقات بين البلدين فتتمثل في الوفاق الذي عرفت عقب الغزو السوفيتي لافغانستان الذي أمتد خلال الفترة بين عامي ١٩٧٩ و ١٩٩٨ والتي شهدت توقيع عدد من الاتفاقيات علي مستوي عال وجرت خلالها مفاوضات بشان الحدود وقضايا التجارة بلغ هذا الوفاق ذروته عام ١٩٩١م عندما قامت الهند بتطبيق علاقاتها مع الصين أثناء زيارة رئيس الوزراء الصيني لي بنج والتي تعد أول زيارة من نوعها يقوم بها مسئول صيني رفيع المستوى للهند منذ أكثر من ثلاثة عقود .

جاءت المحطة الرابعة والاخيرة في العلاقات الهندية الصينية مع التفجيرات النووية الهندية عام ١٩٩٨م والتي تعد بمثابة نقطة تراجع بارزة في العلاقات الثنائية بين الهند والصين بيد أنه رغم الانتقادات الصنيية للهند فان موقف الصين إزاء التفجيرات النووية الهندية لم يكمن عدائيا .

ويمثل كل من العامل الأمريكي والباكستاني متغيرا جوهريا له تاثيره في العلاقات الهندية – الصينية ينطلق اثر العامل الأول من نظرة كل من الهند والصين إلي علاقة الآخر بالولايات لامتحدة ففي الوقت الذي كانت فيه العلاقات الصينية – الأمريكية غير مستقرة بصفة عامة خلال العقد الاخير من القرن العشرين – بسبب الخلافات حول عدد من القضايا مثل حقوق الإنسان والدعم الأمريكي لتايوان وضرب السفارة الصينية في بلجراد وحادثة طائرة التجسس الأمريكية قرب جزيرة هانيان الصينية كانت العلاقات الهندية الامريكية في الجانب الآخر تشهد تحسنا واضحا في كثير من المجالات وكان الاستثناء لذلك العقوبات التي فرضتها الولايات المتحدة علي الهند عشية التفجيرات النووية

الهندية عام ١٩٩٨ والتي أملتها القوانين الأمريكية الداخلية أما العامل الباكستاني فيبرز تأثيره السلبي في العلاقات الهندية – الصينية في الدعم الذي تحصل عليه باكستان من الصين خاصة في مجال التكنولوجيا النووية .

عوامل التقارب والالتقاء بين الهند والصين :

تتفق الصين مع الهند علي السعي لوضع حد لنظام القطبية الاحادية والهيمنة الأمريكية بإعتبار أنه ليس في صالح أي منهما كما يتعاونان في القضايا المتعلقة بمكافحة الارهاب لما يمثله من خطر علي كل منهما وهو ما دفع البلدين إلي إقامة جماعة عمل ثنائية مشتركة لمكافحة ظاهرة الارهاب الدولي والاتفاق علي تبادل المعلومات والاستخبارات حول كيفية التعامل معها .

وفي مجال التعاون التجاري تعتبر الصين الشريك التجاري الاكبر للهند فيما يخص التجارة السلعية علي الرغم من أن واردات الولايات المتحدة من خدمات تكنولوجيا المعلومات الهندية أوصلت التبادل التجاري بين البلدين (الهند والولايات المتحدة إلي ٥٠ مليار دولار .

ورغم زيادة معدلات التبادل التجاري بين الهند والصين فان الترتيبات التجارية بين البلدين غير متوازنة وغير منسجمة حيث تعاني الهند عجزا في الميزان التجاري يقدر بنحو ٦.٨ مليار دولار فبينما تعبتر المواد الخام هي صلبة الصادرات الهندية فأنها تستورد بشكل أساسي السلع الصينية المصنعة .

وتعتبر الصين والهند أسرع الاسواق المستهلكة للطاقة نموا علي مستوي العالم حيث تاتي الصين في المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة في إستهلاك النفط كما أنه من المتوقع أن ينمو الاستهلاك الهندي من النفط بمعدل يتراوح بين

٣.٦ و ٤.٣% من الاستهلاك العالمي سنويا وقد تتضاعف هذه النسبة بحلول عام ٢٠٣٠م مما سيجعل الهند ثالث أكبر دولة مستهلكة للنفط قبل عام ٢٠٢٥ وقد أدي تصاعد معدلات الاستهلاك إلي زيادة البلدين من حجم إستثماراتهما في حقول النفط الأجنبية وإعتمادهما علي مصادر الطاقة الأجنبية ومن ثم إزدادت حساسيتهما الشديدة تجاه التغيرات التي تشهدها الاسواق العالمية للطاقة .

وربما يشكل ذلك سببا في سعي البلدين إلي تحقيق مزيد من التعاون في مجالات الطاقة إذ حققا شراكة بالفعل فى إثنين أو ثلاثة مشاريع دولية للطاقة من ضمنها الاستثمارات في كولومبيا وسوريا .

وقد حققت الصين نجاحات أكثر من الهند في هذا المجال مستخدمة علاقاتها السياسية والاقتصادية وأبرز مثال علي ذلك التوجه الصيني صوب أفريقيا (ابرز جوانب الخلاف والاختلاف بين البلدين) .

تنظر الهند الى الصين بإعتبارها مصدر تهديد تقليدي ونووي لأمنها كما أن فشل البلدين في حل النزاع الحدودي بينهما يبقي حالة من الاحباط وعدم الثقة لدي الهنود لاسيما وان الصين قد حلت معظم مشاكلها الحدودية مع جيرانها الآخرين .

وتمثل العلاقات العسكرية الصينية – الباكستانية مشكلة للعلاقات الهندية – الصينية إذ يعتقد القادة الهنود أن الصين تستخدم باكستان لاحتواء الهند والحيلولة دون صعودها كمنافس محتمل لها .

وتعارض الصين الرغبة الهندية في الحصول علي مقعد دائم في مجلس الأمن فالصين تخشي من إستخدام وضع الهند كعضو دائم في مجلس الأمن من

قبل القوي الكبرى خاصة الولايات المتحدة في تشكيل حلقة إحتواء في مواجهتها خاصة إذا ما نجحت اليابان هي الأخرى في الحصول علي مقعد دائم فى مجلس الأمن .

وتظل قضية الحدود أحد مواطن النزاع بين العملاقين الهندي والصيني وترجع النزاعات الحدودية بين الدولتين إلي خمسة عقود خلت وادي ذلك لنشوب حرب عام ١٩٦٢ بين البلدين أنتصرت فيها الصين بيد أن الجانبين خففا من حدة القلق حول مسالة الحدود فقد عبرت الهند عن أن التبت جزء لا يتجزأ من الأراضي الصينية وفي المقابل أعترفت الصين في عام ٢٠٠٣م بكون سيكيم جزءا من الهند .

ورغم المحادثات رفيعة المستوي بين الجانبين بخصوص الحدود فلا يزال التوصل إلي تسوية شاملة أمرأ مستبعدا فالصين تعلن من حين لآخر أن إقليم أروناتشال براديش (شمالي شرق الهند – والذي يعتبر جزءا من الحدود المتنازع عليها بين الجانبين ويقطنه عدد كبير من السكان – جزء من أراضيها .

ولا ينفي وجود بعض أوجه التعاون بين البلدين حقيقة وجود أهداف ومصالح متعارضة في شأن القضايا الاقليمية فالهند لا تريد لقوة واحدة أن تسيطر علي آسيا كما تسعي إلي تعزيز حضورها وجذورها في القارة الأسيوية وعلى الجانب الآخر تريد الصين أن تري نفسها قائدا بلا منازع في آسيا وتفضل أن تتعامل مع آسيا كمناطق اقليمية ثانوية مثل جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا وشمالها وشمال شرق آسيا وتلعب هي دور اللاعب المركزي بين هذه المناطق مقابل إبقاء الدور المحوري للهند فقط في جنوب آسيا .

هذه الأهداف والمطوحات والمفاهيم المتعارضة إنعكست في صورة عدم توافق بين أهداف الصين والهند في المنظمات الاقليمية المختلفة حيث إكتسبت الصين صفة مراقب في رابطة دول جنوب آسيا للتعاون الإقليمي وتعتبر الهند شريكا لحوار في رابطة دول جنوب شرق آسيا وعضو منتدي الاسيان الإقليمي وعضو قمة شرق آسيا رغم جهود الصين لنمع إنضمامها كما تحظي بصفة مراقب في منظمة شنغهاي للتعاون .

ويري بعض صانعي السياسات في جنوب آسيا أن الهند سوف تتحول من الصديق المؤيد للصين إلي المنافس اللدود ويعللون ذلك بتطلعات النخبة الهندية – خاصة البراهمينيين نحو السيطرة والهيمنة العالمية الأمر الذي ظهر جليا منذ تسلم حزب بهارتيا جاناتا السلطة الهندية في عام ١٩٩٨م وإصراره منذ ذلك الحين علي لعب دور القوة الكبرى في المنطقة فمنذ ذلك الوقت عملت الهند علي توسيع العمق البحري والاستراتيجي الهندى من أندومان إلي جزر نيوكوبار وتدشين قواعد هندية في فيتنام وطاجكستان وتوسيع الاتصالات الدفاعية والامنية الهندية لكي تشمل إيران واليابان وكوريا الجنوبية وتعميق الدبلوماسية الدفاعية الهندية في مختلف ربوع آسيا كما إنخرطت الحكومة الهندية في مشاريع الطرق الكبرى بالقارة الاسيوية مثل مشروع الطريق السريع بين الهند وتايلاند وميانمار وعلى أجراء إختبارات نووية في عام ١٩٩٨م وهو ما أثار غضب الصينيين .

ومن ثم يجوز القول أنه إذا أبقت الهند علي ذلك التقدم المطرد في تدفقاتها الاستثمارية وتوازناتها التجارية وإنفاقاتها الدفاعية وتطوير القوي العسكرية والصاروخية وبناء قواعد عسكرية في الخارج وسعيها الدءوب للحصول علي

مقعد دائم في مجلس الأمن فأنها ستكون حتما في مواجهة تحد عنيف وضروس من قبل القوي الاقليمية الأخرى خاصة الصين علي إمتداد السنوات القادمة .

مستقبل العلاقات الهندية – الصينية :

يمكن القول أن الصراع بين البلدين لا يرتكز في حقيقة الأمر علي تهديدات حقيقية متبادلة بقدر ما يمثل صراعا علي النفوذ الإقليمي فضلا عن أن كليهما يرغب في علاقات سلمية مع جيرانها لحاجتها إلي تركيز الانتباه علي الأمور الداخلية وفي مقدمتها مضوع التنمية فالصين يمكنها أن تكسب الكثير من تقاربها مع الهند لاسيما الاستفادة من خبرة الهند في مجال أنظمة المعلومات التي قطعت فيها الهند شوطا كبيرا الاهم من ذلك أن التقارب الصيني – الهندي يمكنه أن يبعد الهند عن الولايات المتحدة الأمر الذي يمكن أن يساعد الصين علي أن تصبح ندا للولايات المتحدة في غضون ربع القرن القادم كما يمكنه أن يبعد الصين عن مساندة باكستان في مواجهة الهند بصدد قضية كشمير .

وفي هذا الاطار ثمة مدرستان متمايزتان في الرؤية المتسقبلية لهذه العلاقات المدرسة الأولي ترجح إتجاه الدوليتين إلي مزيد من علاقات التعاون بما يخلق مستقبلا بما يعرف بـ التبطيع الصيني – الهندي أما المدرسة الثانية فتري أنه رغم هذه العلاقات التعاونية فان الاتجاه الغالب سيكون هو إستمرار حالة العداء الازلية التي رافقت الدوليتن لأمد طويل .

وعن تفسير التعاون والتقارب بين الهند والصين في السنوات الأخيرة من القرن الماضي يري أنصار المدرسة الأولي أن التجارة والاتقصاد وليس سواهما هما ما يقربان العملاقين الاسيويين لبعضهما بعضا ويساعدهما في

التغلب علي حواجز الخوف والهواجس من أجل نظام اقتصادي دولي أكثر عدلا ومساواة فالعملاقان يعانيان مما أفرزته العولمة من تحديات إقتصادية وتجارية ومن الطموحات الأمريكية والاوروبية التي تريد رسم العالم من خلال رؤيتها الخاصة لقد أدرك العملاقان أن إستسلامهما لمشاحناتهما الثنائية سيوقعهما في النهاية تحت سياط القوي العظمي وأكبر دليل علي هذا التوجه ما فعلته الهند والبرازيل والصين في أثناء محدثات التجارة العالمية في كانكون من إستفزازات وإحباط للولايات المتحدة والكتلة الغربية بأكملها .

علي النقيض من ذلك تري المدرسة الثناية أن القوي الكبرى بطبيعة تكوينها تكون أكثر إستعدادا للهوجوم والتصادم وتنزع إلي القوة والي بسط هيمنتها الاقليمية عبر الأراضي والبحار وهذا ما ينطبق بالضبط علي الصين والهند فهما عملاقان أخذان في بسط هيمنتهما الاقليمية في آسيا ومشابهان في تعداد السكان ومختلفان في الرؤي والأفكار وهو ما يبشر بتوجه تلك العلاقة التي بينهما إلي حلبة التنافس لا إلي آفاق التعاون .

وتري هذه المدرسة أنه رغم مظاهر التقارب التي حدثت بن العملاقين في العامين الاخيرين فان نقاط الاختلاف قد فاقت نقاط الائتلاف علي جميع المستويات الاقليمية والثنائية فعلي المستوي الدولي علي سبيل المثال تعارض الصين بشدة الاحادية الأمريكية وتـحـلاتها الوقائية بينما توافق الهند علي تلك العقيدة الوقائية وعلى المستوي الثنائي لا يزال العلاقان يتنازعان علي الحدود فيما بينهما فضلا عن خلافاتهما حول السياسة النووية فقد قامت الهند بتاييد المبادرة الامريكية للدفاع الصاروخي الوطني بينما قامت الصين بالاعتراض عليها بشدة .

وما يثير مخاوف الصين أيضا هو الطموحات الهندية الاقليمية في ظل ذلك المناخ التجاري المنعش بالمنقطة لاسيما أن الهند قد شرعت في توقيع العديد من إتفاقيات التجارة الحرة مع دول اسيوية مختلفة إمتدت من وسط إلي جنوب آسيا ثم شرقها وهي متفوقة علي الصين بجدارة في مجالي التكنولوجيا المعالوماتية وتصنيع الأدوية (توجد ١٥ شركة هندية لتكنولوجيا المعلومات في الصين) .

التنافس الصيني – الامريكى على الهند :

تبدي الولايات المتحدة اهتماما بالصين بوصفها ركيزة أساسية في الرؤية الأمريكية للحافظ علي الأمن والسلام في أسيا جنبا إلي جنب مع اليابان كما أصبحت الهند خلال العقد والنصف عقد الماضيين عنصرا رئيسيا في هذه الرؤية وهو الأمر الذي يفسر تطور العلاقات الأمنية بين الجانبين وتصديق الولايات المتحدة علي مساعدة الهند لتصبح قوة كبري .

وبالتالي فان علاقة هندية – صينية منسجمة تلقي ترحيبا امريكيا لأنها ستحفظ السلام والنمو الاقتصادي في المنطقة وهناك توافق كبير داخل الولايات المتحدة حول تفضيل خيار المشاركة بدلا من المواجهة مع كل المشاركين في حالة توازن القوي الاخذة في الظهور .

وتبدو الرؤية الامريكية لمستقبل آسيا مناسبة للهند أكثر منها للصين حيث تفترض دورا أمريكيًا محاورياً في آسيا لأجل غير مسمي .

وعلى الرغم من ذلك فان السياسة الأمريكية لا تري في الهند مجرد موازن للصين ولكن تري فيها لاعبا رئيسيا مع الولايات المتحدة وآخرين في ظل شبكة معقدة من القوي الاسيوية والعلاقات التجارية وسوف تكون المصالح

الأمنية المتشابهة للولايات المتحدة والهند في آسيا أحد أسس الشراكة المستقبلية بين الولايات المتحدة والهند وستحتاج السياسات الأمريكية في القارة الاسيوية إلي أن تعكس الفروق الدقيقة في العلاقات الصينية – الهندية وكيفية توظيفها في خدمة الأهداف الأمريكية في المنطقة .

تقول التقارير والدراسات الجارية حول الصين أن البيئة الاستراتيجية للصين تعرضت لتغيرات هائلة منذ أواخر السبعينات نتيجة التفاعل بين أطراف ومعطيات متعددة ومعقدة وفي هذا الاطار فكما أن الولايات المتحدة تشكل تهديدا محتملا للصين فأنها أيضا سوق أساسية للصادرات الصينية واليابان قوة اقتصادية وأكثر إستقلالية وأقل إرتباطا بالولايات المتحدة ولها صلات تجارية وإستثمارية مع الصين والهند تحقق نهضة عسكرية واقتصادية والدول الاسيوية وبخاصة في جنوب شرق وشرق القارة تبين أسواقاً واعدة .

وستظل الولايات المتحدة تمارس تاثيرا حاسما في البيئة الأمنية المتسقبلية للصين وتتطلب المصالح الامريكية أن تكون الصين ضعيفة نسبيا ، ومنقسمة علي نفسها ومن وجهة النظر الصينية يقول واضعوا السياسة العامة في الصين أن واشنطن ستبذل قصاري جهدها لمنع ظهور بكين قوة إقتصاندية وعسكرية كبري ولكن الصين في الوقت نفسه ، تنظر إلي الولايات المتحدة كدولة لا غني عنها لتطوير الصين وكسوق تجارية كبري لها وكمصدر مهم للتقنية والمعرفة وكصرح علمي لتخريج الالاف من المهندسين والعلماء والصينيين .

هل يمكن أن تصبح الهند والصين حليفتين في المستقبل ؟

يري الباحثون أنه من المتوقع أن تصير توجسات الصين الأمنية والعسكرية تجاه الهند هي المحدد الأساسي لسياسية الدولة الصينية تجاه منطقة

جنوب آسيا فالمشاحنات الصينية – الهندية في جنوبي آسيا وفي شمالي المحيط الهندي ليست بامر مستبعد بل من المتفرض أن تصبح في المستقبل القريب ظاهرة مهيمنة علي القارة الأسيوية أما المحدد الآخر للسياسة الصنية تجاه منطقة جنوب آسيا فهو يتمثل في النزاعات الصينية – الهندية حول الحدود وبالتحديد فيما يخص إقليم التبت الذي هو بمثابة الملعب الاستراتيجى الذي لن تستطيع الصين الاستغناء عنه أبدا .

ومن منظور الدوائر الصينية فان الهند هي الوحيدة التي لدبها الامكانية والرغبة لكي تقف في مواجهة حقيقة مع الصين إلا أنه كما تشكل الطموحات الهندية الجارفة خطرا علي الصين فان الأخيرة أيضا تشكل خطرا مماثلا علي الهند وهو الذي يتمثل في ذهاب نحو ٩٠% من مبيعات الاسلحة الصينية إلى الدول التي تقع علي حدود الهند والتي كانت دوما تكره تطلعات الهيمنة الهندية في المنطقة ومن ثم كان لجوؤها إلي تدشين علاقات أمنية مع قوي إقليمية أخرى مثل الصين أو مع قوي غير إقليمية مثل الولايات المتحدة علي أن يكون الهدف من وراء ذلك هو إحداث توازن مضاد مع الهند .

وقد أدي ذلك إلي بزوغ تحالف صيني مع جيران الهند الصغار الأمر الذي جعل الصين تتبوا مكانة في بالغ الأهمية لدي هؤلاء الصغار وفي منطقة جنوب آسيا ككل اضحت الصين تمثل عنصر الاستقرار لديهم وكذلك عنصر القوه التي تمكنهم من اتخاذ قرارات وسياسات مستقلة عن الدولة الهندية هذا فضلا عن الدور الاقتصادي المهم الذي تلعبه الصين في المنطقة في كل من باكستان وبنجلاديش ونيبال وسيريلانكا حيث تعتبر الداعم الاقتصادي لتلك الدول خاصة باكستان التي تتمتع مقارنة بجميع دول المنطقة بعلاقة وطيدة جدا

مع الصين وهكذا نري كيف تستخدم الصين الاقتصاد في فرض الضغوط علي الهند .

يضاف لذلك أن الاتفاقيات التي تمت بين الطرفين حول حفظ السلام والهدوء في عامي ١٩٩٣ و ١٩٩٦ لا تسهم في حل النزاع الحدودي فالهند تري أن حل هذا النزاع سوف يمهد الطريق إلي نشر الجيش الهندي علي حدودها مع باكستان وهو ما تعترض عليه الصين لان مثل هذا الاجراء سيكون علي حساب باكستان الصديق التاريخي للصين إضافة إلي كونه سيحبط الاستراتيجيةالصينية القديمة التي كانت دوما تحرص علي وضع الهند تحت ضغط إستراتيتنجي من الجهبهتين الباكستانية والصينية وكانت النتيجة هي بقاء الحدود الصينية – الهندية – وهي اطول حدود في العالم بين دولتين حيث تبلغ ٤٠٠٤ كيلو متر – الحدود الوحيدة التي لم توضح بعد رغم أن الصين قد إستطاعت التفاوض بشان حدودها مع كل من روسيا واسيا الوسطي وفيتنام في اواخر التسعينيات .

لم تقم الصين منذ عام ١٩٦٣ بالدخول فقط في تحالفات سياسية وعسكرية مع باكتسان لاحتوءا الخطر المشترك المتمثل في الهند بل توغلت أيضا في منطقة جنوب آسيا كساحة أكثر ملاءمة وسهولة لبسط النفوذ ففي مطقة شرق آسيا تقف القوي الثلاث (روسيا اليابان والولايات المتحدة) متحدية للصين وفي منطقة غرب آسيا تقف معظم الدول الإسلامية التي لا تتمتع بعلاقات وطيدة مع الصين أما منطقة جنوب آسيا فهي الساحة الايسر إختراقا من قبل الصين فهي لا تحتوي إلا علي عدو واحد وهو الهند ومن ثم كان تدخل الصين التدريجي في المنطقة منذ النصف الثاني من القرن العشرين الأمر الذي أتي علي حساب الهند التي تري أن الصين تشكل خطرا عليها أكثر من الخطر الذي

تشكله باكستان وقد أعرب رئيس الدفاع الهندي جورج فيرنانديس عن ذلك قبل شروع الهند في إختباراتها النووية عام ١٩٩٨م عندما وصف الصين بانها تمثل تهديدا بأكبر من باكستان لأنها صارت محاصرة من قبل الانشطة العسكرية الصينية .

وثمة محور آخر للتنافس يتمثل في السعي إلي السيطرة علي الطرق البحرية فقد سعت الصين إلي حماية طرقها التجارية ووارداتها النفطية عبر المحيط الهندي الأمر الذي إستفز الهند التي وسعت دوما – ولا تزال تسعي – إلي الهيمنة علي المحيط الهندي كما يري المحللون والمراقبون الصينيون بل أن الهند أتجهت نحو تحدي تلك الهيمنة البحرية الصينية في المنطقة من خلال سياسة انظر إلي الشرق " التي تتلخص في تعميق التعاون العسكري والاقتصادي بين الهند ودول شرق وجنوب شرق آسيا بهدف التأثير في النفوذ الصيني ومن ثم شهدنا التدريبات البحرية المشتركة بين الهند وفيتنام وجنوب كوريا وماليزيا واليابان.

علي أي حال ورغم أن كلتا المدرستين لديها من الأدلة ما يثبت وجهة نظرها فانه يمكن القول أن العلاقة الصينية – الهندية هي مزيد من التنافس والتعاون فكما يتصارع العملاقان من أجل النفوذ والقوة في آسيا فهما يشتركان أيضا في مصالح عدة تمتد من حفظ الاستقرار الإقليمي وإستغلال الفرص الاقتصادية إلي إكتشاف الاسواق الجديدة وضمان الحصول علي مصادر الطاقة وتحسين التجارة الاقليمية ومن ثم فإنه علي الاصعدة الاقتصادية والثقافية والتجارية البينية يمكن للعملاقين أن يتقاربا ويتعاونا أكثر من أن يتصادما ويتعاركا حيث لم يتردد العملاقان الآسيويان في أن يستفيدا كل الاستفادة من

تلك التجمعات الاقتصادية الاقليمية التي نشات في العقد الماضي لكي تخفف قليلا من الآثار الشرسة للعولمة الاقتصادية .

إنه لا يمكن للعملاقين أن ينعما بالاستقرار في المنطقة إلا إذا أتخذا مواقف أكثر إتزانا فالصين مثلا ملزمة بأن تكون أكثر إتزانا في توجهها نحنو منطقة جنوب آسيا لتقي المنطقة من إندلاع سباق نووي هندي – باكستاني طويل الامد كما أن الصين تدرك أن تحالفها مع باسكتان يوفر لها الوصول الأمن إلي القواعد البحرية في كاراتشي واونرمارا وجوادار القريبة لمدخل الخليج الفارسي ووسط آسيا نظرا لان موقع باكتسان الجغرافي يطل علي مداخل ثلاثة (جنوب وغرب ووسط آسيا) وتري الصين أن باكستان هي الاقدر علي منع إستفحال الهيمنة الهندية في جنوبي آسيا ومن ثم فأنها تضخ معوناتها الاقتصادية الضخمة في قلب باكستان .

وقد قابلت الهند ذلك بتدشين تجمعات إقتصادية إقليمية جديدة مثل SAFTA وBIMSTEC وعزلت عنها باكستان عمدا لمحاولة شل الاقتصاد الباكستاني إلا أنها تسعي في الوقت ذاته إلي الاستفادة من الوضع الجيو – إستراتيجى للتميز الذي تتمتع به باكستان فموقعها الجغرافي يمكن أن يسهم في ربط الهند باسواق الطاقة وسط وغرب آسيا والخليج فالهند التي ترغب في دور إقتصادي أكبر بالمنطقة ستفعل كل ما في وسعها للحصول علي أكبر إستفادة إقتصادية من باكستان وهو ما سيتطلب من الهند تهدئة وتيرة الصراع إلي أقصي درجة ممكنة بمعني آخر إذا أرادت الهند أن تصير قوة عظمي في يوم من الايام فعليها التطبيع مع الصين وباكستان وقد تجلت بوادر هذا الاتطبيع في يناير ٢٠٠٤م حينما أدي فاجبايي بكلمته الشهيرة قائلا يجب علي الهند ألا تبقي حبيسة للماضي نحن حاربنا طويلا وإكتفينا نحن لن نستطيع اضاعة أموالنا علي

الحروب من الذي سيستفيد من هذا الصراع وتجلت أكثر حينما بادر وزير الخارجية الباكستاني خورشيد قاصوري بعد حديث فاجبايي مباشرة باعلانه عن عدم لجوء بلاده إلي أي منتديات دولية لحل النزاع مع الهند وإنما لجوؤها إلي الهند مباشر لتتم تسوية النزاع في ظل المحادثات الثنائيه.

العلاقات الصينية اليابانية :

الصين واليابان دولتان متجاورتان ومنذ تطبيع العلاقات بينهما في عام ١٩٧٢ تطورت العلاقات الثنائية بينهما تطورا كبيرا ولاسيما في المجالات الاقتصادية والتجارية وفي السنوات الأخيرة واجهت تلك العلاقات صعوبات متزايدة بسبب الطرف الياباني فعلي الرغم من النداءات المشروعة لشعوب البلدان التي راحت ضحية للحرب العدوانية التي شنتها اليابان فان رئيس الوزراء الياباني كويزومي أصر عدة مرات علي زيارة معبد يازوكوني تكريما لمجرمي الحرب اليابانيين الذي أرتكبوا جرائم غير إنسانية بحق الصين وجيرانها الاسيويين خلال الحرب العالمية الثاية الجانب الصيني يعارض بحدة مظاهر التكريم تلك من قبل الزعماء اليابانيين فالاعتراف بتلك المرحلة من التاريخ ومعالجتها معالجة صحيحة هما أساس تحسن العلاقات الصينية ـ اليابانية ، ويشكلان أيضا شرطا أساسيا لكي تكتسب اليابان بالغ ثقة البلدان الاسيوية والمجتمع الدولي وتبقي الرغبة الصينية في أن يحترم الزعماء اليابينون التزاماتهم والاعتذار عن العدوان المرتكب والا يقدموا علي ما من شانه جرح مشاعر شعوب البلدان الضحية ويعتقد الباحثون أن المشكلة التاريخية تظل عقبة في وجه تطور العلاقات بين البلدين وإن لم تراعى الحكومة اليابينة تماما مشاعر الشعب الصيني فإن العلاقات بين البلدين ستزداد سوءا ومن ناحية أخرى عززت الحكومية اليابانية علاقات التعاون العسكري مع الولايات المتحدة

كما طورت علاقاتها الجوهرية بالسلطات التايوانية ولم تكف عن تكثيف بناء قواتها المسلحة الأمر الذي أثار أيضا سخط الشعب الصيني وقلق السلطات الصينية من المؤكد أن العلاقات الصينية – اليابانية سوف تشهد نموا تدريجيا علي مدي العشرين سنة المقبلة لكن نظرا لوجود بعض الأمور غير الواضحة سوف تشهد هذه العلاقات فترات من عدم الاستقرار وهو ما سيشكل تحديا مهما سوءا للصين أو لليابان .

محاور العلاقات الصينية – اليابانية :

المحور التاريخي :

من المعروف أن اليابان كانت قوة استعمارية إحتلت مناطق واسعة من دول شرق آسيا وأرتكبت العديد من المجازر بحق أهل تلك المناطق خاصة إبان الحرب العالمية الثانية وهو الأمر الذي لا يزال يشكل عقدة لدي حكومات وشعوب تلك الدول خاصة الصين والكوريتين لاسيما أن تلك الدول اعتبرت أن حكومة كويزوميم السابقة التي كان توصف بأنها قومية متشددة حيث داب رئيس وزرائها علي زيارة معبد يازوكوني كتمجيد لضحايا الحرب العالمية الثانية بمن فيهم الذين أدينوا باعمالهمن الاجرامية في المناطق التي إستعمروها مستفزة واحد مصادر التوتر وفي هذا الاطار صدر في اليابان سلسلة من كتب التاريخ للمراحل الاعدادية الأمر الذي كان بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير فى العلاقات الصينية اليابانية حيث أثارت غضب الشارع الصيني ومعه الكوري أيضا وصفت كتب التاريخ هذه المدابح التي أرتكبها اليابينون في التفترة المتحدة بين ديسمير ١٩٣٧ ومارس ١٩٣٨ والتي أدت إلي مقتل ما بين ٣ آلاف و ٥ آلاف صيني – بأنه مجرد حدث وان الاستعمار الياباني لشبه الجزيرة الكروي

قد ساهم في تحديثها وقد أثار سخط الكوريتين حيث طالبتا اليابان بعدم طمس الحقائق التاريخية والاعتراف بما سببته من أسي لشعوب تلك المنطقة وتقديم الاعتذار التعويضي لهم كما أحتجت الصين لدي حكومة اليابان علي هذا الأمر أيضا .

المحور الجغرافي :

لاشك في أن اليابان تعتبر عملاقا إقتصاديا علي الصعيد الدولي لكن بغض النظر عن وجهة النظر التي تستبعد أن تتحول اليابان إلي قطب كبير يقود العالم لاسباب عديدة فان هناك حقيقة مفادها أن أي عملاق إقتصادي لابد أن يضعف ويتراجع إذا ظل محصورا في إطار ضيق وبالتالي فهو يحتاج إلي توسع دائرة قوته البشرية وموارده الطبيعية وهذا يستلزم توسعا جغرافيا خارج إطار حدود الدولة المعروفة ليتناسب كل ذلك مع حجمها الاقتصادي ويبدو أن اليابان تدرك واقعها في هذا المجال وهي من هذا الباب لها العديد من الخلافات الحدودية مع جيرانها الصين وكوريا الجنوبية وقد أثار غضب الصين قيام اليابان بمنح شركاتها النفطية الحق في التنقيب عن النفط والغاز المحتملين فيما يسمي " خط الترسيم " في بحر الصين الشرقي وقال المتحدث باسم وزارة الخارجية الصينية في ١٣ أبريل ٢٠٠٥م إن هذا " عمل إستفزازي خطير ضد حقوق الصين وقاعدة العلاقات الدولية واننا سنتمسك بحق إتخاذ المزيد من رد الفعل إن اليابان بفرض خط الترسيم الذي عينته من جانب واحد علي الصين له تداعيات خطيرة ولن نعترف به أبداً وتضامن كوريا الجنوبية مع الصين في هذا الصدد حيث إنتقد رئيس وزراء كوريا الجنوبية في اليوم نفسه اليابان لادعائها بامتلاك أراض بوصفه تشويها للتاريخ اضاف : " لن نتسامح أبداً بشان أي إدعاء ياباني بامتلاك أراض تابعة لكوريا الجنوبية في إشارة إلي جزر دوكو التي تبعد نحو

٨٩ كم جنوب شرق جزيرة اوليونج بكوريا الجنوبية و ٧٠ كم شمال غرب جزيرة ازكي اليابانية .

المحور السياسي :

علي عكس ما حدث في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية حيث تمت تسوية النزاعات التاريخية بين القوي العظمي خاصة بين فرنسا وألمانيا – إذ إعتذرت هذه الأخيرة رسميا عن إعتداانتها العسكرية وجرائم الحرب التي أرتكبتها بحق الامم والشعوب الاوربية فان مصالحة وتسويات كهذه لم تحدث في القارة الآسيوية فيما بعد الحرب وفي وقت يتراجع فيه النفوذ العسكري الأمريكي في المنطقة فانه لم تتوافر بعد بنية تحتية أمنية اقليمية متعارف عليها ويمكن لدول المنطقة الانتماء إليها والتعاون الإقليمي في إطارها ويكمن الخوف من أن إستمرار النزاعات الاقليمية دون حل قد يؤدي إلي تصاعد سباق التسلح البحري بين دول المنطقة وليس في سباق تسلح خطير من هذا النوع ما يحمل مؤشرات سلام وإستقرار أمني لمنطقة يهددها إستمرار النزاعات الخيطرة العالقة لاسيما في شبه الجزيرة الكورية ورغم الأهمية الاستراتيجية الكبيرة للمنطقة بالنسبة للمصالح الأمريكية فهناك الآن بين ساسة واشنطن من بدأ يعيد النظر في إستمرار الالتزامات الأمنية الأمريكية إزاء منطقة جنوب شرق آسيا وفيما إذا كان قد حان وقت الانسحاب العسكري الأمريكي منها أم لا خاصة مع إستنزاف قدرات الجيش الأمريكي في عدة حروب وجبهات قتالية متفرقة في مختلف دول العالم ومناطقه .

في هذا الإطار هناك مخاوف صينية من أن تكون تصرفات اليابان مدفوعة في الاوانة الأخيرة من الولايات المتحدة لاسيما وان الولايات المتحدة تسعي لتجنب المواجهة المباشرة مع الصين لأنها ستكون مدمرة وتزداد هذه الشكوى

بتزامن هذا التوتر في العلاقات اليابانية الصينية مع إتهام الولايات المتحدة للصين بالاصرار علي خفض قيمة عملتها الوطنية ورفض تعويمها مما يستهدف إضعفا الدولار الأمريكي كما أن التوتر تزامن مع الضغط الأمريكي واليابان علي أوروبا لعدم رفع حظر تصدير السلاح إلي الصين وهناك أوساط صينية تعتبر أن الولايات المتحدة تدفع اليابان لمضايقة الصين في عدد من القضايا لمحاصرتها لعل ذلك يؤخر من تقدمها ويعرقل نموها ويحفظ للولايات المتحدة وحليفها الاستراتيجي اليابان التفوق والنفوذ وهذا ما يمكن إستنتاجه من الموضوعات الخلافية السياسية القوية مع الصين والتي تدور حول الموقف الياباني من تايوان والحصول علي مقعد دائم في مجلس الأمن والعلاقات الأمريكية – اليابانية القوية علي حساب منطقة شرق آسيا .

فاليابان تدعم إستقلال تايوان بشدة وتكاد تكون من أكثر الدول فعالية في هذا المجال ولا يمكن فهم الموقف الياباني من تايوان إلا في إطار العلاقة مع الولايات المتحدة والهدف من ذلك إضعاف الصين وتطويقها هذا فيما يتعارض مطلب حصول اليابان علي معقد دائم في مجلس الأمن مع الصين علي إعتبار أن الأخيرة تعتبر أن اليابان ستكون سلاحا أمركيا ضد الصين خاصة أثر المساعي الأمريكية الحثيثة لاقناع اليابانيين بتعديل دستورهم مما يمكنهم من عودة التصنيع العسكري وإستحداث وزارة الدفاع غير الموجودة أصلا في اليابان حكم الدستور والحق في إستخدام القوة والانتشار في الخارج وبالتالي دفع اليابان لان تكون قوة نووية لان جميع أعضاء مجلس الأمن الدائمين يحتكرون القوة النووية بالإضافة إلى باكستان والهند وإسترائيل في وجه الصين لاستنزافها في سباق تسلح تكون الولايات المتحدة الرابح الأساسي من ورائه .

وفي هذا الاطار إعتبرت صحيفة الشعب اليومية الصينية في ١٤ أبريل ٢٠٠٥م أن هناك دولا أحق من اليابان لتكون عضوا دائما في مجلس الأمن وأنه علي اليابان أن تحل مسالة قديمة جديدة قبل النظر في مقعدها في مجلس الأمن وهي : " أتود اليابان تكون دولة في الغرب أو في آسيا ؟ في اشارة إلي التحالف الأمريكي – اليابانى القوي علي حساب دول المنطقة .

المحور الثابت . . الاقتصاد :

في ظل هذه المحاور المتغيرة والمتوترة كان هناك دائما محور ثابت لا بل متطور إيجابيا في العلاقة بين البلدين ألا وهو المحور الاقتصادي .

تشير التقارير الدولية إلي أن قيمة التجارة الثنائية بين البلدين قد بلغت في النصف الأول من العام الماضى ٢٠١١م تريليون ين (١٤٦.٨٥ مليار دولار بزيادة قدرها ٣٥.٥% عما كانت عليه في الفترة نفسها من العام الماضي ٢٠١٠.

وفي عام ٢٠٠٩م شكلت الصين الوجهة الأولي للصادرات اليابانية بواقع ١٨.٨٨% من إجمالي هذه الصادرات تلتها الولايات المتحدة بواقع ١٦.٤٢% ثم كوريا الجنوبية ٨٧.١٣% وتايوان ٦.٢٧% وهونج كونج ٥.٤٩%.

كذلك إحتلت الصين المركز الأول في قائمة الموردين التجاريين لليابان في العام نفسه بواقع ٢٢.٢% تلتها الولايات المتحدة بواقع ١٠.٩٦% ثم استراليا ٦.٢٩% والمملكة العربية السعودية بواقع ٥.٢١% ودولة الامارات العربية المتحدة ٤.١٢% وكوريا الجنوبية ٣.٩٨% .

وعلى الرغم من أن العالم الاقتصادي تتفوق فيه اليابان إلي الآن مقارنة بالشق العسكري أو السياسي أو الديموجرافي للصين فان هناك توقعات من قبل مجلس الاستخبارات القومى الامريكي بأن يتساوى الناتج المحلي الصيني مع بريطانيا والمانيا واليابان في الاعوام القليلة القادمة بمعني أنه حتى فيما يتعلق بالعالم الاقتصادي فان كفته ستميل في المستقبل إلي الصين ولذلك فمن مصلحة اليابان تطوير العلاقات الاقتصادية مع الصين إذ علي الرغم من أن حجم التجارة بين البلدين بلغ ١٨ مليار دولار فلأن الصين تراجعت من حيث كونها الشريك التجاري الأول للصين إلي المرتبة الثالثة بعد الاتحاد الاوروبي والولايات المتحدة الأمريكية ولذلك فاليابان أولت التوتر في العلاقة بين البلدين أهمية بالغة خاصة بعد أن هدد الصينيون بمقاطعة البضائع اليابانية وحاولوا الضغط علي الصين عندما قالوا أنها هي الخاسرة مع العلم بأن اليابان يتضرر كثيرا في حال إذا ما تم ذلك وقد حاولت اللعب علي أوتار المساعدات والتهديد بقطعها أو تخفضها إنطلاقا من أن الصين هي أكبر ثاني دولة مستقبل للمنح اليابانية في العالم بعد أندونيسيا .

فعلي سبيل المثال حصلت بكين علي ٦٨٦ مليون دولار كمساعدات إنمائية من طوكيو في عام ٢٠٠٤م أما الاستثمارات اليابانية المباشره في الصين فقد وصلت إلي مستوي غير مسبوق في عام ٢٠٠٢م عندما وصلت إلي ٢.٦ مليار دولار ولذلك يؤكد العديد من المراقبين السياسيين أن التوتر السياسي المتزايد يثير قلقا وعدم إرتياح في العديد من دوائر رجال الأعمال اليابانية نظرا لان هذا التوتر ينعكس بدوره علي فرص نمو الشركات اليابانية العاملة في السوق الصينية ولكن في الوقت نفسه يبدو أن العامل الاقتصادي هو الذي سيجمع الطرفين من جديد ويبدد التوتر في العلاقات الثنائية أو يؤخر حسمها علي الأقل .

إلي أين تتجه العلاقات اليانية الصينية ؟

في السابع من سبتمبر عام ٢٠١٠م اصدم قارب صيد صيني بقاربين لقوات خفر السواحل اليابانية في مياه بحر الصين الشرقي من قرب جزيرة سيناكو كما تسميها اليابان أو دياويو كما تسميها الصين غير الماهولة بالسكان وتصاعدت الازمة الدبلوماسية بين البلدين عندما إعتقلت السلطات اليابانية قبطان القارب الصيني وعلي الفور أدي ذلك الاجراء إلي أثارة مظاهرات إحتجاجية معادية لليابان في مختلف الميداين والمحافظات الصينية بينما هددت بكين بإتخاذ إجراءات عقابية تجارية ضد طوكيو ورغم إطلاق الأخيرة للقبطان الصيني المعتقل في نهاية الأمر فأنها أمتنعت عن الاعتذار رسيما عن إعتقاله لسلطات بكين وتعد الازمة الحالية الاسوا في الموقف بين العملاقين الاسيويين منذ بدء العلاقات الدبلوماسية بينهما في عام ١٩٧٢م.

لقد صرحت جيانج يو المتحدثة باسم الخارجية الصينية بأن النزاعات علي السيادة علي أراض تمثل حساسية بالغة إذا تم التعامل معها بشكل غير ملائم فيمكن أن تضرب بالعلاقات الصينية – اليابانية الأوسع نطاق .

كما قالت أن جزر دياويو هي أرض لا يمكن فصلها عن الصين وتطبيق الجانب الياباني للقانون المحلي علي قوارب الصيد الصينية التي تعمل في هذه المنطقة سخيف وغير مشروع وغير سليم ولن تقبل الصين ذلك أبداً وتابعت نتمني أن يدرك الجانب الياباني مدي خطورة الوضع وجديته .

وقد إستدعت هذه الاحداث الخلفية التاريخية المتوترة بين البلدين وتداعيات الاحتلال الياباني لمعظم اراضي الصين قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها

وحذرت وسائل اعلام صينية من أن هذا الاعتقال اليابانى للربان الصيني سسيثير غضب الرأي العام .

مظاهرات معادية :

وقع تظاهر بالفعل أكثر من مائة صيني قرب السفارة اليابانية في بكين مرددين هتافات تسقط اليابان وتذكروا ١٨ سبتمتبر أي ذكري بدء الاجتياح اليابانى لمنشوريا في ١٩٣١ هذا وكانت السلطات الصينية قد إستدعت خمس مرات وبدون جدوي سفير اليابان في بكين للمطالبة باطلاق سراح قبطان المركب بينما دعا كبير المتحدثين باسم الحكومة اليابانية إلي التحلي بالهدوء .

وقال " هوانج دا هوي " وهو خبير في شئون العلاقات الصينية – اليابانية بـ " جماعة رنمين " في بكين – " من الممكن أن تتسبب هذه القضية بسهولة في تصاعد التوترات وتشعل الرأي العام الصيني واضاف سيشعر الجمهور الصيني بأن من الخطأ تقديم أي تنازلات وكذلك الرأي العام الياباني وربما يؤدي هذا إلي تكون نقطة إحتكاك صعبة .

تحت سطح هذه الازمة تكمن عدة عوامل تساعد علي تفسير هذاالغضب المتبادل أولها : تركة عقد الثلاثينيات والحرب العالمية الثانية التاريخية التي ترتبت علي غزو اليابان لمنشوريا في عام ١٩٣١ ثم الحرب اليابانية علي الصين عام ١٩٣٧م وكان الاحتلال الياباني للصين وحشيا خاصة الوقائع التي عرفت في تاريخ تلك الحرب - " اغتصاب نانجينج " والي اليوم لم تعتذر اليابان رسميا لجارتها الصين عن جرائم الحرب التي إرتكبتها بحقها وحق مواطنيها

تسبب إحداث هذه المرحلة التاريخية الكثير من التعقيدات في حاضر علاقات طوكيو بكل من الكوريتين ودول منطقة جنوب شرق آسيا بالإضافة إلى الصين .

ويتلخص العامل الثاني في أن لكل من الصين واليابان إدعاءات بشان تبعية مناطق ومياه إقليمية في بحر الصين الشرقي وبالنظر إلي تنامي حاجة كل من الدولتين للطاقة والوقود فإن لهذا العامل أهمية كبيرة حيث تسعي كل منهما لاجراء حفريات ومشاريع إنتاج للنفط والغاز الطبيعي في مناطق تدعي كل منهما تبعيتها لمياههما الاقليمية وبسبب تأثير مثل هذه العوامل فانه من السهل أن يخرج أبسط نزاع بين البلدين عن حدود السيطرة ما لم يتوافر حل دبلوماسي لترسيم الحدود الإقليمية في مناطق النزاع المذكورة .

وفي اطار هذا النتزاع فقد وقعت مواجهة بين متظاهرين صينيين وحرس خفر السواحل اليابانيين في سبتمتبر من عام ١٩٩٨ أنتهت بفرض قارب " باو دياو هو " الذي كا يقل المتظاهرين الصينيين وفي يونيو من عام ٢٠٠٣ حاولت مجموعات من الصين وهونج كونج الرسو بقارب صيد صغير في الجزيرة المتنازع عليها بيد أن تلك المحاولة لم تنجح إذ تمكنت قوات خفر السواحل اليابانية من توجيه القارب بعيدا عما تزعم اليابان أنها حدود إقليمية تابعة لها وفي الرابع والعشرين من مارس ٢٠٠٤ إعتقلت السلطات اليبانية سبعة من الناشطين الصينيين الذين تمكنوا من الرسو قاربهم في أراضي الجزيرة الرئيسية بين مجموعة جزر سيكاكو .

ترتبط التوترات المتصاعدة بين الصين واليابان أيضاً بمواصلة الاولي زيادة حجم وإنتشار إسلطولها البحري خاصة في مياه البحار الواقعة شرقي وجنوبي الصين ولا يقتصر القلق الذي تثيره هذه التحركات العسكرية البحرية الصينية علي السلطات اليابانية وحدها بل يطال القوات الدفاعية لدول عديدة

أخرى بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية وتايوان وكوريا وفيتنام وغيرها من الدول الإقليمية التي لها تاريخ طويل من النزاع العسكرية مع بكين .

ويري الباحثون أنه ليس هناك علي المستوي الدولي أو الإقليمي من يريد توترا في العلاقات اليابانية- الصينية أو من يرغب في تصعيد الموقف والاجماع علي ذلك ظاهر للعيان وذلك علي جميع الأطراف التعامل مع هذه الازمة بكثير من الصبر والحكمة لان تدهور الموقف حتى بالمعني السياسي والاعلامي لا يخدم أحد علي الاطلاق .

مستقبل العلاقات الصينية – اليابانية :

في مجال السياسة طرحت الصين ثلاثة مبادئ لاستئناف العلاقات الدبلوماسية مع اليابان في الثاني من أكتوبر عام ١٩٧١ وهي أن جمهورية الصين الشعبية هي الحكومة الشرعية الوحيدة التي تمثل الصين وأن تايوان جزء مقدس لا يتجزا من جمهورية الصين الشعبية وأن المعاهدة بين اليابان وحكومة جيانج كاي شيك غير شرعية وليست فعالة ومن الضروري الغاؤها وفي الـ ٢٥ من سبتمتبر عام ١٩٧٢م زار رئيس الوزراء الياباني " تاناكاكاكوي الصين وفي الـ ٢٩ من سبتمتبر ذلك العام أصدرت حكومتا الصين واليابان بيانا مشتركا أعلنتا فيه عودة العلاقات الصينية – اليابانية إلي طبيعتها .

ويحرص البلدان علي تطوير العلاقات وتحقيق التعاون الفعال في مختلف المجالات ودفع عجلة الانجازات الايجابية تعتبر كل من الصين واليابان إحدهما شريكا تجاريا مهمًا للاخر حيث أصبحت اليابان أكبر شريك تجارى للصين على

مدى ١٠ سنوات متتالية كما أصبحت الصين ثانية أكبر سوق للصادرات اليابانية .

وبعد توقيع اتفاقية التعاون التكنولوجي الصينية – اليابانية مايو عام ١٩٨٠م شهد التعاون التكنولوجي بين البلدين تطورا سريعا ومستمرا وفي ٦ من ديسمبر عام ١٩٧٩م وقعت الصين واليابان إتفاق التبادلات الثقافية الذي أكدت فيه أن البلدين سيجريان تبادلات في مجال الثقافة والتعليم والعلوم والرياضة وفي عام ٢٠٠٢م ، قررت حكومتا البلدين إقامة عام الثقافة الصينية وعام الثقافة اليابانية بإضافة إلي ذلك أقام الجانبان المخيم الصيفي للشباب والناشئين الصينيين واليابانيين والكوريين الجنوبيين ومسابقة المعارف التلفيزيونية الصينية واليابانية والكورية الجنوبية والمنتدي الاقتصادي الصيني - الياباني .

القضايا الحساسة :

القضية الأولي :

هي قضية معروفة التاريخ وهي قضية سياسية حساسة في العلاقات الصينية – اليابانية ومنذ عام ٢٠٠١ عدلت اليابان كتب التاريخ المدرسية حيث تجاهلت من وجهة نظر الصين وحرفت تاريخ غزو اليابان للصين كما كان للزيارات المتعددة لرئيس الوزراء الياباني الاسبق جونيتشيرو كويزومي إلي ضريح يازوكوني تاثيرات سلبية في العلاقات الصينية – اليابانية .

القضية الثانية :

هي قضية تايوان أن الموقف الصيني من العلاقات بين اليابان وتايوان واضح وهو أن الصين لا تعترض علي الاتصالات الشعبية بين البابان وتايوان لكنها تعراض بحزم آية إتصالات رسمية بأي شكل لخق صينيين أو صنين واحدة وتايون واحدة وتطالب الجانب الياباني بتعهد واضح بأن تايوان لا تنتمي إلي نطاق التعاون الامني الياباني – الأمريكي .

القضية الثالثة :

هي قضية جزر دياويو إن جزر دياويو جزر تتبع لجزيرة تياوان وتقع في بحر الصين الشرقي علي بعد ٩٢ ميلا بحريا شمال شرقي مدينة كيلونج بتايوان وتضم جزيرة دياويو وجزيرة هوانجوي وجزيرة تشيوي وغيرها من الجزر الصغيرة وظلت جزر دياويو جزءا من الأراضي الصينية منذ القدم هي جزء لا يتجزا من أراضي الصين مثل تايوان .

تستند السيادة الصينية علي هذه الجزر إلي أدلة تاريخية وقاونية عديدة فقد جاء في بيان القاهرة الذي أصدرته الصين والولايات المتحدة وبريطانيا في ديسمبر عام ١٩٤٣م أنه يجب علي اليابان أن تعيد إلي الصين الأراضي المحتلة ومن بينها شمال شرقي الصين وتايوان وجزر بنجهو وأقر بيان بوتسدام الذي صدر في عام ١٩٤٥م ضرورة تنفيذ بيان القاهرة وفي أغسطس عام ١٩٤٥م أعلنت اليابان قبولها لبيان توتسدام الاستلام بدون شرط الأمر الذي يعني إعادة اليابان جزيرة تايوان والجزيرة التابعة لها إلي الصين .

القضية الرابعة :

هي التعاون الامني الياباني – الامريكي حيث أصدرت اليابان والولايات المتحدة في عام ١٩٩٦م البيان المشترك للتعاون الامني ، وعدلتا بموجبه مبدأ التعاون الدفاعي الذي وضعتاه في عام ١٩٧٨من وفي سبتمبر عام ١٩٩٧م حددت اليابان والولايات المتحدة رسميا مبدأ التعاون الدفاعي الجديد وفي ٢٤ من مايو عام ٢٠٠٤م أجاز البرلمان اليابانى مشاريع القوانين المتلعقة بمبدأ التعاون الدفاعي الياباني – الأمريكي – الأمر الذي يدل علي تاسيس نظام جديد لتعزيز التعاون الامني بين اليابان والولايات المتحدة وتلي الصين إهتمامًا بالغا للقضايا المتلعقة بتايوان وإتجاه تطور القوة العسكرية اليابانية وقد عبرت الصين عن مواقفها المعنية عبر وسائل مختلفة حتى الآن .

القضية الخامسة :

هي قضية التعويضات عن خسائر الحرب كانت الحكومة اليابانية قد عبرت بوضوح خلال المفاوضات بشان تطبيع العلاقات الصينية – اليابانية عن أسفها وندمها العميق للاضرار الكبيرة الناجمة عن الحرب التي عانها الشعب الصيني وفي ظل هذه المقدمة تخلت الحكومة الصينية عن مطالبتها بالتعويضات عن خسائر الحرب من اليابان إنطلاقا من المصالح الوطنيه الأساسية وضمنت ذلك في البيان المشترك الصيني – الياباني الذي تم توقيعه في عام ١٩٧٢م وأكدت إتفاقية السلام والصداقة الصينية – اليابانية التي أجازها الاجتماع الثالث للدورة الخامسة للجنة الدائمة للمجلس الوطني لنواب الشعب الصيني في عام ١٩٧٨م قانونية قرار التخلي عن مطالبة اليابان بدفع تعويضات عن خسائر الحرب .

القضية السادسة :

هي قضية الاسلحة الكيمياوية التي تركتها اليابان في الصين وكانت اليابان قد إستخدمت الاسلحة الكيماوية في حرب غزو الصين مخالفة للاتفاقيات الدولية ودفنت وتركت القوات اليابانية عددا كبيرا من الاسلحة الكيماوية حينما أستسلمت اليابان وحتي الآن تم العثور علي أسلحة كيماوية تركتها اليابان في أكثر من ٣٠ مكانا ببضع عشرة مقاطعة صينية الأمر الذي يشكل تهديدا خطيرا لسلامة ارواح الشعب الصيني وأملاكه وكانت الحكومة الصنبية قد أحتجت رسميا علي الحومة اليابانية في أواخر الثمانينيات من القرن الماضى مطالبة الحكومة اليابانية بحل هذه القضية وفي ٣٠ من يوليو عام ١٩٩٩م وقعت حكومات الصين واليابان في بكين مذكرة حول تدمير الاسلحة الكيماوية التي تركتها اليابان داخل الصين وعبرت الحكومية اليابانية في المذكرة عن أنها ستهتدي بروح البيان المشترك الصيني – الياباني وإتفاقية السلام والصداقة الصينية – اليابانية وتدرك أن هذه القضة ملحة وتعهدت بتنفيذ واجبات تدمير هذه الأسلحة ضمن إفاقية حظر الأسلحة الكيماوية وتجري مشاورات حول تدمير هذه الأسلحة في أسرع وقت ممكمن وفقا لروح المذكرة .

عقد منتدي آسيا والمحيط الهادي علي خلفية تنافس بين الولايات المتحدة والصين في العاصمة اليابانية طوكيو :

عقدت قمة المنتدي الاقتصادى لآسيا والمحيط الهادي قرب العاصمة طوكيو حيث أفتتحها رئيس الورزءا الياباني ناوتو كان بحضور ممثلي واحد وعشرين إقتصادياً في آسيا والمحيط الهادي بينهم الرؤساء الأمريكي باراك اوباما والصيني هو جينتاو والروسي ديمنتر مدفيديف .

وأكد الرئيس الأمريكي حتى قبل إفتتاح القمة رغبته في مزيد من تجذير الحضور الامريكي في آسيا حيث أعرب عن دعمه لابرام إتفاق تبادل حر عبر المحيط الهادي .

وقال اوباما في خطاب أمام مجموعة من المستثمرين إن أمن الشعب الامريكي ورخاءه مرتبط بشكل وثيق بامن آسيا ورخائها .

وفي خطاب أمام المستثمرين ذاتهم رد الرئيس الصيني بشكل مباشر علي المطالبات الأمريكية بشأن رفع سعر صرف اليوان مقابل الدولار بأنه لا ينبغي مطالبة الدول الناشئة بأكثر من قدراتها حتى لا يؤدي ذلك إلي عرقلة نموها .

وقال " هو جينتاو " إن مطالبة الدول بأن تتحمل مسؤليات وواجبات تفوق قدراتها ومستوي نموها لن تفيذ بأي شئ التعاون الدولي والنمو العالمي " وتابع " هذا لن يؤدي إلا إلي الأضرار بالاسواق الناشئة في منطقة آسيا – المحيط الهادي .

وحمل رئيس صندوق النقد الدولي ، دومينيك ستروس الطرفين المسئولية وقال أن الصينيين يبذلون جهودا من خلال تحويل مركز دفع نموهم إلي نموذج إقل تركيزا علي التصدير ويركز أكثر علي الطلب الداخلى وهذا لن يتم في خمس دقائق لكن يتعين عليهم القيام بذلك بأسرع ما يمكن وأضاف : " من جهة أخرى يجب أن تبذل الدول المتقدمة جهودا أيضا لتعديل العجز لديها لكل طرف عمل يتعين عليه القيام به في بيته .

والمنافسة الأخرى التي تخيم علي "قمة أبيك" هي تلك التي تجمع الصين واليابان خصوصا بشان جزر في بحر الصين الشرقي يتنازع البلدان السيادة عليها .

وتمر العلاقات بين البلدين (الصين اليابان) بمرحلة فتور منذ حادث سبتمبر بين مركب صيد صيني وخفر سواحل يابانيين في هذه المنطقة .

وبعد محاولات عدة فاشلة لعقد إجتماع بين الجانبين تمكن رئيس الوزراء الياباني ناتو كان من التباحث لمدة ٢٠ تدقيقة مع الرئيسي الصيني هو جينتاو علي هامش قمة ابيك ، وتظاهر نحو ألف قومي ياباني خارج مقر القمة ضد الصين تحت أنظار قوات الأمن .

وعلى غرار التنفاس الاقتصادي وعوامل الشد والجذب التي شابت مؤتمر أبيك ورغم الخلاف الايديلوجي والسياسي بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين وبرغم تقاطع المصالح في بعض الخطوط في آسيا فان الصين تتمتع بذكاء سياسي وحكمة بالغة في تفادي المواجهات غير مأمونة العواقب وقد درس الصينيون بعناية تجربة رفاقهم في الاتحاد السوفيتي خلال سنوات الحرب البارده وأدركوا مخاطر سباق التسلح أو الدخول في حرب باردة جديدة مع الولايات المتحدة الأمريكية التي خرجت منتصرة من حربها الأولي مع موسكو ولذلك فان طموحهم للمنافسة قد لا يتجاوز حدود القارة وحتي في هذه الحالة فانهم لن يجروا أنفسهم لصدام مع الولايات المتحدة الأمريكية يفرض علي اقتصادهم تحديات جديدة تعرقل إنطلاقهم علي المستويين الإقليمي والدولي .

الخـــلاصة :

تري الباحثة أن التوازن الجديد في آسيا يقوم علي مثلث إستراتيجي أمريكي – صيني – ياباني محاط باطراف من الهند وكوريا الجنوبية وجنوب شرق آسيا وتقوم الاستراتيجيةالصينية علي السعي لإقامة علاقات دبلوماسية أوثق مع المنافسين الاقتصاديين والسياسيين المحتملين للولايات المتحدة مثل اليابان والهند والمانيا وتطوير مصالح مشتركة مع معظم دول العالم الثالث وبخاصة الاسيوية لتعزيز المكانة الصينية وزيادة قدرة الصين علي المساومة مع الولايات المتجدة الامريكية واليابان وإستئناف الحوارات والاتصالات السياسية والعسكرية الرسمية مع واشنطن وحلفائها والحفاظ علي علاقات ايجابية مع دول آسيا الوسطي وإيران وفيما تزداد الصين قوة فأنها ستكثف ضغوطها حتى تأخذ زمام البمادرة لضبط إستقرار العلاقات مع الولايات المتحدة وبينما شهد التعاون الفعلي الصيني – الأمريكي تطورا أفقيا وعموديا منذ عام ٢٠٠٣ وجمعت الجانبين مصالح مشتركة علي اصعدة مختلفة خاصة في القطاع المالي ومجالات التعليم والصحة والطاقة لكن في الجانب الجوهرى من هذه العلاقات المتلعق بقضايا إستراتيجية وأمنية أساسية فان الولايات المتحدة لا تبدو وكانها تميل نحو تعديل مواقفها لتقترب أكثر من الجانب الصيني بل يظهر أن الهوة الفاصلة بين طريقة كل طرف منهما في النظر إلي القضايا العالمية اخذة بالاتساع أكثر فاكثر .

لذلك من المتوقع أنه سوف تتقلص مساحات التعاون الاستراتيجي مستقبلا بين البلدين ولا مفر من – تنامي التنفاس بينهما مع العلم بأن إستقرار الصين هو الشرط اللازم الكفيل بتحسين العلاقات الصينية – الامريكية وترسيخها فتطوير الصين لكيفية إدارة شئونها الداخلية ينعكس علي علاقاتها مع الولايات المتحدة .

الحقيقة أن مراكز الدراسات الامركيةِ كانت هي أول من إخترع فكرة سيادة الصين علي القرن الحادي والعشرين من الناحتيين السياسية والعسكرية وظهرت عشرات التنبؤات الامريكية التي تعتبر هذا القرن قرنا آسيويا خالصا وفي اسوا الاحوال من وجهة النظر الامريكية فانه سيصبح قرنا صينيا خالصا ووفقا لتلك التوقعات تحددت الكثير من التوجهات الاستراتيجية الامريكية نحو الصين وعلى هذه الخلفية صاغ الامريكيون سياستهم تجاه المارد الاصفر المرتقب ويبدو أن البيت الاريض ومؤسسة الاستخبارات الامركيية بدا يرصدان عن قرب تطورات الاوضاع داخل الأراضي الصينية ويسجلان بدقة التصاعد المطرد في معدلات النمو الاقتصادي ودعم الحركة التصنيعية والتفوق في المجال العسكري إلي جانب المكاسب الدولية التي تحققها بكين خاص بعدان استعادت أعظم المدن التجارية العالمية هونج كونج من أيدي البريطانيين عام ١٩٩٧م إلي جانب سعيها لاستعادة تايون بالإضافة للاحترام الدولي الذي تحظي به بكين خاصة بين بلدان العالم الثالث .

إن المعادلة الدولية من وجهة نظر واشنطن ينبغي من تمضي وفق نظرية استيعاب الصين وتوظيفها في اطار المشروع الأمريكي علي أساس أنه إذا مضت التنبؤات الامريكية في اتجاهها الصحيح فإن الولايات المتحدة عليها أن تروض هذه القوة المتصاعده وتتعاون معها لتصب قوتها في نهاية الأمر في سلة المصالح الامريكية لا أن تصبح قوة الصين خصما لقوة الولايات المتحدة وترث بكين موقع القوية الثانية الشاغر منذ إنهيار الاتحاد السوفيتي .

أما علي الجانب الصيني فان بكين تدرك من جهتها أن الكثير من أوراق اللعبة في العالم في أيدي الولايات المتحدة الامريكية وطوال سنوات الحرب الباردة كانت الصين تامن جانب الدب الروسي وتدرك أن الخلاف الفكري مع

الاتحاد السوفيتي لن يتحول إلي مواجهة خطرة لانشغال السوفيت بالسبا
الدولي ثنائي القطبية لكن الصين اليوم باتت علي يقين بانها لكي تستكمل مراحل نموها العسكري والاقتصادي والسياسي وتعزز نفوذها الدولي فان عليها أن تتجنب مواجهة ساخنة أو باردة مع واشنطن .

وربما يرجع هذا التصور الصيني إلي جملة من الأسباب فبكين لم تعد صاحبة القنبلة النووية الوحيدة في آسيا فالي جانب إرث الاتحاد السوفيتي البائد والموزع بين عدد من جمهوريات الاتحاد الروسي قفزت دولتان آسيويتان إلي النادي النووي هما الهند وباكستان وإن كان العضوان الجديدان في المعسكر النووي ينشغل كل منهما في الصراع مع الآخر فإن بكين لا تنسي تاريخ الصراع الطويل مع الهند والذي شهد حروبا طاحنة مرات عديدة الأمر الذي يجعلها تتحسب بدقة حين تخطو بنفوذها النووي والعسكري والبشري إلي ابعد من حدودها والهند ليست دولة نووية لها صراعها التاريخي الطويل مع الصين فحسب لكمن يقين بكين بأن القنبلة الهندية ليست مقطوعة الصلة بالولايات المتحدة الامريكيه وانه في حالة نشوب صراع سياسي أو عسكري بين البلدين في إطار ترتيب وضع الهيمنهة الجديدة في القارة الاسيوية فان واشنطن لن تكون بأي حال في المعسكر الصين وستدعم الولايات المتحدة اصدقاءها في نيودلهي وطوكيو حتى النهاية .

اليابان و الصين دفء إقتصادي و برود سياسي :

تواصل الصين الصعود في ظل تطورات إقليمية ودولية متسارعة وتراقب القوي الأخرى هذا الصعود وتبحث عن الطريقة المثلي للتعامل معه بما يحقق أقصي فائدة لها وبما يقلل من الأضرار التي يمكن أن تطالبها ومن بين هذه

القوي التي يهمها الشأن الصيني صعودا كان أو هبوطا قوة أو ضعفا اليابان بحكم الجوار الجغرافي والخبرة التاريخية للعلاقات بين الجانبين وبحكم اعتبارات التكامل أو المنافسة أو حتى الصراع اقتصاديا كان أو سياسيا وامنيا ولا شك في أنه لا يمكن عزل ما يدور بين اليابان والصين عن مجمل ما يدور في المنطقة من تطورات علي صعيد العلاقات بين الأطراف الرئيسية اقليميا والتكامل الاقتصادي والخلافات السياسية وكذلك ادوار القوي الخارجية وهي بالاساس الولايات المتحدة الأمريكية هذه العوامل وغيرها من أمور ترتبط بالطرفين المباشرين اليابان والصين سواء من حيث توجهات النخبة الحاكمة أو رؤية كل طرف للطرف الآخر ومن ثم التفاعلات البينية وما بينهما من نقاط اتفاق أو اختلاف .

في هذا الاطرار كيف تتعامل اليابان مع الصعود الصيني ؟ هل تشجعه أم أنها تعترض علي استمراره ؟ هل هي مع الصعود بمعناه الشامل أم أنها تريده مقصنورا علي مجالات دون الأخرى ؟ وبغض النظر عما تريده هل تملك الادوات اللازمة التي تمكنها من التأثير في هذا الصعود ؟ ما هي انعكسالت الصعود الصيني علي اليابان ؟ كيف يؤثر الصعود الصيني في العلاقات بين البلدين ؟ وهل سيستمر هذا التأثير في المستقبل ؟ **هذه التساؤلات وما ينتج عنها من تساؤلات فرعية نحاول الإجابة عليها في الاجزاء الثلاثة التالية :**

أولاً : الإطار العام للسياسة اليابانية تجاه الصين :

السياسة اليابانية تجاه الصين هي جزء من سياستها تجاه منطقة شرقي آسيا التي بدورها جزء مهم وأساسي من سياستها الخراجية ومن شأنها تهدف إلي تحقيق المصحلة الوطنية اليابانية وتستخدم فيها الادوات ذاتها التي تستخدم في مجمل السياسة الخارجية اليابانية وتتاثر بذات المحددات التي علي أساسها تتحدد

تلك السياسة وفي الوقت نفسه فان للسياسة اليابانية تجاه الصين ما يميزها بحسن الجوار الجغرافي الذي وإن خلق فرصا لليابان تمثلت في أسواق ضخمة للصادرات اليابانية بالقرب منها فأنها في الوقت ذاته مصدر قريب للمواد الخام كما أنها تمثل إحدي الوجهات التي يقصدها المستثمر الياباني والتي تتوافر فيها بعض عناصر الجذب أضعف إلي ذلك أن معظم تجارة اليابان الخارجية تمر عبر مضايق ومسارات بحرية تتحكم فيها الصين إما كليا أو جزئيا .

وفي مقابل ذلك فان هذا الجوار الجغرافي قد خلق مجموعة من المشاكل لليابان من بينها الخلافات الحدودية خاصة ما يتعلق منها بالحدود البحرية والخلاف حول مناطق متنازع عليها ظهرت فيها مصادر للطاقة وكذلك المحاجة بخصوص ملكية بعض الجزر فجزر سيكاكو كما تطلق عليها اليابان أو ديايو كما تطلق عليها الصين تعتبر اليابان جزءا لا يتجزأ من أراضيها وأنها تخضع للسيادة اليابانية وأنها كذلك منذ عام ١٨٩٥م وأنها بعد الحرب العالمية الثانية خضعت للإدارة الأمريكية شانها شأن كل الأراضي اليابانية وان الصين لم تعترض علي أي من هذه الممارسات السيادية اليابانية وحتي عندما تم تطبيع العلاقات بين البلدين في عام ١٩٧٢م لم تثر هذ القضية وإنما بدأت في إثارتها بعدما ظهر أن المنطقة المحيطة بها غنية بالنفط ومن ثم فإن اليابان تشكك في حجيه الطرح الصيني سواء في جوانبه التاريخية أو الجغرافية أو الجيولوجية أو القانونية معتبرة أن الجزر ليست جزءا من تايوان .

والي جانب الجزر توجد خلافات حول تحديد المنطقة الاقتصادية الخالصة والجرف القاري حيث بدأت الصين في السنوات الاخيرة في القيام ببعض التصرفات الاستفزازية من قبيل دخول سفن أبحاث إلي مناطق متنازع عليها أو دخول طائرات أو قطع بحرية إلي مناطق خاضعة للسيادة اليابانية أو دخول

قوارب صينيه للجزر المشار إليها كما حدث أخيرا في سبتمبر ٢٠١٠م وفي تلك السرة تم إعتقال طاقم قارب الصيد الصيني وأصرت اليابان علي أنها تطبق قانونها الداخلي علي هذه المخلافة من قبل هذا القارب وأن المسالة لا يمكن أن تكون من قريب أو من بعيد ذات علاقة بمسالة السيادة علي الجزر لأنها حقها الذي لا تقبل نقاشا فيه ورغم انتقاد اليابان لرد الفعل الصيني المتشد فقد إضطرت للافراج عن كل أفراد الطاقم مما أثار إنتقادات داخلية واسعة إتهمت الحكومة بالتراجع أمام الصين وأن قرار إطلاق قائد السفينة الصينية قد أخذ في الاعتبار المحافظة علي العلاقت مع الصين وقد كان نتيجة كل ذلك تراجع شعبية رئيس الوزراء "ناوتو كان" وحكومته بشكل كبير ، ومن ناحية أخرى فان اليابان وإن كانت قد حازت علي نصيب مهم من السوق الصيني الواسع الذي يزداد إستهلاكه بإستمرار وتحصل منه علي الكثير مما تحتاج إليه ليس فقط علي صعيد المواد الخام ولا السلع كثيفة العمالة وإنما باتت السلع كثيفة التكنولوجيا وراس المال من بين المكونات الأساسية للواردات اليابانية من الصين بما يعنيه ذلك من زيادة الاعتماد المتبادل إقتصاديا بين البلدين وبما يحمله فى الوقت ذاته من عنصر تهديد في حال التاثر بالخلافات السياسية وقد حدث في الازمة الأخيرة أن الصين إستخدمت ورقة المعادن النادرة التي تصدرها لليابان للضغط عليها كورقه إقتصادية إلي جانب الاوراق السياسية الأخرى ومن بينها الغاء الاجتماعات والزيارات التي كانت مقررة علي المستوي الثنائي .

وتشعر اليابان بتهديد آخر جراء القرب الجغرافي يتمثل في إمكاينة تأثر الملاحة في مضيق تايوان في حال التوتر أو إندلاع مواجهة عسكرية بسبب قضية تايوان وهي من القضايا التي تعلن الصين صراحة أنها يمكن أن تستخدم فيها القمة العسكرية في حال سارت الأمور عكس ما تريد من عودة تايوان إليها

باعتباره جزءا لا يتجزا من أراضيها وقد توترت الاجواء في المنطقة أكثر من مرة ومن ذلك عام ١٩٩٦م ومن المعروف أن هذه القضية من بين القضايا التي تحصرص الصين علي الحصول علي إعتراف دولي بخصوصها ومن ذلك ما حصل مع كل من الولايات المتحدة واليابان عند تطبيع العلاقات معها ومن هنا كان إعتراضها علي دعوة كبار المسئولين التايوانيين لزيارة اليابان حتى وإن كان ذلك في مناسبات رياضية أو لاسباب علاجية كما أنها عارضت بشدة توسيع نطاق التحالف الأمريكي الياباني ليشمل المناطق المحيطة بما يعني شموله تايوان .

ويرتبط بالعوامل الجغرافية عوامل تاريخية تؤثر في السياسة اليابانية تجاه الصين فاليابان بحكم تأريخها الاستعماري في المنطقة والضرر الذي الحقته بدول المنطقة ومن بينها الصين لم تتخلص بعد من عبء هذه المرحلة بحكم ما رسخته من مشاعر عدائية في نفوس هذه الشعوب تغذيها من أن لآخر وسائل الاعلام خاصة إذا ما صدرت عن اليابان تصرفات تحمل دلالات سلبية بالنسبة للدول التي تاثرت بالغزو الياباني لها ومن ذلك زيارة ضريح ياسكوني الذي يضم رفات قادة عسكريين يابينين وكذا محتوي الكتب الدراسية فيما يتعلق بتاريخ هذه الحقبة وكل ما يتعلق بالسياسة الأمنية اليابانية سواء من يحث ممارسة دور خارجي والسعي للحصول علي مقعد دائم في مجلس الامن أو السعي لتعديل المادة التاسعة من الدستور .

وقد شهدت السنوات الأخيرة مؤشرات مهمة علي تاثر العلاقات مع الصين بهذه القضايا حيث تسببت الزيارات المتكررة من قبل رئيس الوزراء الياباني الياباني الاسبق جونتشيرو كويزومي للضريح المشار إليه وكذا إقرار مناهج دراسية جديدة في توتر العلاقات بين الجانبين وإندلاع تظاهرات مناوئة لليابان

في الصين وهي التظاهرات التي نظر إليها في إطار موافقة وتشجيع رسمي صيني لها كما أن الصين لم تخف رفضها لحصول اليابان علي مقعد دائم في مجلس الأمن .

المجمعة الثالثة من العوامل التى ترتبط بطبيعة النخبة الحاكمة وتوجهاتها ففي حين إختار كويزومي الاصرار علي موافقة التي أغضبت الصين كثيرا فقد تخلي أسلافه عن هذه السياسة بل أن خلفه شيزو ابي علي غير العادة – قد جعل الصين المحطة الأولي له من بين زيارات الخارجية وعندما حدث التغيير السياسي في اليابان بوصول الحزب الديمقراطى اليابانى للحكم في سبتمبر ٢٠٠٩م بعد أكثر من نصف قرن من سيطرة الحزب الليبدالى الديمقراطى الحياة السياسية فى اليابان فانه تحدث عن أجواء إيجابية وإعطي أولوية للعلاقات مع الصين إلي جانب توجهات النخبة الحاكمة فان جماعات المصالح تؤثر أيضا في السياسة اليابانية ونقد كان تاثرها واضحا في قضية المساعدات اليبانية للصين علي مدي سنوات وكذا التوسع في الاستثمارات اليابانية في الصين حتى في بعض فترات التوتر السياسي بين البلدين يضاف إلي ذلك الرأي العام الياباني .

والي جانب العوامل الجغرافية والتاريخية تاتي بعد ذلك مجمعة العوامل المترابطة بالصين ذاتها والدور الذي تلعبه في المنطقة فالصين في فترة الحرب الباردة كانت علي توافق مع كل من اليابان والولايات المتحدة في التصدي للنفوذ السوفيتي وبعدما إنهار الاتحاد السوفيتي تحسنت العلاقات الصينية كثيرا مع روسيا ودول آسيا الوسطي وقد تزايد الدور الإقليمي للصين بحكم ما لديها من أدوات وموارد تستخدمها ونتيجة لذلك بدا التوجس الياباني في التزايد خاصة مع تصدي الصين لمحاولات اليابان لعب دور أكبر في المنطقة ومن ذلك رفضها

للمقترح اليابان بإنشاء صندوق نقد آسيوي بعد الازمة المالية الاسيوية وهنا يلاحظ أن الرفض الصيني قد تلاقي مع رفض أمريكي وفي الوقت الذي وطدت فيه الصين من علاقاتها مع دول الاسيان وتوصلت معها إلي إتفاقية للتجارة الحرة دخلت حيز التنفيذ في أول يناير ٢٠١٠م فإن اليابان تواجه صعوبات في الوصول لمثل هذه الاتفاقية في ظل إصرارها علي حماية قطاعها الزراعى كما أن الدور الياباني في شبه الجزيرة الكورية يختلف تماما عن الدور الصيني من حيث الطرف الذي تنحاز إليه والقضايا التى تحظي بالاولوية وهنا يرتبط الأمر بارتباطات وتحالفات كل طرف من أطراف أخرى سواء من داخل المنطقة أو خارجها.

ففي الوقت الذي تمثل فيه الصين الراعى الأكبر لكوريا الشمالية فان اليابان تعتبرها من أكبر التهديدات لها بحكم ما تمتلكه من برامج تسيحلية غير تقليدية صاروخية ونووية وفي ظل عدم وجود علاقات بينهما كما القت قضية المخطوفين اليابانيين بظلالها السلبية علي العلاقات بين البلدين ومن ثم فإنه في الوقت الذي تبنت فهي اليابان نتائج لجنة لتحقيق حادث غرق السفينة الكروية الجنوبية في مارس ٢٠١٠م وحملت كوريا الشمالية المسؤليه عن ذلك نجد أن الصين قد رفضت ومعها روسيا – التسليم بذلك وتحدثتا عن تقييم خاص لنتائج التحقيق وكانت هذه من بين القضايا التي تباينت فيها المواقف في اطار الاجتماعات الثلاثة التي تضمن كل من اليابان والصين وكوريا الجنوبية وقد إستمرت المواقف علي تباينها بعد تبادل القصف المدفعي بين الكوريتين أواخر نوفمبر ٢٠١٠م حيث أن اليابان في الحالتين قد أيدت الموقفين الكوري الجنوبي والأمريكي بل إن ما جري في شبه الجزيرة الكورية كان من بين العوامل التي دفعت حكومة "هاتوياما" إلي التراجع عن سياستها بخصوص المزيد من الندية والاستقلالية في علاقاتها مع الولايات المتحدة وأضطرت في النهاية لاقرار

إتفاق سبق التوصل إليه في عام ٢٠٠٦م بخصوص القواعد العسكرية الأمريكية في اليابان ولا يخفى أن تحالف اليابان مع الولايات المتحدة ونطاق هذا التحالف والدخول في منظومة الدفاع الصاروخي الأمريكية من الأمور التي تثير كثيرا حفيظة الصين .

خلاصة القول أن السياسة اليابانية تجاه الصين تتأثر بالكثير من العوامل الجغرافية والتاريخية السياسية والاقتصادية الداخلية والاقليمية والدوليه وهذه العناصر تتفاعل فيما بينها بحيث قد يبرز تأثير عامل معين في فترة ما ويتراجع في فترة أخرى يزيد فيها تأثير عوامل أخرى هذا الاطار العام يمكن من خلاله الوقوف علي الرؤية اليابانية للصعود الصيني ومن ثم طبيعة التعامل الياباني مع الصعود الصيني .

ثانيا : الرؤية اليابانية للصعود الصيني :

يمكن الحديث عن مستويات ثلاثة للحاله اليابانية للصعود الصيني المستوي الأول مرتبط بالنمو والتنمية والقوة الاقتصادية الصينية والثاني يتعلق بالقوة السياسية والعسكرية الصينية والثالث يخص التطور السياسى الداخلي .

علي الصعيد الاقتصادي فإن اليابان قد رحبت بالتطورات التي شهدها الاقتصاد الصيني منذ عام ١٩٧٨م من حيث الانفتاح وتحقيق معدلات نمو عالية وجذب المزيد من الاستثمارات الأجنبية وهو ما أنعكس إيجابا علي مستويات المعيشة في الصين ومن ثمن زيادة إستهلاك الصينين الذي أستفادت اليابان منه ولم تكتفى اليابان بمجرد الترحيب بذلك بل أنها قدمت مساعدات ضخمة للصين علي مدي سنوات حيث كانت الصين من بين أكبر الدول المتلقية المساعدات اليابانية فمنذ عام ١٩٧٩م عندما بدا تقديم المساهدات للصين وحتي منتصف

عام ٢٠٠٥م بل إجمالي المساعدات اليابانية التى حصلت عليها الصين ما قيمته ٣.١٣٣١ تريليون ين قروضا و ١٤٥.٧ مليار ين منحاً و ١٤٤.٦ مليار ين مساعدات فنية حيث تعبتر اليابان أن الصعود الصيني لا يخدمها فقط وإنما يخدم كل المنطقة والعالم ومن ثم فأنها ايدت دخول الصين لمنظمة التجارة العالمية بما يعني اندماج الصين أكثر في الاقتصاد العالمي وإتاحة فرصا اوسع للتبادلات التجارية بينهما وكذا فرص الاستثمار وبالفعل فقد شهد العام التالى لدخول الصين للمنظمة طفرة علي صعيد الجانبين المذكورين رغم أن العلاقات الساسية بينهما لم تكن علي ما يرام .

وفي الوقت الذي شهد فيه إستمرار تحقيق الاقتصاد الصيني معدلات نمو هائلة فان الاقتصاد اليابانى قد شهد فترات ركود طويلة وهنا بدأت اليابان تشعر ببعض التخوف من الزحف الاقتصادي الصيني والذي جعلها تحتل المكانة الأولي علي صعيد الصادرات وهناك تحليلات ذهبت إلى أنها باتت تحتل المكانة إلي الثانيه علي صعيد ترتيب الاقتصادات العالمية مما يعني ازاحتها لليابان عن المكانة التي احتلتها لسنتوات طويلة ومن ثم كانت اليابان تطالب دائماً بالمزيد من الانفتاح والاصلاح في بيئة الأعمال في الصين وكانت تبرر قلة الاستثمارات اليابانية في الصين بعدم وضوح الرؤية بخصوص بعض الجوانب التنظمية والقانونية والتي تجعل المستثمر اليابانى يذهب لبيئات أكثر تنظيما علي الرغم من أنها قد تكون الاعلي من حيث التكلفة في ظل الميزات الكثيرة الأخرى التي تتمتع بها الصين من وفرة المواد الخام ورخص العمالة والقرب الجغرافي والتشابه الثقافي ومع ذلك فقد كان الاستثمار في الصين أقرب إلي المغامرة .

وعلى ضوء كل ذلك دار في اليابان منذ سنوات نقاش مطول حول سؤال أساسي هو لماذا تستمر اليايبان في تقديم المساعدات للصين في ظل هذه الظروف وكانت تجري مراجعة للمساعدة علي فترات إلي أن تم إتخاذ قرار بوقف هذه المساعدات خاصة أن الصين باتت من الدول المانحة .

وجدير بالذكر أن المساعدات اليابانيه اوقفت أو خفضت في أكثر من مناسبة بسبب تتطورات غير اقتصادية من ذلك بعد أحداث ميدان تيانهامين في عام ١٩٨٩م وبعد التجارب النووية الصينية عامي ١٩٩٥م و ١٩٩٦م وقد أعترضت الصين علي ما أعتبرته تاسيسا لموضوع إقتصادي .

إضافة لذلك فان الصين أصبحت تعرف بمنصع العالم من كثرة ما تنتج وباتت تمتلك أيضاً فوائض مالية ضخمة وأصبح لها إستثمارات خارجية مهمة هذا في الوقت الذي تزايد فيه الدين الياباني وأستمر الركود الاقتصادي هذه التطورات لم يقف تاثيرها عند الاوضاع النسبيه لاقتصاد البلدين وإنما إنتقلت من ناحية أخرى إلي التأثير في علاقات الطرفين بالقوي الاقتصاديه الاخرى بالمنطقة وكذا في الجوانب السياسية والامنية للعلاقات .

ونظراً لأن قدرات الصين الإقتصادية المتصاعدة قد بدأت تنعكس علي زيادة الإنفاق العسكري والقدرات العسكرية الصينية فان اليابان باتت تطالب الصين بالمزيد من الشفافية علي هذا الصعيد وأصبحت اليابان تنظر إلي هذه التطورات ليس فقط بقدر من التوجس لكن بوصفها تهديدا صينياً ومن ثم كان التحذير من الانسياق في هذا الاتجاه وما يمكن أن يمثله من جر المنطقة إلي سباق تسلح ولا يخفي أن الطرح ذاته تقدمه الصين بخصوص القدرات العسكرية اليابانية وتوسع تحالفها مع الولايات المتحدة الامركية والذي يمس قضايا حساسة بالنسبة لها مثل تايوان والقدرات النووية الصينية .

من ناحية أخرى لا تري اليابان أن توسيع تعاونها مع الولايات المتحدة يهدف إلي إحتوءا الصين فالظروف هي التي فرضت هذا التعاون نظرا لما تواجهه اليابان من تهديدات من قبل كوريا الشمالية كما أن تأمين طرق الملاحة ومحاربة الارهاب كلها قضايا فرضت هذا التطور ، تطالب اليابان الصين بأن تتصرف كعضو مسئول في المجتمع الدولى بحيث تصبح عامل إستقرار ومن ثم فأنها طالبت بزيادة مستوي الحوار الامني بين الجانبين وشرعت في الوقت نفسه في تعاون أمني مع قوي أخرى في المنطقة من بينها الهند وأستراليا بمشاركة من الولايات المتحدة الامريكية التي تشارك في بعض جوانب هذا الحوار والتعاون الامني ويذهب البعض إلي أن مثل هذا التنسيق يأتي في إطار العمل علي تبطيق سياسة إحتواء المقصود منها الصين .

يتثمل الجانب الثالث للرؤية اليابانية للصعود الصيني في المطالبة بالمزيد من الاصلاح السياسي والسير في طرق الديمقراطيه وإحترام حقوق الإنسان وحكم القانون وهنا فان اليابان تعتبر هذا الطريق طويلا وتعتقد أن التطورات الاقتصادية وما يتلوها من تغيرات إجتماعية من شانها أن تفتح الطريق نحو المزيد من التطور الديمقراطي وهي تقارب هنا مع التجرية الكورية الجنوبية مع أن هناك تباينا كبيرا بين الحالتين ناهيك عن أن الحزب الشيوعي الصيني يمسك بكل التطورات ويتحكم فيها وهو قد أدخل الكثير من التعديلات لكنها لا تزال بعيدة كثيرا عما تطالب به اليابان ومعها كل الدول الغربية وعلى شاكلة التعاون الامني المتزايد مع الهند واستراليا فان اليابان تتحدث عن قيم مشتركة مع هذه الدول وأصرت علي مشاركتها ومعها نيوزلندا في قمة شرقي آسيا في الوقت الذي كانت فيه هناك معارضة من قبل بعض الدول من بينها أندونيسيا والصين .

ولا تقف اليابان في رؤيتها للصعود الصيني عند الجوانب الايجابية فقط وإنما تري أن هناك نقاطا سلبية لا تزال تواجه الصين وعليها أن تتعامل معها معتبره أن هذه الجوانب تؤثر ليس فقط في الصين وإنما التأثير يطالها أيضاً ومن هذه الأمور معالجة قضايا البيئه وعلى حد قول رئيس الوزراء الياباني الاسبق تارو اسو إذا تلوث الماء أو الهواء في الصين فان الآثار سوف تطالنا .

وفي هذا الصدد فان الصين تطالب صراحة بأن تتجنب الاخطاء التي وقعت فيها اليابان علي هذا الصعيد في السنوات الأولي لنهضتها الصناعية كما أنها كانت قد أتجهت لتركيز مساعادتها علي هذه الجوانب فضلا عن أنها تدرك التفاوت بين المناطق المختلفة في الصين علي صعيد مستوي التنمية وما يمكن أن يخلقه ذلك من توترات داخلية بطيعة الحال فان الصين تدرك مثل هذه القضايا ولكنها تتعامل معها من منطق أساسى هو رفض التدخل في الشئون الداخلية مع تاكيد سعيها لتجنب بعض الآثار السلبية طبقا لرؤيتها وهي هنا لا ترفض المساعدات الخارجية ولكن غير المشروطة .

من الواضح أن اليابان قد أسهمت في الصعود الصيني عبر المساعدات والتكنولوجيا التي وفرتها ولكنها الآن باتت تتخوف من هذا الصعود وتحتاط من بعض جوانبه تخشي أن ينقلب هذا الصعود إلي هيمنة صينية تضر بمصالحها فالي أي مدي يمكن أن تتطور العلاقات بين البلدين علي ضوء ذلك .

ثالثاً : مستقبل العلاقات اليابانية الصينية علي ضوء إستمرار الصعود الصيني :

هناك شبه اتفاق بين الدارسين للعلاقات اليابانية الصينية علي أنها باتت توصف بانها تتمتع بالدفء علي الصعيد الاقتصادي والبرود علي المستوي

السياسي حيث أن الاتجاه العام للعلاقات الاقتصادية منذ طبيعة العلاقات بين البلدين هو الاتجاه التعاوني كان ذلك لا ينفي وجود بعض نقاط الاختلاف والنزاع في بعض الحالات في المقابل فان الجوانب السياسية قد شهدت فترات كثيرة من التوتر وفي أوقات عدم التوتر لا يمكن القول أنها قد سارت في طريق التطور بنفس درجة العلاقات الإقتصاديه ومرد ذلك إلي العوامل الرئيسية التي تحكم سياسة كل من البلدين تجاه الآخر ومن ثم العلاقات بينهما والتي تجعل من اليسير الاتفاق في الجوانب الاقتصادية بينما تظل الجوانب السياسية والامنية الأكثر حساسية ومن ثم يرد علي تطورها قيود كثيره والسؤال الأساسي هنا : هل يستمر هذا النمط علي ضوء إستمرار الصعود الصنيي قبل الإجابة علي هذا التساؤل تجدر الإشارة إلي أن الطرفين يعتبران أن الوضع الراهن للعلاقات غير مرض بعد التطورات التي صاحبت وتلت حادث مركب الصيد الصيني.

ولكن هناك بعض الأمور العامة من بينها أن العلاقات بين أي دولتين مهما تكن درجة التقارب بينهما فانه لابد أن تكون هناك بعض جوانب الخلاف ولكنها تظل خلافات علي التفاصيل وليست في التوجهات الرئيسية خاصة إذا كان التقارب قد وصل إلي درجة التحالف وفي المقابل فانه مهما تكن درجة التباعد فانه تظل هناك نقاط قد تحقق مصالح للطرفين ومن ثم لا يبرز حولها التناقض كغيرها من القضايا وفي حالة اليابان والصين فان نقاط الاتفاق كثيرة وشبكة المصالح المشتركة واسعة وكان الجانبان قد توصلا لصيغة علاقات تحقق فوائد مشتركة إستنادا إلي المصالح الاستراتيجية ولا يزال الطرفان يتمسكان بها وقد راينا كيف أن هذه المصالح كانت تتغلب علي فترات الفتور في بعض الجوانب هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان تعدد الاطر التي تجمع البلدين يمكن أن تمثل بدائل من ذلك علي سبيل المثال فانه في فترات التوتر السياسي وتوقف لقاءات القمة الثنائية بين البلدين كانت تتم لقاءات علي هامش إجتماعات

ومنتديات أخرى كما حدث أخيرا علي هامش قمة الاوبك وكذلك في فترات سابقة علي هامش قمم الآسيان أو الآسيم من ثم فانه علي المدي القصير الذي يمتد من ثلاثه إلي خمس سنوات من المرجح أن تستمر العلاقات بين البلدين علي النمط نفسه بمعني أن الاتجاه العام علي المستوي الاقتصادي في تقدم والمستوي السياسي متارجح بين التصعيد والتهدئة وهناك الكثير من الإعتبارات التي ترجح هذا الأمر من بينها أنه علي الصيعد الاقتصادي فان مكاسب الطرفين واضحة وخسائرهما في حال تراجع العلاقات بينهما ستكون ضخمة ومن ناحية ثانية فإن اليابان تبدي مروة كبيرة في التعامل مع الصين حتى في القضايا الخلافية والصين من ناحيتها وإن بدأت في السنوات الأخيرة تبدي تشددا أكبر حيال بعض القضايا لتوصيل رسائل محددة لا تهدد فعلياً بفرض حلول عسكرية لتلك القضايا لأنها تدرك حجم الخسارة التي ستعود عليها جراء مثل هذه التصرفات وما فتئت الصين تؤكد أن صعودها سلمي وان فائدته لا تعود عليها وحدها وإنما تعود علي العالم كله وهي لا تريد أن تؤثر سلبيا في صورتها ومكانتها الدولية خاصة أنها باتت مقصدا لدول وتجمعات كبري تدرك تماما أن الوصول إلي درجة الحسم العسكري لبعض القضايا يعني الدخول في مواجهة مباشرة ليس مع اليابان وحدها وإنما الولايات المتحدة وهي لا تريد ذلك ومن ناحية رابعة فأنها تعلم أن المزيد من التصعيد والضغط علي اليابان يمكن أن يقابله رد فعل ياباني علي صيعد قضايا أخرى من قبيل تايوان ليس هذا فحسب بل ويساعد علي تزكية الاتجاهات المطالبة بالعودة إلي امتلاك قوة عسكرية والقيام بدور عسكري ياباني في المنطقة وهنا فان الصين لا تريد أن تنفك اليابان من عقالها .

بطبيعة الحال قد تحدث تطورات ليست في الحسبان في هذه الفترة يمكن أن تجعل الأمور تتغير لكن في ضوء العوامل السابقة فان من المرجح استمرار

النمط السائد للعلاقات مع مراعاة أن الوتيرة قد تتقلب من آن لآخر بين الدفء أو التوتر ولكنها تظل في حدود فمن المستبعد أن تحدث مواجهة عسكرية بين الجانبين كما أنه لا يمكن أن يتم حل كل القضايا العالقة في المدي القريب .

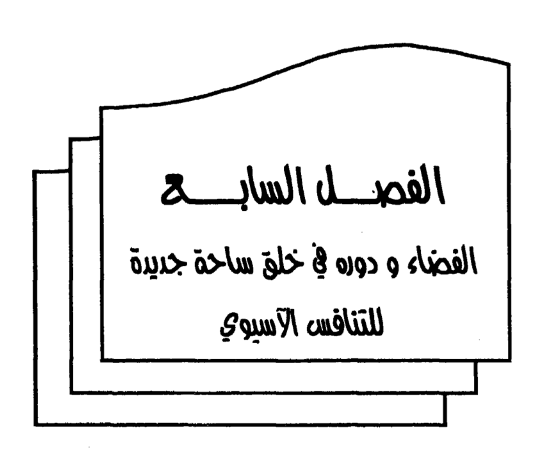
وعلى المديين المتوسط والبعيد فان الباحث لابد أن يكون أكثر حذرا عند الحديث عن سيناريوهات العلاقات بين الطرفين نظرا لان المسالة هنا ليست مرتبطة فقط بموازين القوي بمعناها الشامل بين الجانبين وإنما ترتبط بمدي إستمرار الاتجاهات الراهنة في كل منهما فلا يمكن تاكيد أو نفي إستمرار الصعود الصيني بنفس الوتيرة والامر ذاته ينطبق علي حالة اليابان من النواحي الاقتصادية والسياسية وتوجهات النخبة الحاكمة وطبيعة النظام الدولي فالي أي مدي ستستمر الولايات المتحدة مهيمنة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً علي المستوي العالمي يري البعض أن الصين ستصبح القوة الاقتصادية الأولي في غضون العقدين القادمين والبعض يشكك فى أن يتحقق ذلك علي المدي الزمني المتوقع كما أن الأمر لا يرتبط فقط بالولايات المتحدة وإنما بقوي أخرى مثل روسيا والهند وشبكة العلاقات بين الأطراف الفاعلة في النظام الدولي في هذه الحقبة وشكل الترتيبات التي سيتم الوصول إليها ويمكن هنا إضافة تأثير عامل أخذ في التزايد ألا وهو التكنولوجيات الحيدثة والي أي مدي ستؤثر في صناع القرار .

وختاماً يمكن القول أن صعود الصين له صدي في العالم كله ومن الواضح أن هذا الصدي أكثر وضوحا وتاثيرا في منطقة شرقي آسيا ومن بين دول شرقي آسيا الأكثر إهتماماً وتأثراً بما يجري في الصين اليابان نظرا لاعتبارات كثيرة يمكن أن تلخص في كلمة المكانة والهواجس المثارة بشأنها والتي تصاعدت في السنوات الأخيرة في ظل الظروف الاقتصادية التي تعيشها اليابان ومقارنة

أوضاعها بالاوضاع في الصين في المقابل فان صانع القرار الياباني يدرك أن العلاقات مع الصين ليست مباراة وهو لا يريد أن تصل الأمور لهذه الدرجة وهي القناعة ذاتها التي لا تزال موجودة لدي صانع القرا الصيني ومن ثم فان هناك حرصا متبادل علي عدم تدهور العلاقات لدرجة التازم المستمر أو التصادم وبطبيعة الحال لا يمكن أن نغفل أن كل طرف عنده حد أدني لا يمكنه أن يتراجع عنه وحد اقصي لا يمكن أن يتخطاه لأنه لو تم تجاوز الحد الاعلي فان ذلك سيدخل العلاقات في دائرة الخطر ويمكن أن تتحول من طبيعتها التعاونية والتنافسية إلي العدائية والصدامية حيث إن لكل طرف حدودا في قبول تصعيد الطرف الآخر وهذا ما أثبتته خبرة السنوات السابقة فاليابان كانت اول دولة من الدول الصناعية الكبرى ترفع العقوبات التي فرضت علي الصين بعد أحداث تيانامين كما أن الصين إكتفت حتى الآن بتوجيه رسائل في حدود معينة لتاكيد عدم تسلميها بالطرح الياباني بخصوص قضايا الجزر الحدودية البحرية وعلى الطرف الآخر فان كل طرف لا يتوقع من الطرف الآخر أن يسلم بكل مطالبه وإلا اتهم بالتفريط في الحقوق الوطنية ومن ثم قد يؤيد ذلك إلي تفاعلات تاتي بنخب أكثر تشددا في ظل ضغوط الرأي العام حيث يخشي الجميع إيثارته وتجنب التغطية المبالغ فليها للقضايا الخلافية خاصة إذا ما علمنا أنه مع هذه التوترات تزداد الاتجاهات السلبية من قبل الرأي العام تجاه الطرف الآخر وهذا ما تثبته إستطلاعات الرأي الدورية التي تجري في اليابان وما تؤيده التظاهرات المناوئة اللليابان من أن لآخر في الصين.

يبقي القول أن الصعود الصيني حتى هذه اللحظة لا يزال مفيدا بالنسبية لليابان وسوف تزداد فائدته إذا عادت للاقتصاد الياباني عافيته كما أن الصين لم تصل بعد إلي درجة التمرد علي توازن القوي الحالي ومحاولة تغييره ولو بالقوة العسكرية فهي لا تزال تتحدث عن صعود سلمي يستفيد منه الجميع وتعمل

القوي الفاعلة في آسيا وعلى راسها الولايات المتحدة جاهدة علي الحفاظ علي الوضع القائم خاصة من خلال دعم تحالفها مع اليابان الذي تعتبره الأخيرة بمثابة حجر الزاوية في سياستها الخارجية وقد أثبتت التطورات أن القوي السياسية الرئيسية في اليابان مجمعة علي هذا الأمر حيث أن سياسة الحزب الديمقراطى لم تختلف كثيرا عن سياسات الحزب الليبرالي وحتي إن كانت لهجته في فترة ما قبل الانتخابات قد أثارت إحتمالات لحدوث بعض التغير إلا أن الممارسة العملية أثبتت أن التغير في الجوانب الهامشية وليس الجوهرية .


الفصل السابع
الفضاء و دوره في خلق ساحة جديدة
للتنافس الآسيوي

التنافس الآسيوى فى ساحة الفضاء :

شهد العقد الأخير تقدماً كبيراً في النشاط الفضائي في دول جنوب وشرق آسيا، سواء في إنتاج الأقمار الصناعية وخدماتها، أو في إطلاق المركبات الفضائية ، وهو ما يرشح تلك المنطقة لتصبح قوة فضائية عالمية منافسة للولايات المتحدة . تمثل الصين واليابان والهند قوي فضائية صاعدة ومتنافسة علي نحو يعبر عن تحول للقوة الاقتصادية والسياسية باتجاه آسيا، وبروز توجهات عسكرية وإستراتيجية لإستخدام الفضاء الخارجي. وقد ينعكس ذلك علي نمط علاقات هذه الدول إقليميا ودوليا، وعلي طبيعة دورها في مستقبل النظام الدولي .

جاذبية الاستحواذ علي القوة في الفضاء الخارجي :

بدأ عصر الفضاء منذ إطلاق الاتحاد السوفيتي السابق أول أقماره الصناعية لإستكشاف الفضاء " سبوتنيك " أول سفينة فضاء تدور حول الأرض عام ١٩٥٧ دخل الاتحاد السوفيتي بعد ذلك في سباق " فضائي " مع الولايات المتحدة ، كان من ملامحه إطلاق المركبة الأمريكية ' أبولو' عام ١٩٦٩ للهبوط علي القمر. وتميز هذا السباق بالقدرات التكنولوجية الهائلة والميزانيات الضخمة المخصصة لتلك البرامج ، والتي بلغت ذروتها بعد إطلاق الولايات المتحدة برنامج حرب النجوم الذي كان له دور في إستنزاف الاتحاد السوفيتي السابق وإنهياره .

أصبح الفضاء الخارجي منذ ذلك الحين مجالا للتنافس بين الدول للحصول علي عناصر القوة الفضائية التي إرتكزت علي نظرية عالم الفضاء الأمريكي

جيمس أوبرج في كتابه 'نظرية قوة الفضاء'. تضع هذه النظرية نظاما متماسكا يعظم من القوة الفضائية، يتمثل في حاصل جمع القدرة التكنولوجية، والسكان، والاقتصاد، والصناعة، والقوة العسكرية، وإرادة الدولة وغيرها من العوامل التي تسهم في دعم إمكانيات الدولة علي ممارسة الإكراه، أو الإقناع أو ممارسة التأثير السياسي علي أعمال الدول الأخري، أو علي الحكام في العالم بغرض الوصول للأهداف الوطنية من خلال القدرات الفضائية .

وحظي الاستخدام العسكري للأقمار الصناعية بإهتمام كبير من جانب العديد من الدول بالنظر إلي دورها في الحروب وكشف ميادين القتال، ووضعية القوات، والتجسس، وكشف الأماكن الاستراتيجية، وتأمين نظام الملاحة الجوية، والإنذار المبكر حول التهديدات العسكرية المختلفة .

كما أصبح للأقمار الصناعية أهمية قصوي في الاستخدام السلمي في مجال التنمية التكنولوجية ، ودعم النمو الاقتصادي، وفي مجال الاتصالات، والبث الإذاعي والتليفزيوني ، والاستشعار عن بعد ، والأرصاد الجوية ، والملاحة ، عبر نظام تحديد المواقع العالميه . وقد أصبح ذلك كله يعد ضمن أولويات الأمن القومي وأداة من أدوات السياسة الخارجية .

وقامت الدول في سبيل ذلك ببناء مشروعات وطنية للفضاء الخارجي، أو بالتعاون مع الدول الأخري الرائدة، كروسيا والولايات المتحدة ،للعمل علي توفير عناصر الجاهزية الفضائية من المنشآت والمعدات والمعرفة الفنية لدي الكوادر البشرية والتمويل اللازم .

ومن أبرز البرامج الفضائية تقدما في آسيا برامج الصين واليابان والهند، التي إمتلكت أقمارا صناعية للاستشعار عن بعد، وقدرات خاصة بالبنية التحتية

للنشاط الفضائي، وتكنولوجيا الفضاء، وتصنيع الأقمار الصناعية، والصورايخ، والملاحة الفضائية. وقد أصبح لدي تلك الدول القدرة علي تفسير وإستقبال المعلومات من الأقمار الصناعية الأوروبية والأمريكية. تحاول كوريا الجنوبية اللحاق بهذا التقدم، كما توجد برامج فضائية لدي نيبال وباكستان وبنجلاديش، وعلي نحو أقل تقدما لدي كل من تايلاند وماليزيا وسنغافورة .

يمثل بذلك الفضاء الخارجي أهمية إستراتيجية وساحة للصراع والتنافس لتعظيم القوة الاقتصادية والعلمية، والحفاظ علي أمن الدولة وطموحها في إحتلال مكانة لها في النظام الدولي في عصر الثورة العلمية والتكنولوجية .

البيئة الأمنية تدفع بالسباق الفضائي :

تعد منطقة جنوب وشرق آسيا من المناطق الأكثر تفاعلا بين كتل بشرية ضخمة وقيادات طموحه تحاول البحث عن مكانة دولية تحافظ علي مصالحها وذلك في مجالات مختلفة من النفوذ، وبما يفضي بالتالي لخلق إحتكاكات فيما بينها. ولا يزال القرب الجغرافي واحدا من العوامل الرئيسية التي تتسبب في إندلاع نزاعات بين القوي الكبري في المحيط الآسيوي، وهو ما يجعل أي نوع من الزيادة، التي تطرأ علي نفوذ بلد في دولة حدودية، ذا أثر ملموس لدي الدول المجاورة، التي تفسره علي أنه خسارة في نفوذها .

وعلي الرغم من حرص دول المنطقة علي بقاء النزاعات الثنائية أو المتعددة الأطراف حول قضايا السيادة تحت السيطرة، وعدم تحولها لعامل تهديد للأمن والاستقرار الإقليمي ، فإن ذلك لم يمنع من وجود أطر أخري للتنافس الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي، فانتزعت الصين مركز اليابان كثاني أكبر

اقتصادات في العالم، ومن المتوقع أن تنافس الولايات المتحدة علي مركزها الأول عام ٢٠٢٥، كما تتنافس مع عملاق إقتصادي آخر هو الهند .

وقد أثرت طبيعة الخلاف الاستراتيجي والجغرافي والتجاري، وشبكة التحالفات الدولية والإقليمية في حجم التعاون في النشاط الفضائي .تدعم الولايات المتحدة النشاط الفضائي لليابان، الحليف التقليدي، والهند، إلي جانب تايوان وكوريا الجنوبية، بينما تتعاون الصين مع باكستان وروسيا وكوريا الشمالية والدول الصغري في جنوب شرق آسيا التي تضم أقليات صينية .

كما تقدمت خطي التعاون بين اليابان والهند بعقد إتفاقية التعاون في إدارة الأزمات في النشاط الفضائي. وتري الولايات المتحدة دورا للهند واليابان في تحقيق التوازن الاستراتيجي مع الصين، وهو ما أثار بالتبعية مخاوف الصين من سعي الولايات المتحدة لتشكيل تحالف فضائي آسيوي ضدها .

وترغب الهند من جانبها في زيادة قدرتها الفضائية في مجال مراقبة الأنشطة العسكرية الصينية علي خط الحدود الهندية. ويجذب اليابان للتعاون مع الهند النمو السريع لقدرات الصين الفضائية. ودفع تقدم الهند في الفضاء باكستان إلي أن طلبت من الولايات المتحدة وروسيا تجنب التعاون مع الهند في مجال الفضاء والصورايخ الباليستية وفي إطار مواجتها مع الهند، تمتلك باكستان برنامج صواريخ باليستية ومتوسطة المدي قادرة علي إطلاق منظومات تتصدي للأقمار الصناعية .

يمتد الاهتمام بالفضاء في الصين واليابان والهند من البعد التكنولوجي إلي إعتبارات الحفاظ علي النمو الاقتصادي، والاستقرار الاجتماعي والسياسي والعسكري، حيث تري فيه هذه الدول دفعة قوية للكرامة الوطنية والمشاركة في

تقدم الإنسانية، ووسيلة أيضا لاكتساب الشعبية في الداخل، والمكانة الدولية، حيث تسعي اليابان والهند للحصول علي مقعد دائم بمجلس الأمن .

وقد مكن معدل النمو الاقتصادي المرتفع بالصين واليابان والهند، وتدفق الاستثمارات الأجنبية وإندماجها في السوق العالمي هذه البلاد من إستيراد ما تريده من تكنولوجيا فضائية لخدمة برامجها الوطنية. وأفرز ذلك تنافسا ذا أبعاد إقتصادية وتكنولوجية فيما بين هذه الدول من جهة، وبين الولايات المتحدة والصين من جهة أخري، مع تقدم الاخيرة بوتيرة متسارعة في نشاطها الفضائي .هذا، وقد إرتبط تطور تكنولوجيا الفضاء في آسيا بظهور الأقمار الصناعية الصغيرة منخفضة التكلفة، ونمو مبيعات سوق إطلاق الأقمار التجارية التي تقدر خلال السنوات العشر القادمة بنحو ١٢٥ مليار دولار. ويأتي هذا مع إنخفاض نصيب الولايات المتحدة في سوق الفضاء الدولي من ٧٣% في عام ١٩٩٥ إلي ٢٣% عام ٢٠٠٥، ولكنها لا تزال تمتلك أكثر من نصف الأقمار الاصطناعية الموجودة في الفضاء .

تحتفظ كل من الصين واليابان والهند بمشروعها الوطني الخاص، بالإضافة إلي وجود أطر للتعاون الدولي في برامجها الفضائية، وإن كانت الصين أقلها إنفتاحا. ومثلت تلك الدول أسواقا صاعدة في مجال المنتجات الفضائية وتطبيقاتها في النواحي التجارية، والعلمية، والاتصالات، وتوقعات الأرصاد الجوية، والكشف عن الموارد الطبيعية، ومراقبة التغيرات المناخية، ورصد الكوارث الطبيعية كالزلازل، والبراكين، وحرائق الغابات، وموجات التسونامي البحرية، وإستخدام خرائط الفضائية، والتخطيط للتنمية المستدامة، وفي تطبيقات الطب والتعليم عن بعد، ومكافحة الجريمة كالقرصنة في أعالي

البحار، وحماية الأمن الغذائي، و يعد الفضاء مصدرا للطاقة البديلة في دول تعاني نقصا في إمدادات الطاقة .

وقد أنعكس التنافس بين الصين واليابان والهند علي تطور برامجها الفضائية، والتقدم في الصواريخ الباليستية، وعدد الأقمار الصناعية التي يتم إطلاقها، وتنوع أغراضها بين الطابع السلمي والعسكري، وكذلك في عدد العلماء المدربين، وفي تخصيص الميزانيات، وفي السعي للتعاون الدولي مع غيرها في النشاط الفضائي، والإسهام في محطة الفضاء الدولية، بالإضافة لنصيب تلك الدول في السوق الدولي للمنتجات الفضائية ودورها في النمو الاقتصادي بها .

الصين قوة فضائية جامحة :

أكدت الصين في وثيقة أصدرتها عام ٢٠٠٢ أن الهدف من برنامجها الفضائي هو الحفاظ علي مصالحها القومية، وتنفيذ إستراتيجيتها في التنمية، وتنفيذ سياسة دفاعية قوية، وإستكشاف الفضاء لتوظيفه لخدمة الأغراض السلمية، والخوف من تمكن الولايات المتحدة من الاستعداد لحروب الفضاء في المستقبل .

وقد أثار قيام الصين في عام ٢٠٠٧ بتدمير القمر الصناعي الصيني " فنج يون ١سي " المخصص لأبحاث الأحوال الجوية في الفضاء الخارجي - حيث ضربته بصاروخ مضاد للأقمار الصناعية - مخاوف اليابان والولايات المتحدة وتايوان وروسيا والاتحاد الأوربي من خطر تطوير تلك القدرات وتوجيهها ضد الأقمار الصناعية الأمريكية في الفضاء. وبالرغم من تأكيد الصين الالتزام

بالتجارب السلمية لتطوير أبحاث الفضاء الخارجي، فإن برنامج الفضاء يقع تحت سيطرة جيش التحرير الصيني، ويوفر له خبرة في الاتصالات وتكنولوجيا الصواريخ، وقدرات الحرب ضد الأقمار الصناعية. ولم تكن هذه التطبيقات العسكرية للبرنامج الصيني خافية عن أعين اليابان والهند اللتين عبرتا عن قلقهما البالغ من هذا الوضع. وأكدت وزارة الدفاع الأمريكية أنه نظرا للتطور الصيني من ناحية، والاعتماد العسكري الأمريكي علي الفضاء من ناحية أخري، فإنه قد يندلع مستقبلا صراع في الفضاء بين الدولتين، وقد تكون شرارته الخلاف حول جزيرة تايوان .

تعتزم الصين إقامة قاعدة لها دائمة علي سطح القمر، والقيام بتطوير أنظمة التشويش والتعطيل لأنظمة تحديد المواقع، وبناء وتصميم مركبات تعمل كجسم طفيلي لتدمير تكنولوجيا الأقمار الصناعية، فضلا عن تدعيم إمكاناتها في مجال إطلاق الأقمار الصناعية المختلفة .

وتعد الصين ثالث بلد في العالم يبعث بالإنسان خارج الكوكب بعد الولايات المتحدة وروسيا، ويقدر أنها من الممكن أن تصبح قادرة علي إرسال رواد فضاء للقمر، بحلول عام ٢٠٢٥، وإستكشاف كوكب المريخ بحلول عام ٢٠١٣، وكوكب الزهرة بحلول عام ٢٠١٥ .

الهند قوة فضائية في الطريق :

يشهد برنامج الفضاء في الهند تقدما ملموسا بما يجعلها في مصاف الدول الرائدة كالبرازيل وروسيا والصين، وتتمتع بمزية عقد إتفاق إستراتيجي مع

الولايات المتحدة في المجالات النووية والفضائية والصاروخية، إلي جانب تعاونها مع روسيا وإسرائيل المتقدمة في النشاط الفضائي .

حققت الهند نجاحات في تطبيقات الفضاء بما جعلها تقارب الصين باستثناء مجالات المركبات المأهولة وإستكشاف الفضاء. وعلي الرغم من تأكيد الهند أن تقدمها في مجال الصواريخ وتكنولوجيا الأقمار الصناعية لن يتم توظيفة عسكريا، فإنها تقدمت في التطبيقات العسكرية كمهام الاستطلاع ، والتحكم، والسيطرة، ودعم برنامج الصورايخ الباليستية متوسطة المدي، فضلا عن إرتباط منظمة الفضاء بوزارة الدفاع الهندية .

وتهدف الهند من برنامجها الفضائي إلي الحفاظ علي أمنها القومي الإقليمي، خاصة في إطار توتر علاقاتها مع باكستان، ومواجهة الصين ببناء قدرات ذاتية في مجال الصواريخ الدفاعية، وذلك خوفا من ضرب باكستان أو الصين الأقمار الصناعية للهند. وتتخوف الهند من نقل تكنولوجيا الصين في مجال قصف الأقمار الصناعية في الفضاء إلي باكستان لموازنة المساندة الأمريكية للهند. ويعزز من هذه المخاوف وجود إتفاق بين الصين وباكستان للتعاون في مجال التكنولوجيا المتقدمة، قدرت قيمته بنحو ٢٢٢ مليون دولار عام ٢٠٠٩، إلي جانب سعي باكستان لإطلاق أول أقمارها الصناعية عام ٢٠١١ .

وتسعي الهند لتطوير سادس برنامج فضائي للوصول إلي القمر بعد روسيا والولايات المتحدة واليابان والصين ووكالة الفضاء الأوروبية. وتخطط لإرسال أول رحلة مأهولة للفضاء بحلول ٢٠١٥، وبعثة مأهولة للقمر بحلول ٢٠٢٠، وذلك بعد نجاحها في ٢٠٠٨ في إطلاق أول مركبة فضائية آلية لتصبح خامس

دولة تصل إلي المدار القمري بمساعدة أمريكية وأوروبية. وقد سمح ذلك للهند بمجاراة الصين واليابان وفتح في الوقت ذاته مجال التنافس بينها .

وتتميز الهند بوجود طلب عالمي علي خدماتها الفضائية لرخص تكلفتها عن أسعار السوق بنحو ٣٥% ، وتوافر الكوادر البشرية الماهرة، وإمتلاكها شبكة واسعة من الأقمار الصناعية التجارية، مقارنة بأي دولة أخري في العالم. وتعد العمود الفقري لنمو أسواق الهواتف الذكية والقنوات الفضائية والتنبؤ والتجسس العسكري .

اليابان قوة فضائية بدعم أمريكي :

تم إنشاء برنامج الفضاء الياباني في عام ٢٠٠٣، وتبلغ ميزانيته السنوية ٢.٥ مليار دولار أمريكي. وقد أدانت اليابان بشدة تجربة الصين في تدمير قمر صناعي عام ٢٠٠٧، وهو ما دفعها لإطلاق أربعة أقمار صناعية للتجسس في منطقة آسيا والمحيط الهادي لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم، بعد فترة لا تتعدي شهرا من التجربة الصينية .

في ٢١ مايو ٢٠٠٨، وافق مجلس الشيوخ الياباني علي قانون لائحة الفضاء الأساسية (The Basic Space Bill): والتي تدعو للعمل علي دعم أمن اليابان بتنمية استخدام الفضاء الخارجي، ومساندة كل أنشطة البحث والتطوير المتعلقة به، ودعم تنمية الصناعات الفضائية، وتحديد السياسة الفضائية، ومنع عسكرة الفضاء الخارجي وتعكس هذه اللائحة قدرا من التحرر من القيود القانونية علي تسليح اليابان، كما فتحت الباب لتطوير أقمار صناعية

لأغراض الأمن العسكري والوطني لمواجهة التهديدات التي يمثلها تقدم الصين في برنامجها الفضائي، والطموحات النووية لكوريا الشمالية .

هذا وقد سمح القانون للجيش الياباني بإطلاق أقمار صناعية للتجسس والتحذير من إطلاق صواريخ، لكنه لم يسمح بوضع أسلحة هجومية في الفضاء وجاءت تلك السياسة الجديدة بعد إنتقادات لعملية فصل تطوير برنامج الفضاء عن الجيش منذ عام ١٩٦٩، لأنها تعرقل النمو التكنولوجي، والمطالبة بألا يتم التركيز علي الأبحاث والتطوير فقط، بل أيضا علي تحقيق التوازن بين الصناعة والأمن .

وتؤكد اليابان كغيرها أهمية منع عسكرة الفضاء الخارجي ومواجه الصواريخ الباليستية عابرة القارات. وتولي وزارة الدفاع اليابانية إهتماما خاصا للتطور في الجيش الصيني لإدراكها أن التوتر بشأن تايوان سيضع الولايات المتحدة ومعها اليابان في مواجهة أو صراع مع الصين .

وسوف تصبح مسألة خلق توازن مع الصين هدفا إستراتيجيا ملحا إذا ما أنسحبت الولايات المتحدة من قواعدها في اليابان وكوريا الجنوبية. وتتطلع اليابان لبناء محطة فضائية ملائمة للبشر والهبوط علي القمر بحلول عام ٢٠٢٠، وبناء قاعدة علي سطحة بحلول عام ٢٠٣٠ ويتميز برنامج الفضاء في اليابان بالتقدم عن غيره من البرامج في الاستخدامات السلمية، مثل إطلاق مشروع لتوليد الطاقة الكهربائية من الفضاء الخارجي بحلول عام ٢٠٣٠، وإفتتاح أول فندق فضائي عام ٢٠١٢ .

التداعيات الأمنية للتقدم الصيني في الفضاء الآسيوي :

يمثل برنامج الفضاء الصيني تحديا للولايات المتحدة والهند واليابان. ورغم أن الصين تتخلف عن مواكبة التقدم الأمريكي في الفضاء بما يزيد علي أربعة عقود، فإنها تسير بخطي سريعة للحاق بالتفوق الأمريكي، وسد الفجوة بينها وبين روسيا. وتدرك الصين أن وضعها في القرن الـ ٢١ يتطلب قدرة هائلة علي امتلاك القوة الفضائية التي تؤهلها لأن تصبح قوة عظمي في المستقبل، حيث سيصبح التفوق في مجال الفضاء معيار التفوق في القرن الجديد، كما كانت القوة البحرية هي معيار القوة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، والقوة الجوية في القرن العشرين .

وقد سعت الولايات المتحدة لفرض هيمنتها علي الفضاء الخارجي، وهو ما عبر عنه تبني الرئيس السابق " بوش " إستراتيجية فضائية تدعو لحرية تحرك الولايات المتحدة، وحقها في منع الأنشطة الفضائية لأي دولة مناهضة لمصالحها إذا لزم الأمر. كما تمسكت الولايات المتحدة بمشروع مظلة الصواريخ الدفاعية، التي لا تعني سوي تحييد وشل الأسلحة النووية لجميع الدول الأخري، وحماية أجوائها بإسقاط أي صواريخ باليستية تحمل رءوسا نووية. كما سعت الإدارة الأمريكية لإنشاء قيادة عسكرية فضائية جديدة تكون مسئولة عن القوات والقواعد العسكرية الفضائية، ونشر الأسلحة الهجومية والدفاعية في الفضاء الخارجي. وقد توجت تلك السياسة بإنسحاب الولايات المتحدة من طرف واحد من معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية في ٢٠٠٢ .

وفي يونيو ٢٠١٠، تبني الرئيس 'أوباما' إستراتيجيه جديدة تجاه الفضاء الخارجي، ركزت علي أهمية التعاون الدولي في مجال الفضاء الخارجي، وعبرت عن رغبة الولايات المتحدة الملحة في البدء في معاهدة للحد من الأسلحة الفضائية، ولاقت تلك السياسة الجديدة ترحيبا من الصين ووضعتها تحت التقييم والاهتمام .

ونظرت اليابان والهند لتلك السياسة نظرة إيجابية لاعتمادهما في برنامجيهما الفضائي علي التعاون الدولي، خاصة مع الولايات المتحدة، بخلاف الصين التي تتعاون مع الخارج في أضيق الحدود، وتحاول الحفاظ علي سرية برنامجها الفضائي .

وهناك إتجاهات داخل الإدارة الأمريكية تدعو إلي تعزيز التعاون الفضائي مع الصين للحفاظ علي الطابع السلمي لبرنامجها من ناحية، ولمواجهة العجز المالي في وكالة ناسا الفضائية البالغ ميزانيتها ١٨ مليار دولار بما يهدد تفوقها في الفضاء لصالح الصين من ناحية أخري. كما تري أن من شأن ذلك دعم التعاون الدولي في إستكشاف الفضاء الخارجي .

في المقابل، يري آخرون في الإدارة الأمريكية أن التعاون مع الصين يواجه عقبات متعددة، منها سجل الصين في مجال حقوق الإنسان، وأن التعاون معها قد يساعد في إنكشاف القدرات الأمريكية في مجال الفضاء الخارجي أمام الصين، مما قد يزيد من مناخ الشك المتبادل بين الدولتين. ويري هؤلاء أن ذلك التعاون يجب أن يحظي بموافقة اليابان، الحليف الاستراتيجي، وكذلك الهند .

ويترتب علي تفوق برنامج الفضاء الصيني تداعيات أمنية بالنسبة لدول الجوار والولايات المتحدة، ومستقبل التنافس في الفضاء الخارجي. يزيد التفوق

الصيني من قابلية تعرض المصالح الحيوية العسكرية الأمريكية للخطر، خاصة ما يتعلق بالصواريخ الباليستية وصورايخ كروز التي تستمد معلوماتها من الأقمار الصناعية، وهو ما يعظم من الخطر الذي يمكن أن تواجهه الولايات المتحدة وحلفاؤها في آسيا. كما يجعل ذلك الانتصار الأمريكي في أي معركة عسكرية محتملة مع الصين باهظ التكاليف، مما يشكل قيدا في مسألة اللجوء للقوة العسكرية، ويعزز من مركز الصين التفاوضي في أي صراع قادم .

من ناحية أخري، من شأن توسع البرنامج الفضائي الصيني أن يمد ميدان المعركة والمواجهة مع الولايات المتحدة من الأرض إلي الفضاء الخارجي، وذلك لارتباط النصر في العمليات القتالية التقليدية بتكنولوجيا الفضاء .

كما يمثل هذا البرنامج تحديا إستراتيجيا للهيمنة التقليدية للولايات المتحدة علي الفضاء الخارجي، وتحديا لحلفائها في جنوب وشرق آسيا التي تتعاون مع الولايات المتحدة في المجال الفضائي كاليابان والهند. وسيؤدي التفوق الصيني في مجال الفضاء أيضا إلي تغيير موازين القوي الإقليمية، مما سيزيد العبء الأمني علي الولايات المتحدة .

والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة تعاني من عدم وجود أنظمة دفاعية علي أي من الأقمار الصناعية الخاصة بها، في الوقت الذي تتمتع فيه الصين - وربما روسيا - بالقدرة علي تدمير أقمار صناعية في المدار الأرضي المنخفض، وهو ما يشكل خطرا علي مصالح الولايات المتحدة وحلفائها وأمن الفضاء بصفة عامة .

مستقبل عسكرة الفضاء الخارجي :

علي الرغم من أن الفضاء الخارجي لم يشهد بعد حربا بالمعني التقليدي، فإن هناك إتجاها متزايدا 'لعسكرة' الفضاء، بما يهدد بتحوله لساحة حرب في المستقبل. لم يعد الهدف من سباق الفضاء مجرد السيطرة علي القمر أو استكشاف الكواكب خارج المجموعة الشمسية، كما لم يعد مقصورا علي دولتين فقط - الولايات المتحدة وروسيا - بل تشترك فيه العديد من الدول في آسيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية. ويشهد الفضاء الخارجي تزايد عدد الأقمار الصناعية لدرجة غير مسبوقة، فضلا عن إعتماد البرامج الفضائية علي السرية في شقيها المدني والعسكري، وعلي التقدم في مجال أجهزة الكمبيوتر الفائقة .

ويشكل تنامي الاستخدامات العسكرية في مجال الفضاء ضررا علي دول العالم بشكل عام، بالإضافة إلي' القوي الفضائية .

إن الدول ذات القدرات الفضائية سوف تتعرض - في حالات النزاع - إلي هجوم يمتد إلي كافة أنظمتها الفضائية، بما فيها الاستخدامات ذات الطابع المدني، مما ستكون له تأثيرات تمس الأمن الجماعي الدولي، حيث إن تعاظم الاعتماد علي الفضاء الخارجي في الاستخدامات السلمية يمثل مصلحة إستراتيجية دولية . إن زيادة عدد الدول المالكة للأقمار الصناعية تطرح إشكالية التوظيف الفعلي لهذه الأقمار، وأثر إستخداماتها العسكرية علي المنشآت المدنية والحيوية في العالم .

يضع ذلك العالم أمام ضرورة البحث عن حلول وبدائل لمنع عسكرة الفضاء .وتلعب الدول الكبري، كروسيا والولايات المتحدة، دورا مهما في هذا

الصدد، حيث يمكنها أن تعمل علي ضبط سباق التسلح في الفضاء الآسيوي لعلاقتها القوية مع اليابان والهند وباكستان، بالإضافة إلي الصين .

علي المستوي العملي، تركز الولايات المتحدة علي تخفيض قابلية إستهداف أسطولها من الأقمار الصناعية. أما أغلب الدول الأخري ذات القدرات الفضائية، فتبحث بدلا من ذلك غن إجراءات دبلوماسية وقانونية متعددة الأطراف. تشمل الخيارات المتاحة في هذا الصدد معاهدات لمنع مضادات الأقمار الصناعية، والأسلحة المنشورة في الفضاء، والإجراءات الطوعية التي قد تساعد علي بناء شفافية وثقة متبادلتين .

ويمثل التوصل لاتفاقية لمنع التسلح في الفضاء الخارجي، إلي جانب تفعيل اتفاقية الفضاء الخارجي والأجرام السماوية لعام ١٩٧٦، خطوة مهمة في سبيل الحفاظ علي أمن الفضاء. تنبع صعوبة التوصل لآليات لمنع تسلح الفضاء من أن تكنولوجيا الفضاء يمكن أن تستخدم عسكريا أو مدنيا علي حد سواء. ولذلك، يتطلب تحقيق هذا الهدف وجود دور قوي للأمم المتحدة في الحفاظ علي الاستخدام السلمي للفضاء الخارجي، بالإضافة إلي الدور الذي يمكن أن يلعبه الرأي العام العالمي، والمجتمع المدني العالمي في العمل علي فرض حظر علي نشر وإختبار وإستخدام الأسلحة في الفضاء الخارجي، ضمن إتفاقيات الحد من التسلح، وفي مواجهة تلوث الفضاء بالمخلفات والشظايا التي تمثل خطرا علي الأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض.

التنافس الإقليمي من منظور الصين :

تقع القارة الآسيوية في قلب الجدل الدائر حول مستقبل النظام الدولي، ونمط توزيع القوي بداخله. وقد ذهبت العديد من الآراء إلي أن القرن الحادي والعشرين سيكون 'قرنا آسيويا' بإمتياز، في ظل صعود قوي آسيوية كبري، مثل الصين والهند واليابان .

تقع الصين في قلب هذا الاهتمام العالمي، حيث تشير العديد من الدراسات في علم العلاقات الدولية إلي أنها في سبيلها لأن تكون اللاعب الدولي الأول. فقد تبوأت الصدارة الاقتصادية كأكبر مركز صناعي في العالم، وثاني أكبر اقتصاد عالمي من حيث الإنتاج. إلا أن هناك رأيا يؤكد أن الصين غير مؤهلة للعب مثل هذا الدور، ليس فقط لما يواجهه من مشاكل داخلية - مثل الفساد، والبطالة، والتفاوت الاقتصادي بين المناطق الداخلية والمناطق الساحلية، والنزعات الانفصالية في بعض المناطق - ولكن أيضا لأنها تواجه تحديات إقليمية ودولية، مثل التوتر الذي يشوب علاقاتها مع الولايات المتحدة، ومشكلة تايوان، والمنافسة اليابانية للمكانة الصينية، والقلق من العلاقة المتنامية بين الولايات المتحدة والهند .

لذلك، فإن الاختلاف وتضارب المصالح بين هذه القوي الآسيوية الصاعدة قد يلقي بظلال من الشك علي فرضية الصعود الآسيوي .

العلاقات الصينية – الهندية :

تعتبر الهند الصين جارا إقليميا، وربما صديقا، تعقد معه علاقات إقتصادية مثمرة جدا، لكنها في الوقت ذاته تمثل لها التحدي الاستراتيجي الأكبر. أما

الصين، فتري أنه حتي الآن لم تتمكن الهند من منافستها إستراتيجيا. لكن في حال تباطؤ نمو الإقتصاد الصيني، وإستمرار التصاعد الهندي إقتصاديا، فإن النظرة الاستراتيجية للصين تجاه الهند قد تتغير .

وبينما تثق الصين في قدرتها علي البقاء في وضع إستراتيجي أفضل من الهند، فإنها في الوقت نفسه قلقة من العلاقة المتنامية بين الهند والولايات المتحدة، خاصة أن الهند تبقي شريكا إستراتيجيا متواضعا تجاريا للصين.

الإستقرار الإقليمي علي محك الأزمة الكورية :

عاد شبح الحرب ليخيم من جديد علي منطقة شبه الجزيرة الكورية، بعد أن تصاعدت حدة التوتر بشدة في نهاية شهر نوفمبر ٢٠١٠، إثر أزمة الهجوم المدفعي الذي شنته كوريا الشمالية علي جزيرة 'دايونبيونجدو' التابعة لكوريا الجنوبية بالقرب من الحدود البحرية المشتركة في البحر الأصفر، مما أسفر عن مقتل أربعة كوريين جنوبين، نصفهم من المدنيين، والنصف الآخر من العسكريين . وبعد أيام قليلة من إندلاع هذه الأزمة، التي تعد الأخطر منذ إنتهاء الحرب الكورية في عام ١٩٥٣، ألقي رئيس كوريا الجنوبية، لي ميونج باك، خطابا حزينا ومؤثرا علي شعبه، بدأه بالاعتذار عن رد حكومته 'الضعيف' تجاه هذه الأزمة، مشيرا إلي أنه يتحمل 'المسئولية الكاملة' للفشل في حماية أرواح وممتلكات شعبه. ومن جهة أخري، أستنكر الرئيس باك أيضا بشدة تصرفات كوريا الشمالية، مشيرا إلي أنها قابلت مساعدات بلاده الانسانية المتواصلة وحرصها علي الحوار والتعايش بمجموعة من الأعمال الاستفزازية، شملت تطوير برامجها النووية والصاروخية، وإغراق مدمرتها البحرية 'تشيونان' في مارس ٢٠١٠، مما أسفر عن مقتل ٤٦ بحارا، ثم قيامها أخيرا بالقصف المدفعي

لجزيرة 'دايونبيونجدو.' وفي ضوء ذلك ،أستبعد الرئيس باك أن تقوم بيونج يانج بالتخلي الطوعي عن برامجها النووية والصاروخية، متعهدا 'بالانتقام القاسي' من كوريا الشمالية، في حال إرتكابها المزيد من الاستفزازات .

وبعد هذا الخطاب بساعات، تم تعيين الجنرال كيم كوان جين وزيرا جديدا للدفاع، خلفا لكيم تاي يونج الذي إستقال، أو أقيل، بعد القصف المدفعي لكوريا الشمالية. وتعهد وزير الدفاع الجديد بأن ترد سول بشن غارات جوية مدمرة، إذا نفذت بيونج يانج مزيدا من أعمالها الاستفزازية .

ومن أجل ردع كوريا الشمالية عن القيام بأية أعمال عدوانية في المستقبل، أجرت كوريا الجنوبية مناورات عسكرية مشتركة ضخمة مع الولايات المتحدة في البحر الأصفر، شاركت فيها حاملة الطائرات الأمريكية العملاقة جورج واشنطن .

وبعد ذلك بعدة أيام، زاد لهيب المناورات العسكرية في المنطقة، عندما دخلت قوات الدفاع الذاتي اليابانية (الاسم الرسمي للجيش الياباني) في أكبر مناورات عسكرية مشتركة علي الإطلاق مع الولايات المتحدة في عدة مواقع في اليابان وحولها لمدة ثمانية أيام في بداية شهر ديسمبر ٢٠١٠ ـ هي المناورات التي شارك فيها للمرة الأولي ضباط من كوريا الجنوبية لإظهار التضامن والتنسيق بين الدول الثلاث في التعامل مع كوريا الشمالية .

ومن ناحيتها، ألقت كوريا الشمالية بمسئولية الأزمة الأخيرة في شبه الجزيرة الكورية علي الشطر الجنوبي لقيامه بإطلاق الذخيرة الحية في المنطقة الحدودية المشتركة بين البلدين .

كما أعلنت بيونج يانج أيضا عن عزمها بناء مفاعل نووي جديد يعمل بالماء الخفيف لتلبية إحتياجاتها المتزايدة من الطاقة الكهربائية، في إشارة علي عزمها المضي قدما في تطوير برامجها النووية، بما في ذلك إجراء تجربة نووية ثالثة .

وفي الوقت نفسه، زادت حدة الأزمة بعدما نصبت كوريا الشمالية أيضا صواريخ أرض / أرض علي منصات إطلاق في البحر الأصفر، والذي هددت بتحويله إلي بحر من نار في حال تعرضها لاعتداء أو لأي إنتهاك لمياهها الإقليمية، محذرة من عواقب لا يمكن التكهن بها بسبب الخطط الهوجاء التي تتبنها الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية، مستهدفة الشعب الكوري الشمالي .

لا حرب ولا سلم :

رغم تصاعد وتيرة التوتر بين الكوريتين علي النحو السالف ذكره، وما قد يترتب علي ذلك من زيادة احتمالات عدم الاستقرار في منطقة شرق أسيا، لا يتوقع كثير من المراقبين ، أن تتصاعد الأزمة في شبه الجزيرة الكورية باتجاه الحرب الشاملة في الوقت الراهن. فالتوتر الدائم، والتصريحات النارية، والمناورات العسكرية الصاخبة، وأحيانا الاشتباكات المحدودة، هي سمات مميزة للوضع في هذه المنطقة من العالم، منذ نهاية الحرب الكورية في عام ١٩٣٥ .

ومع ذلك، يبدو في الوقت نفسه أن الحل السلمي والدبلوماسي لهذه الأزمة ليس ميسورا أو سهل المنال، نتيجة إختلاف رؤي القوي الفاعلة في المنطقة (الولايات المتحدة والصين واليابان وروسيا) حول طبيعة وشكل التسوية السلمية، الأمر الذي يدفع معظم المهتمين بالشأن الكوري إلي ترجيح إستمرار

هذه الأزمة وتداعياتها السلبية علي أمن وإستقرار منطقة شرق آسيا في المدي المنظور .

ففي الوقت الذي تدافع فيه واشنطن، وحلفاؤها في طوكيو وسول، عن اتباع منهج أكثر صرامة وتشددا مع بيونج يانج، من خلال التلويح بفرض عقوبات إقتصادية جديدة، والقيام برد عسكري قوي إذا ما تكررت الاستفزازات من الشطر الشمالي، تتمسك بكين، وتؤيدها في ذلك موسكو، باتباع منهج التهدئة والتعاون مع كوريا الشمالية عبر المحادثات السداسية .

ويؤكد الخبراء أنه ما دام هذا الاختلاف قائما في الرؤي بين القوي الرئيسية ذات العلاقة بشبه الجزيرة الكورية، فسيكون من الصعوبة بمكان اتخاذ أية خطوات إيجابية ملموسة للحل السلمي والدبلوماسي للأزمة .

ويضيف هؤلاء بالقول إن الصين والولايات المتحدة هما الدولتا الوحيدتان القادرتان علي قيادة دفة التطورات في شبه الجزيرة الكورية نحو شاطئ الاستقرار، مشيرين إلي أن التعاون الأمريكي - الصيني هو السبيل الوحيد لوضع نهاية الأزمة المستعصية علي الحل في شبه الجزيرة الكورية .

الصين الحليف الأول :

الصين هي اللاعب الأكثر أهمية في حل أزمة شبه الجزيرة الكورية، من وجهة نظر العديد من المتابعين للشأن الكوري. فهي تعتبر الحليف الأول، وربما الأوحد، لكوريا الشمالية منذ فترة طويلة، بعد أن أصبحت المصدر الرئيسي للغذاء والوقود اللازمين لعدم إنهيار النظام الحاكم في بيونج يانج، في ضوء العقوبات الاقتصادية الصارمة المفروضة عليها من جانب مجلس الأمن الدولي

وعدد من الدول المهمة في المجتمع الدولي. ومن ثم، تملك الصين نفوذا إقتصاديا وسياسيا هائلا علي قادة كوريا الشمالية .

ومن جهة أخري، يثق صانعو القرار في بيونج يانج في أن نظائرهم في بكين لديهم حرص شديد علي عدم انهيار النظام الحاكم في كوريا الشمالية، بإعتبار أن ذلك من شأنه أن يتعارض مع المصالح الصينية القومية العليا، التي تؤكد الأهمية القصوي لعدم خسارة كوريا الشمالية بوصفها حاجزا عازلا بين القوات الصينية من جهة والقوات العسكرية الأمريكية المتمركزة في كوريا الجنوبية من جهة أخري .

فضلاً عن أن المصالح الصينية العليا تشير أيضا إلي تفضيل الصينيين التعامل مع كوريا الشمالية، وربما اليابان وكوريا الجنوبية، وهي مسلحة نوويا، بدلاً من التعامل مع دولة منهارة علي حدودها المباشرة. حيث يقدر مسئولون صينيون أن بلدهم سيتدفق عليه نحو ٣٠٠ ألف نازح من الكوريين الشماليين في حالة حدوث حالة خطيرة من الفوضي وعدم الاستقرار هناك .

وهذه المصالح الصينية الجوهرية ربما تنجح في تفسير عدم قيام بكين بإدانة كوريا الشمالية طوال العام الماضي (سواء بعد إتهام سول لها بإغراق المدمرة 'تشيونان' في مارس ٢٠١٠ التابعة لكوريا الجنوبية، أو بعد القصف المدفعي للجزيرة الجنوبية في نهاية ٢٠١٠) رغم الضغوط الأمريكية واليابانية والكورية الجنوبية عليها في هذا الاتجاه .

وبدلاً من ذلك، بادرت بكين في نهاية شهر نوفمبر ٢٠١٠، وبمجرد وقوع الأزمة الأخيرة في شبه الجزيرة الكورية مباشرة، باقتراح عقد اجتماع طارئ للمحادثات السداسية. وهي المحادثات التي تشارك فيها ست دول) الصين

واليابان والولايات المتحدة وروسيا والكوريتان) من أجل بحث نزع السلاح النووي لدي كوريا الشمالية، وتطبيع العلاقات بينها من جهة، والولايات المتحدة واليابان من جهة أخري .

إلا أن المبادرة الصينية وجدت ردود فعل فاترة من جانب كوريا الجنوبية والولايات المتحدة واليابان، حيث سارعت سول إلي تأكيد أن الوقت 'غير مناسب' لعقد هذه المحادثات. وقالت واشنطن أيضا إن كوريا الشمالية عليها أولا تغيير توجهاتها الاستفزازية الحالية.

وأتبعت طوكيو الخط نفسه، مؤكدة ضرورة قيام بيونج يانج أولا بالاعتراف بمسئولياتها عن أفعالها الاستفزازية .

وذهبت إدارة الرئيس الأمريكي أوباما خطوة أبعد في الرد علي المبادرة الصينية، في إطار ضغوطها الدبلوماسية علي بكين، حيث إتهمت الخارجية الأمريكية قادة الصين بأنهم 'يساعدون 'كوريا الشمالية في تطوير برنامج تخصيب اليوارنيوم، وشن الهجمات العسكرية علي كوريا الجنوبية، مشيرة إلي أن بكين تغض الطرف عن إنتهاكات بيونج يانج لقرارات مجلس الأمن الدولي وإتفاق الهدنة لوقف الحرب الكورية في ١٩٣٥. بل إن المتحدثة باسم وزارة الخارجية الأمريكية لوحت بأن بلادها ربما تحتاج إلي إنشاء 'حلف مضاد للصين' في منطقة شرق آسيا، لأن سلوكيات بكين المهادنة تشجع قادة كوريا الشمالية علي التمادي في تصرفاتهم الاستفزازية .

تسريبات ويكيليكس :

الإنتقادات الأمريكية العلنية في الآونة الأخيرة للموقف الصيني المهادن تجاه كوريا الشمالية تتجاهل بوضوح المعلومات الواردة في الوثائق الأمريكية التي تسربت عبر موقع ويكيليكس في نهاية شهر نوفمبر ٢٠١٠. حيث تشير هذه الوثائق إلي أن التأثير الصيني في كوريا الشمالية 'أقل كثيرا مما هو متصور'، خاصة بعد أن تراجع النفوذ السياسي الصيني لدي كوريا الشمالية بدرجة ملحوظة منذ التجارب النووية والصاروخية التي أجرتها الأخيرة في عام ٢٠٠٩ م .

بل إن الصينيين أصبحوا يعتقدون أن الكرة الآن أصبحت في الملعب الأمريكي لتحقيق التقدم في المباحثات مع كوريا الشمالية عن طريق المفاوضات الثنائية المباشرة. فبحسب برقية دبلوماسية أمريكية، أكد نائب وزير الخارجية الصيني لمسئولين أمريكيين أن بيونج يانج كانت تتصرف مثل 'الطفل المدلل' لتجذب إنتباه واشنطن للمفاوضات المباشرة بإجرائها تجارب صاروخية في أبريل عام ٢٠٠٩ م.

تشدد أمريكي غير متوقع :

علي خلاف الموقف الصيني المهادن تجاه بيونج يانج من أجل تهدئة الأوضاع المتوترة في شبه الجزيرة الكورية، تميل الولايات المتحدة بشكل عام إلي إتباع منهج أكثر تشددا وصرامة تجاه كوريا الشمالية .

فعقب تبادل القصف المدفعي بين الكوريتين في نوفمبر ٢٠١٠، أكد المسئولون الأمريكيون رسالة مفادها أن 'التصرفات السيئة' من جانب كوريا

الشمالية لابد من التعامل معها بحزم وقوة من الآن فصاعدا، وأن تكرار قيام بيونج يانج لهذه التصرفات في المستقبل لن يمر دون عواقب وخيمة عليها .

كما سارعت واشنطن أيضا إلي مطالبة حلفائها بفرض عقوبات إقتصادية شاملة علي الكوريين الشماليين، والتخلي عن المحادثات السداسية الرامية إلي تفكيك البرنامج النووي الخاص بهم .

ودعا مجلس الشيوخ الأمريكي الصين إلي إستخدام نفوذها لوقف جميع الأنشطة النووية لدي كوريا الشمالية، وتحجيم تصرفاتها الاستفزازية، التي وصفها المجلس بأنها" لا تخدم إلا زعزعة الاستقرار والأمن في شبه الجزيرة الكورية .

وفي ظل هذه التوجهات العامة، أجرت واشنطن مناورات عسكرية ضخمة مع سول، إستمرت أربعة أيام، بدأت في ٢٨ نوفمبر ٢٠١٠، وشاركت فيها حاملة الطائرات الأمريكية (يو إس إس جورج واشنطن(، وفرقاطات وطائرات لمحاربة الغواصات، وطرنادات قاذفة للصواريخ، ومجهزة بنظام "إيجيس " المضاد للصواريخ الباليستية، بحسب قيادة القوات الأمريكية في كوريا الجنوبية، حيث يتمركز ٢٨٥٠٠ جندي أمريكي .

ومن ناحية ثانية، إستقبلت واشنطن، ومعها سول وطوكيو، الاقتراح الصيني الداعي إلي إحياء المحادثات السداسية بحذر وتردد، حسبما أوضحنا في السطور السابقة .

الموقف الأمريكي المتشدد من كوريا الشمالية جاء علي عكس توقعات بعض المراقبين القائلة إن واشنطن ستسعي بكل جهدها لتهدئة الأوضاع في شبه

الجزيرة الكورية حتي تتجنب بدء حرب جديدة في منطقة شرق آسيا، خاصة أن الإدارة الأمريكية الحالية إدارة الرئيس أوباما تسعي جاهدة للخروج بماء الوجه من حربيها في العراق وأفغانستان .

فضلاً عن أن مشكلات واشنطن الاقتصادية الداخلية، وإمتلاك كوريا الشمالية للسلاح النووي من شأنهما في حال وقوع أية مواجهة عسكرية مع كوريا الشمالية تعقيد الأمور بشدة أمام إدارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما .

ومن جهة أخري، رأي عدد من المراقبين أن تشدد واشنطن تجاه كوريا الشمالية غير منطقي أو مطلوب علي الأقل في الفترة الحالية، لأن هذا التشدد قد يدفع بالعلاقات بين الولايات المتحدة من ناحية وكل من الصين وروسيا من ناحية أخري، نحو توترات لا تنسجم مع حاجة الأمريكيين لتأييدهما في مجلس الأمن بخصوص عدد من الملفات الأكثر إلحاحا وأهمية للمصالح الأمريكية، مثل الملف النووي الإيراني. فما هي دوافع وأهداف هذا الموقف المتشدد وغير المتوقع من جانب واشنطن تجاه بيونج يانج ؟

<u>دوافع الموقف الأمريكي :</u>

في محاولة للرد علي هذا التساؤل، يري عدد من المراقبين أن الإدارة الأمريكية لديها أكثر من دافع لهذا الموقف المتصلب تجاه الكوريين الشماليين، بعضها يتعلق بحسابات دولية وإقليمية، وبعضها الآخر يتعلق بحسابات داخلية .

الدافع الأول : هو رغبة الإدارة الأمريكية الحالية في المحافظة علي صورتها كقوة مهيمنة علي الساحة العالمية، وتعميق تحالفها الأمني والاستراتيجي مع اليابان وكوريا الجنوبية، عن

طريق لفت نظرهما إلي وجود عدو خطير (يتمثل في كوريا الشمالية ومن خلفه الصين) في منطقة البحر الأصفر، مما يبرر وجودها العسكري المكثف في منطقة شرق آسيا. ويأتي تنامي هذه الرغبة في وقت تتصاعد فيه المطالبة الشعبية، والرسمية أحيانا، بتصفية القواعد العسكرية الأمريكية في كل من كوريا الجنوبية واليابان، لما تمثله من أعباء مالية وسياسية باهظة .

الدافع الثاني : هو رغبة واشنطن في توجيه رسالة تحذير قوية للصين، التي تزايدت قوتها العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية بوضوح في الأونة الأخيرة، مما شجعها علي إتخاذ مواقف أكثر تصلبا تجاه منازعاتها الإقليمية مع الدول المجاورة، خاصة مع اليابان بشأن الجزر المتنازع عليها في بحر الصين الشرقي .فالولايات المتحدة رأت في الموقف المتشدد تجاه كوريا الشمالية، وإجراء المناورات العسكرية مع كوريا الجنوبية واليابان في البحر الأصفر وبحر اليابان علي التوالي، وعلي بعد مئات الكيلو مترات من الحدود الصينية، لفتا لأنظار قادة الصين إلي حقيقة أنهم لن يكونوا آمنين، إذا ما أستمرت محاولاتهم لتغيير الوضع القائم في بحر الصين الشرقي .

الدافع الثالث : حاجة الرئيس الأمريكي، بعد هزيمة الديمقراطيين فى الانتخابات النصفية للكونجرس الأمريكي، للحصول علي تأييد عدد من أعضاء الحزب الجمهوري لبعض ملفاته الإصلاحية الداخلية، مقابل إحداث نوع من التوافق مع

الحزب الجمهوري في مجال السياسة الخارجية، خاصة في مجال التعامل مع الصين وكوريا الشمالية .

ومن جهة أخري، يري البعض أن التشدد الأمريكي تجاه بيونج يانج يهدف أيضا إلي الاستجابة إلي متطلبات صناعة السلاح الأمريكية، عبر إجتذاب حلفائها في شرق آسيا (كوريا الجنوبية، اليابان، تايوان، وصولا إلي الفلبين ..) إلي مشاريع دروع صاروخية دفاعية مشابهة لتلك التي يتم إنشاؤها في أوروبا الشرقية، لمواجهة 'الخطر الداهم' من جانب كوريا الشمالية .

رؤية كارتر لحل الأزمة :

وبعيداً عن دوافع وأهداف السياسة الأمريكية تجاه الأوضاع المتفجرة في شبه الجزيرة الكورية، يري عدد من المراقبين، أن السياسة الأمريكية المتصلبة، والهادفة لخنق النظام الحاكم في كوريا الشمالية، أو دفعه نحو الهاوية بفرض مزيد من العزلة الاقتصادية والدبلوماسية عليه، هي سياسة محدودة النتائج وغير فعالة في تحقيق الاستقرار في شبه الجزيرة الكورية، بل إنها تؤدي في معظم الأحيان إلي نتائج عكسية من شأنها أن تؤجج الأزمة هناك بدلا من حلها .

وتأكيداً علي وجهة النظر هذه، نشر الرئيس الأمريكي الأسبق، جيمي كارتر، في ٣٠ نوفمبر ٢٠١٠، مقالة مهمة في صحيفة واشنطن بوست الأمريكية، أكد فيها أن حل أزمة شبه الجزيرة الكورية يتطلب الاستجابة لمطالب بيونج يانج، مشيرا إلي أن تصرفاتها الأخيرة، سواء إعلانها عن إمتلاك الآلاف من أجهزة الطرد المركزي في منشأة لتخصيب اليورانيوم، أو قصفها المدفعي لجزيرة 'دايونبيونجدو' التابعة لكوريا الجنوبية، ما هي إلا رغبة منها في لفت نظر العالم إلي أنها تستحق إهتماما أكثر وإحتراما أكبر في المفاوضات السياسية

التي تجري حاليا بين الدول الست لتشكيل الملامح الرئيسية لمستقبل كوريا الشمالية.

وشدد كارتر أيضا، في مقالته المهمة، علي أن الإدارة الأمريكية الحالية لن يكون أمامها سوي التهدئة الدبلوماسية، وتجنب وقوع صدام كارثي مع كوريا الشمالية، عن طريق إجراء مفاوضات مباشرة معها، علي غرار تلك التي جرت بين البلدين في ظل إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون في جنيف عام ١٩٩٤، والتي أسفرت عن إيقاف بيونج يانج لدورة معالجة الوقود النووي، وإعادة مفتشي الوكالة الدولية للطاقة النووية إلي كوريا الشمالية لمدة ثماني سنوات .

وقال كارتر إن قيام إدارة الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش في عام ٢٠٠٠ بإعتبار كوريا الشمالية إحدي دول 'محور الشر'، بعد ظهور مؤشرات علي مساعيها الرامية لامتلاك اليورانيوم المخصب في إنتهاك صارخ لاتفاق ١٩٩٤، أدي إلي طرد بيونج يانج لمفتشي الوكالة، وإستئناف برنامجها النووي من جديد لتصبح قادرة علي صنع سبعة رءوس نووية، حسب أحدث التقديرات المتاحة حول قدراتها النووية .

وأشار كارتر أيضا إلي أن المفاوضات السداسية، التي إستمرت عدة سنوات، قد نجحت في التوصل إلي تسوية مقبولة من جميع الأطراف علي إتفاق جديد لوقف البرنامج النووي لدي كوريا الشمالية في عام ٢٠٠٥. وهو الاتفاق الذي أكد المبادئ الأساسية التي قام عليها إتفاق ١٩٩٤، مثل ضرورة إخلاء شبه الجزيرة الكورية من الأسلحة النووية، وتعهد الولايات المتحدة بعدم الاعتداء علي كوريا الشمالية، وإتخاذ الخطوات اللازمة للتوصل إلي إتفاق سلام

شامل يحل محل إتفاق وقف إطلاق النار بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية والصين، الذي تم التوصل إليه في عام ١٩٣٥ .

ويوضح كارتر أيضا أن كوريا الشمالية ستصر علي موقفها الرامي إلي إجراء مفاوضات مباشرة مع الولايات المتحدة لنزع فتيل الأزمة في شبه الجزيرة الكورية، لأن قادتها يعتقدون أن واشنطن هي التي تتحكم في المواقف العسكرية والسياسية لكوريا الجنوبية .

وأكد كارتر، في نهاية مقالته، ضرورة إستجابة واشنطن لرغبة كوريا الشمالية في إجراء مفاوضات مباشرة معها للحصول علي إعتراف دبلوماسي ومساعدات إقتصادية، مقابل موافقة بيونج يانج علي عودة مفتشي الوكالة الدولية للطاقة النووية إليها، وإخلاء شبه الجزيرة الكورية من الأسلحة النووية، والتوصل إلي إتفاق نهائي لوقف إطلاق النار، بناء علي اتفاق ١٩٩٤ والمبادئ التي أسفرت عنها المحادثات السداسية في عام ٢٠٠٥ .

وحذر كارتر من أن البديل لهذه الرؤية سيكون قيام بيونج يانج باتخاذ كافة الخطوات، التي تراها ضرورية، للدفاع عن نفسها ضد الهواجس التي تنتابها من وقوع هجوم عسكري عليها، من أجل تغيير النظام الحاكم فيها بدعم ومساندة الولايات المتحدة .

المعضلة الكورية :

لا أحد يستطيع تأكيد أن الحل الأمثل لأزمة شبه الجزيرة الكورية المزمنة يتمثل في رؤية كارتر والمواقف الصينية المهادنة تجاه كوريا الشمالية، أو في الموقف الأمريكي المتشدد حيالها. ولا أحد يعلم أيضا ما إذا كان إستمرار النظام

الحالي في بيونج يانج أو السعي لإسقاطه والقضاء عليه هو الأفضل لتحقيق الأمن والاستقرار في منطقة شرق آسيا أم لا .

وفي ضوء ذلك، يؤكد العديد من الخبراء أن الوضع لا يزال خطيرا في شبه الجزيرة الكورية، محذرين من أن الانتظار لعدة سنوات أخري، دون إحداث تقدم ملموس لتحقيق الامن والاستقرار في المنطقة، سيؤدي إلي عواقب وخيمة، من أبرزها مزيد من التطوير في القدرات النووية والصاروخية لدي كوريا الشمالية، فضلا عن مزيد من التصرفات العسكرية الاستفزازية من جانب بيونج يانج. ومن ثم يبدو للكثيرين أن الانتظار لن يكون الحل الأمثل لضمان الاستقرار والأمن في شبه الجزيرة الكورية .

وسيكون البديل، في المدي القصير، هو ضرورة التعاون الأمريكي - الصيني لتجميد البرامج النووية والصاروخية لدي كوريا الشمالية، مقابل دفع 'ثمن' مناسب بالطبع .

ولكن في المدي الطويل، ستظل أزمة شبه الجزيرة الكورية بلا نهاية، ما دامت أسرة "كيم" تسيطر علي السلطة السياسية في بيونج يانج. حيث تشير إحدي الوثائق الأمريكية التي سربها موقع ويكيليكس أخيرا إلي تخوف صانعي السياسة في سول وواشنطن من إنهيار كوريا الشمالية بحلول عام ٢٠١٨، نتيجة للأزمات الاقتصادية والسياسية التي تمر بها. حيث أكد دبلوماسي كوري جنوبي هذا التقدير للسفيرة الأمريكية في سول، كاثلين ستيفين، علي غداء عمل في شهر فبراير ٢٠١٠، مشيرا إلي أن هذا الانهيار سيحدث بعد سنتين أو ثلاث من رحيل "كيم جونج إيل" المتوقع في عام ٢٠١٥ علي الأكثر .

وفي ظل هذا السيناريو، يمكن أن نتخيل حجم الفوضي وعدم الاستقرار الذي يمكن حدوثه في المنطقة، بعد رحيل الزعيم الحالي لكوريا الشمالية "كيم جونج إيل"، نتيجة ضعف خبرة خليفته المحتمل، وهو إبنه الأصغر ذو الثمانية والعشرين ربيعا، أو كنتيجة لوقوع إنقلاب عسكري، أو لأي سبب آخر .

ولا شك في أن جميع الدول الفاعلة في شبه الجزيرة الكورية (خاصة الصين والولايات المتحدة وكوريا الجنوبية، واليابان وروسيا)، ستكون في حالة من القلق الشديد إزاء الأسلحة النووية التي تمتلكها كوريا الشمالية. وستتجه كل الأنظار إلي بكين وواشنطن من أجل التعامل مع هذا الوضع بالغ الخطورة. **وهنا، سيثور عدد هائل من الأسئلة، من أبرزها :**

هل ستثق واشنطن في الصين للسيطرة علي البلوتونيوم واليورانيوم المخصب لدي كوريا الشمالية ؟ وهل ستقبل بكين بفكرة قيام قوات كوريا الجنوبية بمحاولة إستعادة النظام والأمن بالقوة في كوريا الشمالية ؟ بل وهل ستسمح الصين بتوحيد كوريا عن طريق إستخدام القوة من جانب سول ؟ وإذا ما تحققت الوحدة الكورية، فهل ستوافق واشنطن علي خفض أو سحب قواتها من شبه الجزيرة الكورية واليابان أم لا ؟

وهل يمكن أن يدفع تدهور الأوضاع في كوريا الشمالية إلي تسامح بكين وواشنطن مع إمتلاك كل من اليابان وكوريا الجنوبية للسلاح النووي ؟ أسئلة مهمة يصعب الإجابة عليها في الوقت الراهن. ولكن يمكن توقع أن تحاول الولايات المتحدة، وحلفاؤها في اليابان وكوريا الجنوبية، التدخل المباشر للسيطرة علي الأوضاع في كوريا الشمالية. وهو الأمر الذي سيواجه علي الأرجح بالرفض الشديد من جانب الصينيين الذين لا يرغبون في رؤية الجنود الأمريكيين علي حدودهم .

بل إن عدداً من المراقبين يرجح فكرة أن بكين قد تحاول في المدي البعيد، نسبيا، إستعادة هيمنتها التاريخية علي شبه الجزيرة الكورية، بإعتبار أن الصين هي القوة الرئيسية في هذه المنطقة منذ فجر التاريخ .

وفي ظل كل هذه التوقعات والترجيحات، يمكن القول إن التوتر وعدم الاستقرار في هذه المنطقة المضطربة سيستمران لفترة طويلة مقبلة.

شراكة الصين وروسيا وتداعياتها :

منذ تفكك الاتحاد السوفيتي مطلع التسعينات وإنتهاء الحرب الباردة بين القوتين العظميين التي إستمرت زهاء النصف قرن بدا الحديث عن ميلاد نظام عالمي جديد وقد إختلفت الساسة ومحللو العلاقات الدولية حول طبيعة هذا النظام فالبعض أفرط في التفاؤل وأعتبره مولد نظام متعدد القوي أكثر ديمقراطية وتمسكا بمبادئ العدالة والقانون الدولي وتسوده قيم الليبرالية السياسية والاقتصادية وتساعد ثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات في التقريب بين أرجائه وتجاوز الحدود الجغرافية والثقافية بين الدول والشعوب ليصير الحوار هو الآلية الأساسية للتفاعل بين حضارته في إطار ما أصطلح علي تسميته بالعولمة والبعض الآخر كان أكثر واقعية حيث رأي أن النظام العالمي الجديد يتجه نحو أحادية قطبية طاغية وان صدام الحضارات أمر لا مفر منه .

والواقع أن هذا الاختلاف كان طبيعيا فكل ما شهدته حقبة التسعينات ومطلع الالفية الثالثة لم يكمن سوي مرحلة إنتقالية في النظام العالمي أتسمت بإحادية قطبية تبلورت ملامحها ووضحت بعد إحداث ١١ سبتمتبر ٢٠٠١م وتاكدت باحتلال الولايات المتحدة للعراق .

إلا أن هذه المرحلة بدأت في الالفيه مع نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين لتبدا حقبة جديدة في العلاقات الدولية تتسم بتعدد القوي وتتراجع فيها الهيمنة الامريكية تحت ضغط مشكلاتها الداخليه الاقتصادية والاجتماعية والتي بدأت تطفو علي السطح تدريجيا إلي جانب فشلها في إدارة حملاتها العسكرية في افغانستان والعراق فالإنكار الأمريكي وإنتهاء الهيمنة الأمريكية علي الشئون الدولية والاقليمية يتاكدان يوما بعد يوم في حين تزداد القوي الأخرى قوة وصعودا وهو أمر يبدو طبيعيا فتتبع تاريخ العلاقات الدولية وتطورها يؤكد أن سيطرة أي قوة علي قمة النظام الدولي مهما تطل مدتها إلي زوال وتعد القوي الاسيوية عامة والصين خاصة إحدي أهم هذه القوى الصاعدة اقتصاديا وعسكرياً .

فقد بلغت إستثمارات الصين الخارجية المباشرة في إقتصاديات الدول الأخرى ٥٦.٥ مليار دولار عام ٢٠٠٩م لتحتل المرتبة الخامسة عالميا بعد أن كانت تحتل المرتبة الثانية عشرة في قائمة أكبر المستثمرين في العالم كما تعد الصين الاسرع نموا إذ حافظت خلال العقدين الماضيين علي متوسط نمو قدره ٩.٥% في العام الواحد ووصل حجم صادرات الصين عام ٢٠٠٩ إلي ٢.١ تريلينون دولار لتتقدم علي الاويات المتحدة (واحد تريليون) واليابان (٥٨٠ مليونا) وبينما بدأت الولايات المتحدة تخطو أولي خطواتها تجاه الزام شركات الطاقة بتوليد مزيد من الكهرباء من مصادر متجددة كانت الصين سباقة إلي ذلك حيث شرعت في إستثمار مليارات الدولارات كي تصبح دولة عظمي في مجال الطاقة الخضراء وهي ماضية في طريقها لتتفوق علي الولايات المتحدة بوصفها أكبر اسواق العالم للطواحين الهوائية الحيدث التي تعمل بطاقة الرياح .

صاحب ذلك تعزيز واضح في قدرات الصين العسكرية ليس فقط من خلال إستيراد منظومات تسليحية متقدمة ولكن وهو الاهم من خلال تطوير صناعاتها العسكرية ومحاكاة المنظومات الروسية والغربية المتقدمة ومن ذلك البدء في بناء طراد بحري يحاكمى مثيله الروسي فلارياج الذي إشترته الصين في أواخر التسعينيات من القرن الماضي وصنع طائرتين منافستين لطائرات ميج ٢٩ الروسية وهما طائرتا جي – ١٠+ و اف اس -١ وتقليد الصين الطائرة المقاتلة الروسية من طراز سو – ٢٧ وسو -٣٣ التي أطلقوا عليها جي -١٥ .

وقد أختلفت ردود فعل القوي الدولية والاقلمية الأخرى تجاه هذا الصعود الصيني فعلي حين تعتبره الولايات المتحدة تهديدا مباشرا لأمنها ومصالحها وإخلال بتوازن القوي في القارة الاسيوية لغير صالحها وحلفائها التقليديين وفي مقدمتهم اليابان وكوريا الجنوبية فان روسيا ورغم ما ينتابها من قلق نسبي بالطبع من تنامي قدرات الصين المجاورة وما قد يصاحب ذلك من توسع إقتصادي ودميوجرافي صيني في الشرق الاقصي الروسي قد يشكل فيما بعد خطرا علي سيادة روسيا – فأنها أكثر قبولا بالصعود الصيني وتري أن الشراكة والتحالف هو السبيل الامثل للتعامل مع الصين وهو ما يمكن إيجازه بمقولة فلنصعد معا .

وقد أكدت القيادة الروسية دوما هذا فوصف الرئيس الروسي " فلاديمير بوتين " ، العلاقات الروسية – الصينية بأنها : تحمل طابعا إستراتيجيا وتتميز بالثقة وإرتقت إلي أعلي مستوي وأكد في أكتوبر ٢٠١٠ أن الشراكة الاستراتيجية الحقيقية القائمة بين البلدين تستجيب لمصالح الشعبين علي المدي الطويل وتساعد علي ضمان الأمن والاستقرار الدوليين وان العلاقات بين روسيا والصين قد بلغت أعلى مستوي لها حاليا علي مر تاريخها كله وهي تتصف

بتنمية التعاون الديناميكي والمتبادل المنفعة في جميع الميادين وان العلاقات الممتازة بين روسيا والصين تساعد علي توطيد الأمن والاستقرار في العالم .

وأكد الرئيس السابق " ميدفيذيف " أن الصين التي باتت اليوم واحدة من القوي الدولية البارزة تلعب دورا مهما في تعزيز علاقات حسن الجوار الاستقرار والامن في منطقة آسيا والمحيط الهادي وعلى الصعيد العالمي برمته وان العلاقات الروسية – الصينة تتيمز اليوم بطابع الشراكة الاستراتيجيةبعد أن أرتقت إلي مستوي لم يسبق له مثيل من ذي قبل .

ولعل تبادل العاملين الوطنيين بين روسيا والصين وعقد فعاليات عام روسيا في الصين ثم عام الصين في روسيا تبادليا منذ عام ٢٠٠٦م أحد أبعاد الشراكة متعددة الابعاد ومتعمقة الجذور بين روسيا والصين فروسيا تدرك جيدا التغير في ميزان القوي في العالم الذي بدا يميل بقوة لصالح الشرق وكون آسيا ساحة إستراتيجية رئيسية للقرن الحالي من النواحي الاقتصادية والساسية والعسكرية وأنه إذا لم تتكمن موسكو من توسيع نطاق حضورها في هذه القارة علي نحو كيفي فأنها مهددة بأن تكون لاعبا ثانويا ليس فقط في منطقة آسيا والمحيط الهادي وإنما علي الصعيد الدولي أيضا .

وينطلق الموقف الروسي إزاء الصين من مجموعة من العوامل التي تمثل مرتكزات للشراكة المتنامية بين روسيا والصين أهما :

١- رؤية روسيا للنظام الدولي :

منذ منتصف التسعينات بلورت روسيا تصورا إستراتيجيا فيما يتعلق بهيكل القوة في النظام الدولي وأعلنت معارضتها صراحة لهيمنة قوة واحدة علي

النظام العالمي في إشارة واضحة إلي الولايات المتحدة وعبرت عن قلقها تجاه احتمالات تنامي الهيمنة الأمريكية في ظل سعي الولايات المتحدة إلي السيطرة علي مصادر الطاقة الاساسية في العالم ومد نفوذها شرقا إلي الحدود الروسية في أوروبا الشرقية ودول الكومنولث .

وخلال مؤتمر ميونيخ للسياسات الأمنية في ١٠ فبراير ٢٠٠٧وجة بوتن إنتقادات حادة للسياسة الامريكية وأنتقدها لإستخداها المفرط للقوة الذي يكاد يكون غير خاضع للسيطرة في العلاقات الدولية – وتجاوزها حدودها الوطنية في كل إتجاه وحذر بوتن من أن قيادة الولايات المتحدة أُحادي القطب غير مقبول وأدى إلي المزيد من الحروب والصراعات في العالم .

ولا شك في أنه تصريحات بوتن كانت بمثابة تقييم للسياسة الأمريكية وتعبير عن رفض روسيا لها لما تمثله من تهديد مباشر للمصالح الروسية وهي تؤكد أن روسيا تنظر إلي السياسة الامريكية علي أنها مصدر خطر علي المصالح الروسية فموسكو تدرك أن الوجود العسكري الأمريكي في منطقة الخليج العربي وفي أفغانستان وفي العراق وفي بعض جمهوريات آسيا الوسطي هو بمثابة تطويق شامل للامن الروسي يتكامل مع إمتداد حلف الاطلنطي ونشر الدروع المضادة للصواريخ في دول أوروبا الشرقية كما تعكس تصريحات بوتن إدراك القيادة الروسية ضررة القيام بدور روسي أكثر فاعلية في مواجهة السياسة الامركية وفاعلية الدور الروسي لن تكون بالضرروة عودة إلي أجواء الحرب الباردة وإلي سباق التسلح بين موسكو وواشنطن وإنما بالسير بخطي ثابتة ولو بطيئة لإستعادة بعض مواقع النفوذ التي فقدتها روسيا منذ سقوط الاتحاد السوفيتي وتصحيح الخلل في التوازن بينهما إلي علاقة متكافئة بين

شريكين علي قدم المساواة في إطار نظام متعدد الاقطاب ينهي الاحتكار الأمريكي الانفراد في إدارة الشأن الدولي .

وفي هذا الاطار تبرز الصين كحليف أساسي وأحد الاقطاب التي تري موسكو في الشراكة معها املا أساسياً لموازنة الهيمنة الأمريكية والحد منها لاسيما في منطقة آسيا الوسطي التي تحظي باهمية خاصة لدي البلدين وأيضاً في منطقة شرق وجنوب شرق آسيا حيث الوجود الأمريكي المكثف في اليابان وكوريا الجنوبية .

٢ـ ثوابت السياسة الروسية تجاه الصين :

علي مدي ربع قرن ومنذ منتصف الثمانينات من القرن الماضي تعتبر الشراكة الروسية – الصينية منهجها ثابتا في السياسة الروسية فقد ابرز جورباتشوف إهتماما خاصا بالصين وبناء نظام أمن اقليمي وضروة تخفيف حدة التوتر الذي إكتنف العلاقات الروسية الصنيية منذ عام ١٩٦٦ حين تم قطع العلاقات بين الحزبين الشيوعيين في الاتحاد السوفيتي والصين ففي خطابه أمام المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في فبراير ١٩٨٦م أشار جورباتشوف إلي الصين بإعتبارها دولة إشتراكية عظمي وسعي إلي تحسين العلاقات معها وكانت بدايات هذا التحسن هو خطاب جورباتشوف في فلاديسفتوك في ٢٨ يوليو ١٩٨٦م الذي أكد فيه إستعداده في أي وقت وعلى أي مستوي للحوار مع الصين لإتخاذ مزيد من الإجراءات التي من شانها إقامة مناخ من حسن الجوار بين البلدين ونجح بالفعل في تسوية القضايا الخلافية بين البلدين وبدء مرحلة جديدة من التفاهم والتعاون بينهما .

وخلال زيارته لبكين في ديسمبر ١٩٩٢م أعلن الرئيس الروسي الاسبق بوريس يلتسين أن زيارته هذه أعطت لروسيا التوازن الطبيعي وأن روسيا قوة أوروبة – اسيوية كبري وأنه بالنسبة لنا يقصد روسيا لا نيمز بين الولايات المتحدة والصين والمانيا .

وقد جاء التقارب الروسي من الصين ليس فقط لإحداث التوازن في سيساتها الخارجية وإنما بهدف جذب الاستثمارات ورؤوس الأموال الصينية لروسيا وزيادة التبادل التجاري بين البلدين وفتح الاسواق الصينية أمام المنتجات الروسية خاصة في المجال العسكري حيث مثلت الصين أكبر سوق محتملة لاستيعاب مبيعات روسيا من الاسلحة المواد النووية كما أنها أكبر سوق يمكن التعامل معه من خلال المقاضية .

في هذا الإطار أكد البلدان عدم تدخل كل طرف في الشئون الداخلية للطرف الاخر واحترام الوحدة الاقليمية له فقد أكدت الصين أن قضية الشيشان هي شأن داخلي روسي يتعلق بوحدة الأراضي الروسية كما التزمت روسيا بتفادي إقامة علاقات رسمية مع تايون وأكدت دعمها للصين في هذه القضية وأعلنت أن التبت جزء لا يتجزأ من الصين .

كما إتفق الطرفان علي تجنب المواجهة واستخدام القوة ضد بعضهما بعضا وكذلك الإنضمام إلي أي تحالفات عسكرية أو سياسية موجهة ضد الطرف الآخر أو توقيع معاهدات أو إتفاقات مع طرف ثالث تمس سيادة الطرف الآخر أو مصالحه الأمنية كما إتفقا في سبتمبر ١٩٩٤ علي عدم المبادرة وبإستخدام الاسلحة النووية ضد بعضهما بعضا وإعادة توجيه الصواريخ النووية بعيدا عن أراضي كل منهما الأمر الذي مثل إنطلاقه مهمة لبناء الثقة بين البلدين والتحالف الاستراتيجى بينهما .

وقد توج هذا التفاهم الاستراتيجي حول القضايا الأمنية والعكسرية بتوقيع معاهدة أمنية بين روسيا والصين وكل من كازاخستان وطاجيكستان وقيرغيزستان وذلك خلال زيارة الرئيس يلتسين لبكين في ابريل ١٩٩٦م والتي تضمنت التعهد بعدم الاعتداء وخفض القوات وتحديد عدد ونوعية المناورات العسكرية المسموح بها في المنطقة الواقعة علي جانبي الحدود الروسية الصينية (٢٠٠كم) وحضور مراقبين من الدول الموقعة علي المعاهدات للمناورات والاعلان المسبق عنها وكانت هذه المعاهدة هي بداية منظمة شنغهاي ذات الدور المحوري في الأمن الإقليمي لمنطقة آسيا الوسطي حاليا .

ومنذ ذلك الحين شهدت العلاقات السوفيتية الصينية تحولا حذريا استمر وإزداد عمقاً وأهمية خلال العقدين التاليين .

٣ـ التفاهيم الاستراتيجي بين البلدين :

هناك تفاهم إستراتيجي وتنسيق واضح بين البلدين حول مجموعة من القضايا ذات الإهتمام المشترك وفي مقدمتها معارضة البلدين لهيمنة قوة واحدة الولايات المتحدة علي النظام العالمي كما تحترم كل منهما مصالح الطرف الآخر وما يعتبره مناطق نفوذ تمس أمنه القومي فقد أيدت الصين دور روسيا في منطقة الكومنولث وكونها منطقة للنفوذ الروسي كما أيدت أنضام روسيا إلي ... التعاون الاقتصادي للمحيط الهادي وآسيا .

وقد أكد رئيسا روسيا ديمتري ميدفيديف والصين هو جينتاو خلال لقائمهما الاخير في بكين في ٢٧ سبتمبر ٢٠١٠م إتفاق وجهات نظر الدولتين ومواقفهما من مجموعة من القضايا الدولية والاقلييمة منها مشكلات التنمية العالمية

والتغيرات المناخية ودور الامم المتحدة في مكافحة الارهاب ومنع إنتشار أسلحة الدمار الشامل والموقف من كوريا الشمالية .

ويعتبر التوافق حول الملف النووي الايراني نموذجا واضحا للتفاهم بين البلدين حيث يتفرد الموقفان الروسي والصين بإعتبارهما الأكثر تعاطفا مع ايران وتفهما لموقفها في تحد واضح للارادة الأمريكية ولكل ما تبذله الولايات المتحدة من ضغوط علي الدولتين بما في ذلك فرض العقوبات علي الشركات الروسية والصينية المتعاونة مع إيران صحيح أن الموقف الروسي أوضح كثيرا من الموقف الصيني بحكم أن روسيا هي الطرف المعني أساسا بالملف النووي الايراني لكونها الشريك الاساسي لإيران ومصدر تزويدها بالتكنولوجيا النووية إلا أن تأييد الصين الفعلي لطهران خاصة في المحافل الدولية لا يقل عن الدعم الروسي لها فكل من الصين وروسيا تؤيدانه من حيث المبدأ حق إيران في إمتلاك تكنولوجيا نووية للأغراض السلمية وأولوية دور الوكالة الدولية للطاقة الذرية في حسم الجدل حول هذا الملف وسبق أن رفضت الدولتان مراراً إصدار قرار من مجلس امناء الوكالة الدولية للطاقة الذرية يسمح بإحالة الملف الايراني إلي مجلس الأمن وراتا أنه من الضروري إتاحة الفرصة كاملة للجهود الدبلوماسية للتقريب بين وجهتي النظر الأمريكية والايرانية وعقب تحويل الملف الايراني إلي مجلس الأمن عارضت الدولتان فرض عقوبات شديدة علي إيران حيث تريان أنه من غير المناسب فرض حظر شامل علي التعامل مع ايران وان هذا سيؤدي بالضرورة إلي تعقيد أكثر للموقف كما ترفض الدولتان تماما أي تلويح باستخدام القوة أو حتى التهديد باستخدامها ضد ايران وتؤكد أن ضرورة إستمرار الإدارة الدبلوماسية لهذا الملف .

كما عبرت روسيا والصين عن قلقهما تجاه إحتمالات تنامي القوة العسكرية لليابان وهناك توافق بين البدلين حول توجيه السياسة تجاه اليابان باعتبارهما الخامس الاكبر من سياسات اليابان العسركية خلال الحرب العالمية الثانية خاصة في ظل النزاعات القائمة حول مجموعة جزر الكوريل بين روسيا واليابان وجزر سينكاكو (دوايوتاي) التي تعتبرها الصين جزءا من أراضيها ولكن تسيطر عليها اليابان .

هناك أيضا تنسيق واسع النطاق بين البلدين فيما يتعلق بالعمل من أجل تحجيم الحركات الإسلامية في آسيا الوسطي وتحقيق الاستقرار في المنقطة وينظم البلدان مناورات مشتركة كل عامين منذ عام ٢٠٠٥م تحمل إسم مهمة السلام تستهدف زيادة قدرتهما علي محافحة الارهاب والحركات العرقية الانفصالية كان أخرها تلك التي أجريت في مايو ٢٠٠٩ بمدينة خابار وفسك الواقعة بأقص شرق روسيا وتاونان الخاصة بالتدريب التكتيكي والتابعة لجيش التحرير الشعبي التي تقع في إقليم جيلين شمال شرق الصين قرب الحدود مع روسيا وكانت المناورات الكبرى من نوعها بين البلدين وشارك فيها أكثر ، ٣٠٠٠ جندي من الجانبين واكثر من ٣٠٠ ألة عسكرية ٢٢ طائرة روسية و ٤٠ طائرة صينية بينها طائرات مقاتلة ومروحيات هجومية وطائرات نقل للجنود .

٤ ـ المصالح الروسية والعائد الإقتصادي المباشر :

لقد إتبعدت السياستان الروسية والصينية عن المنطلقات الايديلوجية وصارتا براجماتية تسعي لتحقيق مصالحهما الاقتصادية بالدرجة الأولي وذلك منذ رحيل ماوتسي توجنج في الصين وانتماء الحقيقة الشيوعية في التاريخ الروسي بانهيار الاتحاد السوفيتي ولاشك في أن مصالح الطرفين المتبادلة

وشراكتهما في المجالات العسكرية والتقنية وفي مجال الطاقة تمثل حجر الزاوية في التحالف الاستراتيجي بينهما .

فالصين تمثل السوق الرئيسي للسلاح الروسي وتستأثر وحدها بما يزيد علي ٥٠% من إجمالي مبيعات الاسلحة الروسية التي تعتبرها روسيا أحد أهم مصادر الدخل القوى حيث يتراوح العائد من صادرات الاسلحة للصين وحدها بين ١ و ١.٥ مليار دولار سنوياً هذا إلي جانب العائد من تدريب الضباط الصينيين في المعاهد العسكرية الروسية أكاديمية الاركان العامة أكاديمية الاسلحة العامة أكاديمية النقل الاكاديمية البحرية ومؤسسات تربية أخرى تابعة لوزارة الدفاع .

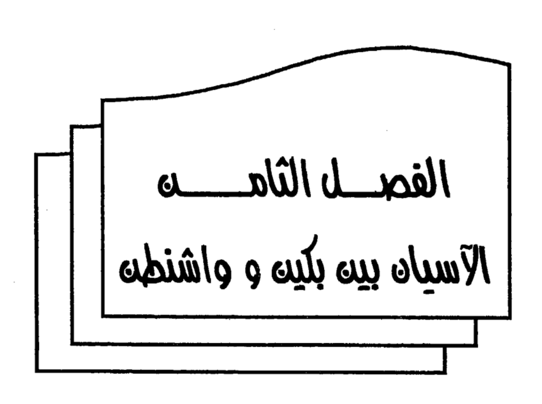
وتتلاقي مصالح البلدين أيضا في مجال الطاقة حيث تعتبر روسيا أكبر مصدر للغاز الطبيعي والنفط في حين تعتبر الصين ثاني أكبر مستهلك للنفط في العالم بعد الولايات المتحدة وقد بدا البلدان في تطوير التعاون بينهما في هذا المجال وتم الانتهاء من بناء الجزء الروسي (بطول ٧٢ كم) من خط نقل النفط الروسي – الصيني المتفرع من خط سيبريا الشرقية – المحيط الهادي باتجاه الصين في أغسطس ٢٠١٠ ويمتد من منطقة سكوفورودينو الروسية عبر منطقة موخي الحدودية حتى داتسين الصينية وأعلن أيجور سيتشين نائب رئيس الوزراء أن موسكو مستعدة لتلبية كافة إحتياجات الصين من الغاز وأن موسكو تخطط لبدء توريدات العاز إلي الصين اعتبارا من عام ٢٠١٥ ووقعت شركة غازبروم والشركة الوطنية الصينية للنفط والغاز اتفاقية حول الشروط الأساسية العامة لتوريد الغاز الطبيعي الروسي إلي الصين كما تم تطوير التعاون بين لوك أويل وشركة البترول الوطنية الصينية في مشروعين قائمين كوم كول

وبوزاتِشي الشمالية في كازاخستان وأرال في أوزبكستان إلي جانب عدد من المشاريع الواعدة في روسيا والصين والدول الأخرى .

يضاف إلي هذا التعاون في مجال الطاقة النووية حيث قامت روسيا بتشييد وحدتي الطاقة الأولي والثانية فى محطة تيان وان الكهروذرية وهي أكبر المحطات قدرة في الصين من حيث القدرة الانفرادية لكل مفاعل علي حدة وهما من طراز ماء ماء ١٠٠٠ ومجمل قدرتهما ألفا ميجاواط وتم الانتهاء من وحدة الطاقة الأولي في يونيو ٢٠٠٧م والثانية في أغسطس من العالم نفسه وتم توقيع عقد مشروع إنشاء مفاعلين أخرين بمحطة تيان تتولاه شركة اتوم ستروي اكسبورت في سبتمبر ٢٠١٠م هذا إلي جانب العديد من المشاريع المستقبلية المشتركة ومنها إقامة ثلاث مؤسسات مشتركة لإستخراج اليورانيوم في الأراضي الروسية وفي البلدان الاخري أيضاً ومنها الافريقية .

علي صعيد آخر شهد التبادل التجاري بين البلدين قفزة ملحوظة من ١٠.٧ مليار دولار عام ٢٠٠١ إلي ٦٠ مليار دولار عام ٢٠١٠ لتحتل الصين المترتبة الثانية بين شركاء روسيا التجاريين كما زادت الاستثمارات الصنيية في الاقتصاد الروسي لتصل إلي مليار دولار ومن المتوقع أن تصل إلي ١٢ مليار دولار خلال السنوات القليلة القادمة .

إن المصالح الاستراتيجية التي تربط البلدين والتحديات المشتركة لأمنهما القومي ومكانتيهما الدولية هي القوة الدافعة للشراكة الروسية ـ الصينية علي مدي ربع قرن وهي أيضا العامل الحاسم في إستمرار هذه الشراكة مستقبلا وإستمرار صعود البلدين في إتجاه قمة النظام الدولي متعدد القوي .


الفصل الثامن
الآسيان بين بكين و واشنطن

الآسيان بين بكين وواشنطن :

برغم الازمة المالية والاقتصادية العالمية التي أثرت سلبا في معظم الاقتصادات المتقدمة في العالم فقد واصلت الصين معدلات نموها العالية محققة معدل نمو بلغ ٩.١% في عام ٢٠٠٩م كما وصل إجمالي ناتجها القومي في العام نفسه إلي ٩.٠٠٥ تريليون دولار (بتعادل القوة الشرائية للدولار الأمريكي) فصعدت بذلك إلي المرتبة الثانية عالماً بعد الولايات المتحدة الأمريكية مزيحة اليابان التي تراجع إقتصادها إلي المرتبة الثالثة .

كان لهذا الصعود تداعيات مختلفة علي الصعيدين الإقليمي والدولي فقد إرتبطت الصين مع دول الآسيان والويات المتحدة بشبكة متداخلة من العلاقات التجارية والاستثمارات ولكن الصعود الصيني أصبح يهدد عددا من المصالح الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة كما أنه مثار قلق لدول الاسيان المجاورة من حيث تخوفها من تحولها إلي مرتبة الدول التابعة للصين بالإضافة إلى التدهور البيئي الناتج عن النمو غير المسبوق لحركة التصنيع في الصين .

بالنسبة للولايات المتحدة يمثل تواصل الصعود الصيني تهديدا ليهمنتها الاقتصادية والسيايسة عالميا وعلى مستوي القارة الاسيوية كما يضع ذلك الصعود الصيني في موقع المنافس للولايات المتحدة في مصادر الطاقة والمواد الخام والاسواق ومن ناحية ثالثة يهدد إنخفاض قيمة العملة الصينية المركز التنافسي للمتجات الأمريكية داخل السوق الأمريكية وخارجها أما دول الآسيان فتعاني تداعيات سياسة التصنيع من أجل التصدير فيما يتعلق بالتدهور البيئي من ناحية أخرى ترتاب دول الآسيان في سلمية الصعود الصيني وما قد يترتب عليه

من هيمنة إقليمية بالإضافة إلي الخشية من إعتماد دول الاسيان إقتصاديا من الاقتصاد الصيني ومن ثم انكشاف اقتصاداتها للتغيرات في الاقتصاد الصيني .

التوترات الصنيية – الأمريكية :

تمكن الصين خلال ثلاثة عقود من تراتكم مستويات عالية عن النمو الاقتصادي بلغ متوسطها نحو ١٠% وتصبح الثانية مباشرة بعد الولايات المتحدة أكبر اقتصاد في العالم (ناتج محلي إجمالي ١٤.٣ تريليون دولار بما يمثل ربع الاقتصاد العالمي) في الوقت الذي يتراجع فيه الاقتصاد الأمريكي (نسبة نمنو ٢.٤ % في ٢٠٠٩) وتشير دراسة حديثة لمؤسسة كارنيجي للسلام الدولي إلي أن الاقتصاد الصيني في ٢٠٥٠ سيكون أكبر بنسبة ٢٠% عن إقتصاد الولايات التحدة وإذا أستمر النمو الاقصتادي الصيني علي معدلات وهو ماتعتبره الحكومة الصينية ضروريا لتوفير ١٥ مليون فرصة عمل سنويا والحفاظ علي إستقرارها الاقتصادى والاجتماعى فقد تصبح الصين القوة الاقتصادية الاكبر في العالم خلال عدة عقود .

وقد عمقت الازمة المالية العالمية من التباين بين الصين أعلي الاقتصادات نموا والولايات المتحدة التي صار إقتصادها إلي معدلات نمو سالبة وإلي ركود بين إقتصاده هوالاكبر عالميا في احتياطي النقد الاجنبى (٢٠.٥ تريليون دولار امريكي) وأخر هو الأكثر مديونية في العالم (١٣.٢ تريليون دولار أي بنسبة ٨٨% من الناتج المحلي الاجمالي) لمواجهة هذا التهديد للمكانة الامريكية لجات إدارة أوباما إلي محاولة الضغط علي الصين لرفع قيمة عملتها كما رفعت من درجة نشاطها الدبلوماسى في منطقة الآسيان وآسيا الباسيفيكي وآسيا الوسطي حيث يبدو تمدد النفوذ الصيني في هذه المناطق علي حساب وجود

أمريكي متناقص بفعل ما أوجبته الازمة المالية من أولوية الشأن الداخلي وإعادة هيكلته وبنائه .

ولا يقتصر تمدد النفوذ الصين علي حساب الوجود الأمريكي في هذه المناطق فحسب ولكن يمتد إلي مناطق إنتاج ما يقتضيه الصعود الاقتصادي الصيني من الطاقة والمواد الخام والسلع نصف المصنعة وتامة الصنع وطرق مرورها وتسعي الصين لتامين طرق تجارتها عبر المحيط الهندى وبحر الصين الجنوبي بتكوين اسطول بحري قوي مما يشكل تحديداً للإستراتيجية الأمريكية القائمة علي منع أي قوة من تهديد التفوق العسكري الامريكي وقد كان الغزو الأمريكي لافغانستان والعراق وإحتلالهما جزءا من الاستنفاز الأمريكي ازاء ما مثله الصعود الصين منْ تحد وما كان تصريح هيلاري كلينتون وزيرة الخارجية الامريكة في مؤتمر قمة الأسيان في تايلاند يوليو ٢٠١٠ بأن الولايات المتحده تعود ثانية إلي آسيا إلا تعبير عن القلق الأمريكي إزاء تأثير الصعود الصيني في مكانة الولايات المتحدة في هذا الاقليم ويمتد قلق الولايات المتحدة علي مكانتها ليشمل المشاركة الصينية النشطة في القضايا المطروحة علي الاجندة الدولية وفي المؤسسات الدوليه حتى تلك التي كانت ساحة خالصة للولايات المتحدة كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية وقد أصبحت الصين شريكا أساسياً في التعامل مع أهم المشاكل الدولية مثل قضية تغير المناخ كما يعتبر الدور الاكبر الذي تلعبه مجموعة العشرين في قمة النظام الدولي دليلا علي إزدياد الحاجة إلي تعاون الصين وغيرها من الاقتصادات الصاعدة في مواجهة تداعيات الازمة المالية العالمية الأخيرة .

تواترت أخيراً مظاهر الشد والجذب في العلاقات الصينية الامريكية ومنها تصريحات وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون في منتدي أمن الأسيان

في ٢٣ يوليو ٢٠١٠ والتي أعنت فيها عن وقوف الولايات المتحدة إلي جانب فيتنام ودول الآسيان الأخرى في نزاعها مع الصين في بحر الصين الجنوبية والمناورات البحرية المشتركة التي جرت أخيراً بين القوات الامريكة والكورية الجنوبيه ولكن حجم التشابك والمصالح المشتركة بين قطاع الأعمال الأمريكي ونظيره الصيني – حيث إن الولايات المتحدة أكبر شريك تجاري للصين يضع سقفا قريبا لهذه التوترات كما أن التفوق الأمريكي الهائل في عناصر القوة التكنولوجية والعسكرية لا يزال يضع الولايات المتحدة في موضع القوة العظمى بمعيار القوه الشاملة في المدي المنظور .

ويأتي الفهم الصيني لمصادر الطاقة والمواد الخام والاسواق سببا ثانيا للتوتر في العلاقات الامريكية الصينية بلغت واردات الصين ٣.٩ مليون برميل من النفط يوميا في ٢٠٠٨ مقابل ١٣.٥ مليون برميل يوميا للولايات المتحدة و ٩.١ مليون برميل يوميا لاجمالي الدول الاوروبية في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية وتقدر الوكالة الدولية للطاقة أن الصين ستحل مكان الولايات المتحدة كأكبر مستورد للنفط في عام ٢٠٣٠ تدرك الصين أن حالة عدم الاستقرار التي أوجدها الغزو الأمريكي للعراق ووجود الولايات المتحدة في منطقة الخليج العربي أكبر مناطق العالم في إحتياطي وإنتاج وتصدير النفط هي أمور تمثل تهديدا لمستقبل النمو الاقتصاد الصيني مما شجع شركاتها علي القيام بأنشطة في كل مكان في العالم يوجد أو يحتمل أن يجد فيه نفط هذا وتقدم الصين سلة حوافز للدول المضيفة لنشاط شركاتها العاملة في مجال النفط سواء في أفريقيا أو امريكية الجنوبية كما تدعم وجودها في دول آسيا الوسطي تستفيد الصين من الخلافات الامريكية مع بعض الدول المتجة للنفط مثل السودان وايران لزيادة نشاطها في هذا المجال كما أن حزمة المساندة التي تقدمها الصين للدول المضيفة صلبت مواقف هذه الدول في خلافاتها مع الولايات المتحدة

(كحالة ايران) وقد أدي النهم الصيني للنفط الخام إلي ارتفاع أسعار النفط في السنوات الأخيرة .

ومن المعلوم أن النمو الاقتصادى السريع في الصين قد جعلها نهمة أيضا للاسمنت ومواد النباء لإقامة البنية التحتية ، والنحاس للصناعات الخفيفة والصلب والالومنيوم للصناعات الثقيلة فضلا عن المعادن الأخرى لصناعة السلع الاستهلاكية وقد حلت الصين مكان الولايات المتحدة كأكبر مستهلك للعالم في النحاس علما بأن الصين هي ثاني دول العالم إنتاجا له ولكنها لا تملك إحتياجات كبيرة منه وتلجا إلي إسيتراد مركزات النحاس ومكرراته وأصبحت الصين أكبر مستوردي العالم لخام الحديد إعتبارا من ٢٠٠٢م بإجمالي واردات تزيد علي ١٥٠ مليون طن وتستورد البوكسيت والالومينا لصناعة الالومنيوم التي تبلغ نسبة مساهمتها في الإنتاج العالمي منها ٢٤% وفي سعي الصين لتامين إحتياجاتها من الموارد المعدنية فأنها توجد باستثماراتها وشركاتها في أفريقيا وأمريكا اللاتينية وأشتد تنافسها علي المعروض من هذه المعادن مما كان له أثره في رفع أسعارها عالميا ونشاة كثير من النزاعات حولها .

من ناحية أدي إنتشار السلع الصينية الأرخص سعرا إلي تراجع موقع المنتجات الأمريكية في الكثير من الاسواق ومنها المواد الخام والطاقة أصبحت تجارة الصين مع العالم العربي تتجاوز ١٠٠ مليار دولار معظمها واردات نفطية للصين من العالم العربي كما تجاوزت تجارة الصين مع أفريقيا ٩١ مليار دولار في ٢٠٠٩م بعد أن كانت ٧٣.٣ مليار دولار في ٢٠٠٧ وذلك برغم تداعيات الازمة العالمية الالمية كما نمت الاستثمارات الصينية في أفريقيا من ٥٠ مليون دولار في ٢٠٠١م إلي نحو مليار دولار في ٢٠٠٨م وقد كان لهذه العلاقات الاقتصادية وما واكبها من نشاط دبلوماسي أثر في إختلاف المواقف

الصينية والامريكية حول العديد من القضايا ورما كانت المسالة الايرانية خير مثال علي ذلك .

ويأتي الخلاف الرئيسي بين الصين والولايات المتحدة حول سعر صرف العملة الصينية حيث تعتبر واشنطن أن سعرها المنخفض أحد أهم أسباب العجز الكبير في الميزان التجاري الأمريكي بل ولإنخفاض فرص العمل التي يوفرها الاقتصاد الأمريكي وهناك تقديرات بأن العملة الصينية مقومة بـ ٢٥% إلي ٤٠% اقل من قيمتها إزاء الدولار والعملات الأخرى ويشارك الاتحاد الاوروبي الولايات المتحدة في إتهام الصين بأنها تقيم "اليوان "باقل من قيمته لتحفيز نمو صادراتها مما اثر في تنافسية المنتجات الاوروبية والامريكية وازدياد هذه الضغوط سمحت الصين بارتفاع قيمة عملتها في ١٩ يونيو ٢٠١٠ بى ٣% إازدياد الدولار وبينما تضغط الولايات المتحدة علي الصين لتوجه انتاجها إلي الاستهلاك الداخلي بدلا من التصدير فان مكانة الصين كأكبر حائز لسندات الخزانة الامركية بقيمة بلغت ٨٤٧ مليار دولار في يوليو ٢٠١٠ تضع حدودا لهذه الضغوط .

تري الصين من ناحيتها أن الارتفاع السريع لقيمة عملتها من شانه تدمير إقتصادها كما تنحي باللوم علي الإدارة الامركية لمسئوليتها عن تباطؤ النمو الاقتصادى وإرتفاع الديون الأمريكية وإتباع سياسة نقدية سهلة أغرقت السوق بطبع مزيد من الدولارات ومن الجدير بالذكر أن عجز الميزان التجاري الأمريكي قد بلغ ١.٢٩ تريليون دولار في عام ٢٠١٠م مقابل عجز ١.٤ تريليون دولار في السنة السابقة وانخفضت نسبة العجز إلي الناتج المحلي الاجمالمي إلي ٨.٩% في ٢٠١٠ مقابل ١٠% في ٢٠٠٩ وهي اعلي نسبة عجز منذ ١٩٨٧ .

تسعي الإدارة الامريكية للضغط علي الصين باكثر من طريقة خاصة في إطار ما تعتبره محيطها الحيوي فعلي سبيل المثال اعلنت الإدارة الأمريكية في يناير ٢٠١٠م عن صفقة أسلحة امريكية لتايوان بقمية ٦.٤ مليار دولار كما أستقبل أوباما "الدلاي لاما" زعيم التبت وهي قضية تمثل حساسية شديدة بالنسبة للصين من ناحية أخرى يستمر التعاون الصيني الأمريكي في قضايا مكافحة الارهاب وفي المسالة النووية الكورية الشمالية وعقد لقاءات دورية عالية المستوى حول القضايا الاستراتيجية الاقتصادية وعلى الصعيد التجاري فرضت الإدارة الأمريكية ضريبة جمركية ٣٦% علي وادرات الاطارات الصينية سبتمبر ٢٠٠٩من فاتهمتها الصين بانتهاج سياسة حمائية وأخذت القضية إلي منظمة التجارة العالية وقد نجحت الصين في تكوين مجموعة ضغط مساندة لها داخل الولايات المتحدة بعد أن بلغت الاستثمارات الامريكية في الصين نحو ٤٨ مليار دولار وقد أدت المصالح الأمريكية في الصين من القوة بحيث كونت سقفا منخفضا لتصعيد أي خلاف بين البلدين .

تطور العلاقات بين الصين ودول الآسيان :

تطورت علاقة الصين بالآسيان في العقدين الاخيرين بسرعة كبيرة حيث أصبحت شريك حوار كاملا للآسيان إعتبارا من الاجتماع الوزاري ٣٩ يوليو ١٩٩٦ بجاكرتا وتصاعدت هذه العلاقات لمستوي أعلي بتوقيع الاعلان المشترك لرؤساء دول وحكومات الآسيان والصين حول الشراكة الاستراتيجية للسلام والرخاء في اجتماع القمة السابع للاسيان في أكتوبر ٢٠٠٣م في بالي بـ ندونيسيا وأعقب ذلك تبين خطط العمل الخمسية ٢٠٠٥ – ٢٠١٠ لتنفيذ هذا الاعلان في الاجتماع الثامن للقمة الاسيانية – الصينية في نوفمبر ٢٠٠٤ في فنتيان عاصمة لاوس من أجل توسيع وتعميق علاقات الحوار بطريقة شاملة

تحقق المصالح المتبادلة وتطور الشراكة الاستراتيجية من اجل السلام والتنمية والرخاء اتفق الجانبان علي التعاون في إحدى عشرة مجالا تشمل الطاقة والنقل والثقافة والصحة العامة والسياحة والزراعة وتكتنولوجيا المعلومات والاستثمارات المتبادلة بتطوير الموارد البشرية والبيئية وتطوير مجرى نهر " ميكونج " وفي ٢٠٠٦م أحتلف الجانبان بمناسبة مرور خمسه عشر عاما علي بدء علاقات شريك الحوار ليصدر عن الاحتفالية التي جرت في نانتج بالصين بيان مشترك يدفع مجالات الجانبين إلي مستوي علاقات الشراكة الاستراتيجية المتسارعة وفي هذه الفترة القصيره أصبحت الصين والاسيان يرتبطان بعدد من المواثيق المهمة في المجالين السياسي والامني منها :

- الاعلان المشترك حول التعاون الصيني – الآسياني نحو الالفية الجديدة في ١٩٩٧ .
- البيان المشترك حول التعاون في القضايا الأمنية غير التقليدية في ٢٠٠١.
- الاعلان المتشرك حول الشراكة الاستراتيجية من أجل السلام والرخاء فى٢٠٠٣م .
- الاعلان المشترك للقيمة الصينية – الاسيانية ٢٠٠٦ م

وتعد الصين أول دولة شريكة حوار للاسيان تنضم إلي معاهدة الصداقة والتعاون في جنوب شرقي آسيا وقد رحبت الصين بدور الاسيان كقوة تقود وتبادر في دعم التعاون الإقليمي مثل مبادرة الآسيان + ٣ ومنتدي الاسيان للتعاون الإقليمي وقمة شرقي آسيا ولتفعيل إعلان الأطراف حول السلوك في بحر الصين الجنوبي عقدت إجتماعات متبادلة بين الصين والاسيان في عام ٢٠٠٦م كما عقدت إجتماعات حوّل قضايا الأمن غير التقليدية ووقع الجانبان مذكرات تفاهم في يناير ٢٠٠٤م في بانكوك كماعقد جلسات تشاور منتظمة

لمحافحة الجريمة العابرة للحدود اضافة إلي جهودهما المشتركة في محافحة المخدرات .

وفي المجال الاقتصادي وقع الجانبان إتفاقاً إطارياً للتعاون الاقتصادي في نوفمبر ٢٠٠٢م لإنشاء منطقة التجارة الحرة الصينية – الآسيانية كي تتحقق كاملة لبروناي وأندونيسيا وماليزيا والفلبين وسنغافورة وتايلاند والصين في ٢٠١٠م ويمتد أجل تحقيقها إلي ٢٠١٥م إلي كمبوديا ولاوس وميانمار ولفيتنام وفي نوفمبر ٢٠٠٤م وقع الجانبان إتفاقية إنشاء آلية لتسوية المنازعات حول التجارة في السلع بدأت في النفاذ في ٢٠٠٥ وعلى هامش إجتماع القمة الاسياني – الصيني العاشر في سيبو بالفلبين وفي يناير ٢٠٠٧م وقع الجانبان اتفاقية التجارة في الخدمات والتي دخلت حيز التنفيذ من يوليو ٢٠٠٧ م وأختتم الجانبان مفاوضات اتفاقية الاستثمار في نوفمبر ٢٠٠٨م وتم توقيع الاتفاقية في أغسطس ٢٠٠٩م في بانكوك وهو ما يعنى أن الجدول الزمني للاتفاق الاطاري الاقتصادي الشامل يسير في موعده .

ولتقوية التعاون الاقتصادي بين الجانبين أعلنت الصين عن إنشاء صندوق إستثمار بقمية ١٠ مليارات دولار يختص بمشروعات التعاون الاستثماري في مجالات الطاقة وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات والموارد البشرية وتتواصل مشاورات الجانبين لعقد مذكرات تفاهم حول إنشاء المركز الصيني الاسياني والتعاوني في مجال الملكية الفكريه والقيود الفنية علي التجارة وفي ٢٠٠٨م بلغ حجم التجارة بين الجانبين ١٦٢.٥ مليار دولار بينما كان ٥٩.٦ مليار دولار فقط في ٢٠٠٣ بما يجعل الصين الشريك التجاري الثالث للآسيان في ٢٠٠٩ باجمالي ١١.٣% من إجمالي تجارة الآسيان وإضافة إلي ما سبق ذكره من وثائق فقد وقع الجانبان العديد من مذكرات التفاهم التي تغطي مجالات الصحة

والزراعة وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات والنقل والثقافة والاعلام والشباب والعلوم والتكنولوجيا .

التداعيات السلبية لصعود الصين علي دول الآسيان :

ورغم هذا التداخل الكبير بين الصين والآسيان تتضرر الأخيرة من التداعيات البيئية للصعود الصيني خاصة في إقليم نهر الميكونج .

يشمل إقليم نهر الميكونج كمبوديا ولاوس وميانمار وتايلاند وفيتنام والجنوب الغربي لمقاطعة يونان الصينية بمساحة ٢.٣ مليون كم٢ وسكان ٢٦٦ مليون نسمة وكل دولة عدا لاوس أعضاء في منظمة التجارة العالمية تعرض هذا الاقيلم لمستويات عالية من التلوث بسبب تصاعد النشاط الاقتصادي والتجاري فقد أدي نمو التجارة في الموارد الطبيعية إلي تفريغ الإقليم من هذه الموارد وإختفاء الغابات وتجريف التربة وتاثر التنوع البيولويجى والفيضانات والتيغرات المناخية والصيد الجائر الذي يستنزف المخزن السمكي ويؤثر في حياة البشر العتمدين عليه كما أن النمو الصناعي الصيني أسهم بشكل كبير في تلوث البيئة ويعاني التعاون بين الأطراف في حمية بيئة هذا الإقليم ضعف الامكانات المالية والاليات المؤسسية ومن ثم يؤدي هذا الوضع إلي تهديد التنمية المستدامة ويبلغ حجم التجارة بين أطراف هذا الاقليم ٥٣ مليار دولار (في ٢٠٠٧) وتبلغ حصة السلع الأكثر تلويثا للبيئة فيها ٢٥.٤% ومعتدلة التلويث ٦٥% والاقل تلويثا ١٢% .

أما منطقة بحر الصين الجنوبى فتمتد من مضيق ملقا في الجنوب الغربي إلي مضيق تايوان في الشمال الشرقي ويحادها نحو ٥٠٠ مليون من البشر من

الصين وتايوان والفلبين وماليزيا وبروناي وأندونيسيا وسنغافوة وكمبوديا وتايلاند وفيتنام يعد بحر الصين من أكثر مناطق العالم في التنوع البيولويجى والموارد الطبيعية كما أنه من أهم الممرات التجارية العالمية حيث يمر به أكثر من نصف أسطول الناقلات النفطية العاالمي وأكثر من نصف الاسطول التجاري العالمي وقد تاثر هذا البحر بشدة بالتلوث الذي تسبب فيه النمو الاقتصادي السريع للدول المشاطئة وأكبرها الصين هذا إضافة إلي ما يتعرض له من تهديدات إرهابية وقرصنة وعبور الهجرة غير الشرعية .

أما من حيث إنبعاثات الغازات الدفيئة المسببة للتغير المناخي فقد أصحبت الصين في تقديرات العديد من المؤسسات المعنية بهذه القضية الدولة الأولي عالميا في إنبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون حتى وإن كان نصيب الفرد من هذه الانبعثاات أقل من الفرد الأمريكي أو الاوروبي) ويعد التغير المناخي الناتج عن هذه الانبعاثات موانئ دلتا نهي اليانجتسي وبرل كما أن إرتفاع مياه المحيطات الناتج عنه سوف يهدد ممتلكات وحياة الملايين في بلاد الأسيان المجاورة .

ويعد التلوث بانبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون والزئبق والكبريت وهي نواتج إحتراق الفحم من أهم مصادر التلوث العابر للحدود حيث تعتمد الصين علي الفحم كمصدر رئيسي للطاقة فهي أكبر منتج ومستخدم للفحم في العالم ومن المتنظر أن يستمر إعتماد الصين علي الفحم بنسبة ٧٠% للعقدين القادمين ورغم أنه يوجد الآن في الصين ١٦ مدينة من أكثر ٢٠ مدينة تلوثا في العالم فأنها تخطط لانشاء ٥٦٢ مدينة من أكثر ٢٠ مدينة تلوثا في العالم تعمل بالفحم حتى عام ٢٠١٢ تسبب إحتراق الفحم في انتشار ظاهرة الامطار الحمضية التي

دمرت نحو ثلث أراضيها الزراعية كما أثرت في جودة الأراضي الزراعية والغابات في شبه الجزيرة الكورية واليابان .

تهديدات إستراتيجية :

أخذت الصين في الفترة الأخيرة موقفاً أكثر تشدداً بشأن سيطرتها علي كل منطقة بحر الصين الجنوبي بما يشمله من جزر اسبراتلي وبارسيل وهو الأمر الذي تنازعها فيه فيتنام وماليزيا والفلبين وتايوان والتي تدعي كل منها أجزاء من هذه الجزر وفي أواخر يوليو ٢٠١٠م دخلت الولايات المتحدة علي الخط معلنة رغبتها في التوسط لحل النزاع حول ملكية هذه الجزر مما أغضب الصين التي إعتبرت مسالة بحر الصين الجنوبي مسالة داخلية شانها في ذلك شأن التبت وتايوان ، ومقاطعة اكسنجيانج وتبدو أهمية بحر الصين الجنوبي كممر تجاري إستراتيجى بين اوروبا والشرق الاوسط وشرقي آسيا عابرا من المحيط الهندى إلي مضيق ملقا ثم بحر الصين الجنوبي إلي الصين وكوريا الجنوبية واليابان ولا ترغب اليابان بالطبع في سطيرة الصين علي هذا تذكر كثير من التقديرات غني جزر هذا البحر بالموارد الهيدروكربونية هذا اضافة إلي غني هذا البحر بالثروة السمكية وتسعي الصين إلي بسط سيطرتها علي هذا البحر كخطوة اولي نحو مد قوتها البحرية إلي أعالي البحار خاصة المحيط الهندي مما ينذر بتحوله إلي ساحة حديدة لتنافس القوي الكبرى في وقت تسعي فيه اليابان وكرويا الجنوبية المسعي نفسه مع وجد الأساطيل الامريكية والروسية بالفعل ، ومن الجدير بالذكر أن الصين تدعي ملكية كل إقليم بحر الصين الجنوبي وكل جزر اسبراتلي التي احتلت بعضها بقواتها العسكرية وفي ١٩٧٤م أخذت الصين جزر براسيل من فيتنام وأستمرت تفرض سيادتها عليها كما تدعي الصين أيضا ملكية جزر براتاس وتقوم دعاوي الصين علي مبادئ المنطقة الاقتصادية الخالصة

والرصيف القاري والحقوق التاريخية بينما تستند دعاوي الاسيان علي المنطقة الاقتصادية الخالصة والرصيف القاري وتقوم دعاوي تايوان علي نفس أسس دعاوى الصين بينما بروناي لا تدعي ملكية أي من جزر اسبراتلي وبراسيل ولا تدعي كمبوديا ملكية أي من هذه الجزر ولكنها تشتبك مع تايلاند وفيتنام وماليزيا في إدعاء ملكية خليج تايلاند ولا تدعي أندونيسيا أي حق في جزر اسبراتلي وبراسيل بينما تدعي ماليزيا ملكية ثلاث من جزر اسبراتلي وأقامت فندقا في إحداها ونقلت التربة من أرضها إلي جزيرة أخرى لتنميتها ولكنها لا تدعي أي حق في جزر براسيل وتدعي الفلبين ملكية جزر اسبراتلي ولا تدعي ملكية جزر براسيل وتدعي في تايلاند ملكية خليج تايلاند وقد أعلنت الصين أنها لن تتواني عن إستخدام قواتها المسلحة للدفاع عن مصالحها وحقوقها في بحر الصين الجنوبي الذي يخضع لسيادتها ولديها من الوثائق التاريخية والقانونية ما يثبت هذه الحقوق يأتي من الوثائق التاريخية والقانونية ما يثبت هذه الحقوق يأتي هذا في وقت يتصاعد فهي النزاع الياباني – الصيني حول جزر دياأويو في بحر الصين الشرقي وقد صعدت الولايات المتحدة من نشاطها الدبلوماسي في شرق آسيا حيث وطدت من علاقاتها مع فيتنام وأندونيسيا كما عرضت التوسط بين اليابان والصين وبين دول آسيان والصين لحل هذه النزاعات الحدودية .

أما عن العلاقات الاقتصادية فقد بلغ حجم التجارة بين الصين والأسيان ١٣٦.٥ مليار دولار في النصف الأول لعام ٢٠١٠ بزيادة ٥٥% عن العام الماضي ٢٠٠٩ مما أنقذ الاقتصادات الآسيانية من أعباء الركود الذي يمر به الاقصادان الأمريكي والاوروبي مع توقع أن يصل إجمالي حجم التجارة الصينية – الآسيانية إلي ٢٥٠ مليار دولار خلال هذا العام وقد زادت واردات الصين من الاسيان بنسبة ٦٤% في ٢٠١٠ وزدات صادراتها إلي الاسيان بنسبة ٤٥% وقد لجات دول الآسيان في محالة لموازنة تصاعد النفوذ الصيني

إلي دعوة الولايات المتحدة وروسيا إلي حضور قمة شرقي آسيا في العاصمة الفيتامية في أكتوبر ٢٠١٠ حيث دعت ووزيرة الخارجية الامريكة لتسوية نزاعات بحر الصين الجنوبي وكفالة حرية المرور فيه وبينما تنشط الآسيان أيضا في تفعيل صيغة الاسيان + ٣ لتدخل معها إلي جانب الصين كوريا الجنوبية واليابان بما يوجد توازنا في علاقاتها الاقتصادية الخارجية فقد لجات الصين إلي تهدئة مخاوف الاسيان من خلال زيادة تعاونها معها عبر التجارة الحرة والمناطق الاقتصادية الخاصة عبر الحدود وعبر بحر الصين الجنوبي وبين دول نهر الميكونج وفي عام ٢٠١٠ أصبحت ٧٠٠٠ سلعة يتم تداولها بين الصين ودول الآسيان (المرحلة الأولية) بدون جمارك لتنشا بذلك أكبر منطقة تجارة حرة في العالم النامي تضم ١.٩ مليار نسمة بناتج محلي اجمالي ٦ تريليونات دولار تتخوف دول الاسيان من تهديد الصادرات الصينية لبعض قطاعاتها الاقتصادية ولكن من المنتظر بمرور الوقت أن تتم إعادة تخصيص الموارد في اتجاه القطاعات الأكثر تنافسية في كل من هذه الدول وقد اثبتت الصين تاريخيا مساندتها لدول الآسيان خاصة أثناء الازمة المالية الآسيوية ١٩٩٧ كما تصرفت بطريقة مسئولة حيال البرنامج النووي لكوريا الشمالية أدي التشابك الاقتصادي بين الصين والآسيان إلي أن كثيرا من حلقات الصناعة الواحدة يتم بين دول الآسيان والصين وقد دعم هذا التشابك الاقتصادي الكبير من النهج التعاوني بين الصين وجيرانها الآسيان كما أن ذلك يضع أيضا سقفا قريبا جدا يحول دون تصاعد أي خلافات تؤثر في معدلات النمو لكلا الجانبين حيث أن البيئة الاقليمية والخارجية الامنة تعد شرطاً أساسياً لإستمرار هذا النمو .

قضايا الاقليات الصينية في دول الاسيان :

وتعود ظاهرة الهجرة الصينية إلي دول جنوب شرق القارة لأقدم العصور التارخية حيث يرجعها عدد من المحللين إلي القرنين الثالث والرابع الميلاديين عندما إستقر عدد من التجار والبجاره الصينيين في عدد من الدول الاسيوية المجاروة للصين وقد أخذت أعدادهم في التزايد خلال القرون التالية إلي أن شهد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرني تزايدا ملحوظا شكل موجة رئيسية حديثة من موجات الهجرة الصينية لدول جنوب شرق القارة لأسباب تعود في المجال الداخلي إلي الحروب والضغوط الإقتصادية والمصاعب السياسية وتعود في المجال الخارجي إلي السيطرة الإستعمارية وبدايات التنمية الإقتصادية في دول المنطقة الأمر الذي أدي لزيادة الطلب علي الايدي العاملة الرخيصة التي تمثلت في العامل الصيني علي نحو خاص ثم توالت عقب هذه الهجرات في ثلاثنيات القرن الماضي خلال الفترة التي عرفت بالكساد الإقتصادي الكبير .

وقد شكل الصينيون في معظم الدول التي هاجروا إليها عدداً من الجمعيات التطوعية لاداء خدمات إجتماعية لهم حيث إنخرطوا في الأنشطة التجارية والإقتصادية ولحد ما في الأنشطة السياسية وهو الأمر الذي اتفق مع ظروف الحرب الباردة وساعد عليه عمل حكومات الدول التي هاجروا إليها علي مواجهة وحصر الأفكار الشيوعية فضلا عن أن تكوين رابطة دول جنوب شرق آسيا المعروفة اختصارا بالآسيان .

ASEAN كان هدفها الأساسي أن تكون جبهة مشتركة بين دولة تحول دون إنتشار الشيوعيه بين دول المنطقة خاصة بعد أن تبنت الصين في ذلك

الوقت مبدأ تصوير الثورة وهو ما تضمن تقديم الدعم لعدد من الاحزاب الشيوعية في دول المنطقة مثل ماليزيا والفلبين وأندونيسيا وتايلاند .

وتتناول الدراسة فيما يلي الاقليات الصينية في دول الاسيان العشر وهي أندونيسيا وتايلاند وسنغافورة والفلبين وماليزيا وبروناي وفيتنام ولاوس وميانمار وكمبوديا حيث سيتم إستخدام كلمة الاقليات الصينية للاشارة أي الجماعة ككل دومنا الإشارة إلي توجهها الاجتماعي والثقافي والديني فهذه قضية أخرى تخرج عن اهداف الدارسة الحالية وسيتم ترتيبها حسب نسبة الاقلية الصينية في كل دوله من الدول العشر .

أولاً : الأقلية الصينية في سنغافورة ..

تأتي سنغافورة في علي قائمة دول الأسيان من ناحية النسبة الكلية للاقلية الصينية بها والتي تبلغ نحو ٧٧% والتي يطلق عليها المجتمع الصيني في سنغافورة نظراً لإرتفاع عددها وسيطرتها علي الإقصاد وقد شهدت الفترة ما بين إنتهاء الحرب العالمية الثانية إلي حصول سنغافورة علي الحكم الذاتي عام ١٩٥٩م تواتر عرقية عدة بين الصينيين والمالايا (١٤%) والهنود (٨%) وهي التوترات التي إستلزمت تدخل كل من الصين للدفاع عن الأقلية الصينية وماليزيا للدفاع عن الاقلية المالوية إلا أنه وبعد حصول سنغافورة علي الإستقلال الكامل عام ١٩٦٥م عقب فض الاتحاد الفيدرالي الذي أقامته مع ماليزيا عام ١٩٦٣م تبنت الحكومة سلوكا إسترضائياً تجاه الصين إتجهت بعده لتعزيز علاقاتها التجارية معها علي الرغم من عدم وجود علاقات دبلوماسية تربطهما حتى عام ١٩٨٢ .

وقد إتجهت الحكومة في مجال التعامل مع الاعراق إلي إتباع نموذج يسعي لتعزيز الانسجام العرقي وهو النموذج الذي أضفت عليه الدولة طابعاً مؤسسياً من خلال تغيير الدستور والقانون لإقرار مزيد من الحريات للاقليات العرقية حيث سمح لها بالعمل السياسي وهو ما برز من خلال إنشاء الاقلية الصينية للحزب الصيني – السنغافوري وتكوين المجلس الرئاسي لحقوق الاقليات الذي يتكون من رئيس المجلس واربعة عشر عضوا يقوم رئيس الدولة باختيارهم بناء علي توصية من مجلس الوزراء وتتمثل وظيفة المجلس الأساسية في الموافقة فيما عدا بعض الاستثناءات علي مشروعات القوانين التي صوت عليها البرلمان قبل تقديمها لرئيس الدولة لكي يوقعها فضلا عن إبداء الرأي في أي مشروع أو تشريع يسلب في رأي اللجنة إمتيازات أشخاص من آية جماعات عرقية أو دينية ولا يساوي بين الجماعات الأخرى الموجودة في الدولة بشكل مباشر أو غير مباشر كما يمكن للحكومة والبرلمان طلب النصح والمشورة من المجلس في المسائل التي تخص آية جماعة عرقية أو دينية حيث تتم مناقشات المجلس في سرية تامة .

ووفق لما سبق يتبين أن الآلية الصينية فى سنغافورة تعمل في المجالين الاقتصادي والسياسي ولا تلاقي آية قيود تتعلق بالتعليم أو حظر اللغة الصينية كما أتيح لها عام ١٩٨٦م إقامة ما أطلق عليه إتحاد رابطات العشائر الصينية في سنغافورة ليكون وصيا علي التراث الصيني في سنغافورة حيث يحفظه من الاندثار ويبقيه للأجيال الجديدة التي يسعي إلي تعليمها اللغة والثقافة الصينية حيث تعد هذه الثقافة من أكثر الثقافات بروزا في سنغافورة التي تسعي دوما لتوثيق علاقاتها الاقتصادية مع الصين والتي لم تتأثر حتى بعد أن أقامت سنغافورة روابط إقتصادية مع تايوان

ثانياً : الاقلية الصينية في ماليزيا ..

علي الرغم من أن المالايا هم سكان المالايو الاصليون فان توالي الهجرات البرية أفقدهم هذا التميز حيث جذبت طبيعة المالايو الغنية بالامكانيات الهائلة مثل الزراعة والصيد عديدا من الهجرات خاصة من جانب الصين والهند إلا أنه كان دائما بامكان المالايا التحكم في كمية الهجرات الوافدة إليهم قبل وقوعهم تحت الاستعمار البرتغالي ثم البريطاني حيث شجع الإستعمار الهجرات الاسيوية إلي المالايو للإستفادة من مهاراتهم المختلفة وهو ما ساهم في إيجاد التعددية اللغوية والثقافية الموجودة في ماليزيا إلي اليوم .

وقد قامت أزمة عرقية بين العرقيتين الرئيسيتين في البلاد وهما المالايا والصينيون اللذان كانا يمثلان نحو ٨٥% من إجمالي سكان البلاد حيث قام تحالف مصلحي ضمني بين الاستعمار البريطاني والمهاجرين الصينين الساعين للثروة وهو ما أثر سلبيا في الطبقة التجارية المالوية الأمر الذي فرض علي المالوية النزوح من المدن والمناطق الصناعية والتجارية الكبرى إلي المناطق الريفية وهو الوضع الذي أستمر إلي إستقلال ماليزيا عام ١٩٥٧م حيث أستمرت سيطرة الصينيين علي المجالات الصناعية والتجارية في البلاد إلي درجة أعاقت غيرهم خاصة المالايا من المشاركة بقوة في هذه المجالات علي الرغم من كونهم سكان البلاد الأصليين .

وعليه ووفقاً لما سبق فقد وجدت أربعة أبعاد أساسية للازمة العرقية بين المالايا والصينيين تمثلت في :

١- **البعد التاريخي** : فعلي الرغم من نشأة الخلاقات العرقية بشكل غير مباشر بين المالايا والصينيين في فترة الاحتلال البريطاني للبلاد فان الاداره

البريطانية أستطاعت إحتواءه فلم يتبلور علي شكل صراع عرقي واضح القسمات وهو الأمر الذي برز في ظل الاحتلال الياباني للبلاد إبان الحرب العالمية الثانية بعد أن ساهمت المعارك بين اليابان والصين في أثناء هذه الحرب في تعميق الكراهية المتبادلة بين الشعبين وهو ما جعل الاقلية الصينية تناهض الاستعمار الياباني للمالايو بيننا إتخذ المالايا موقفا محايدا منه وهو ما جعل الاستعمار الياباني يوفر فرصا إقتصادية وتعليمية للمالايو لم يتحها للصينيين الذين حاولوا القيام بانقلاب شيوعي في أثناء الحرب العالمية الثانية وهو المسلك الذي عارضه المالايا بحزم نظرا لتوجههم الإسلامي وهذه الثورة التي وإن لم تحدث فيها تشير بوضوح لمدي الطموح السياسي للاقلية الصنيية وبالتالي رغبتها في السيطرة السياسية بعد السيطرة الاقتصادية .

ألا أنه وفي إطار الرغبة المشتركة بين الاعراق للتلخص من الاستعمار والحصول علي الاستقلال سعت العرقيات المالوية والصينية والهندية وبعد محاولات عدة إلي التعاون للمطالبة باستقلال المالايو حيث تم تاسيس التحالف الوطني عام ١٩٥٥م مكونا من حزب الامنو منظمة تحالف اتحاد المالايا الممثل الرئيسي للمالايا والحزب الاكبر في البلاد بالإضافة لاحزاب أصغر تمثل الصينيين والهنود وهو التحالف الذي قاد البلاد إلي الاستقلال عام ١٩٥٧ م .

وهي الحقيقة التي اكدت أن عامل المصلحه وليس عامل العلاقات الاجتماعية يعد العامل الحاكم في تحديد شكل العلاقات العرقية في ماليزيا .

٢ـ **البعد القيمي** : إذا تختلف الخصائص القيمية للمالايا عن الصينين وهو البعد الذي يفسر الوضع الاقتصادي المتردي للمالايا مقابل الوضع الاقتصادي المتوفق للصيني .

فامالايا وانطلاقا من امتهانهم حرفتي الزراعة والصيد ومعيشتهم في الريف لا يسعون للمغامرات أو الحياة المعقدة بعكس الصينيين الذين تميزوا بمعيشتهم في المدن الكبرى وتفضيلهم للعمل التجاري .

٣ـ **البعد السياسي** : ورغم تعاون مختلف عرقيات الشعب الماليزي للحصول علي الاستقلال خاصة التعاون بين المالايا والصينيين فان هذا لم يمنع الصينيين من الاعتراض علي إنفراد حزب الامنوا بقيادة التحالف الوطني الحاكم وبالتالي توجيه السياسيتين الداخلية والخارجية للبلاد .

٤ـ **البعد الاقتصادي** : وعلى الرغم من السيطرة السياسية للمالايا باعتبارهم غالبية سكان المالايو فلم يمكن من المنطقي أن تقابل السيطرة تدنيا إقتصاديا يتمثل في سيطرتهم علي ما قيمته ٢.٤% من ثروة البلاد علي حين يسيطر الصينيون علي ما يزيد علي ثلث هذه الثروة وهو ما رفضه المالايا تماما وقاد إلي تفجر الخلافات العرقية بينهما عام ١٩٦٩م عقب إعلان نتائج الانتخابات النيابية التي حصلت فيها أحزاب المعارضة علي أربعين مقعدا من إجمالي مقاعد البرليمان البالغ عددها ١٠٤ مقاعد فضلا عن حصول أحزاب المعارضة علي الاغلبية في برلمانات أربعة من الولايات الماليزية وهو الوضع الذي ولد شعورا لدي المالايا بامكانية تهميشهم سياسيا إلي جانب ما يلاقونه من تهميش إقتصادي حيث إندلعت أعمال العنف بين المالايا والصينيين وهي الواقعة التي أشارت إلي مدي هشاشة التوافق الاجتماعي بين الاعراق .

وهو الأمر الذي إتجهت الحكومة الماليزية لتداركه بضرورة تحسين أوضاع المالايا لكي يصل إلي نفس الوضع الاقتصادي والتعليمي لغيرهم وخاصة الصينيين وهي الفكرة التي ترجمت عمليا من خلال ما أطلق عليه عام ١٩٧١ السياسية الاقتصادية الجديدة وتمثلت في الخطة الماليزية الثانية اللتنمية (١٩٧١ – ١٩٧٥) والتي حرصت الدول من خلالها علي القضاء علي الفقر مع القضاء علي الارتباط بين عرقية ما ومستوي إقتصادي معين وأخذت الدولة بالتالي علي عاتقها إقحام المالايا في الانشطة الاقتصادية من منطلق كونهم أصحاب الأرض الحقيين وأصحاب اللغة الرسيمة للدولة ولهم الحق بوضع شروط المواطنة المالزية بالطريقة التي تؤدى إلي إندماج الاقليات العرقية في النسيج الوطني .

كما أنه وفي إطار حل مشكلة المالايا تمت دعوتهم للاحتكاك بالعرقيات الأخرى خاصة الصينية لكسر الحاجز النفسي بينهما وإكتساب مهارات العمل والتجارة والصناعة التي يجيدها الصينيون في ماليزيا مع دعوة الصينيين للتعاون مع المالايا في الانشطة الاقتصادية حتى لا يعمق احتكار الصينين للتجارة والاعمال حالة عدم الرضا والكراهية بين العرقيتين وقد أتت السياسة الاقتصادية الجديدة بنتائج إيجابية حيث أمتلك المالايا ٣٠% من الثروة الاقتصادية للبلاد وامتلك الصينيون والهنود ٤٠% والاجانب ٣٠%.

وقد تولت الدولة بعد ذلك الإشراف علي السياسات الاقتصادية التي تصب في مجملها في مجال إستكمال دعم المالايا في المجال الاقتصادي منها سياسة التنمية القومية وخاصة ٢٠٢٠م الساعية لنقل ماليزيا إلي مصاف الدول المتقدمة بحلول عام ٢٠٢٠.

وبفعل السياسات السابقة أمكن للمالايا التطور الاقتصادي علي نحو ملحوظ وهو ما ظهر في عملهم في المجال التجاري وإشتراكهم في ملكية عديد من المشروعات الاقتصادية الكبرى عقب خصخصتها وهي نواح ساعدت إلي حد بعيد في رفع مستواهم المعيشي وساهمت بالتالي في تقليل الفجوة بينهم وبين الصينيين والاهم من ذلك أنها ضمنت بقاء الأصول والحصص التي توزعها الدولة علي سكانها الأصليين من خلال آلية معينة حث أن سبعة ملايين مالاوي من بين أثنى عشره مليون مالاوي لديهم حصص في الشركات الكبرى بشكل يضمن لهم المشاركة في الإدارة و وجني الارباح .

وعليه فقد إتجهت الدولة الماليزية لادارة قضية التعدد العرقي بها والممثل في الاعراق الثلاثة الأساسية (المالايا ٦٠%) و (الصينيون ٢٧%) والهنود٧% من خلال أسلوب التعايش السلمي بين الاعراق وتوزيع ثمار الجهد الاقتصادي بعدالة بينهم من خلال التعاون الوثيق لتحقيق المصلحة المشتركة من خلال القهر والعنف وإذكاء الخلافات ولعل بلغ مظاهر هذا التعاون بين المالايا والصينيين مد كثير من رجال الأعمال الصينين يد المساعدة لعدد من الشركات المالوية المتعثرة واشتراك عديد من رجال الأعمال الصينيين والمالايا في مشروعات استثمارية مشتركة .

وبعد وجود الاقلية الصنيية في ماليزيا عاملا داعما للعلاقات بين ماليزيا والصين والتي وإن إتسمت بقدر من الجمود والتوتر في الفترة (١٩٥٠ – ١٩٨٩) كجزء من حالة التوتر التي ميزت علاقات دول الآسيان بالصين في هذه الفترة – لعوامل عدة يعود بعضها إلي صعود الصين الاقتصادي في منطقة جنوب شرق آسيا والاختلاف الايديولوجي بينها وبين دول الآسيان فضلا عن الدعم الذي قدمته للاحزاب الشيوعية في دول الآسيان .

وتسعي ماليزيا إلي تطوير علاقتها في الوقت الحالي مع الصين لاسباب عدة أبرزها تطوير علاقات التعاون الاقتصادي في المجالات التجارية وا لاستثمارية والاستفادة في ذلك من القدرات الاقتصادية للماليزين الصينيين حيث توجد بين البلدين عديد من الاتفاقيات التجارية من خلال أطر ثنائية وجماعية كما تم تاسيس عدد من المنتديات والمجالس المشتركة بينهمنا منها مجلس التجاري الماليزي – الصيني والرابطة الاكاديمية الصنية – الماليزية ومنتدي ماليزيا الصين وجمعية الصداقة الماليزية – الصنيية فضلا عن توقيع إطار التعاون متعددة الابعاد وهو إطار التعاون الذي يغطي مجالات أساسية عدة منها التجارة والاستثمار والقانون والعلوم والتكنولوجيا والبيئة والدفاع والصناعات العسكرية .

ثالثا : الأقلية الصينية في بروناي ..

تشكل الأقلية الصينية في بروناي ما يقرب من ١٨% إلي ٢٠% من سكان بروناي ويعمل معظمهم بالتجارة حيث يكادون يسيطرون علي الساحة التجارية .

وقد أتبعت الدولة عام ١٩٨٤م عدداً من السياسات التي تقيد من حرياتهم من ذلك تشديد لوائح المواطنة حيث لا تسمح لهم إلا بعد إقامتها بالبلاد ٢٥ عاما متوالية وحظر تملكهم الأرض مع السماح فقط بالايجار لمدة سبع سنوات كحد اقصي قابلة للتجديد كما حظرت الدولة عملهم في بعض المهن مع تقييد حريتهم الدينية وإستخدام اللغة الصينية مع وجود محاولات لاستيعاب بعضهم في مجتمع المالايو المسلم واعتبار الاسلام الدين الرسمي للبلاد ويجب أن يدرس فى جميع المدارس .

رابعاً : الأقلية الصينية في تايلاند ..

تشكل الأقلية الصنيية في تايلاند ما يقرب من ١٠% - ١٢% من سكان تايلاند وهي تسيطر علي نحو ٨٠% من المصالح التجارية التايلاندية وقد مثلت ولفترة طويلة مشكلة للنظام السياسى في مجال التكامل القومي نظراً لنفوذهم التجاري وإتصالهم بدولتهم الصين .

وقد أتجه الملك راما السادس في ثلاثنيات القرن نظراً للتخوف من هيمنتهم الاقتصادية إلي الاستعباد القسري لهم من خلال سلسلة من محاولات التضييق عليهم إمتدت إلي أربعينات القرن الماضي وتمثلت في قيود عدة منها استبعادهم من ٢٧ مهنة وتامين بعض مجالات الاقتصاد ووضعه في يد الحكومة وعدم السماح بتدريس اللغة الصينية إلا في المدارس الخاصة .

فأنه وفي إطار إدارك الدولة في تايلاند لاهمية الصين وقدرتها الاقتصادية اتجهت لتدعيم العلاقات الاقتصادية معها وفي هذا الاطار عملت في تخفيف القيود المفروضة علي الأقلية الصنيية بها حيث أنها تشارك اليوم بقوة في المجال الاقتصادي بشقه التجاري من خلال أكبر الشركات التايلاندية وهم إن شاركوا في المجال السياسي من خلال الانتخابات الوطنية فانهم لا ينخرطون فيها بصفة أساسية .

خامساً : الأقلية الصنيية في أندونيسيا ..

تشير الكتابات التاريخية إلي وجود الأقليات الصينية في أندونيسيا منذ عهد الممالك في أندوينسيا عام ١٣٧٧م حيث إعتبرت أندونيسيا بؤرة إجتذبت إليها المهاجرين من الدول المجاورة نظرا لموارد الثروة الطبيعية الوفيرة بها .

وقد مر الصينين باندونيسيا بمرحلة تحول انتقلوا خلالها من كونهم جالية إلي اقلية اضحت تعد اليوم من أهم القوميات المهاجرة غير المسلمة في أندونيسيا حيث تتراوح نسبتهم الحالية ما بين ٣% و ٤% يسيطر سبعة ملايين منهم علي ٧٠% من الاقتصاد من خلال إنخراطهم في الجالات التجارية والصناعية وهو ما ساعد علي توتر العلاقات بينهم وبين الاندونيسيين .

- **<u>وتعود العوامل المؤدية إلي أثارة المشكلات بين الاندونيسيين والاقلية الصينية إلي :</u>**

١- رغبة الرئيس الاندونيسي سوهارتوا في بناء إقتصاد البلاد لتلافي أسباب الانهيار الاقتصادي الذي حدث في عهد سلفه أحد سوكارنو وهو ما دفعه للتركيز علي التنمية الاقتصادية عبر الاستثمارات .

٢- أدت سياسة الحكومة التي أنحازت إلي التعامل الإقتصادي مع تايوان إلي تحالف الاقلية الصينية من أرباب المال والخبرة مع أصحاب عديد من الشركات الاندنونسية سي وهو التحالف الذي أطلق عليه في حينه " علي بابا " .

٣- الاتهام الصريح الذي وجهته القيادة السياسية إليهم بانهم كانوا أحد الأسباب الأساسية التي تسببت في إحداث الازمة المالية الاسيوية عام ١٩٩٧من من خلال إستغلالهم لاموال صندوق الطوارئ المالية في البنك المركزي .

٤- تمسك الجيل الأول وإلي حد ما الجيل الثاني من هذه الاقلية بهويتها الصينية وتميزهما الثقافي وعدم موافقتهما بسهولة علي محاولات إدماجها في الشعب الاندونيسي وهو ما يعود بصفة أساسية للاختلاف في

العادات والتقاليد والاعتقادات حيث لم يندمجا إلي الآن هذا علي الرغم من أن المجتمع الاندونسي يتقبل الثقافة الصنيية كأحد مكونات المجتمع .

وبالنظر إلي موقف النظام السياسي من هذه الاقلية الصينية يلاحظ المحلل أنه بدا بالشد وانتهي بالجذب .

فبخلاف ماليزيا جارة أندونيسيا التي اتجهت لاتباع سياسة تقسيم السلطة والثروة بين الأقليات العرقية في البلاد فقد اتجهت أندونيسيا خاصة في عهد الرئيس سوهارتو لاتباع سياسة التمييز ضد الآقلية الصينة التي تعرضت – طوال فترة حكم سوهارتو التي استمرت زهاء ثلاثة عقود من الزمان إلي أكثر من ستين قرارا ومادة قانونية حملت تمييزا ضدهم مقابل تحويلهم إلي أداة إستثمارية شكلت مع الجيش والحزب الحاكم ما إعتبره المحللون ثلاثي الحفاظ علي حكم سوهارتو حيث عمل كثير من كبار التجار الصينيين مع الحكومة الاندونسية عبر مؤسسات الدولة خلال فترة حكمه .

وقد إتجه سوهارتو بموجب إجراءات عدة إلي محاولة ادماج هذه الاقلية الصنيية في الشعب الاندونيسي **ومن أهم هذه الإجراءات** :

١- الزام الصينيين باتخاذ أسماء أندونسية بدلا من الاسماء الصينية .
٢- عدم فتح مدارس أهلية صينية إلا في حدود معينة علي ألا يتجاوز عدد الصينين في هذه المدارس ما نسبته ٤% من الطلبة .
٣. حظر أي نوع من الاحتفالات والمراسم الدينية أو اظهار للعادات والتقاليد الصينية .

٤- ايقاف سياسة الازدواجية في الجنسية والتي كانت قائمة في اندونيسيا منذ عام ١٩٦٠ حيث تم الغاؤها عام ١٩٦٩ عقب تجميد العلاقات الدبلوماسية بين اندونسيا والصين.
٥- حظر كافة الصحف والافلام الصينية معنا لانتشار اللغة والعادات الصينية.

وعلى الرغم من هذه الإجراءات فان النظام السياسي لم يستطيع منع الاعتراف بعقيدة الصينيين – الاندونيسيين والممثلة في البوذية والكونفوشية لعصوبة هذا الفعل لإتصاله بالدين.

وعندما تولي عبد الرحمن وحيد سدة الحكم خلفا لسوهارتو شهدت الاقلية الصنيية في عهده انهاء التمييز ضدهم الأمر الذي مثل انفراجة حقيقية لأوضاعهم وهو ما برز في نواح عدة منها:

١- عقد مؤتمر مع رجال الأعمال الصينين الذين هربوا إلي سنغافورة عقب إحداث مايو ١٩٩٨من التي أحرقت ممتلكاتهم وشركاتهم
٢- الغاء معظم الإجراءات التي إتبعها الرئيس سوهارتو ضدهم حيث سمح لهم بالتغير عن أنفسهم والاحتفال باعيادهم.
٣- السماح للأقلية الصينية بالعمل في المجال السياسي حيث صار لهم حزب سياسي ووزراء في حكومته.

وبالنظر إلي اوضاع الاقلية الصينية – الاندونيسية في عصر الرئيس الحالي سوسيلو باميانج يتبين أنه يواصل سياسة سلفه فى حماية حقوقهم وتشجيعهم علي العمل لتنمية الاقتصاد الاندونيسي وقد أصدرت الدولة عام

٢٠٠٦م قانون المواطنة الذي أسقط كافة اشكال المعاملة التمييزية ضد الاقليات الدينية والعرقية ومنها الاقلية الصينية .

وتشير التقارير الأخيرة إلي سقوط نجم الصين في اندونسيا مقابل أفول نجم الولايات المتحدة فان المخاوف في أندونيسيا مقابل أفول نجم الولايات المتحدة فان المخاوف في أندونيسا من الصين لم تتلاش ولكنها تتوازن مغلفة بإطار من الاعجاب بالنجاح والصعود الاقتصادي الصيني ورغبة في الاستفادة بتدعيم التعاون المتبادل .

سادساً : الاقلية الصينية في ميانمار ..

يتراوح عدد الاقلية الصنيية في ميانمار بين ٢.٥% و ٣% من عدد سكانها وتنظر ميانمار إلي وجود الأقلية الصينية بها بعين الشك إذ تعتبرهم (مشاريع ثقافة خطر) حيث تعد ميانمار بمثابة الباب الخلفي للصين فهي دولة فقيرة ومعزولة وتعد الصين هي المانح الأساسي للمعونة لها فضلا عن كونها المورد الرئيسي للسلاح والسلع الغذائية وكثيرا ما عطلت قرارات الامم المتحدة التي كانت تنتقد بشدة خرق النخبة العسكرية الحاكمة لحقوق الإنسان ووجود عدد كبير من المشاريع الصينية التي تنفذها في ميانمار يظهر من خلالها مدي النفوذ الصيني بها منها الاتفاق الذي وقعته الدولتان عام ١٩٩٧م والذي يمتد لمدة ثلاثين عاماً ويعطي أكثر من ٢٠٠ سفينة صيد صينية حق العمل في مياه ميانمار وإنشاء ممر تجاري يعطي لمقاطعة يونان الصينية منفذا علي المحيط الهندي يمر عبر أرض ميانمار يضاف إلي هذا مشاركة عشر شركات صينية بنحو ٢٠ مشروعا من مشروعات الطاقة الكهرومائية الرئسيسية في ميانمار وهو ما يمثل مصدرا كبيرا للدخل بها .

سابعاً : الاقلية الصينية في الفلبين ..

تبلغ هذه الاقلية نسبة تتراوح ما بين ٢% و ٣% وهم يعملون أيضا بالتجاره والاقتصاد والصناعة وتصل سيطترهم علي الاقتصاد الصيني إلي نسبة تبلغ ٦٠% م من الاقتصاد الخاص بما في ذلك أكبر أربع شركات في الفلبين فضلا عن معظم المصارف والفنادق ومراكز التسوق وهو ما يجعل بعض الشركات الفلبينية الصغيرة والمتوسطة الحجم تعاني من المنافسة مع الشركات الصنيية .

وتعد الاقلية الصينية في الفبلبين من الاقليات التي تمثل نخبة قوية وعامة فإنه لا يوجد تمييز ضدهم حيث أن النظام لا يعتبر وجودهم تهديداً له وقد عمل عدد منهم في المجال السياسي ، وأصبح بعضهم من النخب السياسية ويمنح الدستور الفلبيني الجنسية الفلبينية لأبناء الصينين المولودين في الفلبين خلافا لما هو حادث في ماليزيا واندونيسيا فان التزاوج بين أفراد النخبة الصينية وابناء البلد من الفلبين يعد امرأ شائعا يعود بصورة أساسية للتقارب الثقافي بينهما .

ثامناً : الاقلية الصينية في فيتنام ..

تبلغ نسبة الأقلية الصينية في فيتنام نحو ٢% وهي أكبر أقلية في البلاد ويشاركون في الأنشطة التجارية من خلال تركزهم في المناطق الحضرية في جنوب فيتنام ويحتفظون بمستوى عال من التماسك الثقافي والمتمسك باللغة الصينية مع رفض الزواج من الفيتناميات .

وعقب الحرب الحدودية القصية التي قامت بين الصين وفيتنام عام ١٩٧٨ اتبعت فيتنام سياسة متعمدة لترحيل الصينيين من البلاد حيث غادرها بالفعل نحو ٤٥٠ ألف صيني .

فان التحرير الحديث علي الاقتصاد الفيتنامي واتجاه الحكومة لإجراء عديد من الاصلاحات الاقتصادية المهمة منذ عام ١٩٨٦ وإلي الآن فيما عرف بحركة الايحاء التي هدفت لتحويل الاقتصاد المركزي إلي نظام السوق الموجه أسهما إلي حد بعيد في إتجاه فيتنام لفك القيود علي الاقلية الصينية بها حيث تم تدشين قوانين لتشجيع الاستثمارات الأجنبية للمساح للشركات المملوكة كلياً للاجانب بالعمل في فيتنام مع الغاء نظام التحكم المركزي في أسعار السلع وتخفيف القيود الخاصة بتملك الأراضي .

وعامة فأن الأقلية الصينية في فيتنام وأن خف عنها عدد من القيود فى المجال الإقتصادي فان السلطات الفيتنامية لا تزال لا تسمح للمدراس الخاصة بالتدريس للاقلية الصينية بلغتها الصينية في ظل مناخ لا يزال مشوبا بالحذر من هذه الاقلية وعلى الرغم من ذلك توجد علاقات مهمة تربط اليوم الصين بفيتنام في مجالات التجارة والإقتصاد وتبذل جهود عدة لحل النزاع بينهما حول عدد من القضايا منها مشكلات الحدود بينهما فضلاً عن مشكلة النزاع حول جزر اسبراتلي التي تتنازع عن ملكيتها الدولتان إلي جانب ماليزيا والفلبين والتي يعتقد بوجود ثروات مهمة بها من بترول وغاز طبيعى فضلاً عن الثروة السمكية .

تاسعاً : الاقلية الصينية في كمبوديا ..

تبلغ نسبة الاقلية الصينية في كمبوديا نحو ١% ويشاركون في مجال التجاره ويشغلون مناصب مؤثرة في مجتمع الأعمال والشركات والنفادق .

وتمثل الاقلية الصينية في كمبوديا للحفاظ علي هويتها الصينية وهو ما يظهر في اللغة والمدارس الصينية فضلا عن تكوينهم عام ١٩٧١ لما عرف بالرابط الصيني للميكرونيزيا وهي أول منظمة تتكون في كمبوديا لتشمل جميع الصينين بها والتي يضاف إليها المنظمة الكمبودية الصينية التي تسعي لتقديم خدمات عدة للاقلية الصينية في كمبوديا بتقديم تصاريح الإقامة والرعاية الإجتماعية وإنشاء المدارس والمستشفيات والنوادي وتنظيم رحلات للصين ومؤتمرات للتعلم وإقامة دورات تدريبة للمعليمن الصينين حيث تعمل السفارة الصينية في كمبوديا علي دعم هذه المنظمة نظرا لدورها التجميعي المهم الذي يشبه دور النقابة .

ولا تتجه الدولة في كمبوديا إلي معاداة الاقلية الصينية بها حيث ترحب بوجودهم وتقدر دورهم في إعادة البناء الاقتصادي خاصة أن كمبوديا من أفقر دول العالم وهي حاليا في مرحلة إعادة البناء تعاني من مشكلات عدة في المجالين الصحي والتعليمي إلي جانب المجال الاقتصادي .

ووفقاً لذلك تعمل الدولة علي إجتذاب الشركات الصينية للإستثمار في كمبوديا ودائماً ما ترسل وفودا رسمية للصين منذ عام ١٩٩٨م من أجل دفع الإستثمارات الصينيه بها كما تقدم الصين مساعدات إقتصادية للتنمية الاقتصادية في كمبوديا .

عاشراً – الاقلية الصنيية في لاوس ..

لا تزيد الأقلية الصينية في لاوس غلي ١% من نسبة عدد السكان وهي شأنها شأن الاقليات الصينية في الدول الأخرى تعمل بالتجارة وتتمسك بهويتها الثقافية وتحرص علي إقامة علاقات جيدة مع الصين .

وعليه تبين من خلال الدراسة أن الأقلية الصينية في جنوب شرق آسيا وعلى نحو خاص في دول الآسيان تعد نموذجاً للإقلية المسيطرة إقتصاديا شديدة الإترابط بالصين وطنها الام وبهويتها الثقافية حيث تعبر عن قصة كفاح تاريخية تعود لقرون عدة يمكن تلخيصها في كلمات قليلة في الهروب من الظروف غير المواتية في الصين إلي ظروف أفضل في الدول المجاورة مع التصيمم علي النجاح بالتمسك بقيم العمل الجاد والادخار وقد أدي ذلك إلي تكوين ثروة بينت من الصفر حيث تمكنوا من تحقيق أهداف عدة تتمثل في رفع مكانتهم الاقتصادية وإفادة الدول الموجودين بها مع دعم دولتهم الصين بكافة الوسائل الممكنة من خلال علاقة دائمة متبادلة تربطهم بالصين وذلك علي الرغم من معاناتهم من عدد من المشكلات منها عدم الشعور بالامان في بعض الأحيان وأستمرار عدد من القيود الخاصة باللغة والتعليم وتملك الأراضي فضلا عن مشلكة عدم التجنس والتضييق السياسي وعلاوة علي عدم المساواة في المعاملة وصعوبة الحفاظ علي هويتهم فى بعض الأحيان ومن المعلوم أنه في إطار ثقافة العولمة فان الأقلية غالباً ما تسدد الثمن الاكبر من قوميتها ولغتها وإنتمائها الحضاري بوجه عام .

وتبذل الصين من ناحيتها جهودا عدة في مجال إيجاد حل لعديد من المشكلات التي تواجه الأقليات الصينية في المهجر الدياسبورا خاصة من خلال تعزيز إستراتجية التنمية السلمية بتأسيس معاهد كونفوشية لتعليم اللغة الصينية

وتحديدا داخل الجامعات الكبرى في شرق آسيا والتوسع في تدريس اللغة الصينية من خلال وسائل الاعلام خاصة الاذاعات الموجهة مع تنظيم ندوات عن الأقليات الصينية وتخصيص مجموعة من الاجهزة والمؤسسات في الصين تحرص علي التواصل معهم كما تحدد بعض المقاعد في مجلس الشعب الصيني للعائدين منهم .

وإذا أضفنا إلي هذا الدور ما تقوم به الصين في المجال الاقتصادي خاصة من خلال المعادلة الشهيرة الآسيان + ٣ وهي السياسة التي اتخذها دول الآسيان بتفعيل التعاون مع كل من الصين واليابان وكوريا الجنوبية فانه يتبين لنا مدي القوه الناعمة التي تحظي بها الصين في الاطار الآسيوى وهو ما يجعلها تعد وبحق قوة كبري في مجاله الإقليمي .

الرؤية الهندية للتحدي الصيني :

علي مدي العقدين الماضيين منذ إنتهاء الحرب الباردة في عام ١٩٩١ تبنت الهند والصين منهجا براجماتيا لتجاوز حالة الجمود التي أصابت علاقاتهما الثنائية جراء حرب عام ١٩٦٢ فشهدت هذه العلاقات إنفراجا كبيرا تجلت ملامحه في العديد من الجوانب السياسية والأقتصادية والأمنية إذ تكررت الزيارات المتبادلة بين قيادات البلدين كما زادت معدلات التبادل التجاري بينهما علي ٢٠ مليار دولار فضلاً عن الاتفاق علي العديد من إجراءات بناء الثقة في المجال الامني وبرغم هذا التحسن في تلك العلاقات الذي يمكن أن يعزي بدرجة أساسية إلي ظروف إنتهاء الحرب الباردة ومحاولة البلدين إحتواء التداعيات السلبية الناجمة عن إنتقال هيكل القوة في النظام الدولي من هيكل ثنائي القطبية إلي الأحادية القطبية فان السلوك الفعلي لهما يشير إلي أن كلا منهما تنظر إلي

الأخرى بإعتبارها تهديداً لأمنها القومي في ظل بقاء الخلاف الحدودي بينهما دون تسوية وهو الأمر الذي يمكن الاستدلال عليه من السعي الدءوب من قبل الصين لتحديث قواتها العسكرية وتعزيز وجودها البحري في المحيط الهندى ناهيك عن توثيق روابطها العسكرية ببعض البلدان المجاورة للهند مثل باكستان وميانمار ومن ثم فان الفهم السليم للعلاقات الهندية الصينية لا يمكن أن يأتى دون الأخذ في الإعتبار ما تتضمنه هذه العلاقات من فرص للنمو وإحتمالات للصراع في أن واحد .

مكانة الصين في الاستراتيجية الهندية :

مثلت حرب عام ١٩٦٢ نقطة مفصلية فارقة في هذا الخصوص علي صعيد تصور الهند للصين من مجرد منافس لها تسعي إلي احتوائه إلي عدو لها أصبحت تخشاه .

فقد تثارت رؤية الهند للصين خلال الفترة السابقة علي حرب ١٩٦٢ بحقيقة الخبرة التاريخة لعلاقاتهما الثنائية والتى لم تشهد وقوع أي حرب بينهما علي مدي الفي عام لذلك سادت قناعة انذاك لدي القاد الهنود بأن الصين لا تمثل خطرا لامن بلادهم خاصة أن نظامها الشيوعى الوليد منغمس في معالجة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الصيني ومع ذلك التصور الايجابي من جانب القادة الهنود والذي يرجع إلي رئيس الوزراء جواهر لال نهرو الفضل الاكبر في صياغته إلا أنهم لم يغفلوا حقيقة ما تمثله الصين من قوة عظمي كامنة وليس أدل علي ذلك نمن أن نهرو يشكل هيكل القوة في النظام الدولي بنهاية القرن العشرين من أربع قوي هي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين والهند ومن هذا المنطلق أنبنت إستراتيجية الهند في ظل قيادة

نهرو تجاه الصين قبل وقوع حرب ١٩٦٢ علي احتوائها وهو ما تجلي سواء في اعترافها بالنظام الشيوعي الصيني في عام ١٩٤٩ أو في إستسلامها لواقع إحتلال الصين للتبت في عام ١٩٥٠ أو في دفاعها عن حق الصين الشعبية في شغل مقعد الصين في مجلس الأمن..

وبحسب ما يذكر ميشال بريشير مؤلف السيرة الذاتيه لنهرو فان نهرو هدف من محاولاته لادماج الصين في المجتمع الدولي إلي تخفيف الاعتماد الصيني علي الاتحاد السوفيتى بما يحول دون تكون محور صني سوفيتي علي حدود الهند وهو ما كان يعني تطويق الهند بقوة عسكرية ضخمة تشكل بلا شك ضغطا عسكريا عليها ولذلك عندما تعرض نهرو لانتقادات من جانب البرلمان الهندي بسبب توقيعه إتفاقية " التبت " مع الصين في عام ١٩٥٤ التي تقر تبعية التبت للصين أشار نهرو إلي أن الهند لم يكمن بإمكانها أن تفعل غير ذلك في إطار الحقيقة الكبرى في النصف الثاني من القرن العشرين والمتمثلة في أن الصين أصبحت قوة عظمي موحدة وقوية وقد تطلب ذلك من وجهة نظر نهرو ضرورية إحترام حقائق القوة النسبية في العلاقات الدولية .

هذا الادراك من جانب نهرو لقوة الصين جعله ينظر إليها بإعتبارها منافسة للهند علي زعامة آسيا حتى ولو لم يصرح بذلك علنا وفق ما يكشف عنه ميشال بريشير وفي هذا يقول نهرو عام ١٩٥٦ ليس هنالك من منافسة كتلك ولكنه ربما كان ضروريا للشعوب أن تقارن بين وقت وأخر بين التقدم الذي تم في البلدين لان كليهما متشابهان سواء من يحث اتساع المساحة أو عدد السكان والتخلف الصناعى فضلا عن قدم حضارتيهما وبالتالي فان درجة نجاحهما في الميدان الاقتصادي كفيلة بأن تؤثر في البلدان الأخرى ويذهب بريشير إلي أن

نهرو كان يعتقد أن مصير آسيا سوف يكون معلقا علي نتيجة المنافسة بين البلدين .

وعلى ذلك تبلورت رؤية الهند للصين في تلك الفترة بإعتبارها فقط مجرد منافس استراتيجي لها علي قيادة آسيا وهي الرؤية التي عززتها التصريحات الصينية ذاتها باتهامها للهند عقب إنعقاد مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ لعدم الانحياز بأنها تسعي من عقد ذلك المؤتمر إلي زعامة آسيا وقد تمثلت الاستراتيجية في التعامل مع الصين خلال تلك الفترة في محاولة احتوائها من خلال الاحتفاظ بعلاقات ودية معها وهو ما جسدته المبادئ الخمسة للتعايش السلمي التي أعلنت في البيان المشترك الصادر عن كل من نهرو وشواين لاي رئيس وزراء الصين خلال زيارته للهند في عام ١٩٥٤ وهي :

١- الاحترام المتبادل لسيادة كل من الدولتين وسلامة أراضيهما .
٢- عدم الاعتداء .
٣- عدم التدخل في الشئون الداخلية الخاصة بكل منهما .
٤- المساواة وتبادل المنفعة .
٥- التعايش السلمي .

الصين في الاستراتيجية الهندية بعد حرب ١٩٦٢ :

بوقوع حرب عام ١٩٦٢ تغيرت جذريا رؤية الهند للصين من مجرد منافس استراتيجي تسعي إلي إحتواء عدوها اللدود وفي ذلك يشير نهرو إلي أنه لم يتعرض في حياته السياسية لصدمة وجرح عميق مثلها حدث مع قيام الصين بغزو الهند لما سببه ذلك من تبديد لآماله وتطلعات لإقامة علاقات ودية معها وقد

وضح هذا التحول بجلاء في إستراتيجية الهند تجاه الصين عقب قيام الأخيرة بتفجيراتها النووية عام ١٩٦٤ وهو العام ذاته الذي توفي فيه نهرو ولعل أنديرا غاندي هي ابرز من عبر عن هذا التحول حيث أشارت في أكثر من موضع في مذكراتها وأحاديثها الصحفية إلي أن الصينيين لديهم شعور قوي بانهم هم المتفوقون كشعب وأمة وأن نية الصين في حرب ١٩٦٢ لم تكن مجرد الحصول علي كسب إقليمين من أراضي الهند بل أنها كانت ترغب في إثبات خطا سياسة الهند القائمة علي مبادئ الاشتراكية وعدم الانحياز وتؤكد إنديرا غاندى في مذكراتها وجود ميول توسعية للصين مشيرة إلي أن فضل وسيلة لاحتواء الصين وإضعاف نفوذها هي أن تصبح الهند ودول جنوب شرق آسيا أقوي من الناحية الاقتصادية وفي حالة استقرار واتحاد .

ومع الصعود الاقتصادي للصين فقد اضيفت المخاوف الاقتصادية إلي جانب التهديدات العسكرية لدي القادة الاقتصاديين الهنود وهو ما عبر عنه أحد أبرز رجال الصناعة الهنود راتان تاتا بقوله " أن الصين في سبيلها حقا إلي أن تغرقنا ما لم نفعل شيئا حيث أن كل شئ يباع في الهند سرعان ما يكون مصنوعاً في الصين أما كمال ناث وزير التجارة الهندي في حكومة مانموهان سنج "٢٠٠٥-٢٠١٠" فأوضح أن الهند بحاجة إلي دراسة مصادر قوة الصين وبنائه وفقا لنموذجنا الخاص وفي معرض آخر يقول إذا كانت الصين تفوز في سرعة العدو لأنها سلطة ديكتاتورية فان الهند سوف تفوز في القدرة علي التحمل والوصول إلي نهاية المارثون .

هذا التحول في الإستراتيجية الهندية تجاه الصين من مجرد منافس إستراتيجي إلي عدوها اللدود عززته المواقف السياسية والسياسات العسكرية للصين ذاتها وذلك في خلال تبين الصين لسياسة الاحتواء غير المباشر تجاه

الهند من خلال إقامة تحالف واقعي مع باكستان وقد لعبت الصين دورا كبيرا في تزويد باكستان بالتكنولوجيا النووية التي مكنتها من إجراء تفجيراتها النووية عام ١٩٩٨م كما تعمل الصين علي بناء علاقات وثيقة من جيران الهند الاخرين خاصة ميانمار وسيرلانكا ونيبال. محولة لعزل الهند والحيلولة دون ظهورها بمظهر الدولة المهيمنة في منطقة جنوب آسيا وقد وجد هذا المسلك الصينى اذانا صاغية من جانب البلدان الاصغر في تلك المنطقة التي تشعر بالخوف من سياسات الهيمنة للهند وإتجاهاتها التوسيعة وحجمها الكبير .

تعزيز الصين لوجودها البحري في المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي مع السعي إلي بناء تسهيلات عسكرية بحرية في البلدان المجاورة للهند خاصة ميانمار التي قدمت لها الصين مساعدات عسكرية كبيرة تتجاوز ملياري دولار ولدي الصين أيضا محطات تنصت في جزر كوك لمراقبة الأنشطة البحرية للهند واختبارات القذائف الهندية .

وتعكس السياسات الصينية رؤية مؤداها أن الهند وإن كانت لا تمثل لها تهديدا أمنيا إستراتيجيا في ضوء حق التفوق الصين النوعي والكمي في مجال الأسلحة النووية والتقليدية فأنها تمثل تهديدا أجلا لها ينبغي مراعاته وذلك علي ضوء حقيقة ما تتسم به الهند من طموح سياسي وإقتصادي وعسكري قد يتطور في يوما ما إلي التصادم بينهما باعتبارها الدولة الوحيدة في العالم التي تضاهيها في المصلحة الكبيرة وعدد السكان الضخم والقدرات الاقتصادية .

اليات الهند لمواجهة التحدي الصيني :

الآليات السياسية وتمثلت في محاولة الهند تبديد مخاوف الدول الأصغر في منطقة جنوب آسيا منها باعتبارها الدولة الأكبر بالمنقطة بما يقطع الطريق أمام الصين لإستغلال هذه المخاوف في تطويق واحتواء الهند وقد تمثل ذلك بجلاء في إعلان الهند عام ١٩٩٦ ما يعرف بمبدأ جوجرال ويقوم هذا المبدأ لان الهند لن تكنون قادرة علي شغل مكانتها في العالم بدون السلام والاستقرار في جنوب آسيا مما يتطلب منها الانفتاح علي جيرانها دون مطالبتهم بالمثل وقد كان توقيع الهند في عام ١٩٩٦م لاتفاقية إقتسام توزيع المياه مع بنجلاديش من نهر الجانج اقتصارا لهذه السياسة من خلال إثباتها أنها كريمة في تعاملها مع جيرانها الأضعف وهي الأقوى وفي ذلك يقول اندر كومار جوجرال وزيرة خارجية الهند ثم رئيس وزرائها خلال فترة حكم الجبهة المتحدة (١٩٩٦ ـ ١٩٩٨) إذا ضاعت قوي الهند في صراعات مع جيرانها فأنها لن تصبح أبدا قوة عالمية .

الآليات الأمنية وتمثلت في البحث النووي بالصين من خلال التخلي عن سياسات منع الانتشار لنهرو إلي سياسة الغموض النووي المتعمد عقب حرب ١٩٦٢ ثم إلي امتلاك هذه الأسحلة في عام ١٩٩٨ وقد كان المبرر الرئيسي الذي ساقته القيادة الهندية في ذلك هو مواجهة التهديد النووي للصين ومناخ عدم الثقة السائد بسب بقاء الحدود بين الدولتين دون تسوية وذلك بحسب رسالة فجاباي رئيس وزراء الهند إلي الرئيس كلينتون هذا بالإضافة إلي تحديث منظومتها من الأسلحة الثقيلة لتكون قادرة علي ضرب العمق الصيني ومن ذلك علي سبيل المثال تصريح المسئولين الهنود عقب نجاح تجربة إطلاق الصاروخ أغني بعيد المدى والقادر علي حمل رؤوس نووية بأنه يمكنه الوصول إلي مدينتي بكين وشنغهاي .

كما تعزز الهند من وجودها البحري في المحيط الهندي بما جعلها القوة البحرية الإقليمية الأولي في المنطقة فضلا عن توسيع جبهتها الإستراتيجية لتشمل المناطق والبحار الواقعة في جنوب شرق آسيا ووسط آسيا بما في ذلك التبت والشرق الأوسط والمحيط الهندي .

دوافع الهند للتقارب مع الصين منذ إنتهاء الحرب الباردة :

تفاعلت في هذا الخصوص مجموعة من العوامل السياسية والإقتصادية والعسكرية .

فعلي الصيعد السياسي فقدت الهند بإنهيار الإتحاد السوفيتي وتفككه في عام ١٩٩١ أهم حليف سياسي وعسكري لها فضلاً ، أن الاتحاد السوفيتي ذاته قبيل إنهياره إتبع سياسة التقارب مع الصين مع تولي جورباتشوف السلطة في عام ١٩٨٥م مما جعل الهند تبدو وحيدة في مواجهة الصين الأمر الذي اوجب عليها حاجة ملحة لتعزيز علاقاتها معها .

من ناحية أخرى فان هذا الانفراج في العلاقات السوفيتية – الصينية في النصف الثاني من الثمانينات من القرن العشرين مكن الصين من تحويل جزء من أفضل قواتها من حدودها مع الاتحاد السوفيتي السابق إلي حدودها مع الهند ولذلك أحست الهند أنها الأضعف عسكريا في مواجهة الصين وقد تبدي هذا الإحساس بالضعف بجلاء خلال أزمة عام ١٩٨٧م حينما حدث نوع من المصادمات بين قوات الدولتين حيث أذعنت الهند للتهديدات الصينية لها عبر وزير الخارجية الأمريكي آنذاك جورج شولتز بأنها سوف تلقنها درسا إذا لم تتوقف عن التوغل داخل الأراضي الصينية أعلنت الهند عن رغبتها في تحقيق

السلام مع الصين حينئذ بل وسافر كل من وزيري الدفاع والخارجية الهنديين إلي الصين لاحتواء الموقف .

وعلى الصعيد الاقتصادي واجهت الهند في عام ١٩٩١ أزمة إقتصادية طاحنة كادت تؤدي بها إلي حافة الإفلاس حيث لم تكن إحتياطاتها من النقد الأجنبي تتجاوز ملياري دولار وهو ما كان يكفي فقط لسد إحتياجاتها من الواردات لمدة أسبوعين فقط .

وقد صادفت رغبة الهند في التقارب مع الصين آذانا صاغية من جانب الأخيرة لاعتبارات عديدة تتعلق برغبتها في إستكمال عملية بنائها الاقتصادية من ناحية ومواجهة التحديات الإستراتيجية لها في منطقة شمال شرق آسيا الناجمة عن إنتهاء الحرب الباردة وتعاظم النفوذ الأمريكي بتلك المنطقة من ناحية أخرى وكانت الصين تخشي من حدوث تقارب أمريكي هندي يهدد مصالحها .

أفاق التعاون في العلاقات الهندية – الصينية :

هناك مجموعة من الاعتبارات المصلحية الجوهرية التي تدفع الدولتين إلي تعزيز العلاقات بينهما ومحاولة تجنب أسباب الصراع ويأتي علي رأسها المصالح الاقتصادية وما يمكن أن تحققه الدولتان من مكاسب إقتصادية من جراء تطوير العلاقات الاقتصادية بينهما فمنذ إستئناف عمليات التبادل التجاري بين البلدين عام ١٩٩٢ زادت معدلات هذا التبادل من ١١٧ مليون دولار في عام ١٩٨٧ إلي أكثر من ٢٠ مليار دولار في عام ٢٠٠٦ كما تم إفتتاح أول خط طيران مباشر بين البلدين في عام ٢٠٠٢ حيث كانت كل الرحلات قد علقت

عقب حرب ١٩٦٢ وفى هذا صرح مانموهان سنج رئيس وزراء الهند أكثر من مرة عقب توقيع اتفاق الشراكة الاقتصادية للسلام والازدهار بين البلدين – خلال زيارة وين جيابا ورئيس الوزراء الصيني للهند عام ٢٠٠٥م بأنه باستطاعة البلدين معا إعادة تشكيل النظام العالمي كما أشار إلي أنهما علي طريق إستعادة مكانهما الأصيل في الاقتصاد العالمي حيث أضحتا تمثلان ٢٠% من إقتصاد العالم ومن المتوقع إرتفاع هذه النسبة إلي ٢٨% بحلول عام ٢٠٣٠ ويري عالم الاقتصاد الهندي أن هناك فائدة كبيرة يمكن أن تعود علي البلدين من جراء توثيق علاقاتهما حيث يمكن للهند الاستفادة كثيرا من الصين علي الصعيد الاقتصادى كما يمكن للصين الاستفادة من الهند كثيرا في مجال الاتصال الجماهيري والديمقراطية حتى ولو علي صعيد تنمية الرعاية الصحية .

وقد تعززت العلاقات السياسية عبر الزيارات المتبادلة لقيادة البلدين بدءا من زيارة راجيف غاندي للصين في عام ١٩٨٨ مرورا بزيارة فاجباي لها عام ٢٠٠٣م ثم مانموهان سنج في عام ٢٠٠٨م وكذلك الشأن بالنسبة لزيارات القادة الصينيين للهند بدءا من زيارة رئيس الوزراء الصيني لي بنج في علم ١٩٩١ وهناك العديد من المجالات التي تفرض علي الدولتين التعاون فيها مثل أمن الطاقة ومكافحة الإرهاب والحركات الانفصالية في كلا البلدين ويعتبر موقف الصين خلال أزمة مرتفعات كارجيل عام ١٩٩٩ مؤشرا له دلالته في هذا الشأن حيث تبنت الصين موقفا إيجابيا لصالح الهند بمطالبتها باكستان بحسب المقاتلين المتسللين من هذه المرتفعات .

في المقابل هناك ثلاثة قيود أساسية تحد من إنطلاق العلاقات الهندية – الصينية يأتي علي رأس هذه القيود بقاء النزاع الحدودي بينهما دون تسوية يظل هذا النزاع الذي تسبب في حرب ١٩٦٢ عائقا أما التطبيع الكامل للعلاقات بين

البلدين بغض النظر عن التصريحات المتبادلة في السنوات الأخيرة من جانب قيادتي البلدين بأن أيا منهما لا تشكل تهديدا للأخرى إذ أن السلوك الفعلي لهما وكما سبقت الإشارة يقول غير ذلك وتاتي محاولات تحديث القوات العسكرية لكل منهما دليلا دامغا في هذا الخصوص .

كما تلعب الولايات المتحدة دورا في تقييد العلاقات الهندية الصينية حيث تحاول إستغلال الهند لموازنة النفوذ الصيني يحد من هذا العامل إدراك الهند لمخاطر التحالف مع الولايات المتحدة في تصعيد التوتر وعدم الاستقرار في منطقة جنوب آسيا واسيا ككل حيث سيدفع الصين إلي التدخل بدرجة أكبر في شئون جنوب آسيا .

كما أن العلاقة بين البلدين تتأثر بمواقف أطراف ثالثة في منطقة جنوب آسيا ذاتها مثل باكستان وغيرها من الدول الأصغر التي ترتبط بعلاقات أوثق من الصين إذ أن التزام الصين بالدعم العسكري والسياسي لهذه الدول وبخاصة باكستان وميانمار يضع قيودا مهمة علي إنطلاق العلاقات الهندية – الصينية .

وعلى هذا نخلص إلي أنه إذا كانت العلاقات الهندية – الصينية مرشحة علي الأقل في المستقبل المنظور للنمو لغلبة الاعتبارات المصلحية الايجابية علي دوافع العداء لديهما فان هناك قيودا حقيقية تحد من الانطلاق الطبيعي لهذه العلاقات وسوف تظل هذه العلاقات خاضعة لسيناريو التدهور بسبب إستمرار تلك القيود وبخاصة ذات الصلة منها ببقاء النزاع الحدودي دون تسوية .


الفصل التاسع
القوة الأمريكية و مستقبلها
على المدى البعيد

القوه الأمريكيه ومستقبلها على المدى البعيد :

يدور الجدل حول مستقبل القوة الأمريكية ومكانها في النظام الدولي منذ الثمانينات من القرن الماضي حتى قبل إنهيار الإتحاد السوفيتي وقد أفتتح هذا الجدل المؤرخ الأمريكي بول كيندي بكتابه الضخم صعود وهبوط القوي العظمي الذي تبين مفهوم أن القوة العظمي تتوجه للإنحدار إذا ما توسعت في إستخدام قواتها العسكرية بأكثر من إمكانياتها الإقتصادية .

وقد تجمع حول هذا المفهوم وطورته مجموعة من الباحثين عرفوا بمدرسة الاضمحلال والتي قوبلت بدورها بالنقد والتفنيد من جانب عدد من الخبراء الاستراتيجيين مثل زبجنيو برجينسكي وصامويل هنتنجتون قدمت المجموعة الأخيرة صورة أكثر تفاؤلا حول المستقبل الأمريكي تقوم علي أن القوة الأمريكية هي قوة متعددة الأبعاد علي عكس القوي الدولية الأخرى التي تعتمد علي بعد واحد من عناصر القوة وقد سادت الرؤية الأخيرة وخفتت أصوات مدرسة الاضمحلال مع نهاية التسعينات حيث ترسخ الاعتقاد بأن الولايات المتحدة تملك عناصر القوة العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية مجمعة بما لا تملكه قوة أخرى وعلى المستوي العالمي برزت الولايات المتحدة في تلك الفترة بوصفها القوة الأعظم الأولي بل والوحيدة في العالم .

غير أن هذه الصورة ما لبثت أن تراجعت مع مجئ إدارة بوش الابن وما تعرضت له مصداقية القوة للولايات المتحدة نتيجة ما واجهته في العراق وأفغانستان وتوافق ذلك أيضا مع صعود قوي أخرى خاصة الصين وصعود قوي أخرى مثل الإتحاد الأوروبي والهند وروسيا ولذلك لم يكمن غريبا أن يتجدد الجدل حول مستقبل القوة الأمريكية وحول ما يتهدد عناصر ومقومات

قوتها وتفوقها وكان من أبرز ما شاركوا في هذا الجدل ريتشارد هاس وفريد زكريا والمؤرخ الاقتصادي نيل فيرجسون .

يتابع هذا الموضوع تطور الجدل حول مستقبل القوة الأمريكية ويناقش مغزاه فيما يتعلق بالطبيعة الراهنة للنظام الدولي ومستقبله .

أولاً : بتول كيندي ومستقبل القوة الأمريكية ..

لم يثر كتاب صدر في الولايات المتحدة في عقد الثمانينات من القرن العشرين مثلما أثاره الكتاب الذي وضعه بول كيندي المؤرخ والأستاذ في جامعة بيل الأمريكية ونشر عام ١٩٨٧ م تحت عنوان " صعود وسقوط القوي العظمي تعرض الكتاب لنقاش واسع وعريض حتى أن الكونجرس الأمريكي الذي من النادر أن يهتم بصدور الكتب عقد جلسات إستماع لمناقشة هذا الكتاب ومؤلفه بل أن ما ورد فيه عن مستقبل الولايات المتحدة أُستخدم من قبل عدد من المرشحين للرئاسة الأمريكية في حملاتهم الانتخابية .

لمن يكن محور هذا الإهتمام إستعراض الكتاب التاريخي العريض لأوضاع القوي العظمي منذ عصر النهضة ودورات صعودها وسقوطها والعوامل والقوي العسكرية والإقتصادية التي كانت وراء ذلك لكن الاهتمام ينصب أساسا حول الفصول التي خصصها لمناقشة القوي العظمي في النظام الدولي وقت صدور الكتاب وهي : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وغرب أوروبا واليابان والصين كان للولايات المتحدة ـ بالطبع ، بوصفها القوة العظمي الأولي منذ ظهور النظام الدولي لما بعد الحرب لعالمية الثانية النصيب الأوفر من الاهتمام وكذلك التغييرات العسكرية والاقتصادية التي تتعرض لها وإمكانات إحتفاظها بهذا المركز الدولي في المستقبل .

وبإعتبار أن هذا العمل الضخم – الذي خصص له صاحبه سبع سنوات لكتابته يبحث ويتتبع كيف صعدت وسقطت القوي العظمي عبر القرون الخمسة الماضية فقد كان من الطبيعي أن يعني بالحروب خاصة الكبيرة منها رغم أنه لم يكن كتابا عن التاريخ العسكري من ناحية أخرى تتبع الكتاب ما حدث من تغيير في التوازنات الاقتصادي العالمية منذ عام ١٥٠٠م رغم أنه لم يكن عملا في التاريخ الاقتصادي كان محور الكتاب : علاقة التأثير المتبادل بين الاقتصاد والإستراتيجية خلال محاولة كل من الدول العظمي دعم قوتها وثروتها لكي تصبح أو تظل قوية وغنية معا .

وعلى هذا فان دراسة الصراع العسكري في الكتاب تأتي دائما في سياق التغير الاقتصادي يخلص الكتاب إلي أن إنتصار واحدة من القوي العظمي في الفترة موضع الدراسة أو إنهيار أخرى كان دائما نتيجة حرب طويلة خاضتها قواتها المسلحة ولكنه إرتبط أيضا بمدي كفاءة إستخدام هذه الدول لمواردها الإنتاجية في زمن السلم وبتقدم أو تراجع إقتصاديات كل دولة ، نسبة للدول الكبرى الأخرى خلال الحقب التي سبقت الصراع الفعلي .

لهذا السبب إعتبر الكتاب أن وضع الدولة في زمن السلم لا يقل أهمية عن أدائها في زمن الحرب وركز الكتاب علي أهمية الأساس الإقتصادي للبناء العسكري وان تدعيم الأمة لقواها الإنتاجية يمكنها من تحمل عبء الإنفاق علي الجيوش الكبيرة والأساطيل في زمن الحرب فالثروة مطلوبة لدعم القوة العسكرية كما أن القوة العسكرية ضرورية لحماية الثروة غير أنه إذا ما تحول جزء كبير من موارد الدولة من عملية خلق الثروة إلي الأهداف العسكرية فانه من المحتمل أن يؤدي هذا إلي أضعف القوة القومية علي المدى الطويل وبالمعني نفسه إذا ما توسعت الدولة إستراتيجيا بغزوها لأقاليم واسعة أو شن

حروب مكلفة فان المزايا التي يمكن أن تترتب علي هذا التوسع قد تكون أقل مما بذل فيها من نفقات وهو مأزق قد يصبح حاداً إذا ما كانت هذه الدولة قد دخلت في مرحلة التراجع الإقتصادي ويؤكد الكاتب نظريته تلك بشواهد من تاريخ صعود وسقوط قوي كبري منذ القرن السادس عشر مثل أسبانيا وهولندا وفرنسا والإمبراطورية البريطانية ثم يطبقها علي القوة المعاصرة خاصة الولايات المتحدة بإعتبار أنها تمثل القوة العظمي علي الأولي تظهر هذه الشواهد علي المدى الطويل علاقة مهمة بين القدرات الإنتاجية وخلق الموارد من ناحية وبين القوة العسكرية من ناحية أخرى .

ويدلك المؤلف ما سوف يتعرض له منهجه من نقد من حيث تغليبه للعنصر الإقتصادي والعامل المادي في تقرير أوضاع القوة العظمي ومستقبلها يقر بول كيندي منذ البداية بأنه لا يدفع بأن الاقتصاد هو العامل الوحيد في صعود أو هبوط كل القوي فهناك أسباب أخرى مثل الجغرافيا والتنظيم العسكري والحالة المعنوية للأمة ونظام التحالفات والعديد من العوامل التي يمكن أن تؤثر في القوة النسبية لإقتصادات الدول لكنه يقرر أنه لا خلاف علي أن النصر في حروب القوي العظمي كان دائما حليف الجانب الذي يمتلك قاعدة إنتاجية أكثر إزدهارا .

يثير التلازم بين الموقع الاقتصادي النسبي للدول العظمي وقوتها الإستراتيجية عبر القرون الخمسة الماضية السؤال عن مغزي الإتجاهات الإقتصادية والإنتاجية والتكنولوجية بالنسبة لميزان القوي في العصر الحالي يبحث الكاتب في وضع القوي العظمي من حيث عناصر القوة والضعف في مكوناتها الاقتصادية والإنتاجية والتكنولوجية والعسكرية ومدي مساهمة هذا كله في استمرار وضعها في النظام الدولي كقوي عظمي .

غير أن الكاتب قبل أن يفعل هذا يعود إلي التاريخ لكي يستخلص دروسه باعتبار أن أفضل وسيلة لفهم ما ينتظرنا في المستقبل هو النظر إلي الماضي ولكي يرصد القوي الرئيسية التي حكمت عملية صعود وسقوط القوي العظمي ومن خلال المسح التاريخي لهذه العلمية عبر القرون الخمسة الماضية يستخلص <u>إتجاهين رئيسيين</u> :

الاتجاه الأول : أن هناك دائما ديناميكية للتغير مدفوعة أساسا بالتطورات الإقتصادية والتكنولوجية التي تؤثر بدورها في الهياكل الإجتماعية والنظم السياسية والقوي العسكرية وفي مركز الدول والإمبراطوريات لكن وتيرة التجديد التكنولوجي بل والنمو الاقتصادي ذاته غير منتظمة وترتبط بظروف المكان والمناخ والحروب والإطار الاجتماعي وما إلي ذلك كذلك تختلف معدلات النمو بين الدول ليس فقط بسبب الأنماط المتغيرة للتكنولوجية والإنتاج والتجارة ولكن أيضا بمدي تقبلها للطرق الجديدة لزيادة ثروتها وإنتاجها .

الاتجاه الثاني : فهو أن هذا المعدل غير المنتظم للنمو الإقتصادي كان له اثر حاسم طويل الأجل علي القوة العسكرية النسبية والمركز الإستراتيجي لأعضاء النظام الدولي فعبر التاريخ لم يكمن هناك ما هو أكثر إعتمادا علي الظروف الإقتصاديه من الجيش كان هذا واضحا في عصر أمراء النهضة كما هو واضح اليوم لقيادة البنتاجون الذين يدركون أن القوة العسكرية تعتمد علي الموارد الكافية للثروة التي تنبع بدورها من قاعدة إنتاجية مزدهرة ومن مصادر تمويل

صحية ومن تكنولوجيا متقدمة ورغم أن مؤشرات التاريخ لا تعني دائما أن الإزدهار الإقتصادي يترجم نفسه وعلى الفور إلي فعالية عسكرية تظل الحقيقة أن كل التحولات الكبرى في التوازنات العسكرية في العالم كانت تالية لتغييرات في التوازنات الإنتاجية وأكثر من ذلك فان صعود وسقوط الإمبراطوريات المختلفة أرتبط بحروب بين الدول العظمي كان النصر فيها دائما معقودا للجانب الثري الذي يمتلك أعظم الموارد المادية .

ماذا تعني هذه المؤشرات والدروس التاريخية لما سيكون عليه العالم والقوي الدولية علي مدي الأعوام العشرين أو الخمسة والعشرين القادمة ؟

يقول الكتاب رغم أن التقديرات حول ما سيكون عليه العالم في هذه الفترة قد تخطئ فان هذا لا يمنع من التوقعات التي تستند علي التطورات العريضة القائمة الآن في هذا الإطار فانه من المعقول أن نتوقع إستمرار أحد التيارات الواضحة وقت صدور الكتاب عام ١٩٨٧م ألا وهي تصاعد أهمية منطقة الباسيفيك يقوم تطور هذه المنطقة علي أساس عريض حيث تضم اليابان تلك القوة الاقتصادية الضخمة والعملاق الذي يتغير بسرعة وهو الصين الشعبية ولا يقوم هذا التطور فقط علي الدول الصناعيه المستقرة مثل أستراليا ونيوزيلندا بل أيضا علي الدول الصناعية الجديدة التي حققت نجاحا ضخما مثل تايوان وكوريا الجنوبية وهونج كونج وسنغافورة وكذلك دول مجموعة الآسيان يشمل ذلك التطور إمتدادات هذه المنطقة في الولايات الباسيفيكية من الولايات المتحدة وولايات من كندا وقد شجع النمو الاقتصادي في هذه المنطقة الواسعة تضافر عدة عوامل من ارتفاع ملحوظ في الإنتاجية الصناعية المتجمعة إلي التصدير

الأمر الذي أدي بدوره إلي زيادات ضخمة في التجارة الخارجية وحركة الملاحة والخدمات التمويلية والتحول نحو أحدث التكنولوجيا والإنتاج الرخيص القائم علي العمالة الكثيفة وجهود بالغة إلنجاح لزيادة الإنتاج الزراعي وبشكل أسرع من نمو السكان تداخلت كل هذه النجاحات لتحقق معدلا من التوسع الإقتصادي تفوق علي توسع القوي الغربية التقليدية وكذلك لم يكن غريبا بأن يتنبأ أحد الاقتصاديين بثقة بأن منطقة الباسيفيك التي امتلكت في ذلك الوقت ٤٣% من مجموع الإنتاج العالمي سوف تمتلك ٥٠% من هذا الإنتاج بحلول عام ٢٠٠٠ وان مركز الجاذبية الإقتصادية في العالم يتحول بسرعة نحو آسيا والباسيفيك التي سوف تأخذ مكانها كأحد المراكز الرئيسية في القوة الإقتصادية العالمية .

توقع كيندي أيضا إستمرار تصاعد تكلفة سباق التسلح الذي سيغذيه ارتفاع أثمان نظم الأسلحة الحديثة فقاذفة القنابل ثمنها الآن مائتا مرة ثمنها في الحرب العالمية الثانية وهكذا الحال مع أسلحة أخرى مثل الطائرة المقاتلة التي إرتفع ثمنها مائة مرة وحاملة الطائرات عشرين مرة والدبابات خمسة عشره مرة عما كانت عليه أثمانها في الحرب العالمية الثانية .

مدرسة الاضمحلال :

لم يكن " بول كيندي " هو الوحيد الذي تعرض للأوضاع التي رأي أنها قد تهدد مكانة الولايات المتحدة كالقوة الدولية الأولي في النظام الدولي فكيندي يعبر مثلا لحركة ثقافية نشأت في الولايات المتحدة مع أوائل الثمانينات أصبحت تعرف بمدرسة الاضمحلال والتي تستند إلي ثلاثة إفتراضات رئيسية :

١- إن الولايات المتحدة تتراجع علي المستوي الاقتصادي مقارنة بقوي مثل اليابان وأوربا الغربية والدول الصناعية الجديدة تركز هذه المدرسة علي

الأداء الإقتصادي وعلى العناصر العلمية والتكنولوجية والتعليمية المرتبطة بهذا الأداء .

٢- أن القوة الإقتصادية هي العامل المركزي في قوي أي أمة ومن ثم فان هبوطا في القوة الاقتصادية سوف يؤثر في الأبعاد الأخرى لقوة هذه الأمة.

أن الإنحدار النسبي في القوة الإقتصادية الأمريكية إنما يرجع في الدرجة الأولي إلي إنفاقها الضخم علي الأغراض العسكرية نتيجة لمحاولتها الإحتفاظ بالتزامات خارجية لم تعد تقوي عليها .

وتري هذه المدرسة أن الولايات المتحدة تكرر التجربة والمشكلات التي واجهتها قوي إمبريالية سابقة مثل المملكة المتحدة وفرنسا واسبانيا .

ثانياً : تفنيد مفاهيم كيندي ومدرسة الإضمحلال غياب البديل ..

أثارت مدرسة الاضمحلال نقاشاً واسعاً داخل الحياة السياسية والفكرية الأمريكية بل وفي أوروبا الغربية كما خضعت للتحليل النقدي الأكاديمي الذي حاول تفنيد حجج وإفتراضات هذه المدرسة وتقديم صورة أكثر تفاؤلا حول المستقبل الأمريكي .

كان وعلى من تعرض لنقد هذه المدرسة علي المستوي الأكاديمي هو السنتور " زيجنيو برجنسكي " مستشار الأمن القوي الأمريكي السابق والأستاذ بجامعة كولومبيا بدا بريجنسكي بإقرار أنه سيكون من العمي التاريخ تجاهل علامات التحرر التي تقدمها الخبرة التاريخية فيما يتعلق بمؤشرات تراجع القوة لقد إتسمت المراحل الأولي من إضمحلال الإمبراطوريات الرومانية والفرنسية والعثمانية بالفعل بالتضخم الإقتصادي والعجز في الميزانية والتوسع الخارجي

المكلف والتفكك الداخلي غير أن بريجنسكي يري إختلافات بين هذه الظروف والوضع الأمريكي حيث إرتبط التآكل الإقتصادي في الحالات السابق بوقوع الحروب وإضمحلال سكاني كبير ثم تبع كل ذلك إنهيار النخبة السياسية الحاكمة أما في التجربة الأمريكية المعاصرة فان الإنفاق العسكري الأمريكي لم يرتفع فوق ٧% من مجموع الناتج القومي الكلي ورغم أن الحرب في فيتنام قد أدت إلي إنخفاض في معنويات المجتمع بشكل كبير فأنها لم تسبب خسائر علي نطاق واسع كما أن المجتمع الأمريكي شهد تجددا في القيادة الإجتماعية والسياسية بسبب المهاجرين الجدد من آسيا وأمريكا اللاتينية وهذا الدم الجديد هو الذي مكن من إستمرار ديناميكية المجتمع وحيويته .

ويضيف بريجنسيكي إلي ذلك إختلافين يراهما أكثر أهمية فالإنحدار النسبي للتفوق الإقتصادي الأمريكي العالمي حدث نتيجة لسياسة الدعم الأمريكي لأوروبا الغربية واليابان منذ نهاية الحرب الثانية ورغم أن ذلك لا يغير حقيقة وقوع هذا التراجع النسبي فمن المهم الأخذ في الإعتبار أن التغير في مركز الولايات المتحدة الإقتصادية العالمي ليس نتيجة لسياسة تتبعها قوة منافسة أو معادية تهدف إلي أن تحل محل الولايات المتحدة في مرتبة التفوق العالمي ولكنه نتيجة ماتم يعتبره سياسة تعاونية كانت الولايات المتحدة هي التي بادرت بها ، يخلق هذا الوضع نسيجا مختلفاً من العلاقات الدولية فبينما كان تراجع قوة ما في العصور السابقة يعود إلي بروز قوة جديدة مؤهلة لأن تحل محلها فلا يوجد في هذه الحقبة قوة يمكن أن تحل محل الولايات المتحدة بما أن بريجنسكي كان يحلل في أوائل التسعينات من القرن الماضي فقد كانت القوي البديلة تنحصر في أوروبا الغربية واليابان بوصفهما القوتين الرنيسيتين المستفيدتين من إعادة توزيع القوة الاقتصادية العالمية وحتى الاتحاد السوفيتي – في تحليل بريجنسكي لم يكن قبل سقوطه يمثل سوي قوة ذات بعد واحد هو البعد العسكري

فضلاً عن أن الثمن الذي دفعه الاتحاد السوفيتي في بلوغ قوته العسكرية هو أنه قد أصبح في وضع غير تنافسي علي المستوي السياسي والأيديولوجي والاقتصادي .

وكانت الشخصية الثانية التي تعرضت بالنقد لأفكار بول كيندي ومدرسته هو البروفيسور الراحل صامويل هنتنجتون .

كان هنتنجتون علي كل هذه الظواهر يري أن العجز في الميزانية الذي كانت تعانيه الولايات المتحدة في أواخر الثمانينات من القرن الماضي لمن يكمن نتيجة ضعف الاقتصاد الأمريكي وإنما نتيجة السياسات الاقتصادية لإدارة ريجان وكما ظهر هذا العجز بشكل سريع نتيجة مجموعة سياسات فانه يمكن عكسه أيضا وبشكل سريع بسياسات أخرى أما إنخفاض نصيب الولايات المتحدة في الإنتاج العالمي والذي كان عام ١٩٤٥ يمثل ٤٠- ٤٥% من هذا الإنتاج وبلغ عام ١٩٨٤م ما قيمته ٢٥.٢% فكان يري أنه ومقارنة بتطور نصيب قوي أخرى مثل اليابان وأوربا الغربية يعتبر متماسكاً .

أما الحجة الثانية لأنصار مدرسة الإضمحلال والخاصة بانخفاض نسبة المدخرات الأمريكية التي انخفضت خلال السبعينات والثمانينات بنسبة تتراوح ما بين ١٤.٨% و ١٩.٨% فإن هنتنجتون يوافق علي أن نقص الادخار والاستثمار هي مظاهر ضعف هيكلية تتطلب تصحيحاً للإحتفاظ بالنمو الإقتصادي ولكنه لا يوافق علي تفسير ذلك بضعف الأداء الاقتصادي الأمريكي .

يخلص هنتنجتون إلي أن إنتشار جيوش الولايات المتحدة في مناطق مختلفة من العالم لن يكون سبب إنحدارها وإنما قد يحدث ذلك لان رجالها

ونساءها وأطفالها ينغمسون بشكل مبالغ فيه في ملذات الحياة فسيادة الثقافة الاستهلاكية هي التي تشكل تهديدا للقوة الأمريكية يري هنتنجتون أن المجتمع ينحدر عندما يسيطر عليه الركود البيروقراطي والإحتكار والطبقات المغلقة أما المجتمعات الناجحة فهي التي تجد وسائل لدعم ديناميكيتها وتشجع المنافسة والمرونة والإنفتاح لذلك يستخلص هنتنجتون أن الولايات المتحدة هي أقل القوي الكبرى إحتمالاً لان تنحدر لأنها تتميز بإنفتاح اقتصادها وبتدفق الهجرة إليها .

من ناحية أخرى يري هنتنجتون أن القوة الأمريكية علي عكس القوي الدولية أخرى متعددة الأبعاد .

Multi Dimensional كان الإتحاد السوفيتي الدولي يرتكز أساساً علي قدراته العسكرية واليابان تعتمد علي أدائها الإنتاجي ومواردها المالية ودولة مثل دول السعودية علي مواردها البترولية والقوي التي تعتمد علي عنصر واحد تصبح معرضة بشكل كبير لهبوط هذا العنصر من القوة التي تخصصت فيه علي النقيض من ذلك تتمتع الولايات المتحدة بتفوق في جميع المصادر الرئيسية للقوة حجم السكان وتعليمهم الموارد الطبيعية النمو الاقتصادي ، التماسك الاجتماعي ، الإستقرار السياسي ، الإنجاز التكنولوجي ، القوة العسكرية ، الجاذبية الايديولجية والتحالفات الدبلوماسية وهي لذلك قادره علي تحمل تراجع في أحد هذه العناصر مع الاحتفاظ بتفوقها الكلي المستمد من مصادر أخرى .

يأتي التحدي الحقيقي الذي قد تواجهه الولايات المتحدة في نظر هنتنجتون من أوروبا الموحدة فالمجموعة الأوروبية إذا ما أصبحت متماسكة سياسيا فيسكون لديها السكان والموارد والقدرة الاقتصادية والتكنولوجيا والإمكانية العسكرية الفعلية لكي تصبح القوة الأولي في القرن الحادي والعشرين ولهذا

خلص هنتنجتون إلي أنه إذا لم يكن القرن الحادي والعشرون قرنا أمريكيا فان الأكثر إحتمالاً أن يكون قرناً أوروبياً .

ثالثاً : التسعينات وتأكيد القوة الأمريكية .. ماذا ستفعل الولايات المتحدة بقوتها ؟

بنهاية حقب الثمانينات كان هناك إجماع دولي علي أن الولايات المتحدة بما تمتلكه من قدرات اقتصادية وعسكرية وتكنولوجية أصبحت هي القوة الأولي بل والوحيدة في العالم وأصبح السؤال ما الذي ستفعله الولايات المتحدة بهذه القوة ؟ وجاءت سياسات إدارة بوش الابن في أوائل القرن الحادي والعشرين لتثير مرة أخرى الجدل حول القوة الأمريكية ومكانتها في العالم وكانت الأحداث التي تعرضت لها الولايات المتحدة في ٩ نوفمبر ٢٠٠١م المبرر لإستخدام القوة الأمريكية في حربين في أفغانستان والعراق وفي الوقت الذي خلفت فيه إدارة كلينتون فائضا في الميزانية فقد تسببت الحروب التي خاضتها إدارة بوش في عجز ضخم في الميزانية ولم تكمن سياسات هذه الإدارة بعيدة عن الأزمة المالية والاقتصادية التي حلت بالاقتصاد الأمريكي وانسحبت علي الاقتصاديات العالمية انعكس إخفاق المشروع العسكري الأمريكي في العراق وأفغانستان بالإضافة إلي المشاكل الاقتصادية علي المكانة الأمريكية في العالم التي لم تعد كما بدت في التسعينات من القرن الماضي القوة الأولي والوحيدة في العالم تزامن مع هذا التراجع بروز قوي عالمية صاعدة مثل الصين والهند وروسيا ، والبرازيل تطمح بما أصبحت تمتلكه من قوة اقتصادية في المشاركة في قيادة النظام الدولي .

ليس غريبا إذن أن يتجدد الجدل اليوم بين الباحثين والمحللين الأمريكيين حول مستقبل القوة الأمريكية وفي هذا الصدد أثار الكاتب الأمريكي المرموق

فريد زكريا سؤال محوريا يتعلق بأهم مقومات السوق الأمريكي وهو عنصر الابتكار والتقدم التكنولوجي كان هذا السؤال هو هل بدأت الولايات المتحدة تفقد سحرها ؟ وللإجابة علي هذا السؤال العريض قال أنه حسب معظم المقاييس لا تزال الولايات المتحدة هي رائدة الانجاز التكنولوجي بدليل أن من بين ١٣ شخصية نالت جائزة نوبل لعام ٢٠٠٩م كان تسعة منهم من الأمريكيين وحتى في خضم الركود الاقتصادي الفظيع الذي تمر به الولايات المتحدة الآن فأنها لا تزال تسيطر علي ميادين تقنية المعلومات والعلوم الحياتية والنانوتكنولوجي وهي جميعها صناعات رئيسية بالنسبة للمستقبل .

ويتساءل " فريد زكريا ": إذا كان هذا الأمر صحيحا اليوم فهل يمكن أن يكون هذا انعكاسا للماضي أكثر منه تنبؤا بالمستقبل ؟ فمن المهم تذكر أن كثيرا من المعايير التي تضع الولايات المتحدة في المقدمة هي في حقيقة الأمر مؤشرات لما يحدث حاليا فجوائز نوبل تمنح لعلماء في السبعينات من أعمارهم ولكن منا الذي يحدث للعلماء الذين هم في الثلاثينات من أعمارهم اليوم ؟ من هم الذين يقومون بالاكتشافات التي سيحصلون بسببها علي جوائز نوبل بعد أربعة عقود ؟ ويضيف زكريا أن التصنيفات التي تظهر الولايات المتحدة بصورة روتينية في المقدمة قد إعتبرت تصنيفات صحيحة ولكنها قد تكون مضللة فكما النجمة التي لا تزال تبدو براقة في أبعد أركان الكون إلا أنها تكون قد إحترقت من قبلها ورغم أن سمعة الولايات المتحدة لا تزال أقوي مما تشير إليه البيانات الحقيقية فإستطلاع المنتدى الإقتصادي يقول أن الولايات المتحدة هي أكبر الدول المستقبلة لرأس المال المغامر وثالث دولة منفقة علي الإنجازات التي تقوم بها الشركات الخاصة ولكن الحقائق الموضوعية تضعها في المرتبة الخامسة في كلتا الحالتين والأكثر أثارة للاهتمام هو أن دراسة مؤسسة تغذية المعلومات والابتكار تشير إلي أن الولايات المتحدة أحرزت أقل قدر من التقدم في السنوات

القليلة الماضية ويرجح زكريا أن جزءا من الانحدار الذي تعانيه الولايات المتحدة حاليا ناتج من حقيقة أن دولا أخرى مثل سنغافورة وكوريا الجنوبية إلي كندا والسويد – تقوم بنشاط لتغيير قوانينها وأنظمتها لتجعل من نفسها أكثر تنافسية كما يرجح زكريا أن موقف الولايات المتحدة المسيطر وانتصارات البلاد التقنية إرتكزت علي ثلاث موجات مد كبير كلها حدثت في نهاية الثلاثينات من القرن الماضي كانت **الموجة الأولي** هي الموجة التي دمرت كل دولة أخرى تقريبا في العالم ، **وتمثلت الموجة الثانية** وهي متصلة بالأولي في جيل من المهاجرين الذين تركوا أوروبا وعمروا الجامعات ومراكز الأبحاث الأمريكية ومراكز الدراسات والأبحاث الخاصة في الولايات المتحدة ، **أما موجة المد الثالثة الكبرى** فتمثلت في التمويل الحكومي الضخم غير أنه خلال العقدين الماضيين بدأت الموجات الثلاث العظيمة التي حملت الولايات المتحدة إلي ذري الابتكار في الضعف وقد ترافق مع هذا أن بقية العالم لم يقف ساكنا فالدول الأخرى تنمو بسرعة وهي تأمل أن ترتقي في ٦٠% من ناتجها القومي الإجمالي الذي سيكون متصلا بالعلوم والتكنولوجيا خلال عقدين فقط والأكثر أهمية هو أوروبا التي تنعم بالسلام والرخاء والإنتاجية ثم هناك التحدي القادم من آسيا وفي المقابل ومع نهاية الحرب الباردة توقفت الولايات المتحدة عن الشعور بالقلق تجاه خطر الاتحاد السوفيتي ولهذا تراجع تمويل الأبحاث والتطوير في ميدان العلوم التطبيقية بصورة حادة ولعل إنحدار الولايات المتحدة هو الأوضح في ميدان واحد من ميادين التكنولوجيا المتقدمة والذي لم تظهر الحكومة الأمريكية حتى وقت قريب أدني إهتمام به وهو الطاقة كذلك فان صعود الدول الأخرى يقوض من الميزة العظيمة الأخرى التي كانت تتمتع بها الولايات المتحدة حتى الآن أي أن تكون مركز الجذب للأشخاص الأفضل والأكثر ذكاء من المهاجرين حول العالم فمع تزايد الفرص في الصين والهند

وغيرهما من الدول النامية فإن عدداً أقل من العلماء سيحتاجون إلي اقتلاع أنفسهم من بلادهم وثقافتهم من أجل أن يعيشوا حياة أفضل بالولايات المتحدة ففي ثمانينات القرن الماضي كان نحو ٧٥% من جميع خريجي معهد التقنية الهندي ينتهي بهم الأمر في الولايات المتحدة ولكن في السنوات الأخيرة فإن أقل من ١٠% من هؤلاء يتجهون إلي الولايات المتحدة .

أما المؤرخ الاقتصادي " نيل فيرجسون " فهو ينبه إلي الأخطار المالية والاقتصادية التي تتعرض لها الولايات المتحدة قد انتصرت في الحرب الباردة وتخطت هجمات الإرهاب إلا أن الضعف الاقتصادي أصبح يهدد نفوذها العالمي وهو يحذر من أنه إذا أنهارت الولايات المتحدة تحت وطأة أزمة مالية وهو ما يخشاه عدد متزايد من الخبراء الماليين فقد يؤدي ذلك إلي تغيير في موازين القوي الاقتصادية العالمية بكاملها وهو ينبه إلي أن إنهيار الإمبراطوريات يبدأ بتفاقم الديون وينتهي بتخفيض مطرد في الموارد المتوافرة لدعم الجيش وسلاح البحرية وسلاح الجو وهناك سوابق تاريخية تؤكد ذلك فقد كانت فرنسا في الفترة السابقة للثورة تنفق ٦٢% من الإيرادات الملكية علي خدمة الدين وقد لقيت الإمبراطورية العثمانية المصير نفسه ويجب ألا ننسي الإمبراطورية الانجليزية العظيمة الأخيرة ويستخلص فيرجسون أن هذه هي الحسابات الفتاكة التي تؤدي إلي إنهيار الإمبراطوريات ومن دون إصلاحات مالية جذرية قد تلقي الولايات المتحدة المصير نفسه أيضا

خاتمـــة :

وهكذا يوحي استعراضنا للجدل حول مقومات القوة الأمريكية إننا بإزاء نظام دولي يتسم بالسيولة وانه في الوقت الذي تواجه فيه الولايات المتحدة

تراجعاً في مكانتها الدولية تبرز لتحديها قوي صاعدة خاصة إقتصاديا وتكنولوجيا مثل أوروبا الموحدة والصين وروسيا والبرازيل والهند الأمر الذي ينبئ بأننا مقبلون علي عالم معقد تتغير فيه الأقطاب والمراكز وهو وضع وإن كان يمثل بالنسبة للدول الصغيرة والمتوسطة بيئة دولية معقدة تحتاج إلي قدر كبير من الإدارة الدقيقة والمتوازنة مع الأقطاب الدولية فأنها توفر لها أيضا بيئة تستطيع من خلالها المناورة وتعطيها بدائل لا تجعلها عرضة لضغوط وهيمنة قوة أو قطب واحد يستأثر بالنظام الدولي وتوجيهه .



الفصـــل العاشـــر
قمة التنوع البيولوجي

قمة التنوع البيولوجي .. « تحالف عالمي » لحماية الحياة على الأرض :

بعد ما يقرب من ٢٠ عامًا من المناقشات والجدالات ، وافق ممثلو الحكومات المشاركة في الإجتماع العاشر لمؤتمر الأطراف في إتفاقية التنوع البيولوجي ، الذي حمل عنوان « قمة التنوع البيولوجي » ، والذي عقد في مدينة ناجويا اليابانية ، على معاهدة جديدة لإدارة موارد العالم الجينية ذات الأهمية الإقتصادية المحورية على نحو أكثر عدلاً وإستدامة . وجاء الاتفاق على تأسيس «نظام دولي بشأن الوصول إلى الموارد الجينية والاستفادة المشتركة منها » في اليوم الأخير للقمة ، التي شارك فيها ١٢٢ وزيراً وخمسة رؤساء دول وحكومات.

وإعتمدت الدول الأعضاء بالاتفاقية إستراتيجية عالمية جديدة مصممة لوقف فقدان التنوع البيولوجي في العالم ، مع إتفاق الدول على صياغة خطط وطنية لتطبيق البروتوكول لحماية الموارد الجينية خلال عامين . كما اعتمد وزراء البيئة المشاركون برتوكولا جديدا حول المشاركة للإستفادة من الموارد الجينية العالمية .

وبالتوقيع على « بروتوكول ناجويا للتنوع البيولوجي » ، وافقت الدول على أهداف محددة للحد من فقدان الموائل الطبيعية بمقدار النصف وزيادة الأراضي بنحو ١٧ %من مساحة الأراضي و١٠% من مساحة البحار والمناطق الساحلية بحلول العام ٢٠٢٠.

وقال الأمين التنفيذي لاتفاقية الأمم المتحدة للتنوع البيولوجي، أحمد جغلاف، إن صياغة خطط وطنية لحماية التنوع البيولوجي تهدف إلى وقف

الصيد المفرط للأسماك والحد من التلوث وحماية الشعب المرجانية والحد من فقدان التنوع الوراثي للأنظمة الزراعية.

وتتضمن الإستراتيجية خطة لتعبئة الموارد بهدف رفع المساعدات الإنمائية لدعم المشاريع الرامية إلى الحفاظ على التنوع البيولوجي. كما يوضح البروتوكول المعني بالحصول على الموارد الجينية والتقاسم العادل لمنافعها القواعد الأساسية حول كيفية تعاون الدول في الحصول على تلك الموارد.

ووصف جغلاف البرتوكول بأنه أحد أهم الأدوات القانونية في تاريخ حماية البيئة، قائلا إنه سيساعد في تحقيق التنمية المستدامة وتسهيل تحقيق الأهداف الإنمائية للألفية.

وأضاف : « إن البروتوكول سيسمح لنا بتطبيق إتفاقية التنوع البيولوجي » ، مشيراً إلى أنه وضع أسسا لنظام اقتصادي وبيئي دولي جديد مبني على إحترام تنوع الطبيعة .

قرارات تاريخية :

ففي ٢٩ من أكتوبر ٢٠١٠ ، إختتم حوالي ١٨ ألف مشارك يمثلون الأطراف المائة والثلاثة والتسعين الأعضاء في إتفاقية التنوع البيولوجي وشركاءهم ، « قمة التنوع البيولوجي » في ناجويا باليابان بإعتماد قرارات تاريخية من شأنها أن تسمح للمجتمع الدولي بمواجهة التحديات غير المسبوقة المتمثلة في الفقدان المستمر للتنوع البيولوجي والناجم عن تغير المناخ. وقد وافقت الحكومات على مجموعة من التدابير التي من شأنها أن تضمن إستمرار النظم الإيكولوجية للكوكب في الحفاظ على رفاهية الإنسان في المستقبل .

وقد حققت القمة أهدافها الثلاثة المترابطة : إعتماد خطة إستراتيجية جديدة على مدى عشر سنوات لتوجيه الجهود الوطنية والدولية إلى حفظ التنوع البيولوجي من خلال العمل المعزز لتحقيق أهداف التنوع البيولوجي ، واعتماد إستراتيجية تعبئة للموارد من شأنها أن تمهد الطريق للمضي قدما إلى زيادة كبيرة في المستويات الحالية من المساعدات الإنمائية الرسمية في دعم التنوع البيولوجي، وإعتماد بروتوكول دولي جديد بشأن الحصول على المنافع الناشئة عن إستخدام الموارد الجينية للكوكب وتقاسمها .

ويقول أحمد جغلاف : « سيذكر التاريخ أنه تمت ولادة عهد جديد من العيش في تناغم مع الطبيعة وتأسيس تحالف عالمي جديد لحماية الحياة على الأرض هنا في ناجويا ... وإذا كانت كيوتو قد دخلت التاريخ بوصفها المدينة التي ولدت فيها إتفاقية المناخ، فإنه سيتم تذكر ناجويا بوصفها المدينة التي ولدت فيها إتفاقية التنوع البيولوجي .

وقال رئيس الإجتماع العاشر لمؤتمر الأطراف في اتفاقية التنوع البيولوجي وزير البيئة الياباني ريو ماتسو ماتو: « إن خلاصة هذا الاجتماع هي نتيجة العمل الشاق ، والاستعداد للتضحية ، والقلق على مستقبل كوكبنا . ومع مثل هذه النتيجة القوية ، يمكننا أن نبدأ عملية بناء علاقة تتناغم مع عالمنا في المستقبل.

يوم للإحتفال :

ومن جانبه ، أكد آخيم ستاينر مساعد الأمين العام للأمم المتحدة والمدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة الذي يدير إتفاقية التنوع البيولوجي : « هذا يوم للإحتفال فيما يتعلق بالإستجابة الجديدة والمبتكرة للفقدان المنذر للتنوع

الحيوي والأنظمة الإيكولوجية . ويوم للإحتفال فيما يتعلق بفرص الحياة وسبل العيش المرتبطة بالتغلب على الفقر وتوفير التنمية المستدامة » . وتتضمن الخطة الإستراتيجية لإتفاقية التنوع البيولوجي ، أو « الهدف آيتشي » ، التي إعتمدها الإجتماع ، عشرين هدفا رئيسيا تنضوي تحت خمسة أهداف إستراتيجية تعالج الأسباب الكامنة وراء فقدان التنوع البيولوجي، وتحد من الضغوط على التنوع البيولوجي، وتحمي التنوع البيولوجي على جميع المستويات ، وتعزز المنافع التي يوفرها التنوع البيولوجي ، وتنص على بناء القدرات ، ومن بين الأهداف ، **فإنه من المهم أن نلاحظ أن الأطراف :**

- وافقت على تخفيض معدل الموائل الطبيعية ، بما في ذلك الغابات ، إلى النصف ، أو إلى ما يقرب من الصفر عندما يكون ذلك ممكنا .
- من خلال عمليات الضيانة والإصلاح ، ستقوم الحكومات بإصلاح ما لا يقل عن ١٥ بالمائة من المناطق المتدهورة .
- ستبذل جهودا خاصة للحد من الضغوط التي تواجهها الشعاب المرجانية .
- وافقت الأطراف على زيادة كبيرة في مستوى الموارد المالية لدعم تنفيذ الإتفاقية .

وسيكون « الهدف آيتشي » هو الإطار الشامل بالنسبة للتنوع البيولوجي، ليس فقط بالنسبة للإتفاقيات المتعلقة بالتنوع البيولوجي ، بل وأيضاً بالنسبة لمنظومة الأمم المتحدة بأسرها .

وقد وافقت الأطراف على ترجمة هذا الإطار الدولي الشامل إلى إستراتيجية التنوع البيولوجي الوطنية وخطط العمل في غضون عامين .

وسوف تتخذ إجراءات الدعم أيضا على المستويات الفرعية الوطنية والمحلية . وقد أقرت الأطراف خطة عمل بشأن المدن والتنوع البيولوجي ، التي إعتمدها مؤتمر « قمة مدينة التنوع البيولوجي » في ناجويا ، الذي حضره أكثر من ٢٠٠ محافظ . كما وافق ١٢٢ برلمانيا من مختلف أنحاء العالم ، الذين حضروا الإجتماع العالمي بشأن البرلمانيين والتنوع البيولوجي ، على دعم تنفيذ الخطة الإستراتيجية الجديدة .

كما حظيت أهمية التحرك للحفاظ على التنوع البيولوجي بدعم خاص من مجتمع المانحين أيضا . وقد اتفق ممثلون لأربع وثلاثين وكالة مانح ثنائية ومتعددة الأطراف على ترجمة الخطة إلى أولويات التعاون التنموية الخاصة بهم .

وكان هناك ترحيب واسع بخطة العمل المتعددة السنوات فيما يتعلق بالتعاون بين بلدان الجنوب بشأن التنوع البيولوجي من أجل التنمية، والمعتمدة من قبل ١٣١ عضوا من مجموعة الـ٧٧ والصين ، بوصفها أداة مهمة في خدمة الرؤية الجديدة .

دعم مالي للبروتوكول :

وتوالت في ناجويا الإعلانات عن تمويلات لدعم تنفيذ الإتفاقية . حيث أعلن رئيس الوزراء الياباني ناتو كان عن تمويل ياباني بقيمة ملياري دولار أمريكي ، كما أعلن وزير البيئة الياباني عن تأسيس « صندوق دعم التنوع البيولوجي الياباني " ، كما أعلن عن موارد مالية إضافية من قبل فرنسا والإتحاد الأوربي والنرويج . وتمت تعبئة نحو ١١٠ ملايين دولار أمريكي لدعم مشاريع

في إطار مبادرة إتفاقية التنوع البيولوجي (لايف ويب) التي تهدف إلى تعزيز جدول أعمال المناطق المحمية .

وسيتم توفير الدعم المالي للخطة الإستراتيجية في إطار إستراتيجية تعبئة الموارد . وستعمل الأطراف على تحديد الوقت المناسب للإجتماع الحادي عشر لمؤتمر الأطراف القادم فى ٢٠١٢ ، والأهداف والآليات التي يمكن من خلالها تحديد الموارد المالية ، وتحريرها وتوجيهها .

وقد إعتمدت الأطراف « بروتوكول ناجويا بشأن الحصول على الموارد الجينية والتقاسم العادل والمنصف للمنافع الناشئة عن استخدامها » . ويقدم الإتفاق التاريخي إطارا يوازن بين الحصول على الموارد الجينية على أساس الموافقة المسبقة عن علم والشروط المتفق عليها بخصوص التقاسم العادل والمنصف للمنافع ، مع أخذ الدور المهم الذي تؤديه المعارف التقليدية بعين الإعتبار . كما يقترح البروتوكول إنشاء آلية عالمية متعددة الأطراف من شأنها أن تعمل في المناطق العابرة للحدود أو في الحالات التي لا يمكن فيها الحصول على الموافقة المسبقة عن علم .

ومن المتوقع أن يدخل بروتوكول ناجويا حيز التنفيذ بحلول العام ٢٠١٢ من خلال دعم مقدم من قبل مرفق البيئة العالمية بقيمة مليون دولار أمريكي لدعم دخول البروتوكول حيز التنفيذ بشكل مبكر.

ويذكر أن « إتفاقية التنوع البيولوجي » دشنت في قمة الأرض في ريو دي جانيرو العام ١٩٩٢. ودخلت حيز التنفيذ في ديسمبر ١٩٩٣. وهي معاهدة دولية لحفظ التنوع البيولوجي والإستخدام المستدام لمكونات التنوع البيولوجي ، والتقاسم العادل للفوائد المستمدة من إستخدام الموارد الجينية . وتحظى الإتفاقية

بشبه إجماع عالمي في ظل تصديق ١٩٣ دولة عليها . وتسعى الإتفاقية إلى معالجة جميع التهديدات التي يتعرض لها التنوع البيولوجي وخدمات النظام الإيكولوجي ، بما في ذلك التهديدات الناجمة عن تغير المناخ ، من خلال التقييمات العلمية وتطوير الأدوات والحوافز والعمليات ونقل التكنولوجيات والممارسات الجديدة ، والممارسة الكاملة والفعالة من قبل أصحاب المصلحة ذوي العلاقة ، ويشمل ذلك السكان الأصليين والمجتمعات المحلية والشباب والمنظمات غير الحكومية والنساء ومجتمع الأعمال .

ومن جانبه ، يسعى بروتوكول قرطاجنة بشأن السلامة الأحيائية ، وهو معاهدة مكملة لإتفاقية التنوع البيولوجي ، إلى حماية التنوع البيولوجي من المخاطر المحتملة التي تشكلها الكائنات الحية المعدلة وراثيا الناشئة التكنولوجيا الحيوية الحديثة .

إستجابة عربية سريعة :

وبعد شهر واحد فقط من قمة التنوع البيولوجي في ناجويا ، إجتمع المسئولون الحكوميون من البلدان العربية في القاهرة في أواخر نوفمبر ٢٠١٠ لإعداد إستجابات وطنية وإقليمية لنتائج ناجويا . وكانت حلقة العمل العربية الإقليمية بشأن التنوع البيولوجي والتمويل أول إستجابة إقليمية لنتائج ناجويا ، وأحد الأنشطة الأولى في المنطقة العربية التي تهدف إلى دعم تنفيذها .

وقد بادرت إلى تنظيم حلقة العمل الأمانة الفنية لمجلس الوزراء العرب المسئولين عن البيئة التابع للجامعة العربية، وشارك في تنظيمها المكتب الإقليمي لغرب آسيا التابع لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة وأمانة إتفاقية التنوع البيولوجي . وحضرت حلقة العمل مؤسسات التمويل والوكالات الإنمائية

النشطة في المنطقة العربية بغية بحث وصياغة برنامج عربي بشأن التنوع البيولوجي والتمويل حتى العام ٢٠٢٠ .

كما هدفت حلقة العمل الإقليمية إلى تمهيد الطريق لخطة عمل إقليمية فعالة لإستراتيجية حشد الموارد وآليات مالية مبتكرة. وقدمت منبرا لإعداد رؤية والتزامات مشتركة وإجراء ملموس للتمويل بالنسبة للبلدان العربية وشركائها الخارجيين من أجل دعم تنفيذ الخطة الإستراتيجية للفترة ٢٠١١-٢٠٢٠ والأهداف المرتبطة بها في المنطقة .

مستقبل العرب المشترك :

يزداد الشعور لدينا جميعاً بأننا نعيش وننتمي إلى كوكب واحد هو كوكب الأرض ، وإلى عائلة واحدة تعرف باسم الجنس البشري ، مما قد يوحي بأن الفواصل التقليدية بين الشعوب فواصل غير طبيعية إصطنعها الإنسان نفسه إستجابة لبعض ضرورات الحياة .

فعلى الرغم من أننا نعيش على كوكب واحد فإننا نؤلف مجتمعات وثقافات وإتجاهات عديدة متنوعة ومتباينة ، وننظر إلى هذا الكوكب من زوايا مختلفة ورؤى متعارضة ، ونتعامل معه بنظم متضاربة كثيراً ما تؤدي إلى إلحاق الأذى به وبمكوناته وثرواته الطبيعية التي يفترض أنها ملك لنا جميعا ، وأنه يتعين علينا المحافظة عليها وتنميتها وتوريثها في حالة جيدة للأجيال القادمه . إلا أن هذه الفواصل في سبيلها الآن إلى الإختفاء والزوال بفضل تعدد وكفاءة وفاعلية وسائل وأساليب الإتصال والتواصل إبتداء من إزدياد الحراك السكاني وإتساع مجاله الذي يكاد يغطي كل مساحة كوكب الأرض حتى الاتصال الإلكتروني

ووسائل الإعلام المختلفة التي تغطي هي أيضا كل مناطق ذلك الكوكب. وقد ساعد على نمو هذا الشعور بالتقارب قوة تأثير اتجاهات العولمة والإستجابة إلى حد كبير لهذه الإتجاهات إلا أننا لا نزال رغم ذلك نعمل على إستنزاف تلك الثروات بطرق تختلف من مجتمع لآخر ولكنها قد تؤدي كلها في آخر الأمر إلى القضاء عليها تماماً .

والواقع هو أن تاريخ الإنسانية كان دائماً تاريخ إستهانة بهذا الكوكب وإعتداء على مقوماته وإلحاق الأذي به . ولكن لم يبلغ الأذى في أي مرحلة إلى ما وصل إليه الحال الآن نتيجة للمستجدات التكنولوجية التي تهدف في بعض أبعادها وأغراضها إلى تقدم الجنس البشري وتعبر بشكل من الأشكال عن هذا التقدم . وهذه هي المفارقة الصارخة التي تكشف عن مأساة علاقة الإنسان بالطبيعة. فالطابع العام السائد لهذه العلاقة هو طابع التدمير الذي تشارك فيه كل المجتمعات بغير إستثناء . ويساعد على إستفحال الضرر الزيادة السكانية الهائلة غير المنظمة وغير العقلانية إن صح التعبير بكل ما يترتب عليها من نتائج إجتماعية وخيمة وذلك بالإضافة إلى الزيادة الملحوظة في الصراعات السياسية والاقتصادية والعرقية والدينية الناشبة في كل أنحاء العالم والتي ترتبط في آخر الأمر بالأنماط الكوكبية المتعلقة بإستخدام الموارد الطبيعة وعمليات الإنتاج والإستهلاك وعوامل الغنى والفقر. ولكن هناك على الجانب الآخر شعورا متزايدا بضرورة إحترام جوهر حقيقة الإنسان وحقوقه والمحافظة على البيئة والعمل على تحقيق التقدم بإعتبارها كلها أموراً متكاملة وليست متعارضة أو أن لها أهدافا متضاربة ، وربما كان السبيل الوحيد لتحقيق ذلك هو إتباع سياسة التنمية المستدامة .

ولقد سيطر على العالم بعد الحرب العالمية الثانية وإستقلال المستعمرات في العالم الثالث إحساس بشيء من التفاؤل بإمكان قيام عالم جديد أكثر شجاعة وجرأة وقدرة على القيام بمواجهة جماعية للمشكلات السياسية والإقتصادية التي عانت منها المستعمرات والشعوب المستضعفة أشد المعاناة لفترات طويلة وكان لها تأثيرها السلبي على قدرة تلك المجتمعات على التقدم والنمو ، ولكن لم يلبث هذا الإحساس أن تضاءل وتراجع أمام حقائق الحياة المتمثلة في سلبية المجتمع الدولي وعدم المبالاة بالأوضاع المأساوية التي سببها الغرب إلى حد كبير في تلك المجتمعات ، فلم تحاول الدول الغربية التخفيف بما فيه الكفاية من تلك المعاناة وإشراك تلك الشعوب في بعض جوانب الإزدهار الذي تحظى به ، وكذلك فيما ساد العالم الثالث المتخلف من رغبة في العزلة والإنزواء إلى جانب سوء إدارة ثرواته وموارده الطبيعية وإساءة إستخدام السلطة وانتهاج سياسات الحكم الشمولي والقضاء على الحريات والدخول في صراعات قبلية وإقليمية أدت إلى توسيع الهوة بين الشعوب المتقدمة ودول العالم الثالث ، وظهر أن الوضع يكشف عن عدم وجود أرضية مشتركة بين الطرفين نظراً لإختلاف الأهداف والأولويات والقيم والنظرة إلى الحياة وأساليب العيش والحياة ، وبذلك زاد تراجع الشعوب المتخلفة وإستفحال الفقر وتعقدت المشكلات المزمنة أكثر مما كانت عليه.

وليس من شك في أن من السهل علينا في هذا العصر الذي تحكمه وتتحكم فيه التكنولوجيات الجديدة المعقدة أن ننسى أن الجنس البشري جزء من الطبيعة لا ينفصل عنها ، وأن تصرفاتنا وسلوكياتنا لها مردود عليها وأن ما يجب مراعاته هو معرفة كيف تعمل الطبيعة ونتوافق مع نظام ذلك العمل والقوانين التي تحكمه للمحافظة على التوازن بين الإنسان ومكونات ومقومات هذه الطبيعة . فالعالم يمر الآن بمرحلة تاريخية حاسمة يحيط بها كثير من الأخطار

مما يتطلب أكثر من أي وقت مضى التنسيق بين الجهود والمسئوليات السياسية والاقتصادية على كل المستويات لتحقيق أهداف الإنسانية وتطلعاتها التي تحتاج إلى التعاون من الجميع . وربما كان من أهم ما يحتاج إليه الوضع الإنساني الآن هو تضافر الجهود في مختلف جوانب الحياة وليس فقط في المجالات السياسية أو الإقتصادية كما يحتاج إلى النظرة العامة الشاملة إلى مشكلات الحياة المعقدة المتداخلة والتعامل معها كوحدة عضوية متكاملة بصرف النظر عن الإختلافات الثقافية والحواجز الإجتماعية والتاريخية التي تباعد بين الشعوب . وليس هذا بالأمر السهل لأنه يتطلب تناسي المصالح الخاصة في حدود معينة بطبيعة الحال ، وأخذ الإنسانية في كليتها ومجموعها وشموليتها ، ولكنها أمور لا مفر منها في وضع سياسات سليمة وفعالة حول الإهتمام بمستقبل الإنسانية المشترك التي تراعي الحفاظ على مكونات هذا الكوكب وتنميته لمصلحة الأجيال الحالية مع عدم إغفال حقوق الأجيال القادمة .

في عام ١٩٨٣ أنشأت الأمم المتحدة مفوضية للتنمية أو لجنة دولية للبيئة والتنمية برئاسة جرو هارلم برونتلاند Gro Harlem Bruntland رئيسة وزراء النرويج سابقا لدراسة المشكلات الأساسية في علاقة الإنسان بكوكب الأرض . وقد نشرت برونتلاند في عام ١٩٨٧ تقريرا أو كتابا عن الموضوع بعنوان « مستقبلنا المشترك Our Common Future » وجهت فيه الأنظار إلى خطورة الوضع على مستوى العالم وبخاصة فيما يتعلق بعدم مراعاة الناس لأخلاقيات التعامل مع البيئة الطبيعية مما يهدد الجنس البشري بوجه عام بكثير من المخاطر في المستقبل .

قمـــة الأرض :

وقد تتابعت منذ ذلك الحين المؤتمرات الدولية والإقليمية حول الموضوع المشكلة ، وكان من أهمها مؤتمر ريو الشهير نسبة إلى مدينة (ريو دي جى نيرو) عام ١٩٩٢ عن « قمة الأرض » ، وفيه إهتمت الدول المشاركة بإعلان الخطوات التي تكفل على المستوى المحلي والعالمي الإرتقاء بالتنمية المستدامة والمبادئ المحددة للحقوق والمسئوليات التي يجب أن يضطلع بها المجتمع الدولي في هذا المضمار ، والتغلب على مشكلات البيئة وأزماتها والمحافظة على التنوع الحيوي والإهتمام برأس المال الطبيعي ونقله في حالة جيدة للأجيال التالية . فمشكلة الإنسان مع الكوكب الذي نعيش فيه هي عدم الإدراك الواعي المستنير لطبيعة وأبعاد المبادئ التي يجب أن تحكم العلاقة بيننا وبين الكون الذي يحتوينا فيزيقيًا ونحتويه نحن إجتماعيًا وثقافيًا . وقد عبرت عن هذه المبادئ سلسلة محاضرات ريث Reith Lectures الشهيرة لعام ٢٠٠٠ التي كانت بعنوان » إحترام الأرض Respect for the Earth , « وقد أذاعها راديو الإذاعة البريطانية ثم نشرت بعد ذلك في كتاب بنفس العنوان . وكان قد شارك في إلقاء تلك المحاضرات مجموعة من كبار المهتمين بالمشكلة الذين تناولوها من زوايا مختلفة، وأختتمت بمشاركة ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز كمؤشر على أهمية وخطورة مشكلة المستقبل المشترك للجنس البشري . وقد هدفت المحاضرات إلى تعرف إذا ما كان في المستطاع إتباع سياسة رشيدة تقوم على تبني مبادئ التنمية المستدامة في عالمنا المعاصر بحيث تمتد آثارها إلى المستقبل في عمومه ولا تقتصر على مجتمع واحد أو دولة واحدة أو ثقافة واحدة فحسب . " وجرو هارلم برونتلاند " تقول صراحة في تقريرها إنه يتعين علينا أن نغير من أسلوب حياتنا وتعاملنا مع البيئة حتى لا نواجه بخطر فناء الجنس

البشري ، وأن تتعاون الدول المختلفة في تحديد مسار الإهتمام بالمشكلات العامة ووضع المشكلة البيئية بوجه أخص على أجندة نشاطها السياسي .

اعبـاء العـولمة الجـديدة :

فالتنمية المستدامة لا تتعلق بالعالم الفيزيقي وحده ولا بفئة واحدة من المجتمعات وإنما تهتم بمختلف أنواع وفئات البشر مع إهتمام خاص بالطبقات الفقيرة المعدمة والفئات المحرومة من الخدمات الإجتماعية وتلك التي تعاني من البطالة وعدم وجود مأوى مناسب وما إلى ذلك ، وقد فرضت العولمة على هذه الجماعات أعباء جديدة فوق ما كانت تعاني منه دائما ولذا فإن أي سياسة ترمي إلى تحديد مسيرة الحياة لتحقيق مستقبل مشترك لابد لها أن تأخذ العوامل والأبعاد الإجتماعية بأوسع معاني الكلمة في الإعتبار حتى تضيق الفوارق الرهيبة بين الشعوب المختلفة وكذلك بين قطاعات المجتمع الواحد وتتقارب بعضها من بعض بقدر الإمكان ، كما لابد من الإسترشاد بدروس التاريخ حين ننظر إلى المستقبل . فثمة ميل لدى الكثيرين إلى إغفال كل ما ليس بجديد أو حديث على أنه غير مفيد ولا جدوى لأنه ينتمي إلى عصر غير العصر وأن التقدم يتطلب طرح القديم جانباً بإعتباره علامة ودليلا على الجمود والتخلف ، وفي ذلك خسارة فادحة وإهدار للخبرات العديدة السابقة وحرمان الأجيال القادمة من خبرات الماضي .

ولقد طرأت على العلاقة بين البشر وكوكب الأرض تغيرات جذرية خلال العقود القليلة الماضية . ففي بداية القرن الماضي على سبيل المثال كان التأثير السلبي لسكان العالم والوضع التكنولوجي على البيئة محدودا نسبياً سواء فيما يتعلق بإستنزاف الموارد الطبيعية أو تلويث المناخ أو غير ذلك . وهذه أوضاع

تغيرت الآن بما يتطلب تعديل الرؤى والاتجاهات والمواقف إزاء تصور مستقبل مشترك للإنسانية يأخذ في الإعتبار بوجه خاص مشكلات الانفجار السكاني على مستوى العالم وما يترتب عليه من فقر إقتصادي وإجتماعي وثقافي مع سوء الوضع الناجم عن التنمية غير المنتظمة وغير المنظمة وغير العادلة ، فهذه الأبعاد الثلاثة تؤدي كلها مجتمعة ومتفرقة إلى تدمير البيئة الطبيعية التي نعتمد عليها إعتماداً جذرياً وأساسياً . ولذا فإن التصدي لمشكلات ذلك المستقبل المشترك الذي تشارك فيه مجتمعات وثقافات وأعراق ولغات وديانات وأيديولوجيات وأساليب حياة ونوعيات حياة متفاوته أشد التفاوت لابد أن يكون مسئولية متخصصين من شتى فروع المعرفة والعلم والعمل والتخطيط والتنفيذ مع إتساع النظرة بحيث تشمل المجتمع الإنساني ككل.

قصور قدرات البيئة :

ويكشف تقرير مستقبلنا المشترك وما أنبثق عنه من إجتماعات ومؤتمرات وندوات وكتابات عن وجود عنصرين على جانب كبير من الأهمية. العنصر الأول هو الإعتراف بكثافة وتعدد الإحتياجات الأساسية للجنس البشري وبقصور قدرات البيئة على مواجهة هذه الإحتياجات على الوجه الأكمل بسبب الزيادة السكانية وإنعدام ثقافة التعامل مع البيئة وغياب النظرة الشاملة والمتكاملة إلى المستقبل حتى بين الشعوب المتقدمة والصناعية . والعنصر الثاني هو أن التنمية الشاملة والمستدامة تستدعي المشاركة على كل المستويات مع توحيد عمليات التغيير الهادفة أو على الأصح توحيد النظرة والفلسفة وراء تلك العمليات والتي تنبثق منها الجهود اللازمة للتخطيط والتنفيذ.

وقد يتطلب الأمر كسر الحواجز التي تفصل بين مختلف التخصصات لتوحيد هذه الجهود من أجل المصلحة المستقبلية المشتركة وإزالة الفجوة المفتعلة إلى حد كبير بين العلوم الطبيعية والإنسانيات ، وتنمية وتطوير ما يعرف الآن باسم الثقافة الثالثة Third Culture التي تضم تخصصات ومتخصصين في مختلف جوانب الإنسانيات ، الذين يفكرون بأسلوب العلماء الطبيعيين ويؤمنون مثلهم بوجود عالم حقيقي وأن وظيفتهم هي فهم ذلك العالم وتفسيره وإختبار أفكارهم بالإشارة إلى التماسك المنطقي ومدى إتفاقها مع الحقائق الإمبيريقية ومقومات ذلك العالم .

فالتنمية المستدامة ليست مجرد عملية مفردة مثل تحسين البيئة أو الإرتقاء بوسائل الإنتاج ، وإنما هي نموذج مختلف من التقدم يقوم على توازن الإحتياجات الإجتماعية والإقتصادية من ناحية والقدرات والإمكانات الطبيعية لكوكب الأرض من ناحية أخرى ، وهي إمكانات محدودة رغم ثرائها ولابد من التعامل معها بحرص وعقلانية . ونقطة الانطلاق هي وضع إستراتيجية للتعامل السليم مع البيئة الفيزيقية لتحقيق هذا النمط المعقد من التنمية مع الأخذ في الإعتبار إمكان تحقيق تعاون دولي شامل . وتحقيق هذه المتطلبات يفرض علينا التعرف على آراء الأهالي الذين هم الهدف الأخير من كل العمليات وليس فقط الاسترشاد أو الإكتفاء بآراء وخطط المتخصصين أو أصحاب القرار أو حتى المهتمين بمشكلات التنمية ومستقبل الجنس البشري . فالرؤية الشاملة لن تتم إلا بتعرف موقف الإنسان العادي من مختلف جوانب الحياة وآماله وتطلعاته ونظرته الناقدة للأوضاع بشكل عام . وينطبق هذا بنوع خاص على الشباب الذين سوف يتأثرون أكثر من غيرهم بنتائج القرارات التي قد يتخذها غيرهم كما أنهم هم الذين سوف يتولون تنفيذ تلك القرارات .

التنمية المستدامة تهدف إذن في آخر الأمر إلى رفع درجة التجانس والتقارب بين الشعوب من ناحية وبين الإنسان والطبيعة من ناحية ثانية. ولم تكن المعطيات السياسية والإقتصادية في القرن الماضي تساعد على تحقيق ذلك على الوجه الأكمل. فالأمر يتطلب توافر عدد من الشروط التي أصبحت ميسورة الآن نتيجة للتغيرات في مجال الإتصال والإحتكاك والتأثير المتبادل بين الشعوب . وربما كان من أهم هذه الشروط وجود نظام إقتصادي يسمح بالتقدم في مجالات التقنية والإعتماد على الذات مع توافر نظام سياسي يتيح المشاركة الإيجابية الفعالة لأفراد المجتمع في إتخاذ القرارات التي تؤثر في حياتهم بشكل مباشر ، وإستناد هذا كله إلى نظام إجتماعي واسع الأفق وينظر إلى ما وراء الحدود الفيزيقية للمجتمع ويوفر الحلول للتوترات التي قد تنجم عن التنمية غير المنتظمة وغير المتكافئة وعلاج هذه التوترات والتغلب عليها ، ويراعي الإلتزام بالمحافظة على القاعدة الإيكولوجية اللازمة للتنمية ، ويحترم قواعد وأخلاقيات التعامل مع البيئة . ثم هناك في آخر الأمر شرط توافر نسق عالمي أو كوكبي يضمن ويشجع ويدعو إلى إستمرار أنماط التبادل بين الشعوب في مختلف المجالات دون تفرقة أو رغبة في السيطرة والهيمنة ، حتى يشعر الجميع بأنهم أطراف فاعلون في رسم خطط المستقبل المشترك للمجتمع الإنساني كوحدة عضوية متكاملة .

البشر صانعو المشكلات وحلولها :

وليس من شك في صعوبة تحقيق كل هذه الشروط رغم كل ما يقال عن أهميتها وضرورة توفيرها وتفعيلها . ولكن يجب ألا ننسى أن الجنس البشري هو صانع الحضارة وأصل المجتمع والثقافة . وإذا كان الإنسان هو مصدر كثير من المشكلات البيئية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية فإنه هو الذي يستطيع

التصدي لها والتغلب عليها وإيجاد الحلول اللازمة للقضاء عليها من أجل إستمرار الحياة ككل وحياته هو في المحل الأول . فجميع الكائنات والأنواع الحية تتمتع بغريزة حب البقاء والإستمرار في الوجود ولا يشذ النوع البشري عن ذلك .

وتختلف أساليب وطرق تحقيق هذه الغريزة من نوع لآخر ، ولكن يبدو أن الوسيلة الأكثر فاعلية بالنسبة للجنس البشري إزاء التحديات الكثيرة الحالية هي التنمية المستدامة على مستوى الكون لتحقيق المستقبل المشترك للجميع وإن كانت هناك مشكلة خلق وعي إجتماعي جماعي بفداحة المشكلة وإقتناع كامل بضرورة التضافر في مواجهتها مع النظرة البعيدة للمستقبل الممتد بغير حدود .

فهل تفلح الجهود المشتركة في خلق ذلك الوعي المشترك بذلك المستقبل المشترك والتصرف في ضوء ذلك الإدراك ؟



الفصـــل الحادي عشر

الثقافة و القيم و نصيب العرب من الأزمة العالمية

الثقافة والقيم الإقتصادية .. ونصيب العرب من الأزمة العالمية :

تشكّل منظومة القيم الإقتصادية الموجهة للسلوك الاقتصادي لأي أمة، عاملاً مهماً في تحديد مسار إقتصاد هذه الأمة وقدرته على تحقيق التطور والتقدم، أو على مواجهة الأزمات التي يمكن أن يتعرض لها سواءً كانت ناجمة عن عوامل داخلية، أو كانت بسبب تأثيرات إقتصادية خارجية.

من المؤكد أن منظومة القيم الاقتصادية السائدة في البلدان العربية والتي تشكّل ملامح الثقافة الاقتصادية العربية، قد أثرت في تحديد نصيب البلدان العربية من الأزمة المالية والاقتصادية الهائلة التي ضربت الولايات المتحدة الأمريكية، وإنتقلت منها إلى كل الإقتصادات المندمجة في الإقتصاد العالمي، وضمنها الإقتصادات العربية عبر آليات التجارة السلعية والخدمية والإستثمارات المباشرة وغير المباشرة وتدفقات الأموال. كما أثرت هذه الثقافة الاقتصادية أيضاً في آليات تفاعل الشعوب والحكومات العربية مع تلك الأزمة وكل تداعياتها.

وإن كان من الضروري الإشارة إلى أن المنظومة القيمية الاقتصادية السائدة أمريكياً وعالمياً وعلاقتها بتفجير الأزمة والتفاعل معها بعد ذلك، قد وُجدت مباشرة في البلدان العربية، أو أثرت فيها بقوة ، بإعتبار أن هذه المنظومة الأمريكية والعالمية ، تشكّل الوسط التاريخي الذي تتحرك المجتمعات العربية في إطاره وتتفاعل معه بمنطق المتلقي والمقلد كلما كانت ضعيفة، وبمنطق المتفاعل والمؤثر كلما كانت قوية.

وهناك مجموعة من القيم الاقتصادية التي تتبوأ مكانة عليا في رأسمالية ما قبل الأزمة العالمية في البلدان الرأسمالية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة، تلك القيم التي قامت الدول الكبرى بمساعدة صندوق النقد والبنك الدوليين ومنظمة التجارة العالمية بنشرها على نطاق واسع في العالم سواء بالتراضي مع حكومات الدول النامية والأقل نمواً، أو بآليات الضغط المالي عليها.

فساد وسوء توزيع للدخل :

تأتي قيمة الحرية الاقتصادية المنفلتة من أي ضوابط أو قيود أو رقابة فعّالة من الدولة في مقدمة المنظومة القيمية التي شكّلت الثقافة الاقتصادية في الغرب والعالم في العقدين الأخيرين. وكان المبرر لهذا النمط من الحرية المنفلتة، هو أن قوى السوق قادرة على تصحيح نفسها ومعالجة أية تجاوزات أو أزمات، وأن تدخل الدولة ورقابتها، يفسد الآليات التلقائية لإصلاح الرأسمالية لنفسها.

لكن الذي حدث كنتيجة لسيادة هذه القيمة والثقافة المرتبطة بها، هو موجة عاتية من الفساد ضربت الشركات الأمريكية في عامي ٢٠٠١ / ٢٠٠٢ وخلّفت وراءها إنهياراً كاملاً لشركة " إنرو " النفطية التي كانت تحتل المرتبة السادسة في قائمة أكبر الشركات الأمريكية، والمرتبة ١٦ بين أكبر شركات العالم، وخلّفت وراءها أيضاً إنهياراً كاملاً لشركة وورلد كوم، وخلفت خسائر نهائية عبارة عن حقوق معدومة قدرها ٤٦٠ مليار دولار في عامي ٢٠٠١ ، ٢٠٠٢، فضلاً عن الإضطراب الهائل الذي شهدته البورصة الأمريكية آنذاك. وكان السبب الرئيسي لإنهيار الشركتين المشار إليهما هو فساد المدراء التنفيذيين الذين

من المفترض أنهم يديرون الشركتين لمصلحة حملة الأسهم، وتقوم بمراقبتهم شركات محاسبة لمصلحة حملة الأسهم، لكن هؤلاء المدراء فسدوا وتواطأت معهم شركات المحاسبة في غياب أية رقابة حقيقية من الدولة، وكانت النتيجة إنهيارات مدوية لكن إدارة بوش الابن « الذكية »، إستمرت على المنوال نفسه، حتى حدث الإنهيار الثاني والأكبر حجماً في منتصف عام ٢٠٠٧ في شركات الرهن العقاري والشركات العقارية نفسها. ولم يكن هذان الانهياران كافيان لتنبيه بوش الابن وإدارته « الذكية »، فانتظرا الانهيار الأشد هولاً في المؤسسات المالية والعقارية والذي بدأ بانهيار عملاقتي الرهن العقاري . " فاني ماي " و " فريدي ماك " اللتين كانتا تضمنان قروضاً عقارية قيمتها ٥.٢ تريليون دولار ، في يوليو ٢٠٠٨، والذي انتهى حتى الآن بسقوط ٤٠ مؤسسة مالية عملاقة ومتوسطة في الولايات المتحدة، وإفلاس عدد كبير من الشركات الصغيرة والمتوسطة والعملاقة، بما فيها رموز صناعة السيارات الأمريكية " كرايزلر " و " جنرال موتورز " .

كما أن غياب الرقابة الحقيقية، ساعد الشركات على تزييف أعمالها حتى تقلل ما تدفعه للضرائب بالرغم من إنخفاض معدلاتها على الطبقة العليا، وساعدها أيضاً على تبرير أي قرارات بشأن الأجور عندما يتعلق الأمر بزيادات محدودة أو حتى جمود هذه الرواتب، وخلق حالة من عدم الشفافية في عالم الأعمال عموماً. وقد فاقم من ضعف الشفافية وإنعدامها في بعض الأحيان، توسع ظاهرة سرية الحسابات المصرفية التي تعد غطاء نموذجياً للأموال الفاسدة التي تم تكوينها من الفساد والإقتصاد الأسود غير المشروع عموماً. كما أن تزايد الملاذات الضريبية الآمنة التي تصل الضرائب فيها إلى صفر أو مستويات متدنية، قد ساعد أيضاً على تهرّب الرأسمالية الكبيرة في الكثير من البلدان من دفع الضرائب من خلال تأسيس أعمالها في هذه الملاذات الضريبية الآمنة، حتى

لو كانت تعمل بالأساس في إقتصادات أخرى خارج تلك الملاذات الضريبية الآمنة، وأدى هذا الأمر إلى تزايد العجز في الموازنة العامة للدولة في الكثير من البلدان وتعد سويسرا ودبي وهونج كونج وجزر كايمان من الملاذات الضريبية الشهيرة في العالم والمنطقة العربية.

وفي البلدان العربية، سادت هذه الثقافة الإقتصادية إما بإختيار النظم الحاكمة في بعض البلدان، أو تحت ضغوط المؤسسات المالية الدولية والدول الدائنة في بلدان أخرى. وكانت النتيجة هي إنتشار الفساد على نطاق واسع على تخوم العلاقة بين القطاع العام والجهاز الحكومي والهيئات الاقتصادية من جهة، وبين القطاع الخاص المحلي والأجنبي من جهة أخرى، فضلاً عن الحرية المطلقة للرأسمالية المحلية والأجنبية التي تنشط في البلدان العربية، في تقسيم القيمة المضافة المتحققة في أي عملية إنتاجية لمصلحتها على حساب العاملين لديها، بصورة تنطوي على توحش حقيقي في الاستحواذ على القيمة المضافة أو فائض القيمة، مما ساعد على انتشار الفقر حتى بين العاملين في ظل عدم عدالة نظم الأجور في الكثير من البلدان العربية، مقابل تزايد ثراء حفنة من الرأسماليين والمغامرين والفاسدين بصورة أسطورية.

الربح من دون عمل :

تعد ثقافة « الربح من دون عمل »، هي العنصر الثاني من عناصر الثقافة الإقتصادية العالمية والعربية التي ساهمت في إنفجار الأزمة المالية الإقتصادية العالمية والعربية، وفي تحديد نصيب البلدان المختلفة منها. وهذه الثقافة الرديئة هي أم الأنشطة الطفيلية مثل المضاربة على العملات والأسهم والمعادن النفيسة وغير النفيسة والسلع الغذائية، وهي أيضا المصدر لكل برامج المسابقات

والإتصالات التلفونية التي تلعب على أحلام الناس في الخروج من الفقر أو ضيق الحال من خلال كسب المال بهذه الطريقة وبكميات ضخمة، وهي أيضا التي ولدت ظاهرة الأسواق الآجلة في المواد الأولية مثل النفط والغاز والمعدن والسلع الزراعية، والتي إنتشرت لتشمل كل ما هو قابل للاتجار به، بما في ذلك القروض بعد ذلك لتشكل سوق المشتقات التي توسعت وتضخمت بصورة سرطانية، ليصل حجم المشتقات عند إنفجار الأزمة المالية والإقتصادية العالمية الراهنة إلى أكثر من ٦٠٠ تريليون دولار (التريليون ألف مليار)، أي أكثر من عشرة أضعاف حجم الناتج العالمي مقاساً بالدولار وفقاً لتعادل القوى الشرائية بين الدولار والعملات الأخرى.

وهذه الثقافة تتوسع على حساب ثقافة الربح من خلال العلم والعمل اللذين غيرا الدنيا ومصائر الأفراد والأمم ورسما دائماً صورة المستقبل والتطور الإقتصادي - الإجتماعي لأي أمة حسب موقع قيمتي العلم والعمل من منظومة القيم الأساسية لها. وقد شهد العالم منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين توسعاً مطرداً لثقافة الربح من دون عمل منذ تحول أسواق العملات بعد فك الارتباط بين الدولار والذهب، وبعد تعويم العملات الأوربية وكل العملات الحرّة، إلى أسواق للمضاربة على العملات وليس للحصول على هذه العملات بغرض تسوية التعاملات الاقتصادية والالتزامات المالية بين الدول ، وللعلم فإن قيمة التعاملات في أسواق العملات خلال ما يقل عن شهر توازي قيمة الناتج العالمي خلال عام في الوقت الراهن، مما يدلل على ضخامة حجم هذه الأسواق وسخونة الأموال التي تتحرك فيها.

وترتبط ثقافة الربح من دون عمل، بثقافة إقتصادية رديئة أخرى، هي ثقافة الخبطة المقبلة من عالم الإقتصاد الأسود، والتي انتشرت في الاقتصاد العادي

بعد تلقي الإقتصاد الرسمي المشروع، موجات ممن كونوا أموالهم من الأنشطة الطفيلية والفساد، والأنشطة غير المشروعة مثل الإتجار في المخدرات أو السلاح أو الآثار، أو البغاء وإدارة صالات القمار، بعد تبييض أموالهم، حيث جاء هؤلاء القادمون من الإقتصاد الأسود بثقافة تجارية تقوم على إحتكار الفرد أو القلة، وهي الأنماط السائدة في تلك الأسواق غير المشروعة، وتقوم أيضا على معدلات ربح بالغة الإرتفاع كآلية أساسية للإثراء السريع ولتعويض أية خسائر قد تحدث من الملاحقة القانونية للأنشطة غير المشروعة والقائمين بها.

الإستحواذ بين الإحتكار :

تعد ثقافة الإستحواذ والسيطرة لدى الرأسمالية الكبيرة في الولايات المتحدة، المصدر الأساسي لظاهرة الرواتب الخيالية للمدراء التنفيذيين للشركات الأمريكية الكبرى الرابحة والخاسرة معاً، لدرجة أن رئيس مجلس إدارة بنك " ليمان براذرز" المنهار في سبتمبر ٢٠٠٨، حصل على ٤٦٨ مليون دولار كمكافآت على الرغم من أن أداءه الفاسد وغير الكفء كان يستحق العقاب وليس نهب أموال حملة الأسهم في صورة مكافآت تمثل قمة الملهاة في نهب الرأسمالية البيروقراطية الأمريكية لصغار ومتوسطي المستثمرين من حملة الأسهم.

كما أن هوس الإستحواذ شكل مصدراً رئيسياً لحروب السيطرة على النفط وللميل العدواني الخارجي لإدارة بوش الابن التي وصلت في عدوانيتها تجاه الآخر إلى حالة من الفاشيستية، كانت نتيجتها الإقتصادية إغراق الموازنة العامة للدولة الأمريكية في عجز أسطوري نتيجة التكاليف الباهظة لتمويل المغامرات الخارجية، دون التمكن من الحصول على عائد كبير كمقابل لهذه المغامرات، يعوض تكاليفها، وذلك بسبب أعمال المقاومة في البلدان التي غزتها القوات

الأمريكية، وأيضاً بسبب رفض ترقب وترصد الدول الكبرى لما ستفعله الولايات المتحدة في مستعمراتها. وكان بوش الابن قد تسلم الحكم في الولايات المتحدة وهي لديها فائض قدره ٢٥٤.٨ مليار دولار عام ٢٠٠٠، وتراجع هذا الفائض إلى ٩١ مليار دولار عام ٢٠٠١، ثم بدأت الموازنة تعاني عجزاً كبيراً وصل إلى ٤٥٥ مليار دولار في العام المالي الأمريكي المنتهي في سبتمبر ٢٠٠٨، قبل أن تؤدي التكاليف الهائلة لمواجهة الأزمة المالية والاقتصادية الأمريكية ومحاولة إنقاذ رأسماليتها المتداعية من خلال أموال دافعي الضرائب ومجمل الإيرادات العامة، إلى وصول عجز الموازنة العامة للدولة لمستويات قياسية تقدر بنحو ١٧٠٠ مليار دولار في العام المالي الأمريكي الذي إنتهي في سبتمبر ٢٠٠٩.

وفي المنطقة العربية، تعد ثقافة الاستحواذ عاملاً رئيسيا في سيادة نماذج السيطرة على السلطة والثروة وتزايد سيطرة الرأسمالية على الحكم بصورة مباشرة في الكثير من البلدان العربية، بما يترتب على هذا النمط من تحطيم القواعد الذهبية للنظام الرأسمالي نفسه، مثل قاعدة العلم المتزامن بظروف السوق لدى كل المعنيين به ، حيث يعلم الرأسماليون الموجودون في الحكم بالتغير في ظروف السوق قبل غيرهم ، بل إنهم يصنعون هذا التغير في الاتجاه الذي يحقق مصالحهم الخاصة ، بكل ما ينتج عن ذلك من اختلالات اقتصادية - اجتماعية - سياسية، نتيجة إعطاء الأولوية لمصالح حفنة من الرأسماليين الموجودين في الحكم، على حساب مصالح الاقتصاد عموماً ، أو حتى مصالح الطبقة الرأسمالية بصورة جماعية، أو النظام السياسي نفسه.

تراجع قيمة العدالة الاجتماعية :

أدى تراجع ثقافة وقيمة العدالة الاجتماعية والنظر إليها على أنها من مخلفات عهود مضت ترتبط بالنظم الاشتراكية أو بدولة الرفاهية الاجتماعية أو بالدول المستقلة التي توافرت لها إرادة تطوير مجتمعاتها وبناء تكاملها الوطني بصورة سريعة وفعالة، أدى هذا التراجع إلى تزايد الفوارق بين الطبقات خاصة بعد تعديل الروافع الأساسية لتوزيع الدخل وإعادة توزيعه باتجاه المزيد من السوء، حيث قامت إدارة بوش الابن بتخفيض الضرائب على الشريحة العليا من ٤٠% على كل من يزيد دخله على ٢٩٧ ألف دولار في نهاية عهد كلينتون، إلى ٣٥% على كل من يزيد دخله على ٣٢٥ ألف دولار. وإذا كان توزيع الدخل في أي بلد يتحدد من خلال نظم الأجور والتشغيل والضرائب والتحويلات والدعم السلعي ودعم الخدمات العامة، فإن هذا التوزيع تدهور كثيراً بسبب تبني الإدارة الأمريكية لسياسات يمينية متطرفة محابية للطبقة العليا أساساً. وهذا الغياب لقيمة العدل الاجتماعي له تأثير سلبي كبير في الطلب الفعال المحفز للاستثمارات والنمو في الولايات المتحدة والدول الصناعية المتقدمة عموما وباقي دول العالم بدرجة أقل ويأتي هذا التأثير من حقيقة أنه كلما زادت حصة الشرائح الدنيا من الدخل، فإن الطلب الفعال على السلع والخدمات يتزايد بشكل سريع، لأن هذه الفئة ليس لديها ترف الإدخار وتحول دخلها إلى طلب فعال على السلع والخدمات، بما يحفز المستثمرين على إنشاء مشروعات جديدة لمواجهة هذا الطلب الفعال، وهذه المشروعات تقوم بتشغيل عاملين جدد لهم طلب فعال أيضا على السلع والخدمات بصورة تحفز المستثمرين على بناء مشروعات جديدة في سلسلة متراتبة ولا تنتهي، نطلق عليها مضاعف الإستثمار الذي يحرك النمو الإقتصادي المتواصل. ومن المؤكد أن غياب قيمة العدالة في توزيع الدخل

تأثيرها السلبي على الطلب الفعال، يعد عاملاً أساسياً في تفجير أزمات الركود الاقتصادي في النظام الرأسمالي غير العادل بصورة دورية.

ثقافة القطيع وأزمات العقار والبورصة :

أدت سيادة ثقافة القطيع في التحرك الإقتصادي العادي تجاه مشروعات بعينها، والتحرك في بورصات الأسهم وأسواق العملات، إلى المساهمة في حدوث طوفان من الإستثمارات في بعض القطاعات مثل القطاع العقاري في الولايات المتحدة دون أن يكون هناك طلب فعال على تلك الإستثمارات العقارية، مما أضطر الشركات ومؤسسات الرهن العقاري إلى قبول بيع المنازل لمشترين لا يتمتعون بجدارة إئتمانية، لأنه ببساطة لم تكن هناك طريقة أخرى لتسويق تلك العقارات، وعندما عجز هؤلاء المقترضون عن سداد أقساط ديونهم العقارية، بدأت شركات الرهن العقاري المقرضة لهم في التداعي والإنهيار وبدأت الشركات العقارية في الإنحدار بعد تجمد رأسمالها في إستثمارات بائرة أو تم إستردادها من مقترضين فشلوا في سداد ثمنها، وبدأت المؤسسات المالية التي تداولت مشتقات مشكوكاً في تحصيل قيمتها في التداعي والإنهيار هي الأخرى.

كما أدت ثقافة القطيع إلى حدوث إنهيارات كبرى في أسعار الأسهم من دون أن تكون هناك مبررات حقيقية لتلك الإنهيارات، وإنما قادت إليها حالة من الانهيار المعنوي والتوقعات السيئة والتزاحم على بيع الأسهم بصورة جماعية فور ورود أنباء سيئة وبدء بعض المستثمرين في بيع أسهمهم. والغريب أن هذه الموجات من البيع تتم إستباقا لتردي الأحوال، مما أدى إلى تردي الأحوال فعليا!

وإضافة إلى هذه الأنماط من القيم والعوامل الثقافية التي ساهمت في إنتاج الأزمة المالية والإقتصادية عالميا، فإن بعض دول المنطقة العربية، لديها نمط

خاص يتمثل في ثقافة الوجاهة الإقليمية ومنح الميزات للرأسمال الأجنبي للحديث الفارغ والسفيه عن جذب إستثمارات أجنبية أكثر من بلدان الجوار الجغرافي، على الرغم من أنه لا فائدة ترجى للبلد من هذه الاستثمارات الأجنبية التي تستهلك البنية الأساسية وتستخدم عمالة أجنبية وتستقدم تقنيات إدارية وإنتاجية لا تفيد بها إلا نفسها والعمالة الأجنبية التي تعمل لديها، ولا يستفيد منها إلا حفنة ممن لديهم عقارات وأراض يقومون بتأجيرها بأسعار خيالية للشركات الأجنبية وللعاملين الأجانب، مع تكريس نمط المستثمر المحلي كسمسار وليس كمنتج .

ثنائية الزهو والخوف :

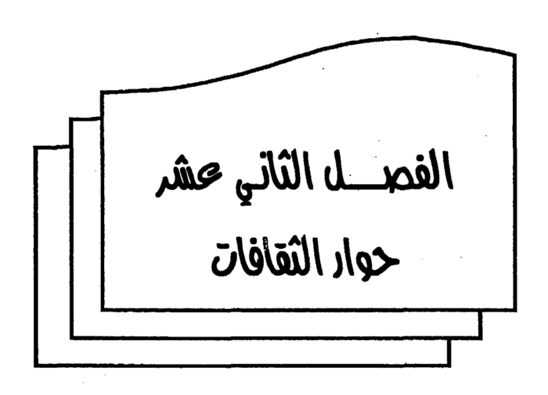
عندما بدأت الأزمة المالية والإقتصادية العالمية، تسابقت الحكومات العربية في الإعلان عن أنها بمنأى عن الأزمة وتأثيراتها، وأن أوضاعها الإقتصادية قوية. وتجلى نوع من الزهو الفارغ المناقض لحقائق الواقع التي كانت تشير بوضوح إلى أن تلك الازمة قد إنتشرت كالنار في الهشيم في غالبية إقتصادات العالم، وأنها ستنتقل لكل بلدان العالم المندمجة في الإقتصاد العالمي عبر آليات التجارة السلعية والخدمية والاستثمارات. ويكفي أن تقديرات منظمة التجارة العالمية تشير الى أن التجارة العالمية سوف تتراجع في العام الحالي بنسبة ١٠% وهو أعمق ركود تشهده منذ الحرب العالمية الثانية، وتصل التقديرات لدى صندوق النقد الدولي إلى أن التراجع سيبلغ ٢٦.٦% في العام الحالي .

وبالمقابل، فإنه عندما بدأ الحديث الرسمي عن إنتقال تأثيرات الأزمة المالية والاقتصادية العالمية إلى البلدان العربية متأخراً عدة أشهر، فإن

الحكومات بدأت في إستخدامها كشماعة تعلق عليها كل أخطائها وإخفاقاتها، وتراجعت نزعة الزهو الفارغة، بينما سادت بين المواطنين في الكثير من البلدان العربية حالة من الخوف من الآتي في ظل التوقعات القاتمة بشأن مستقبل الاقتصاد العالمي. وتزايد الخوف على الإزدهار المالي في البلدان العربية المصدرة للنفط بالذات، نتيجة تأسيس هذا الإزدهار على ريع ثروة ناضبة متذبذبة السعر بشكل حاد، وليس من خلال العلم والعمل في إقتصادات صناعية وزراعية وخدمية متنوعة تنهض على أكتاف أبنائها.

وبدأت الدول ورجال الأعمال في تأجيل كم هائل من المشروعات العقارية الفاخرة لدرجة السفه والتي قاربت قيمتها نحو ٥٠٠ مليار دولار. وتوقف طوفان المشروعات المرتبطة بالترف المبالغ فيه، والذي يمكن أن يعتبره البعض نوعا من نمط إستهلاكي قائم على التفاخر الإجتماعي وليس على الحاجة.

ويمكن القول إجمالاً إن طبيعة الثقافة الاقتصادية والقيم السائدة، قد أثّرت في نصيب البلدان العربية من الأزمة المالية والاقتصادية العالمية، وعلى طريقة التفاعل معها، شأنها في ذلك شأن غالبية بلدان العالم المندمجة في الاقتصاد العالمي والتي تعرضت لأعاصير الأزمة الاقتصادية العالمية. لكن هذه الأزمة العاتية بكل تأثيراتها، من المفترض أن تترك بصمة قوية على منظومة القيم الإقتصادية العربية، وهو أمر من الصعب تحديده إلا بعد إنجلاء الأزمة تماماً، حيث سيتضح عندها طبيعة التغيرات القيمية ومدى ثباتها أو زوالها، بإعتبارها أمراً مؤقتاً مرتبطاً بلحظة الأزمة، وليست تغييراً حقيقياً يبقى مع الزمن ويوجه السلوك الإقتصادي العربي بصورة أكثر رشادة في المستقبل.



الفصـــل الثاني عشر
حوار الثقافات

الشبكات الاجتماعية .. رقابة ناعمة :

أدت المستجدات التكنولوجية الأخيرة إلى حدوث تغييرات جذرية في أساليب الحياة وطرق التواصل والاتصال وإكتساب المعرفة وتوسيع العلاقات وتطوير المعلومات بشكل غير مسبوق في تاريخ الإنسانية. وبعد أن كانت حياة المعرفة (Life of Knowledge) تقاس بعشرات أو حتى مئات السنين أصبحت تقاس الآن في كثير من الأحيان بالشهور، بل بالأسابيع نظرًا لظهور معلومات جديدة طيلة الوقت تنسخ ما قبلها، أو تحدث فيها تعديلات جوهرية بسرعة فائقة لا يكاد الإنسان العادى يلاحقها أو يرصدها .

وأدى تزايد المعرفة وتكاثرها وتشعبها، بحيث تذهب بعض التقديرات إلى أن نصف ما نعرفه الآن لم يكن معروفًا لنا منذ عشر سنوات فقط، إلى سهولة التحرك في مجالات متنوعة ومتباينة، خاصة أن التكنولوجيا تتولى الآن إعادة تشكيل العقل الإنساني وطرق تفكيره وتوسيع نطاق الاتصال والتواصل والتأثر والتأثير.

وكان ظهور الإنترنت وإستخدامها ثورة حقيقية في ترسيخ العلاقات على جميع المستويات، وأداة فعالة في تدفق المعلومات وتسهيل تبادل وجهات النظر. ولكن لم تلبث الأمور أن تطورت بظهور الشبكات الاجتماعية Social Networks التي أسهمت في تغيير ملامح الحياة بشكل ملموس في كثير من المجتمعات في مختلف أنحاء العالم .وظهر العديد من هذه الشبكات بمبادرات فردية أحيانًا كما هو الشأن في الشبكة المعروفة باسم فيس بوك Face book التي يدور حولها في الوقت الراهن كثير من الجدل، وأصبحت تستقطب أعدادًا هائلة من المشاركين الذين يعتمدون عليها في التواصل والتعبيرعن أنفسهم

وآرائهم ومشاعرهم بشكل صريح وفاضح في كثير من الأحيان، وبلغ من إنتشارها وفاعليتها أن ظهر عنها كتاب أصبح المادة الأولية لفيلم سينمائي عرض في أمريكا في الأول من شهر أكتوبر ٢٠١٠. فنحن نعيش الآن إذن في عصر الشبكات الاجتماعية بأوسع معاني الكلمة، ونخضع لآلياتها وتكنولوجياتها وهي تختلف بطبيعة الحال عن الشبكات التقليدية التي لازمت تطور المجتمع البشري منذ بداية ظهوره. فالشبكات الحديثة تقيم علاقات متبادلة دون الاحتكاك الشخصي المباشر بين أطرافها المختلفين والكثيرين الذين يقدر عددهم بالنسبة لشبكة فيس بوك وحدها بخمسمائة مليون عضو (أو صديق كما يطلق عليهم لتبيين مدى قوة العلاقة إزاء القضايا المشتركة .

وقد ظهر الفيلم تحت عنوان :The Social Network للتدليل على ماهية شبكة فيس بوك ووظيفتها وجوهرها. وظهر الكتاب الذي اعتمد عليه الفيلم بعنوان " بليونيرات بالصدفة "

The Accidental Billionaires وهو أيضا عنوان كاشف، لأن مخترع فيس بوك وهو طالب بجامعة هارفارد - أصبح من أصحاب البلايين نتيجة عمل لم يكن يهدف إلى الكسب من ورائه، بل إنه لم يكن يتصور أن انشغاله به سوف يخرج عن النطاق الضيق المحدود الذي كان يريد إستخدامه في إطاره.

دليل سكان العالم :

وأنا أدرك أن الكثيرين من القراء يعرفون القصة التي شاعت في العالم كله في الفترة الأخيرة بعد ظهور الفيلم، ولكن لا بأس مع ذلك أن أعرض لها هنا بإيجاز. " مخترع " الشبكة هو مارك زوكربرج Mark Zuckerberg الطالب

بجامعة هارفارد، وكان ما أصبح مشروعًا واختراعًا يعتبر في البداية نوعًا من عبث الشباب. فقد أراد زوكربرج بعد أن هجرته صديقته الطالبة أن يتعرّف على الجوانب التي تتوافر في فتيات الجامعة وتجعل بعضهن أكثر جاذبية وإغراء للطلاب ويحاول تصنيفهن وفق بعض المواصفات فقام بجمع قدر كبير من المعلومات الشخصية وصور الفتيات لاستطلاع رأي الطلاب على الإنترنت، مما أغضب الفتيات وأدى إلى تدخل الجامعة وتوقيع العقوبة التأديبية عليه .ولكن الفكرة وجدت استحسانًا لدى طلاب " هارفارد " وانتشرت بسرعة إلى الجامعات الأخرى وتجاوزت خدود الإطار الذي وُضع لها في الأصل، وبدأ المشاركون يبدون آراءهم حول موضوعات مختلفة وينشرونها على الشبكة، بل وينشرون كثيرا من ملامح حياتهم الخاصة والحميمة ويتبادلونها في حرية مطلقة. وفي مجتمع عملي وبرجماتي مثل المجتمع الأمريكي تحول ما كان يعتبر نوعًا من عبث الشباب إلى مشروع ثقافي وتجاري عاد على صاحبه الطالب بمكاسب هائلة نتيجة لانتشار الفكرة على نطاق العالم. وقد بدأ المشروع عام 2003 وكان عمر زوكربرج تسع عشرة سنة، إذ كان مولده عام ١٩٨٤ ولكن خلال هذه الفترة القصيرة ارتفع عدد المشاركين والذين يرجعون إلى الشبكة التي أطلق عليها إسم فيس بوك إلى خمسمائة مليون مشارك أو مستخدم صديق .

وقد نشرت مجلة The New Yorker بعددها الصادر بتاريخ ٢٠ سبتمبر ٢٠١٠ مقالاً يكشف عن كثير من جوانب شخصية زوكربرج ونظرته إلى نفسه وإلى الحياة وإلى مشروعه الذي وصفه بأنه «دليل سكان العالم» وأنه موقع يتيح للأفراد العاديين أن يخلقوا لأنفسهم هويات عامة عن طريق الإدلاء بما يريدونه من معلومات حول أنفسهم وتكوينهم الذهني والعاطفي بل ونشر صورهم الشخصية، وأن الهدف منه هو أن يصبح العالم» مكانًا أكثر إنفتاحًا».

وربما كانت الصفة التي هي بمنزلة شكوى يرددها معارفه أنه " روبوت " وأنه مبرمج أكثر من اللازم وأن حديثه كثيرا ما يكون أشبه برسالة صوتية "مسطّحة" وخالية من الحيوية. ولكنه كان يعشق دائما إستخدام الكمبيوتر، وأفلح حتى وهو طفل في أن يبتكر ألعابًا كمبيوترية يلهو بها أقرانه من الأطفال وأنه حين التحق بجامعة هارفارد إستطاع أن يبتدع برنامجًا ساعد الطلاب المستجدين على إختيار المواد التي يدرسونها في ضوء إختيارات الدفعات السابقة من الطلاب .. ولكن مما يكشف عن تطلعاته التي تحققت باختراع فيس بوك وسرعة إنتشاره في كل أنحاء العالم، أنه كثيراً ما كان يردد بعض أبيات الشعر من الإلياذة اللاتينية مثل الحظ يقف إلى جانب الشجعان و أمة / إمبراطورية لا تحدّها حدود . ويبدو أن الفيس بوك هو وطنه وإمبراطوريته التي لن يحدها شيء.

كان المقصود في أول الأمر إذن أن يقتصر الموقع على طلبة هارفارد وتشجيعهم على مشاركة بعضهم بعضًا في الذكريات والمشاعر وتبادل الرأي حول مشكلاتهم الخاصة، ولكن إنتشار الفكرة والتغيرات التي طرأت على إستخدام الشبكة في الإدلاء بمعلومات شخصية وحميمة جدًا عن الحياة والعلاقات الخاصة أثار كثيرا من التساؤلات الأخلاقية نظرًا للصراحة المطلقة التي يتم بها إفشاء السلوك الشخصي. وأعتبر الكثيرون ذلك مؤشرًا واضحًا على إنهيار الخصوصية وتعرية الذات أمام الكثيرين حتى ممن لايعرف بعضهم بعضا، ولكنه كشف في الوقت ذاته عن مدى إحتياج الإنسان إلى من يشاركه مشكلاته ومشاعره وأسراره وهو في مأمن من التعرف على شخصيته وإنكشاف سره والتعرض للمسئولية.. وفي أحد التقديرات الأخيرة أن ٦٦% من الأمريكيين مستخدمي الإنترنت أطراف في الاتصال عن طريق تلك الشبكات بوجه عام، وأن حوالي نصف هذه النسبة يرجع إليها أكثر من مرة في اليوم

الواحد في ما يشبه نوعًا من الإدمان، وأن المستخدمين ينتمون إلى كل الأعمار وليس إلى جيل واحد معين وبالذات جيل الشباب الذي ينتمي إليه زوكربرج .

جيل الفيس بوك :

ويكشف الفيلم عن بعض الجوانب الإنسانية التي تكمن وراء شبكة فيس بوك والتي لم تخطر بكل تأكيد على ذهن مارك زوكربرج. فالفيلم يتحدث في آخر الأمر عن الطبيعة البشرية من خلال إبراز وجهات النظر المتعارضة حول كل ما هو إنساني ويؤدي إلى النجاح أو الإخفاق وعن خصائص ومقومات الجيل الذي ينتسب إليه زوكربرج لدرجة أن مجلة ثقافية محترمة مثل New York Review of Books تخصص في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ نوفمبر ٢٠١٠ مقالاً كاشفًا بعنوان Generation Why? يعرض الفيلم ويناقش ويشير صراحة إلى ما أسماه «جيل مارك زوكربرج». ويعترف الكاتب بأن فيلم الشبكة الاجتماعية يعترف بما يستحقه «جيل فيس بوك» من إعجاب واحترام كما تقول الجريدة، وهذا يزيد من الاستمتاع بالفيلم حتى وإن كان لا يستحق ذلك من الناحية الموضوعية، كما أنه يعرض لعدم المبالاة بما قد يحققه المشروع من مكاسب مادية لدرجة أن زوكربرج رفض عرضًا من مايكروسوفت بشرائه مقابل بليوني دولار، لأن المشروع هو «طفله» الذي يريد أن يرعاه وأن الهدف من المشروع هو تحقيق الاتصال والتواصل أو Connect حسب تعبيره على أوسع نطاق ممكن وبين أكبر عدد من المشاركين الذين يريدون الاتصال وأن الذي يشغل باله طيلة الوقت هو نوعية التواصل ونوعية المعلومات التي يتم تبادلها ونوعية العلاقة التي تنجم عن هذا الاتصال.

وقد تختلف الآراء حول جدوى ذلك الاكتشاف، ولكن زوكربرج نفسه يرى أن فيس بوك حركة إجتماعية Social Movement وليس مجرد أداة أو وسيلة للتواصل، وأنه سوف يزيح البريد الإلكتروني من الطريق بل إن عصر البريد الإلكتروني قد إنتهى أو أنه في طريقه إلى الاختفاء تماما وأن فيس بوك بدأ يسيطر أو على الأصح «يستعمر» ويحتل كل النشاط البشري على الشبكة الدولية. وربما كان أهم ما يميز الشبكات الاجتماعية بوجه عام هو درجة الشفافية المطلقة وما سوف يترتب عليها من تغيرات، في العلاقات والسلوك ونظم الحياة. فمشاركة الآخرين في المعلومات والأفكار والأحاسيس والأسرار والتبادل الصريح المكشوف تقضي على الهوة الفاصلة بين ما هو خاص وما هو عام وتساعد على إختفاء الرياء والنفاق وتجعل من الصعب خداع الآخرين. وفي كتاب حديث يذهب المؤلف ديفيد كيركباتريك إلى أن الشبكات الاجتماعية تربط العالم بعضه ببعض، وأن إنتشارها سوف يؤدي في النهاية إلى بزوغ «عقل كوكبي» يعمل على تغيير العالم. ومع ذلك فإن الكثيرين يرون أن شدة الإقبال على الشبكات الاجتماعية فيه مضيعة وإهدار للوقت والانصراف عن العمل الجاد، وكثيرًا ما يؤدي إلى «إدمان «الكمبيوتر، خاصة أن الوقت يمر بسرعة رهيبة أثناء الاتصال وتبادل الأخبار التي كثيرًا ما تكون تافهة. إلا أن الكشف عن الشخصية فيه توكيد لهذه الشخصية وليس إهدارًا لها، على الرغم من أن كل تلك الاتصالات هي اتصالات إفتراضية virtual بين» أصدقاء» إفتراضيين.

عقل كوكبي جديد :

وليس ثمة شك في أن فيس بوك والشبكات الاجتماعية المماثلة مثل تويتر Twitter وماي سبيس My Space ويوتيوب YouTube تلعب دورًا مؤكدًا في توسيع دوائر» الأصدقاء» وتقوم بالتالي بدور مهم في تحقيق التقارب الثقافي

والتفاهم بين الشعوب ولكن فيس بوك يعتبر أوسع هذه الشبكات إنتشارًا وشعبية إذ تقدر فترة إستخدامه بأكثر من ٧٠٠ بليون دقيقة في الشهر الواحد في تبادل الأخبار والآراء والأحاسيس والأسرار والصور الشخصية وغيرها. بيد أن هناك تخوّفات كثيرة وهواجس من تجاوز الحدود عن طريق المبالغة في الكشف عن أسرار الحياة الشخصية والعلاقات الحميمة مما يتعارض مع القيم المتوارثة في شتى المجتمعات على الرغم من كل ما يقال عن تغير المعايير الاجتماعية والأخلاقية بتغير الزمن. فهناك كثير من الإغراءات للإدلاء بخفايا الحياة الشخصية إلى جانب ما قد ينشره البعض من إدعاءات غير صحيحة والرغبة في التظاهر وتعرية الذات أمام الآخرين تعبيرًا عن الحرية الشخصية والتمرّد على المجتمع. إلا أن هذه التخوفات تجد من يهوّن من شأنها ويرى أن هذه الشبكات الاجتماعية تمثل الرابطة التي سوف تجعل العالم مكانًا أفضل لحياة سليمة بالنسبة للجنس البشري، وأن الناس يميلون بطبيعتهم إلى الاحتكاك والمشاركة حتى مع الأغراب، وأن الاطمئنان إلى عدم الكشف عن شخصيات وهويات المشاركين وهو ما تتعهد الشركات بمراعاته يضفي كثيرًا من الطمأنينة مما يساعد على مزيد من الانفتاح الذي يساعد بدوره على الفهم وحل المشكلات، وأن هذه النظرة ليست مثالية يصعب تحقيقها فقد أثبت فيس بوك بالذات منذ تأسيسه عام ٢٠٠٣ أنه عامل مؤثر في الحياة وتكوين رأي عام واسع المدى في كثير من الأمور، خاصة أن المشاركين فيه يستخدمون أكثر من سبعين لغة منتشرة في أرجاء تلك الأمة / الإمبراطورية الافتراضية.

الرقابة الناعمة :

والملاحَظ بوجه عام أن إستخدام تلك الشبكات بدأ ينحو نحو الجدية وارتفاع مستوى الأفكار وإن كانت هناك بطبيعة الحال تجاوزات عديدة وخروج

عن القيم وتحرر من المبادئ الأخلاقية والاجتماعية ولكنها جزء من الحياة الواقعية التي ينبغي التسليم بها. فالمهم هو أن الشبكات الاجتماعية أصبحت تمثل في بعض أبعادها مشروعات هادفة ودعوة للتغيير الاجتماعي والفعل العام المشترك وتوحيد الجهود والاستفادة من مختلف التخصصات العلمية والتكنولوجية في تحقيق تلك الأهداف، وتعمل بالتالي على حدوث ثورة جديدة في العالم عن طريق إستقطابها لتلك الملايين العديدة من البشر الذين لم يكن لهم سوى دور هامشي في الحياة فأصبحوا يناقشون مشكلات المجتمع والإنسان والعالم بأسره ويتبادلون في ذلك مختلف الآراء والخبرات ويؤلفون قوة فعالة من الرأي العام العالمي قادرة على تغيير النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تنفرد بصياغتها النخبة أو الصفوة مع إنكار حق الاغلبية العظمى من البشر العاديين في المشاركة في رسم السياسات التي تؤثر في حياتهم وتحدد مصائرهم، وربما كان ذلك يمثل أهم وظيفة يمكن أن تقوم بها تلك الشبكات، فهي وظيفة تعطي الإنسان إحساسًا بآدميته ووجوده ككيان معترف به وله دور إيجابي في الحياة.

وقد أصبحت الشبكات الاجتماعية، نتيجة لإنتشارها الواسع وشدة الإقبال على إستخدامها، عاملاً مكملاً لوسائل الاتصال والإعلام التقليدية في تكوين الرأي العام بل إنها تجاوزت تلك الوسائل التقليدية في عمق وإتساع التأثير، وأصبح الإنسان العادي هو صانع الخبر وواضع السياسة وصاحب القرار إلى حد بعيد بل وصانع المستقبل بالتالي. ويظهر ذلك بشكل واضح في موقف السلطات والأجهزة الرسمية في مختلف الدول من تلك الشبكات وما تحمله وتنشره من أفكار وآراء وإنتقادات لسياساتها وما يترتب على ذلك من تغييرات في نظرة السلطات إلى الجماهير وهو ما نشاهده الآن في مجتمعات العالم الثالث وفي النظم الشمولية التي تضطر في كثير من الأحيان إلى إتخاذ موقف الدفاع

عن نفسها وتبرير سياساتها، أو ما قد تلجأ إليه من فرض القيود على إنتشار وإستخدام تلك الشبكات. فكثيرًا ما تشكو تلك السلطات من طريقة عرض الأمور على الشبكات ولكنها تراعي في آخر الأمر وعلى مضض منها ما يصدر عن تلك الشبكات من إنتقادات وتوجيهات. فالشبكات الاجتماعية تؤلف الآن ما يعرف باسم " الرقابة الناعمة " Censorship Soft لأنها تقوم بالفعل بهذا الدور المؤثر دون الاصطدام العلني العنيف مع السلطات الغاشمة أو الفئات الفاسدة في المجتمع، وهو دور رقابي سياسي وإجتماعي في المحل الأول كثيرًا ما تعجز عن القيام به وسائل الإعلام الأخرى أو التنظيمات السياسية المعارضة. وهي تؤدي ذلك الدور ببراعة من خلال إتاحة الفرصة للنقد الصريح دون التعرض للأذى كما يحدث في كثير من الأحيان لوسائل الإعلام العادية وللكتّاب والمفكرين وبخاصة في العالم الثالث.

وعلى أي حال، ومهما أختلفت الآراء حول فاعلية وجدوى وأخلاقيات تلك الشبكات وإنحراف بعض المشتركين فيها، فإنها تساعد بشكل أو بآخر على القضاء على السلبية واللامبالاة التي يبديها بعض أفراد المجتمع في العالم الثالث بوجه خاص إزاء الأوضاع المتردية التي يرسفون فيها وتتيح لهم كل إمكانات التعبير بصراحة وجرأة عن رأيهم في تلك الأوضاع والمسئولين عنها وطرق التخلص منها. وهذا موقف إيجابي يكشف عن قوة الرقابة الناعمة. وربما كان هذا هو ما يقصده مارك زوكربرج حين وصف فيس بوك بأنه "حركة" وليس مجرد أداة للتواصل والتعارف.

لماذا نلوم النـاقل ؟

يتكاثر النقاش في هذه الأيام حول دور الإنترنت، وهل هي واسطة يستفيد منها المخربون والإرهابيون لتمرير المعلومات فيما بينهم بالسرعة والكفاءة العالية مما يسبب الكثير من الأذى للأفراد والمجتمعات والدول أم أنها أداة خيرة، على طريقة إستخدامنا لها تكون النتيجة ؟. ونجد الكثير من المعلقين والمتابعين يلومون هذه الوسائط، خاصة بعد فضيحة وكيليكس المشهورة، وفضح المراسلات الدبلوماسية الأمريكية وما تركته من أثر على علاقات الولايات المتحدة بالكثير من دول العالم يرونها بأنها السبب وراء هذا الانتشار للخبر السيئ. معظم المعلقين لا يترددون في لوم هذه الوسيلة الجديدة وتأثيرها السلبي أو تلك من الوسائل الحديثة في الاتصال، وهو أمر في تقديري متسرع وغير موضوعي، فهو بمثابة لوم المبلغ عن الحريق وليس من قام بإشعال النار، فالمبلغ هو ناقل للخبر وليس صانعه. كما أنه أمر مبالغ فيه إلى حد كبير، في وجود وسائل الاتصال الأخرى الكثيرة أن نلوم وسيلة واحدة مثل الإنترنت أو الفضائيات. ومن المتعارف عليه أن الأخبار تتناقل بسرعة بين الناس، خاصة إذا كانت هذه الأخبار هامة لهم وتؤثر على حياتهم، الوسائط إختلفت ولكن النقل كان موجودا منذ عرفت البشرية الحضارة الحديثة. ولدي مثالان لشرح هذا الأمر بعيدا عن التحيز. في أحد أمسيات شهر ديسمبر عام ١٩٥٥ الباردة جمعت «روزا باركس» ذات البشرة السمراء والتي تعمل خياطة حاجياتها وتجهزت للعودة إلى بيتها بعد يوم من العمل الشاق المضني، مشت روزا في الشارع تحتضن حقيبتها مستمدة منها بعض الدفء اللذيذ. التفتت يمنة ويسرة ثم عبرت الطريق ووقفت تنتظر الحافلة كي تقلها إلى وجهتها، وأثناء وقوفها الذي استمر لدقائق عشر كانت «روزا» تشاهد في ألم منظراً مألوفاً في أمريكا آنذاك، وهو

قيام الرجل الأسود من كرسيه في الحافلة ليجلس مكانه رجل أبيض!. لم يكن هذا السلوك وقتها نابعا من روح أخوية، أو لمسة حضارية، بل لأن القانون الأمريكي آنذاك كان يمنع منعا باتا جلوس الرجل الأسود وسيده الأبيض واقف. حتى وإن كانت الجالسة إمرأة سوداء عجوزاً وكان الواقف شاباً أبيض في عنفوان شبابه، فتلك مخالفة تُغرم عليها المرأة العجوز .!!وكان مشهور وقتها أن تجد لوحة معلقة على باب أحد المحال التجارية أو المطاعم مكتوباً عليها «ممنوع دخول القطط والكلاب والرجل الأسود»!!!. كل تلك الممارسات العنصرية كانت تصيب «روزا» بحالة من الحزن والألم والغضب. فإلى متى يعاملون على أنهم هم الدون والأقل مكانة... لماذا يُحقرون ويُزدرون ويكونون دائما في آخر الصفوف، ويصنفون سواء بسواء مع الحيوانات، وعندما وقفت الحافلة إستقلتها «روزا» وقد أبرمت في صدرها أمرا. قلبت بصرها يمنة ويسرة فما أن وجدت مقعدا خاليا إلا وأرتمت عليه وقد ضمت حقيبتها إلى صدرها وجلست تراقب الطريق الذي تسير فيه الحافلة في هدوء، إلى أن جاءت المحطة التالية، وصعد الركاب وإذ بالحافلة ممتلئة، وبهدوء أتجه رجل أبيض إلى حيث تجلس «روزا» منتظرا أن تفسح له المجال كي يحل مكانها، لكنها ويا للعجب!! نظرت له في لامبالاة وعادت لتطالع الطريق مرة أخرى!!!. ثارت ثائرة الرجل الأبيض، وأخذ الركاب البيض في سب «روزا» والتوعد بها إن لم تقم من فورها وتجلس الرجل الأبيض الواقف. لكنها أبت وأصرت على موقفها، فما كان من سائق الحافلة أمام هذا الخرق الواضح للقانون إلا أن يتجه مباشرة إلى الشرطة، كي تحقق مع تلك المرأة السوداء التي أزعجت السادة البيض!!!. وبالفعل تم التحقيق معها وتغريمها ١٥ دولاراً، نظير تعديها على حقوق غيرها!!. وهنا إنطلقت الشرارة في سماء أمريكا، ثارت ثائرة السود في جميع الولايات، وقرروا مقاطعة وسائل المواصلات، والمطالبة بحقوقهم كبشر لهم

حق الحياة والمعاملة الكريمة، إستمرت حالة الغليان مدة كبيرة، إمتدت لـ٣٨١ يوما، وأصابت أمريكا بصداع مزمن، وفي النهاية خرجت المحكمة بحكمها الذي نصر روزا باركس في محنتها. وتم إلغاء ذلك العرف الجائر وكثير من الأعراف والقوانين العنصرية .أما القصة الأخرى فوقعت بعد الأولى بخمس سنوات تقريبا، وهي قصة الأصدقاء الأربعة التي حدثت في فبراير ١٩٦٠ حيث جلسوا إلى الغداء في مقصف أحد جامعات ولاية نورث كارولاينا، كانوا طلبة في الصف الأول، قال أحدهم للمضيفة، أريد فنجان قهوة، فأجابته: لا نخدم الزنوج هنا، كانت المقاعد للبيض، فحصلت مشادة على أثرها غادر الطلبة الأربعة على أن يعودوا في الغد، وهكذا حصل، عرفت وسائل الإعلام المحلية بذلك. فزاد عدد المحتجين في اليوم التالي، وفي اليوم الذي يليه انضم إليهم طلاب المدرسة الثانوية، ثم إنتشرت الاعتصامات في الولاية أسبوعا بعد الآخر، ثم عبرت الاعتصامات الولاية إلى الولايات الأخرى القريبة في الجنوب الأمريكي، ثم إنتشرت بعد أشهر لتعم الولايات المتحدة.. وأصبح الصداع أكبر فيما عرف بالمسيرة الكبرى لحقوق الإنسان، التي إنتهت بإحقاق الحقوق الكاملة للإنسان الأسود الأمريكي. كلتا الحادثتين وقعتا دون وجود إنترنت، ولم يعرف العالم بعد الفيس بوك أو التويتر، أو حتى البث الفضائي العابر للقارات! الإنسان عندما يريد أن يحقق شيئاً، خاصة في حالة الظلم البين، ويجد من يناصره، لا يحتاج كثيرا إلى وسيلة حديثة كي ينقل أفكاره، يكفى أن تصل المعلومة بأي طريقة حتى عن طريق النقل الشفهي. فلوم الوسيلة محاولة للنظر بعيدا عن الأسباب المُشكلة للقضية، ولوم الآخر عنها هروب إلى الأمام بدلا من مواجهتها. وفي الأمثال الإنجليزية «إن العامل الكسول يلوم أدواته»! حقيقة إن وسائل الإعلام الحديثة ليست كامرأة قيصر بريئة كل البراءة، فهي إن وقعت في أيدي غير أمينة أو غير مهنية يمكن أن تنقل الأخبار بشكل معكوس أو حتى تزيفها

لتخدم غرضاً ما، إلا أن معالجة هذا الأمر بالتصدي لها بنشر الأخبار الصحيحة مثبتة بالوقائع، فعقل الإنسان يستطيع أن يميز - متى ما أتيح له الرأى والرأي الآخر - بين الخبيث والطيب .

حوار الثقافات والتعايش المشترك :

إن فى فلسفة حوار الثقافات والتعايش المشترك كمكون أساسى للثقافات والحضارات فى حياة الشعوب والأمم، ليس تماثلاًمع هذا الفكر والدين أو ذلك ، أو سعياً وهدفاً لفرض نمط ثقافى معين على بقية الثقافات، بل هو بكل تأكيد إختلاف وتنوع وإتفاق على التعددية يجرى بين الأطراف المتحدة والمتخالفة على قدم المساواة، وفى كنف أوقل على قاعدة الاحترام المتبادل لماضى كل طرف وتراثه وحضارتة وخصائصه ومكوناته سعيا لإيجاد أفضل الصيغ للتعايش السلمى والتفاعل الحضارى الذى يتطلب فى حقيقة الأمر فهماً واستيعاباً لأمرين مهمين :

الأول : الضغوط والأبعاد السياسية التى فى مدها وجزرها تأخذ المجتمعات الإنسانية نحو تصادم الأديان ، وكلنا يدرك عمق الأذى الذى لحق بالإنسانية نتيجة للآلة السياسية للقوى المهيمنة على العالم .. وهنا علينا أن ندرك عمق الأذى الذى لحق بالإنسانية جمعاء وأن نعرف من الذى يقود هذا الأذى حتى نواجهه ، وفى الوقت ذاته هناك قوى تعمل جاهدة على صناعة الحاجز العازل بين الغرب والشرق،وبين أصحاب الأديان ودياناتهم.

الثاني : أن تقرأ تاريخ الإنسانيه فى مسيرته المنبعثه من أغوار الزمن الماضى المديد ، وكيف أن الإنسانيه بأطيافها وأديانها وفلسفاتها

وإيديولوجياتها قد تعاشت وتفاعلت فى ثقافاتها المتعدده ، حتى تداخلت ثقافاتها ومعارفها مع بعضها البعض، وهذا ما حدث بين الحضاره والديانه المسيحيه والديانه الإسلاميه،حيث إن علماء متكلمى الإسلام الأوائل أو علماء الكلام الإسلامى قد إدخلوا فى مباحثهم قضايا ومسائل الديانه المسيحيه وهذا واضح عندما نتناول بالدراسه أربعه من علماء الكلام الأوائل : معبد الجهنى ، غيلان الدمشقى،الجند بن درهم ، الجهم ابن صفوان

فمعبد الجهنى أشير إلية فى كتب التراجم بأنة نزيل البصرة فى العراق ، أى أنه عاش فى المحيط الثقافى العربى الذى عاصر المسيحية قرونا وساد فيه قبيل الإسلام مذهب النساطرة وهو من علماء القرن الأول الهجرى ، وكان أستاذه مسيحياً اسمه (سوسن) أو سوسر أو سنسويه.

وصار معبد الجهنى أستاذاً لواحد من مشاهير آباء المتكلمين وهو غيلان الدمشقى .

ومذهب غيلان الدمشقى ومعبد الجهنى قائم على أن الإنسان حر ، مخالفاً بذلك ما كان يؤكده الأمويون بأن الإنسان مجبور.

ولا يخفى على من يسير أغوار التاريخ أن المسلمين عندما وصلوا إلى ما بين النهرين والشام ومصر والعراق وجدوا تجليات مسيحية أخرى تختلف عن تجليات مسيحية نجران بينما كان مسيحيو نجران نصيين لا يجتهدون فى الأناجيل، ويرى فى تلك البلاد الأخرى مسيحية مختلفة ، مسيحية عقلية فلسفية ، متسلحة بالمنطق الصورى ، والفلسفة الهندية والإيرانية ، مسيحية مختلفة فيما بينها ... وهنا نرى أن الباحثين قد عثروا على نصوص سريانية من موروثات

العهد الإسلامى الأول فى العراق ، وفيها ترجمات لبعض سور القرآن التى تكلمت عن المسيحية نقلها السريان إلى لغتهم فى مطلع فتح المسلمين لما بين النهرين لكى يناقشوا مضمونها ، كما أن كثيراً من النصوص مازالت بين أيدينا عن مناقشات المسلمين وجدالهم مع كهان الحبشة حول فكرة القرآن عن المسيح .

كانت الأحاديث وحوار الثقافات بين المسيحيين والمسلمين فى مبدأ الأمر أحاديث وحواراً قائماً على اللين والرقة ، ثم أخذت صورة الشدة فى عهد الأمويين حين أصطدم يوحنا الدمشقى فى جدال عنيف مع المسلمين حول وحدة الله وطبيعة الكلمة .

وهذا يبين لنا تاريخياً بأن المسلمين والمسيحيين الأوائل قد تعايشوا وتفاعلوا حضارة وثقافة وهناك صور أخرى لهذا التفاعل الحضارى والثقافى .

وهذا لا يعنى أن تاريخ الإنسانية فى مسيرتها كان تاريخاً لامعاً ومشرقاً ونيراً بل نقول إن هناك سلبيات عديدة من هذا الطرف أو ذاك وإن هناك موروثات تاريخية سلبية وإيجابية وأن هناك مواطن التفاعل والاقتباس ، وأن هناك ظروفاً وملابسات فكرية وسياسية ومجتمعية تداخلت ونتج عنها من إفرازات تاريخية سلبية عند هذا الطرف أو ذاك ومن يقرأ تاريخ الإنسانية بهذه النظرة يستطيع أن يتجاوز محنة إقصاء الآخر .

ومن موقف آخر كمنطلقات أو قواعد أساسية للدخول فى فلسفة حوار الثقافات والتعايش المشترك أن ندرك أن حوار الثقافات قد يدخلنا فى جانبين :

الجانب اللاهوتي : الذى يتمحور حول العقيدة فى الله والمسيح والنبوة والإنجيل والقرآن وما يتصل بهذه المفردات من مفاهيم عقيدية عند هذا الطرف أو ذاك .

الجانب المعاشي : وهو جانب واقعى يتصل بحركة التعايش بين الأديان فى القرية الكونية ، أو فى العالم كله ، على حيز المواقع المشتركة أو المنفصلة ، وبالتبشير الذى يمثل العنوان العام للديانة المسيحية فى إمتدادها فى الإنسان أيا كان ، وبالتبليغ الذى يمثل الإسلام فى الدعوة إلى دين الله وإلى أى دين أنتموا ، وإلى أى إتجاه تحركوا .

وأرى هنا ألا أدخال فى المسألة اللاهوتية ، لأن لها مكانا آخر ، وقاعدة علمية منهجية خاصة لدراستها قائمة على فهم العقيدة الواحدة فى صفائها ومن ثم فى مسيرتها التى أخذت تجليات معينة ، وذلك لتوضيح الرؤية ووعى الحقيقة لدى الطراف وإزالة سؤ التفاهم من خلال إرتباك التصورات وضبابية المفاهيم عند هذا الطرف أو ذاك ، على كل لن ندخل فى هذا الجانب هنا ، لأن حديثنا يتعلق بالجانب الثانى الذى هو الجانب المعاش فهو محل ومكمن حديثنا اليوم : وخاصة أن التطور الفكرى فى الواقع المعاصر للإنفتاح الإنسانى على القضايا الفكرية المعقدة والروح الموضوعية التى أصبحت تعيش فى الذهنية الثقافية المعاصرة وفى الفكر والأسلوب الذى أنفتح على كل المواقع الدينية والفكرية والثقافية بنظرة شمولية إلى كل الأمور المتفق عليها والمختلف فيها .

كل ذلك يهيئ لنا كمجتمع إنسانى الفرصة للدخول فى حوار الثقافات والتعايش المشترك للهدف الإنسانى الكبير للوصول إلى وحدة التصور الدينى فى المفاهيم العامة للأفكار الدينية على القواعد المشتركة للانطلاق بالحوار الثقافى والحضارى من موقع القاعدة التى تهيئ الأجواء على نتائج وحدوية مشتركة وحاسمة .

وهذه المسألة ، وهى تهيئة القاعدة الحوارية الحضارية هى الأقرب للوصول إلى نتائج إيجابية لأنها تتصل بالمصالح المشتركة على صعيد الواقع ، مما نحتاجه كبشر إلى توفيره وملاحقته للحفاظ على أنفسنا فى إستمرار وجودنا وإبراز دورنا على الساحة الوطنية والإقليمية والعالمية على إعتبار أن الإنسان قد خلق لمواجهة مشكلاته لحلها لا الهرب منها وجعلها أكثر تعقيداً .

ونلاحظ أننا كبشر وكمسلمين ومسيحيين نلتقى فى قضايا مشتركة ، منها الالتقاء على الكلمة السواء فى التوحيد ، ورفض الشرك ووحدة الإنسانية ورفض الاستعباد الإنسانى .

وهو الذى طرحه القرآن الكريم (قُل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا) سورة آل عمران آية ٦٤) .

إذن نسلم باهة أن لحوار الثقافات والحضارات ايجابيات عديدة ، حتى ولو كان قاسياً فى صراحته حاسماً فى موقفه ، غير أنه يكسر الجمود الفكرى والروحى والثقافى الذى يمثله الاستغراق فى الذات أو فى الانتماء ، أو التقليد الذى حول الإنسان أو الواحد منا ، إلى حالة متحجرة جامدة لاتملك أية حيوية أو حركية فى إتجاه إحتمالات تفكير الآخر أو إمكانات التغيير والانتقال على المستوى الحضارى والثقافى من موقع إلى موقع ومن إنتماء إلى إنتماء .

فلسفتنا فى حوار الثقافات والتعايش المشترك :

إذن علينا كأصحاب حضارات أن ننتقل من حالة الجمود الفاقد للحيوية والحركة تجاه إحتمالات تفكير الآخر لفهمه والانتقال إلى المستوى الحضارى والثقافى من موقع إلى موقع ومن إنتماء فهمى إلى إنتماء فهمى آخر قائم على

فهم الواقع بمقياس العلم والموضوعية والحقائق الثابتة ، لا الأخذ بأفهام الذوات المتكفئة على نفسها والمنتمية إلى ذاتها والواقعة فى التقليد والتبعية .. وهذا يعنى دعم الحوار الحضارى والثقافى بيننا كأصحاب حضارات متعددة فى المدى القريب والمتوسط وتحديد ثلاثة مسارات للعمل بين الحضارات :

المسار الأول :

تطوير المعرفة المتبادلة بين الحضارات والثقافات من خلال ترجمة المراجع الأساسية والثقافة والحضارة المشتركة بين الديانات الثلاث إلى اللغات الحية ، ويمكن فى هذا الصدد اتخاذ الإجراءات العملية مثل إنشاء شراكة مع مؤسسات ذات صلة تركز على المعرفة وسبل تطويرها بين الحضارات والثقافات الإنسانية.

المسار الثانى :

التركيز فى حوار الثقافات على فكرة التعايش أو قاعدته ، فى ظل الموضوعات الثقافية والاجتماعية والسلم العالمى والقواسم المشتركة التى تعمل من أجل تحقيق التقارب والتعاون المنشودين عالميا .

المسار الثالث :

يتجسد فى سبل التعاون المشترك بين الحضارات والثقافات الإنسانية من أجل حل الصراعات المزمنة التى تنطوى تسويتها على تحقيق السلام والوئام والعدل فى أرجاء المعمورة .

ومن فلسفتنا كذلك فى حوار الثقافات إقرار أن كل حوار ثقافى ذى طبيعة دينية يتسم بحساسية خاصة – الواقع التاريخى والثقافى يشهدان أن جواً من الحذر قد ساد بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان لفترة طويلة من الزمن ولا تزال آثاره باقية وممتدة حتى يومنا هذا كما هو واقع فى بعض المؤلفات والمقولات البحثية والكتب الدراسية لدى معظم الأطراف ، ولذا فإن فلسفتنا الحوارية تدعو إلى العمل بإخلاص على رفع الآثار النفسية لما خلفه الموروث الثقافى أو التقليل منها وبيانها بشكل علمى .

وهذه المسألة تستحق أن تنال منا كل إهتمام لأن أى حوار جدى بين الثقافات يجب أن يشخص الواقع كما هو ، قبل أن يبحث فيما يراد له .

وذلك يقضى بنا كمجتمع إنسانى إلى إيجاد رغبة جادة فى إعادة التواصل مع الموروث الحضارى والثقافى للآخر بهدف إيجاد منظومة إنسانية متعاونة متعايشة تخلو من العداونية وفى ظل هذا يجب أن تكون هناك قناعة باستقلالية الثقافات وإحترام الذات وإختلاف المرجعيات دون التقليل من شأن الآخر أو محاولة إقصائه بل التركيز على القواسم المشتركة التى بها تتألف القلوب وتداوى الجراح وتخفف.

ومن فلسفتنا فى ثقافة حوار الحضارات والتعايش المشترك التركيز على دور الدين فى بناء الإنسان والتأكيد على رسالة التسامح وإيصالها بصفة مستمرة إلى أتباع الأديان فى أماكن العبادة ودعوتهم فى جميع المنتديات والمناسبات إلى إظهار قدر أكبر من التسامح مع الآخر .

ومن فلسفتنا فى حوار الحضارات والتعايش المشترك العمل على تجلى سلوكيات الجانب الروحى للإيمان والوحدة الروحية وآفاق التواصل الإنسانى

وروحانية الشعائر الدينية كأساس للتفاهم والتعايش والعمل على الكشف عن النفوس الدينية من خلال الأديان والتعايش الروحى كأساس للتعايش الثقافى والحضارى . . وهكذا نصل إلى فهم الحضارات والتعايش .

الأبعاد التاريخية للأزمة المالية العالمية :

بات العالم يعيش الأزمات المالية المتلاحقة والمتناقضات الاقتصادية الفادحة ، أما الأزمات المالية أو (الانهيارات المالية) المفزعة فباتت متكررة ومدمرة ومستشرية ، ففى النصف الثانى من تسعينات القرن الماضى منذ ديسمبر سنة ١٩٩٤ حتى يناير ١٩٩٩ م ، فقط شهد العالم أربع أزمات أو إنهيارات بدءاً بالمكسيك سنة ١٩٩٥ م ، ثم جنوب شرق آسيا ، ولنقرأ التصريح الشهير لرئيس وزراء ماليزيا فى مقابلة مع مجلة (بيزنس ويك) حين سئل :

هناك من يحاجج بأنة بعد فترة من المعاناة على المدى القصير ، فإن بلادكم ستصبح أقدر على المنافسة ؟ فأجاب : إننى لا أؤمن بهذه الفكرة ، فبعد أن قتلتم كماً هائلا من الشعب ، وأطحتم بعدد كبير من الشركات ، وتسببتم في إنهيار البنوك ، وقلصتم الثقة فى النظام بأكمله تقول لي : إننا أقوياء مرة أخرى : لا ، إن الأمور لا تسيرعلى هذا النحو، لقد أحتجنا الى ٤٠ عاما من العمل الشاق حتى بلغنا ما كنا علية قبل الأزمة ، أما اليوم فقد أعدنا إلى الوراء بما يزيد على ٢٥ سنة) ثم أزمة روسيا عام ١٩٩٨ ، والبرازيل عام ١٩٩٩ .

ولا ننسى الأزمة الطاحنة فى الثلاثينيات من هذا القرن والتى أستمرت عشر سنوات ، ونشأ فى أحضانها النظام الرأسمالى الكيترى الحديث ، ولا الأزمات السابقة فى أعوام ١٨٧٢ ، ١٨٨٤ ، ١٨٩٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٧ ،

وكساد الحرب العالمية الأولى من ١٩١٤ ، وكساد فترة مابعد الحرب عام ١٩٢١ ، والكساد العظيم فى ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ وقبل ١٩٣٩ م .. هذا ما يقوله التاريخ .

ماذا تقول التقارير :

١- تشير التقارير الى أن مقابل كل دولار يستثمر فى الاقتصاد الحقيقى المنتج ، فإنه يجرى إستثمار ما يتروح بين (٢٠ ـ ٥٠) دولاراً فى الأسواق العالمية غير الحقيقية القائمة على المضاربات والمجازفة والتى تسهم فى توليد المزيد من الأموال لا فى إنتاج السلع والخدمات التى تعتبر وثيقة الاتصال والارتباط بالاقتصاد الإنتاجى . ومع ذلك فلا أحد يعلم على وجه التأكيد والدقة مقادير وحجم الأموال التى يجرى إستغلالها فى عمليات المضاربة .

وقد ذكر جويل كيرتزمان محرر مجلة (هارفارد بزنس ريفيو) فى كتابه (موت الأموال) تقدير البعض أن ما معدله ٣% فقط من المعاملات المالية والتى تزيد عن ١٢٠٠ مليار دولار فى اليوم تستثمر فى تجارة السلع والخدمات فى الاقتصاد المنتج ، بينما يتم تسخير حوالى ٩٧ فى المائة من حجم تلك المبادلات المالية اليومية فى أعمال المضاربة وتدار من خلال الوسائل الالكترونية وبرامج الحاسوب لهدف واحد فقط هو الحصول على المزيد من الأموال من الاقتصاد النتاجى وامتصاص طاقات الشعوب وقدراتها .

٢- أكد تقرير منظمة الأمم المتحدة للتجاره والتنمية (أنكتاد) لعام ١٩٩٩ أن النظام الاقتصادى العالمي ما يزال يتسم باختلالات وعدم توازن يضر

بمصالح الدول الفقيرة مما يؤكد أن هذا القرن سيختم بأزمة تنمية حقيقية ، حيث إن معدل النمو العالمى المتوقع العام الحالى ٢% فقط وهى نتيجة مخيبة للآمال وتخفى حقيقة أن الفجوة بين الدول النامية والمتقدمة مازالت تتسع فى أكثر من مجال ، وأن السبيل الوحيد لتفادى ركود إقتصادي عالمي يكمن فى تحمل الدول الصناعية لمسؤولياتها فى تنشيط النمو الاقتصادي العالمي ، وتناول التقرير آثار العولمة على التنمية التى منها أن الأزمات المالية المتعاقبة فى الأسواق الناشئة أصبحت تشكل ظاهرة ثابتة ومزمنة فى النظام المالي العالمي .

٣- جاء فى تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٢الصادر عن برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة أن أغنى ٢٠% يمتلكون٨٢.٧% من دخل العالم ، و٢٠%يمتلكون ١١.٧% من دخل العالم ، و١٠% يمتلكون ٢.٣% من دخل العالم ، و١٠% يمتلكون ١.٩%من دخل العالم ، و٢٠% يمتلكون ١.٤% من دخل العالم .

الرأسمالية " المعلوماتية " وطبقة الواحد بالمائة (١%) :

يعد ذلك نتيجة طبيعة وحتمية لما أنجبته الرأسمالية الأنجلو أميركية والرأسمالية "المعلوماتية " من تفاوت يشع فى توزيع الثروات حتى بين أبناء الشعب الواحد . فطبقا لتقرير التنمية البشرية الصادر عن برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة (مطبعة جامعة أكسفوردU.K) فإن: طبقة الواحد بالمائة من الأميركيين تمتلك النسب المئوية التالية من إجمالى الموجودات فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٩٢:

الأسهم ٤٩.٦% من إجمالى الأسهم الأميركية .

السندات ٦٢.٤% من إجمالي السندات الأميركية .

الائتمان ٥٢.٩% من إجمالى عمليات الائتمان .

حقوق فى النشاطات .

التجارية ٦١.٦% من إجمالى حقوق النشاطات التجارية الأميركية .

العقارات غير المخصصة للسكن ٤٥.٩% من إجمالي العقارات ، ففى عام ١٩٩٢ كانت طبقةالواحد بالمائة الأميركية تمتلك ٤٥.٦% من إجمالي الثروة المالية فيما يمتلك أفقر ٨٠% من الشعب٧.٨% من الثروة المالية، وعلى الصعيد العالمي فإن (٣٥٨) ملياردير ا يمتلكون ثروة مجمعة تعادل الثروة التى يمتلكها أفقر (٢.٥) مليار شخص فى العالم مجتمعين .

لقد أفرزت الرأسمالية المعلوماتية الحديثة طبقة ال١% فى الكثير من الدول وأصبحت مصالحها متطابقة ومتشابكة وطغت على المصالح الوطنية .. هنا أتساءل : أين الآن ما زعمه أبو الاقتصاد آدم سميث فى أوائل القرن ال ١٨ من فكرة "اليد الخفية " التى تستطيع أن توفق بين المصلحة الخاصة والعامة وبين المصلحة الشخصية والمجتمعية فى توازن دقيق ؟!

ولهذا قال كيتز مؤسس المدرسة الاقتصادية الحديثة فى الأربعينيات من القرن العشرين : (يجب أن نتظاهر أمام أنفسنا وأمام الجميع أن العدل خطأ وأن الخطأ عدل " فالعدالة" عرضية " فى الراسمالية الأنجلوأميركية .

٤- أطلق البرنامج الانمائي بالأمم المتحدة تقرير التنمية البشرية السنوي العاشر وجاء فيه:

- متوسط الدخل فى أغنى خمس دول فى العالم يبلغ (٧٤) ضعف متوسط الدخل فى أفقر خمس دول فى العالم .
- ويذكر التقرير أن ثروات أكبر ثلاثة أغنياء فى العالم تفوق قيمتها إجمالي الناتج المحلي لمجموعة الدول الأقل تقدما والتى يناهز عدد سكانها (٦٠٠) مليون نسمة .
- ويشير التقرير الى أن الرعاية الاجتماعية التى تعد المحور الخفي للتنمية البشرية تواجه تهديدا فى ظل إقتصاد السوق المنافسة ، ويشير فى هذا الصدد إلى افتقار حياة البشر بشكل متزايد إلى الأمان ، وتزايد معدلات التفكك الأسري والجريمة فى حين يبلغ إجمالي الأرباح العالمية ١.٥ تريليون دولار فى العالم.

وعلى هذا النحو بات التفاوت الصارخ بين الأغنياء والفقراء خصيصة من خصائص النظام الاقتصادي ، وأصبح الفقر وتوابعه من إنعدام الرعاية الاجتماعية ومشتقاتها هو الغالب ، مما يتعين معه على العلماء أصحاب الفكر أن يهبوا للغوث وكشف الغمة (أنظر إلى الاهتمامات الآن فى وسائل الإعلام المختلفة) ، فمما لا يعقل فى عصر الفضاء أن يوجد أكثر من ١٠٠ مليون شخص تحت خط الفقر فى أغنى دول العالم إضافة إلى ٣٧ مليونا عاطلين عن العمل و ١٠٠ مليون بلا مأوى ، ويؤكد التقرير الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى أن تلك الأعداد مرتفعة بدرجة مذهلة وسط الوفرة.

أقوال المتخصصين من العلماء والباحثين :

١- يقول عالم الاقتصاد السويدي ميردال الحائز على جائزة نوبل : إن آليات السوق الحرة تجعل التقدم يؤدي إلى المزيد من التقدم ، كما تجعل التخلف يؤدي إلى المزيد من التخلف .

مما يؤدى إلى القول بضرورة الدور المتوازن للدولة فى قيادة العملية الاقتصادية إنتاجا وتوزيعا وإستهلاكا ، والملكية بأشكالها المختلفة والتوليفة المناسبة منها والاستثمار والأسواق ووسائل الرقابة الفعالة عليها.

٢- دعا آلان بلانيدروا إلى إصلاح النظام المالي العالمي الحالي لحماية المواطنين الأبرياء فى شتى أنحاء العالم من مخاطر الأزمات المالية التى تخلقها الممارسات الحالية .

وأكد أن الوضع قد تغير الآن ولم يعد الاهتمام بالأزمات المالية مقصورا على نخبة إقتصادية حيث توالت الانهيارات المالية المفزعة .

وقال بلانيدروا فى دراسة نشرتها مجلة " فورين أفيرز " " إن الانهيارات المالية قد باتت متكررة ومدمرة ومستشرية حتى لم يعد بمقدور أحد أن يتجاهلها أو يغض الطرف عنها . وأكد بلانيدروا أن النظام المالى العالمي الراهن قد فشل فشلا ذريعا فى حماية البشر البسطاء الفقراء من مخاطره الضارية .

٣- على مستوى الدول يدعو خبير دولى آخر إلى تأسيسى نظام مالي جديد فى العالم حيث أكد مدير مجموعة ال٢٤ فى واشنطن د . وليام لارالدى على ضرورة صياغة نظام مالي عالمي جديد يحافظ على مصالح الدول النامية ويقلل من هيمنة الدول الصناعية الكبرى ويحول دون حدوث أزمات أو هزات تزعزع الاستقرار المالي والنقدي فى العالم.

وما ترتب عليها من ضرورة وضع هيكل جديد للنظام المالي العالمي الذى يعانى مما وصفه بسوء أداء المؤسسات والهياكل المالية القائمة ضمن هذا النظام .

والآن أختتم الجواب على هذا السؤال يتداعي النظم الاقتصادية وسقوط النظام الاشتراكي " النظرية الماركسية / الشيوعية " **فى بداية التسعينيات للأسباب الآتية :**

١- عزل الطموح الإنساني عن آلية الانتاج "تمثل ذلك فى شكل الملكية العامة الوحيد " .
٢- حرمان الإنسان من الحوافز فى توزيع الثروة لمن يحتاج إليها بغض النظر عن الإنتاج .
٣- تحت شعار " لكل ما يحتاجه والكل يعمل " عزلت عن الإنسان القدرة فى الإبداع ، فتساوى فى ذلك من يعمل ومن لا يعمل .

وفى المقابل قام نظام " نظرية إقتصاد السوق وميكانيكية الحوافز" حيث :

١- يعطي الحوافز دون حدود تاركا العنان للجشع والسعي وراء الثروة والمال دون قيود ، وكان للحوافز دور بارز في الأزمة الحالية .
٢- سيطرة الشركات متعددة الجنسيات والقارات على القرار السياسي وتحولها إلى إحتكارات جشعة هدفها المال والثروة .
٣- حماية الحوافز تحت غطاء حماية الحرية .

ومع سقوط الاشتراكية برزت الأزمات الاقتصادية الرأسمالية والتى نجد أهم جذورها فى عام ١٩٧١ م عندما قامت أميركا بفك الارتباط بين الدولار

والذهب ، وكان ذلك بمنزلة إعلان مرحلة جديدة للنظام الرأسمالي " الليبرالية الاقتصادية وتحرير أسعار الفائدة وأسعار الصرف .

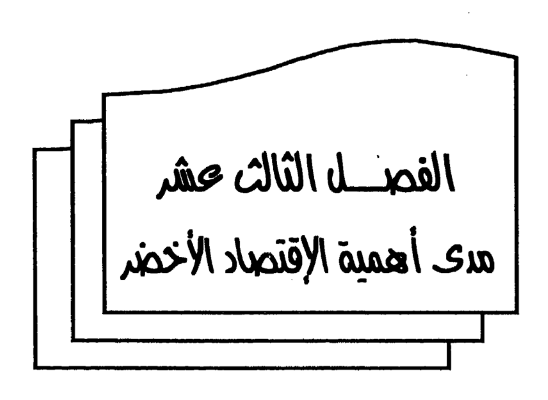
إذن نستطيع القول ، بالنسبة للرأسمالية ، إنه مطلوب إنقاذ الرأسمالية مما يأتى :

١- عدم الاستقرار : فالدولار هو العملة المعتمدة فى ثلثي احتياطي الحكومات بالعملات الأجنبية البالغ مجموعه ٦.٧ تريليون دولار .

٢- عدم المساواة " إتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء " ٥٥ مليون شخص يعيشون فى فقر مدقع سنة ٢٠٠٩ م ، ٤٠ مليوناً منهم في أميركا .

٣- البطالة التي تخطت فى أميركا ١٠% للمرة الأولى منذ الحرب العالمية الثانية ، وقد تبقى عند حدود ٨.١٧ % حتى عام ٢٠١٤ م مما يعنى أن عملية النهوض ستكون أبطا .

وفى تحقيق صحافي في " نيوزويك إنترناشيونال " قال وزير الخزانة الأميركي غايتنر فى جوابه على سؤال : ما أكبر مفاجأة غير سارة ؟ قال : نسبة البطالة العالمية بما يجري في الاقتصاد عموما ، كل التوقعات أغفلت ذلك ولهذا تأثير كبير ، لأنه العدسة التي ينظر الناس من خلالها إلى سلامة الاقتصاد ككل .


الفصـــل الثالث عشر
مدى أهمية الإقتصاد الأخضر

مدى أهمية الاقتصاد الأخضر ..

ومدى تأثيره فى تقليص الفقر وتحقيق الأهداف الإنمائيه ..

الإستثمار في الطاقةِ النظيفةِ ، وحركة مواصلات مستدامة ، وغابات وزراعة صديقة للبيئة عناصر جوهرية لبناء « اقتصاد أخضر » والوصول إلى أهداف مقبولة عالميا لتقليص الفقر ؛ بل إن استثمار اثنين في المائة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي في عشرة قطاعات رئيسية يمكن أن يبدأ مرحلة انتقالية نحو اقتصاد اخضر يمتاز بانخفاض الكربون وكفاءة الموارد.

وسيعمل هذا المبلغ المستثمر، الذي يقدر حاليا بنحو ١.٣ تريليون دولار أميركي سنويا في المتوسط ، والذي تدعمه السياسات الوطنية والدولية المتطلعة إلى المستقبل، على نمو الاقتصاد العالمي بالمعدل نفسه تقريبا، إن لم يكن أعلى من ذلك المتوقع في إطار النماذج الاقتصادية الحالية ؛ لكن الفارق أن هذا النمو سيحدث من دون ارتفاع المخاطر والصدمات والندرة والأزمات الواسعة على نحو متزايد في «الاقتصاد البني» عالي الكربون المستنزف للموارد. تلك هي أهم توصيات تقرير شامل أصدره برنامج الأمم المتحدة للبيئة أواخر فبراير الماضي تحت عنوان « نحو اقتصاد أخضر.. مسارات إلى التنمية المستدامة والقضاء على الفقر " .

ويتحدى هذا التقرير الكبير، الذي جاء في ٦٢٦ صفحة ، وبصورة شاملة الخرافة القائمة على المقايضة بين الاستثمارات البيئية والنمو الاقتصادي، ويشير بدلا من ذلك إلى سوء توزيع فادح لرأس المال حاليا.

ما هو الاقتصاد الأخضر؟

فكرة « الاقتصاد الأخضر» فكرة حديثة. وقد شهد العامان الأخيران إبحار فكرة « الاقتصاد الأخضر» بعيدًا عن مراسيها المتخصصة في الاقتصادات البيئية إلى الخطاب السياسي العريض. وهي تتردد الآن بصورة مطردة في خطب رؤساء الدول ووزراء المالية، وفي نصوص البيانات الرسمية لمجموعة العشرين، كما تناقش في إطار التنمية المستدامة والقضاء على الفقر. ولاشك أن خيبة الأمل من النظام الاقتصادي العالمي السائد حاليا قد أسهمت في تلك القوة الدافعة التي اكتسبها مبدأ الاقتصاد الأخضر، كما ساهم في ذلك الإحساس بالإرهاق النابع من الأزمات العديدة المتزامنة وانهيارات الأسواق التي حدثت أثناء العقد الأول من الألفية الجديدة، بما في ذلك الأزمة المالية والاقتصادية العام ٢٠٠٨ على وجه الخصوص. ولكننا شهدنا في الوقت نفسه ظهور دلائل متزايدة على وجود طريقة للتقدم نحو الأمام، ونظام اقتصادي جديد نظام لا يكون الوصول إلى الثراء المادي فيه بالضرورة على حساب تنامي المخاطر البيئية، والندرة الإيكولوجية، والمفارقات الاجتماعية.

ويعرِّف برنامج الأمم المتحدة للبيئة الاقتصاد الأخضر على أنه الاقتصاد الذي ينتج عنه تحسن في رفاهية الإنسان والمساواة الاجتماعية، في حين يقلل بصورة ملحوظة من المخاطر البيئية وندرة الموارد الإيكولوجية. ويمكن أن ننظر للاقتصاد الأخضر في أبسط صورة كاقتصاد يقل فيه انبعاث الكربون وتزداد فيه كفاءة استخدام الموارد كما أنه يستوعب جميع الفئات الاجتماعية. وفي الاقتصاد الأخضر، يجب أن يكون النمو في الدخل وفرص العمل مدفوعاً من جانب الاستثمارات العامة والخاصة التي تقلل انبعاث الكربون والتلوث، وتزيد من كفاءة استهلاك الموارد والطاقة، وتمنع خسارة خدمات التنوع

البيولوجي والنظام الإيكولوجي. وتحتاج هذه الاستثمارات للتحفيز والدعم عن طريق الإنفاق العام الموجه، وإصلاح السياسات وتغيير اللوائح. ويجب أن يحافظ مسار التنمية على رأس المال الطبيعي ويحسنه بل ويعيد بناءه عند الحاجة، باعتباره مصدرًا للمنفعة العامة، خاصة للفقراء الذين يعتمد أمنهم ونمط حياتهم على الطبيعة.

إنّ مبدأ « الاقتصاد الأخضر » لا يحل محل التنمية المستدامة، بل إن هناك فهمًا مطردًا الآن لحقيقة أن تحقيق الاستدامة يرتكز بالكامل تقريبًا على إصلاح الاقتصاد، فالعقود المتتالية من خلق الثروات الجديدة عن طريق نموذج «الاقتصاد البني» لم تتعامل مع التهميش الاجتماعي واستنفاد الموارد، ولا نزال بعيدين عن تحقيق الأهداف الإنمائية للألفية. إن الاستدامة لا تزال هدفًا حيويًا بعيد الأمد، ولكننا لابد أن نعمل على « تخضير » الاقتصاد لنصل إلى هذا الهدف.

ويرى التقرير أن الاقتصاد الأخضر لا يرتبط بالاقتصادات الأكثر تقدما ولكنه أيضا حافز رئيسي للنمو والقضاء على الفقر في البلدان النامية، حيث يرتبط قرابة ٩٠ في المائة من الناتج المحلي الإجمالي للفقراء في بعض الحالات بالطبيعة أو برأس المال الطبيعي كالغابات والمياه العذبة.

واعتمد التقرير على نموذج السياسات التي تعيد توجيه نحو ١.٣ تريليون دولار سنويا في الاستثمارات الخضراء وفي عشرة من القطاعات الرئيسية، أي ما يعادل تقريبا اثنين في المائة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي. أما بالنسبة لحجم هذا المبلغ مقارنة بغيره فهو يمثل أقل من عشر مجموع الاستثمار السنوي في رأس المال المادي.

وينفق العالم حاليا ما بين واحد واثنين في المائة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي على مجموعة من سياسات الدعم التي كثيرا ما تبقي على الاستعمال غير المستدام للموارد في مجالات الوقود الأحفوري والزراعة، بما في ذلك دعم المبيدات والمياه ومصايد الأسماك.

كما أن العديد منها يسهم في الضرر البيئي وعدم الكفاءة في الاقتصاد العالمي، لذا فإن خفضها أو التخلص منها تدريجيا من شأنه أن يولد فوائد متعددة إلى جانب تحرير الموارد لتمويل عملية الانتقال إلى الاقتصاد الأخضر.

الدخل وفرص العمل :

بالإضافة إلى تحقيق معدل نمو أعلى، فإن التحول الشامل إلى الاقتصاد الأخضر من شأنه تحقيق دخل أعلى للفرد مقارنة بنظيره في ظل النماذج الاقتصادية الحالية مع تقليل البصمة البيئية بنسبة ٥٠ في المئة تقريبا في العام ٢٠٥٠ ، بالمقارنة بنهج العمل المعتاد.

ويقر تقرير الاقتصاد الأخضر بأن فقدان فرص العمل على المدى القصير في بعض القطاعات- كمصايد الأسماك على سبيل المثال- أمر لا [illegible] منه إذا أريد لها أن تمر بمرحلة انتقالية نحو تحقيق الاستدامة.

وسيكون مطلوبا من الاستثمار، الذي يموله في بعض الحالات الحد من الدعم الضار، أن يقوم بإعادة بناء مهارات بعض قطاعات قوى العمل العالمية وإعادة تدريبها لضمان انتقال عادل ومقبول اجتماعيا.

ويسعى التقرير إلى إثبات أنه بمرور الوقت فإن عدد «الوظائف الجديدة واللائقة الناشئة» في القطاعات التي تتنوع بين الطاقات المتجددة والزراعة الأكثر استدامة، سيعوض تلك التي فقدت من «الاقتصاد البني» السابق.

وعلى سبيل المثال ، فإن استثمار حوالي واحد وربع في المائة من إجمالي الناتج المحلي العالمي كل عام في كفاءة الطاقة والطاقات المتجددة من شأنه أن يخفض الطلب العالمي على الطاقة الأولية بنسبة تسعة في المئة في العام ٢٠٢٠ وما يقارب من ٤٠ في المائة بحلول العام ٢٠٥٠.

وستكون مستويات العمالة في قطاع الطاقة أعلى بمقدار الخمس مقارنة بمستويات العمالة في ظل سيناريو العمل المعتاد لأن الطاقات المتجددة ستشكل ما يقرب من ٣٠ في المئة من حصة الطلب العالمي على الطاقة الأولية بحلول منتصف القرن.

وستبلغ الوفورات في تكاليف رأس المال والوقود المستخدم في توليد الطاقة في إطار سيناريو الاقتصاد الأخضر ٧٦٠ مليار دولار سنويا في المتوسط بين عامي ٢٠١٠ و٢٠٥٠.

أهداف الألفية الإنمائية :

والواقع أن التقرير، الذي أعده برنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP) بالتعاون مع اقتصاديين وخبراء من جميع أنحاء العالم، يهدف إلى تلبية أهداف الأمم المتحدة الإنمائية للألفية والحفاظ عليها- بدءا من خفض نسبة من يعانون الجوع إلى النصف وحتى خفض نسبة المحرومين من مياه الشرب المأمونة إلى النصف- كهدف واحد.

يقول آكيم شتاينر وكيل الأمين العام للأمم المتحدة والمدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة إن العالم في طريقه إلى ريو مرة أخرى، لكنه عالم مختلف تماما عما كان عليه في قمة الأرض في ريو العام ١٩٩٢. وتأتي ريو ٢٠١٢ على خلفية التراجع السريع في الموارد الطبيعية وتسارع التغيير البيئي، بدءا بفقدان الشعاب المرجانية والغابات إلى الندرة المتنامية في الأراضي المنتجة جراء الحاجة الملحة إلى الغذاء والوقود من جانب الاقتصاد والآثار المحتملة لتغير المناخ دون رادع.

وأكد شتاينر أنه يجب علينا تجاوز استقطابات الماضي كالتنمية في مقابل البيئة والدولة مقابل السوق والشمال مقابل الجنوب. وفي ظل وجود ٢.٥ مليار نسمة يعيشون على أقل من ٢ دولار يوميا، وأكثر من ملياري نسمة يضافون إلى سكان العالم بحلول العام ٢٠٥٠، فمن الواضح أنه يجب علينا الاستمرار في تطوير وتنمية اقتصاداتنا، ولكن هذا التطور لا يمكن أن يأتي على حساب نظم دعم الحياة ذاتها على الأرض أو في المحيطات أو في الغلاف الجوي إذ إنها تحافظ على اقتصاداتنا وبالتالي على حياة كل واحد منا. و«الاقتصاد الأخضر» يقدم جزءا حيويا من الإجابة عن كيفية الحفاظ على البصمة البيئية للبشرية في الحدود الآمنة لكوكبنا وهو يهدف إلى الربط بين الضرورات البيئية لتغيير المسار والنتائج الاقتصادية والاجتماعية لاسيما التنمية الاقتصادية والوظائف والمساواة.

ملخص للإستنتاجات :

إن استثمار اثنين في المائة فقط من الناتج المحلي الإجمالي العالمي في عشرة قطاعات رئيسية يمكن أن يبدأ مرحلة انتقالية نحو اقتصاد يمتاز بانخفاض

الكربون وكفاءة الموارد. ويبين التقرير إمكانية الانتقال إلى اقتصاد أخضر باستثمار ٢ في المائة فحسب من الناتج المحلي الإجمالي العالمي كل عام (والذي يبلغ حاليا نحو ١.٣ تريليون دولار أميركي) وذلك بدءا من الآن حتى عام ٢٠٥٠ للتحول الأخضر للقطاعات الرئيسية التي تشمل الزراعة والمباني والطاقة ومصايد الأسماك والغابات والصناعة والسياحة والنقل وإدارة النفايات والمياه ولكن لابد من إصلاحات للسياسات الدولية والقومية تحفز على مثل هذه الاستثمارات.

ويؤكد التقرير أنه لا يصعب تحقيق التوافق بين الاستدامة البيئية والنمو الاقتصادي في ظل سيناريو الاقتصاد الأخضر بل على العكس فإن الاقتصاد الأخضر يخلق الوظائف ويعجل بالتقدم الاقتصادي ويجنب في الوقت نفسه العديد من المخاطر السلبية المهمة مثل تأثير تغير المناخ وتفاقم ندرة المياه وتدهور خدمات النظام الايكولوجي.

إن تخضير الاقتصاد لا يولد النمو فحسب وخاصة في مستوى تنمية رأس المال الطبيعي ولكنه ينتج أيضا نموا أعلى في الناتج المحلي الإجمالي والناتج المحلي الإجمالي للفرد. وطبقا للنماذج التي تم تطويرها في تقرير الاقتصاد الأخضر، فإن سيناريو الاستثمار الأخضر يحقق معدلات نمو سنوية أعلى من ذلك التي يحققها سيناريو نهج العمل المعتاد في غضون ٥ إلى ١٠ أعوام، ويتميز هذا النمو الاقتصادي بالانفصال التام عن التأثيرات البيئية حيث يتوقع أن تنخفض نسبة البصمة البيئية العالمية إلى الطاقة البيولوجية من قيمتها الحالية البالغة ١.٥ إلى ١.٢ بحلول العام ٢٠٥٠ وهي قيمة تقترب كثيرا من القيمة الفاصلة للاستدامة التي تساوي ١ بدلا من أن ترتفع إلى مستوى ٢ في نهج العمل المعتاد.

وسيرتفع الطلب على الطاقة إلى حد ما ولكنه سيعود لمستوياته الحالية بحلول العام ٢٠٥٠ وهو ما يقل بنحو ٤٠ في المئة عما هو متوقع في ظل نهج العمل المعتاد. ويعزى ذلك إلى التقدم الجوهري في كفاءة الطاقة. ويتوقع أن يخفض سيناريو الاستثمار الأخضر من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون المتعلقة بالطاقة بنحو الثلث بحلول العام ٢٠٥٠ مقارنة بالمستويات الحالية. ويجب أن يظل تركيز انبعاثات الغلاف الجوي تحت مستوى ٤٥٠ جزءا من المليون بحلول العام ٢٠٥٠، وهو مستوى مهم لإتاحة الفرصة للحد من الاحتباس الحراري إلى حد ٢ درجة مئوية.

الاقتصاد الأخضر يقدر رأس المال الطبيعي ويستثمر فيه. حيث تم تخصيص ربع الاستثمارات الخضراء التي تم تحليلها - أي خمسه في المئة من الناتج المحلي الإجمالي (٣٢٥ مليار دولار أميركي) - لقطاعات رأس المال الطبيعي: الحراجة، والزراعة، والمياه العذبة، ومصايد الأسماك. وترتفع القيمة المضافة في صناعة الغابات بنحو ٢٠ في المائة في العام ٢٠٥٠ مقارنة بنهج العمل المعتاد. ويمكن لاستثمارات في الاقتصاد الأخضر تتراوح بين ١٠٠ و٣٠٠ مليار دولار أميركي سنويا في الفترة من ٢٠١٠ – ٢٠٥٠ ، أن تؤدي بمرور الوقت إلى ارتفاع جودة التربة وزيادة العائدات العالمية من المحاصيل الرئيسية بما يمثل زيادة قدرها عشرة في المئة عما يمكن تحقيقه من خلال استراتيجيات الاستثمار الحالية. كما يمكن أن تقلل الكفاءة الزائدة في قطاعات الزراعة والصناعة والبلديات من الطلب على الماء بحوالي الخمس بحلول العام ٢٠٥٠، مقارنة بالتوجهات المتوقعة، مما يقلل الضغط على المياه الجوفية والسطحية على المديين القصير والطويل.

ويمكن للاقتصاد الأخضر ان يساهم في التخفيف من الفقر، وهناك رابط لا ينفصم بين التخفيف من الفقر والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعية والأنظمة الايكولوجية نظرا لتدفق المنافع من رأس المال الطبيعي لتصل إلى الفقراء مباشرة، وهو أمر مهم بالنسبة للدول منخفضة الدخل بصفة خاصة، حين تمثل سلع وخدمات النظام الايكولوجي أحد أكبر مكونات المعيشة للمجتمعات الريفية الفقيرة ويوفر شبكة أمان تحمي من الكوارث الطبيعية والصدمات الاقتصادية.

وسيتم خلق وظائف جديدة أثناء الانتقال إلى الاقتصاد الأخضر، وبمرور الوقت ستزيد تلك الوظائف عما هو متاح في «الاقتصاد البني»، ويلاحظ هذا بصفة خاصة في قطاعات الزراعة والنباتات والطاقة والحراجة والنقل. ولكن التخضير سيتطلب فقدا في الدخل والوظائف، على المديين القصير والمتوسط في بعض القطاعات التي استنزفت بصورة شديدة مثل مصايد الأسماك لكي تستعاد المخزونات المستنزفة ولتجنب الفقد الدائم في الدخل والوظائف، وقد يتطلب التخضير أيضا الاستثمار في إعادة بناء المهارات وإعادة تعليم القوة العاملة.

ويعد إعطاء الأولوية للاستثمار والإنفاق الحكوميين في مجالات تخضير القطاعات الاقتصادية من الأمور الواقعة على المسار الحرج. وسيفتح إصلاح الدعم المكلف والضار في جميع القطاعات الفضاء المالي وسيحرر الموارد للانتقال إلى الاقتصاد الأخضر. ويمكن أن يوفر رفع الدعم عن قطاعات الطاقة والماء ومصائد الأسماك والزراعة وحدها نحو ١-٢ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي سنويا. ويقدر دعم مصايد الأسماك على سبيل المثال بنحو ٢٧ مليار دولار أميركي سنويا مما يسبب خسائر تزيد على المكاسب بعيدة المدى للاقتصادات الوطنية والرعاية الاجتماعية. وقد تجاوز مجموع دعم الإنتاج

والدعم السعري للوقود الأحفوري ٦٥٠ مليار دولار أميركي في عام ٢٠٠٨، ويثبط هذا المستوى من الدعم الانتقال إلى مصادر الطاقة المتجددة .

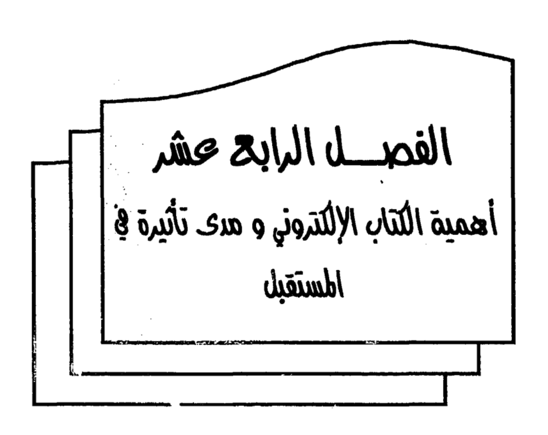
إن استخدام الأدوات المختلفة، مثل الضرائب والحوافز والرخص القابلة للتداول، لتشجيع الاستثمار الأخضر والابتكار، يعد أمرا ضروريا أيضا وكذلك الاستثمار في بناء القدرات والتدريب والتعليم، كما أن تقوية الحوكمة الدولية والآليات العالمية التي تدعم الانتقال تعد أمرا مهما. وسيكون مؤتمر الأمم المتحدة للتنمية المستدامة (قمة ريو +٢٠) في العام ٢٠١٢ فرصة لتحديد اتجاه جديد نحو عالم أكثر استدامة وأمنا وعدالة .

إن مستوى التمويل المطلوب للانتقال للاقتصاد الأخضر كبير للغاية ولكنه اقل من الاستثمار العالمي السنوي بنحو العشر، وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن نسبة ٢ في المائة من الناتج الإجمالي العالمي التي استخدمت كنموذج في هذا التقرير تمثل جزءا يسيرا من إجمالي التكوين الرأسمالي والبالغ نحو ٢٢ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي في العام ٢٠٠٩. ويمكن تحريك هذه القيمة عن طريق السياسات العامة الذكية وآليات التمويل المبتكرة. كما أن النمو السريع للأسواق الرأسمالية واهتمام السوق المتزايد بالمبادرات الخضراء وتطور الأدوات البديلة، مثل تمويل الكربون والتمويل متناهي الصغر، تفتح المجال أمام التمويل واسع النطاق للتحرك الاقتصادي العالمي، ولكن هذه الكميات لا تزال صغيرة بالمقارنة بالمبالغ الإجمالية المطلوبة وتحتاج لزيادتها بصورة عاجلة.

إن التحرك نحو الاقتصاد الأخضر يحدث على مستوى غير مسبوق وبسرعة لم تعهد من قبل. فقد كان من المتوقع في العام ٢٠١٠ أن تصل الاستثمارات الجديدة في الطاقة النظيفة إلى قيمة قياسية تبلغ ١٨٠-٢٠٠ مليار

دولار أميركي بزيادة عن قيمتها البالغة ١٦٢ مليار دولار أميركي في العام ٢٠٠٩ و١٧٣ مليار دولار أميركي في العام ٢٠٠٨ .وتدفع الدول غير الأعضاء في منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي عجلة التنمية بصورة متزايدة والتي ارتفعت حصتها من الاستثمار العالمي في مجالات الطاقة المتجددة من ٢٩ في المائة في العام ٢٠٠٧ إلى ٤٠ في المائة في العام ٢٠٠٨، يأتي معظمها من البرازيل والصين والهند.

ومن المتوقع أن يولد الاقتصاد الأخضر قدرا من النمو والوظائف يماثل أو يزيد عن سيناريو نهج العمل المعتاد الحالي ويفوق التوقعات الاقتصادية على المديين المتوسط والطويل في حين يؤدي إلى منافع اجتماعية وبيئية أكثر، ولكن مثل هذا التحول إلى الاقتصاد الأخضر لن يكون بلا مخاطر وتحديات- من «تخضير» القطاعات البنية التقليدية إلى تلبية متطلبات السوق سريعة التغير في عالم يقيده الكربون، لذا يجب أن يتحد قادة العالم، والمجتمع المدني، والأعمال الرائدة، وأن يتعاونوا على التدبر في المقاييس التقليدية للثروة والرخاء والرفاهية وإعادة تعريفها، ومن الواضح أن أكبر المخاطر هو الاستمرار في الأمر الواقع .



الفصل الرابع عشر

أهمية الكتاب الإلكتروني و مدى تأثيرة في المستقبل

الكتاب الإلكتروني ومدى تأثيره فى المستقبل :

يقول كاتب هذا المقال " بمجلة العربى " لا تزال كلمات مدرس الرياضيات الذي كان يعدني لاجتياز امتحان شهادة الجي سي إي (GCE) في أواخر الثمانينيات عالقة بوضوح في ذهني، حيث أصاب الأستاذ سيد وابلاً من الدهشة الشديدة حين شاهد بحوزتي أداة هندسية بسيطة من البلاستيك المرن تستخدم لرسم المنحنيات الهندسية.

ولما كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها المدرس الشاب مثل هذه الأداة « المذهلة »، خرجت من فمه الكلمات التي لازلت أتذكرها جيدًا، حيث قال بلهجة محاكاة للصعيدية المصرية التي يقدمها التلفزيون المصري (بسطحية أحيانًا) في المسلسلات: «العلم اتجدم (تقدم) يا ولاد .

أتذكر كلمات الأستاذ سيد كلما شهدتُ تطورًا تكنولوجيًا جديدًا في مجال وسائط المعلومات، فماذا يقول مَن أذهلته تلك الأداة البسيطة عن عالم تكنولوجيا المعلومات والإنترنت ؟ ماذا يقول - مثلاً - عن البريد الإلكتروني الذي لا نفكر فيه كثيرًا الآن، بل لا نتوقف عنده ونعتبره شيئًا عاديًا؟ ماذا يقول عن شاشات التنفزيون ثلاثية الأبعاد ؟ بل ماذا يقول عن شاشات التلفزيون رباعية الأبعاد ؟ ماذا يقول الأستاذ سيد عن الكتاب الإلكتروني ؟

الكتاب الإلكتروني أو الكتاب الرقمي تعبير يطلق على مطبوعة تُنشر وتُقرأ عبر وسيلة رقمية كالكمبيوتر أو أجهزة المساعدة الشخصية الرقمية (Personal Digital Assistant (PDA أو حتى التليفون

المحمول، ولكن غالبًا ما تقرأ هذه النوعية من الكتب على جهاز قارئ إلكتروني معد خصيصًا لهذا الغرض .

وفكرة الكتاب الإلكتروني ليست بالحديثة، فقد بدأت في أوائل السبعينيات من القرن الماضي وتحديدًا في ١٩٧١ حين بدأ طالب أمريكي في جامعة الينوى في رقمنة بعض الكتب التي رأى أنها ذات فائدة عظيمة للبشرية، وعُرف هذا المشروع الذي بدأه الطالب مايكل هارت بمشروع جوتنبرج Project Gutenberg ولايزال هذا المشروع قائمًا حتى اليوم، حيث يحتوي موقعه على الإنترنت www.gutenberg.org على أكثر من ٣٣٠٠٠ كتاب إلكتروني، كلها قابلة للتحميل من دون مقابل. وفي مقدمة هذه الكتب مغامرات شرلوك هولمز، والأعمال الكاملة لكبار الأدباء العالميين أمثال تشارلز ديكنز ووليام شكسبير ومارك توين وأوسكار وايلد وجين أوستن وليو تولستوي وادجار آلان بو وغيرهم .

ولكن هل يقرأ الناس فعلاً على شاشات الكمبيوتر ؟ وما مدى انتشار ثقافة الكتاب الإلكتروني ؟ إجابة هذين السؤالين تعتمد بدرجة كبيرة على عمر المتلقي وثقافته وموقعه الجغرافي من العالم، إذ أنه مما لاشك فيه أن القراءة الإلكترونية أوسع انتشارًا في المجتمعات الغربية عنها في المجتمعات العربية، وذلك لأسباب عدة منها - مثلاً - انتشار ثقافة القراءة بشكل عام (ورقية كانت أو إلكترونية) في الغرب مقارنة بالمجتمعات العربية، ومنها انتشار استخدام الكمبيوتر والإنترنت بصورة يومية في الغرب بين شرائح المجتمع المتعددة عنه في المجتمعات العربية، أضف إلى ذلك مشكلة الأمية التي لاتزال تعصف بالعديد من البلاد العربية في حين تخلص منها الغرب منذ زمن بعيد. وبالرغم من ذلك، فإن ظاهرة القراءة الإلكترونية قد بدأت في الانتشار بين جيل الشباب في البلاد

العربية، وهو الجيل الذي شبّ وترعرع في زمن الكمبيوتر والإنترنت، وتأثرت حياته الاجتماعية وصداقاته بـ « الفيس بوك Facebook » والمدوّنات والرسائل المقتضبة على «تويتر . Twitter "

ومما ساعد على انتشار القراءة الإلكترونية حول العالم وجود حوالي خمسة ملايين كتاب إلكتروني على المواقع المختلفة على الإنترنت، منها ما يقرب من ثلاثة ملايين كتاب إلكتروني متاحة للتحميل المجاني وبصورة قانونية حسب قوانين الملكية الفكرية. من هذه الكتب المجانية ما يعود تاريخ نشره لما قبل العشرينيات من القرن الماضي، وبالتالي سقطت عنه حقوق الملكية الفكرية الخاصة، وأصبح ملكية عامة، ومنه ما يصرح مؤلفوه بالنشر الإلكتروني المجاني أملاً منهم في اكتساب القرّاء، وهؤلاء عادة ما يكونون من شباب الكُتّاب والمبدعين الذين يعملون على انتشار أسمائهم واكتساب سمعة أدبية على حساب الربح المادي. فمثلاً موقع أرشيف الإنترنت www.archive.org يحتوي على ما يزيد عن مليونين ونصف مليون كتاب إلكتروني مجاني، وموقع المكتبة المفتوحة www.openlibrary.org يحتوي على ما يزيد على المليون كتاب مجاني، وهكذا.

وحتى عندما تُباع الكتب الإلكترونية، فإن أسعارها تعتبر زهيدة جدًا مقارنة بالكتاب المطبوع ورقيًا، وذلك لأسباب عدة، فالنشر الإلكتروني لا يتكلف مصاريف الطباعة والورق والشحن والتخزين وما إلى ذلك، وبالتالي فإن أحدث الإصدارات العالمية حين تتكلف نسختها الورقية ٣٠ - ٥٠ دولارًا والنسخة المجلدة قد تتعدى المائة دولار، فإن النسخة الرقمية القابلة للتحميل الفوري في أي مكان بالعالم لا تتعدى تكلفتها ١٠ - ١٥ دولارًا في أغلب الأحوال.

وربما كان من أهم التطورات التي ساعدت على انتشار القراءة الإلكترونية عالميًا اختراع أجهزة القراءة الرقمية. وقد بدأت هذه الأجهزة بجهازي Rocket ebookو Softbook في عام ١٩٩٨، وتلاهما جهاز Cybook في العام نفسه. وبعد ذلك أدركت كبرى شركات الإلكترونيات أن القراءة الإلكترونية مجال شرِه للتوسّع فأنتجت شركة مايكروسوفت جهازًا خاصًا بها في عام ٢٠٠٠، وتلتها شركة سوني بجهاز آخر في ٢٠٠٤.

وربما كان أهم هذه الأجهزة جهاز القارئ الخاص بشركة أمازون Amazon والمسمى بجهاز كيندل Kindle ، والذي بدأ إنتاجه في عام ٢٠٠٧ وطُرح أحدث إصداراته في عام ٢٠١٠.

أضف إلى ذلك جهاز iPad الذي طرحته شركة أبل في أبريل ٢٠١٠، وباعت منه سبعة ملايين جهاز في ستة أشهر.

وللحق فإن لهذه الأجهزة سحرها ومذاقها الخاص، فأنا أذكر أنني في عام ٢٠٠٧ كنت على متن طائرة في طريقي إلى الولايات المتحدة الأمريكية وجاءت جلستي بجوار سيدة في منتصف العمر، ما لبثت أن أخرجت من حقيبتها كتابًا مغلفًا بغلاف من الجلد الفاخر، وبما أنني قارئة نهمة فقد التفت من دون وعي لأرى ماذا تقرأ هذه السيدة، فإذا بها تفتح الغلاف الجلدي الفاخر لتبدو من ورائه شاشة صغيرة في حجم الكتاب من القطع المتوسط، وكان هذا هو جهاز Kindleالذي كانت شركة أمازون قد طرحته في الولايات المتحدة منذ أقل من شهر آنذاك، وبطبيعة الحال، سألت السيدة عن رأيها في الجهاز، فأخبرتني أنها كانت تنتظره بفارغ الصبر وقامت بحجزه من على موقع أمازون قبل إصداره، حيث تعجبها جدًا فكرة أنها تمسك بيْن أيديها بأكثر من ٣٥٠٠ كتاب في هذا

الجهاز صغير الحجم، ليس عليها انتظار الكتب التي تطلبها الآن، حيث تستطيع بنقرة صغيرة على جهاز الكمبيوتر تحميل الكتب الحديثة فور إصدارها.

استأذنتها في تجربة الجهاز، فكان أول ما لفت نظري وضوح الخط الذي أمامي، وحين علقت على ذلك بادرت السيدة باطلاعي على كيفية تغيير الخط وتغيير الحجم للنص الذي أمامي، وتيقنت أن تلك تعتبر ميزة كبيرة، ربما لكبار السن أو لضعاف النظر حيث يتحكم الفرد في حجم وشكل النص المناسب له. والأجهزة الحديثة من القارئ الإلكتروني بإمكانها أيضًا قراءة الكتب المسموعة أو ما يعرف بالـ Audio book حيث يتصل الجهاز بسماعة صغيرة مما يؤهل متحدي الإعاقة البصرية لقراءة ما يودون من تلك الكتب والتي يمكن أيضًا تحميلها ببساطة من المواقع الإلكترونية.

وللكتب الإلكترونية مميزات أخرى. حيث يستطيع الشخص أن يبحث إلكترونيًا عن معلومة معينة عن طريق محرك بحث مزود على جهاز القارئ، كما يستطيع تدوين أي معلومات إضافية أو خواطر شخصية على الهامش كما يفعل في الكتاب المطبوع، ولكن الكتاب الإلكتروني يتيح للشخص أيضًا التحكم في حجم الهوامش وإمكانية إخفائها أو إظهارها كما يريد، كما أن تدوين الخواطر إلكترونيًا يتيح الاحتفاظ بالنص الأصلي خاليًا من أي كتابات إضافية عند الحاجة. ويتيح هذا القارئ دمج وسائط إعلامية عدة، إذ يمكن للنص الإلكتروني أن يتفرع بقطعة موسيقية أو بمقطع من الإعلام المرئي (Video) .

إذا كان للكتاب الإلكتروني كل هذه المميزات، فهل يعني هذا أن الكتاب الورقي في خطر ؟ في رأيي المتواضع أن هذا ليس صحيحًا، على الأقل في المستقبل القريب : فللكتاب الورقي مذاق خاص وإحساس خاص وألفة معينة

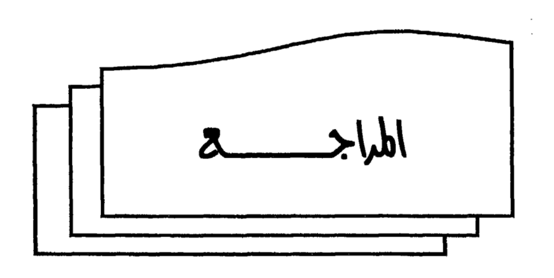
نابعة من ملمس الورق ورائحته والشغف الذي يصاحب تقليب الصفحات أثناء قراءة رواية رومانسية حالمة أو كتاب علمي ممتع، وفي واقع الأمر فإن بعض التقارير العلمية - كتلك الصادرة عن مؤسسة فوربز Forbes الأمريكية أو عن مشروع بيو للإنترنت Pew Internet Project - تلك التقارير تشير إلى أن القراءة الإلكترونية تؤدي إلى زيادة القراءة الورقية، فمثلاً حين يقرأ البعض فصلاً من رواية متاحة مجانًا على الإنترنت يقرر اقتناء الرواية في نسختها الورقية، فقد أدت شبكة الإنترنت إلى زيادة الوعي وانتشار الثقافة عالميًا، وبالتحديد ثقافة القراءة والكتابة.

ولكن علينا أن ننتبه - بغير أن نجزع - في الوطن العربي إلى أن أنماط القراءة والكتابة قد اختلفت وعلينا أن نواكب تلك الاختلافات، فالقرّاء عمومًا، والشباب منهم بشكل خاص يقرأون إلكترونيًا في المدوّنات وعلى صفحات «الفيس بوك» ورسائل التويتر نصوصًا قصيرة مقتضبة قد تستدعي التركيز، ولكن لفترات أقل وبشكل متقطع، كما أنهم اعتادوا على إمكانية الرد أو التعقيب على الرأي أو النص المنشور أو فكرة التحوّل الفوري من القراءة إلى الكتابة أو من التلقي إلى إصدار الرسالة ، ولابد من أخذ تلك المقومات في الاعتبار حين نحاول اجتذاب الشباب للقراءة الورقية أو الإلكترونية.

في عام ٢٠١٠ أعلنت شركة أمازون أن مبيعات الكتاب الإلكتروني قد تخطت للمرة الأولى مبيعات الكتاب المجلد Hardcover ، وإن كانت مبيعات الكتاب المجلد نفسها قد زادت بنسبة ٢٢ في المائة على العام السابق، في إشارة أخرى إلى أن القراءة الإلكترونية قد تؤدي إلى زيادة القراءة الورقية. وفي آخر رحلاتي إلى الولايات المتحدة منذ شهور قليلة جاءت جلستي بجوار رجل أمريكي في منتصف السبعينيات، كان قد جاء إلى مصر في رحلة سياحية مع

زوجته، وعندما أخرج الرجل جهاز Kindle سألته عمّا إذا كان يشتاق لملمس ورائحة الورق. ابتسم الرجل وقال إنه يشتاق إليهما جدًا، ولكنه أصبح لا يستطيع الاستغناء عن القارئ الإلكتروني أثناء السفر والرحلات، حيث يستعيض به عن حمل عشرات الكتب والتي كان يضطر لحملها مسبقًا في أسفاره باعتباره قارئًا نهمًا، ولكنه أضاف أنه لايزال يشتري العديد من الكتب الورقية - حتى إذا كان قد قرأها إلكترونيًا - لأنه يحب أن يراها مصطفة في مكتبته المنزلية، ويتمتع بترتيبها من حين لآخر أثناء انتقائه لأحدها لقراءته « والتمتع بتقليب صفحاته».

وأخيرًا فإن فكرة الكتاب الإلكتروني تحمل في طياتها فرصًا عدة للثقافة العربية، حيث نستطيع من خلالها وبمجهود بسيط زيادة المحتوى العربي على الإنترنت، والذي يعد أقل من ٢ في المائة من إجمالي المحتوى على الشبكة، وفي ذلك فائدة كبيرة للثقافة العربية ، ليس أقلها إمكانية إمداد الشعوب والجاليات العربية حول العالم بالكتب العربية فور صدورها، والحفاظ على الكتب العلمية والأدبية من التراث العربي شديد الثراء على مر العصور، كما أن للكتب الإلكترونية ميزة أخرى كبيرة هي تخطي حدود الرقابة، حيث لن تستطيع أي حكومة مصادرة كتاب أو منع أجزاء منه كما تفعل بعض الحكومات العربية للأسف حتى الآن. وفي النهاية ، فإن الكتاب الإلكتروني فرصة لجذب الشباب من العرب الذين قد لا تستهويهم الكتب الورقية، ولكن تستهويهم شاشات الكمبيوتر والإنترنت وفيس بوك، فالكتاب هو الكتاب سواء كان ورقيًا أو إلكترونيًا، فلنستخدم إذن التكنولوجيا المتاحة لجذب الشباب العربي إلى القراءة ولإثراء المحتوى العربي والثقافة العربية بشكل عام .


المراجـــع

المراجـــع العـربيه :

١- سلسلة المعرفه للجميع .

٢- تطورات التنوع العلمى وأثرها على الحياه .

مهندس / عبدالحميد عبدالسلام إرحيم .

٣- علاقة الحياه بالعلوم المعرفيه .

مهندس / عبدالحميد عبدالسلام إرحيم .

٤- رحله فى بساتين العلوم والحضارات .

مهندس / عبدالحميد عبدالسلام إرحيم .

منشأة المعارف بالإسكندريه

٥- كتاب " لا تحزن " .

الدكتور / عائض القرنى .

٦- حضارة الموجه الثالثه

تأليف / الفن تولفر .

ترجمة / عصام الشيخ قاسم .

٧- كتاب الإنسان والبيئه .

للأستاذ الدكتور / السيد عبد العاطى السيد .

دار المعرفه الجامعيه

٨- سلسلة عالم المعرفه " عقول المستقبل " .

تأليف / جون – ج – تايلور .

ترجمة الدكتور / لطفى فطيم

٩- سلسلة ذاكرة الكتابه .

محمد إسماعيل الجاويش .

الدار الذهبيه للنشر .

١٠- سلسلة المعجزات .

هارون يحيى

١١- اللجوء إلى الله

إعداد الدكتوره / عليه عابدين

دار الفكر العربى

١٢- مجلة العربى " العدد ٥٩٢ " .

د / حامد عمار .

١٣- مجلة الوعى الإسلامى – العدد ٥٤٧ فبراير ٢٠١١ .

١٤- مجلة العربى – العدد ٦٢٩ أبريل ٢٠١١

١٥- كتاب العربى – العدد ٨٢ أكتوبر ٢٠١٠ .

١٦- مجلة منبر الإسلام – العدد ١ ديسمبر ٢٠١٠ السنه (٧٠) .

١٧- مجلة العربى – العدد ٦٢٧ فبراير ٢٠١١ .

١٨- مجلة الكويت – العدد ٣٢٨ فبراير ٢٠١١ .

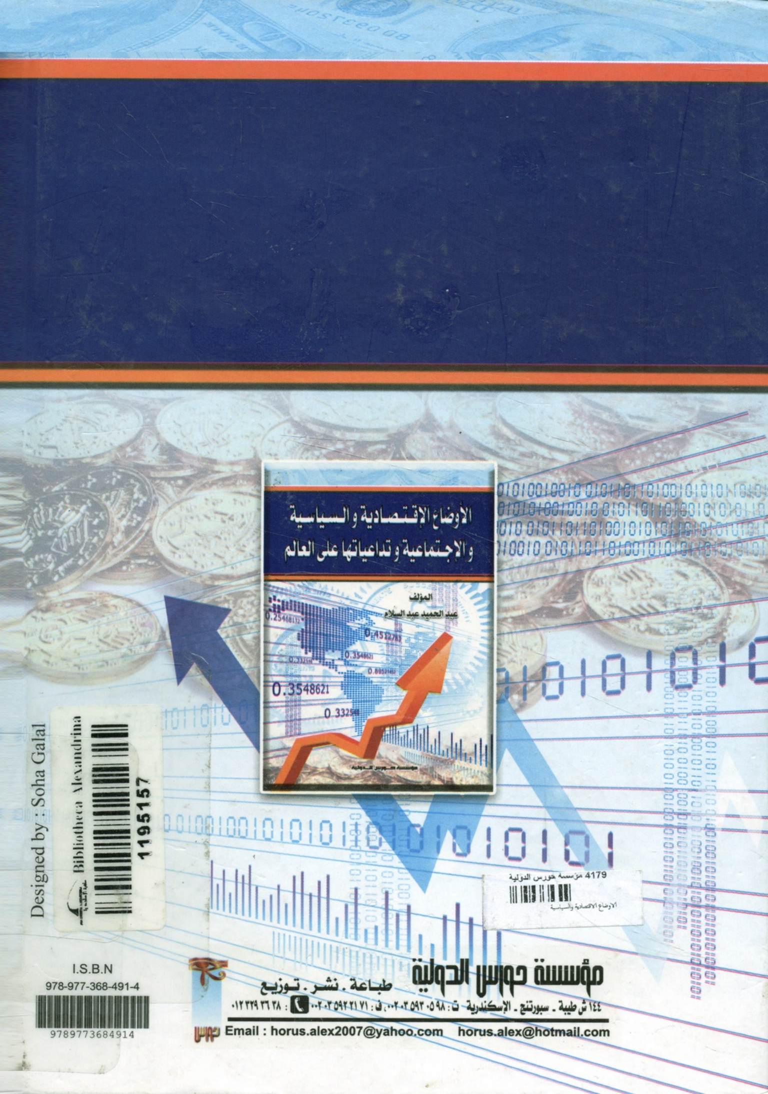
١٩- مجلة السياسه الدوليه – العدد ٩١ يناير ١٩٨٨ .

٢٠- مجلة الأهرام السياسى .

٢١- شبكة المعلومات الدوليه .

المحتويـــــات

م	الموضـــــوع	رقم الصفحة



الأوضاع الاقتصادية والسياسية
والاجتماعية وتداعياتها على العالم
المؤلف
عبد الحميد عبد السلام
Designed by : Soha Galal
Bibliotheca Alexandrina
1195157
4179 مؤسسة حورس الدولية
الاوضاع الاقتصادية والسياسية
I.S.B.N
978-977-368-491-4
9789773684914
مؤسسة حورس الدولية
طباعة . نشر . توزيع
١٤٤ ش طيبة - سبورتنج - الإسكندرية ت : ٠٠٢٠٣٥٩٣٠٥٩٨ ف : ٠٠٢٠٣٥٩٢٢١٧١ : ٠١٢٣٣٩٣٦٣٨
Email : horus.alex2007@yahoo.com horus.alex@hotmail.com